الطفولة والمراهقة

تمهيد

زاد الاهتمام فى السنوات الاخيرة ،وبخاصةمنذ الستينات ، بدراسة مشكلات الطفولة والمراهقة ازدياداً كبيرا تمثل فى كثرة الكتابات التيتتناول المشكلات المتعلقة بنمو الطفل ، والتغيرات التى تطرا على تكوينه الجسمى ، وتطور حياتهالعقلية والانفعالية ،وعمليات التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعى ، التى يخضع لها الاطفالفى مختلف المجتمعات والثقافات . وتعتمد هذه الكتابات في الاغلب على الملاحظة المباشرة الطويلة ،التى تعتبر هى الاداة الرئيسية فىالبحوث الحقلية والتجريبية ، وقد امكن من طريق هذه الوسيلةالتعرف على كثير من التفاصيل والدقائق عن حياة الطفل فى سنى حياته المبكرة ، وفى مرحلةالمراهقة الخطيرة التى كثيرا ما يكون لها آثار عميقة وبعيدة المدى فى حياته وتكوين شخصيتهوقدرته على التلاؤم مع المجتمع الذى يعيش فيه ، والتواؤم مع ثقافة ذلك المجتمع وعاداتهوتقاليده وقيمه ، وتقبل الاوضاع السائدة فيه او التمرد عليه . ولكن على الرغم من كثرة هذهالكتابات التى تتناول جوانب كثيرة من المشكلة فلا تزال هناك نواح كثيرة في حاجة الى مزيد منالدراسة والبحث . ومع ذلك فانه يمكن القول بوجه عام ان الطفولة والمراهقة قد وجدتا منذبداية القرن العشرين ، وبالذات منذ الستينات،

من عناية العلماء في مختلف التخصصات ما لم تجداه من قبل ، وان كان هذا لا يعني انصراف الكتاب والعلماء والفلاسفة والادباء تماما عن الكتابة في الموضوع قبل القرن العشرين ، اذ الواقع ان حياة الطفل بالذات كثيرا ما كانت تثير خيال الكتاب والادباء الذين عالجوها في بعض قصصهم ورواياتهم ، وقدموا لنا صورا دقيقة لما كان يعانيه الاطفال ، وبخاصة في القرن التاسع عشر ، نتيجة للتصنيع والثورة الصناعية ، وماأحدثته من تغيرات في حياة المجتمع في الغرب .

والواقع ان الظروف والاوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي سادت المجتمع الانساني عموما ، والمجتمعات الغربية بوجه خاص ، والتغيرات الهائلة التي طرأت على بناء هذه المجتمعات بعد الثورة الصناعية ، كانت من اهم اسباب زيادة الاهتمام بدراسة مشكلات الطفولة دراسة علمية ، والعمل على تشخيص هذه المشكلات ، ومحاولة ايجاد حلول لها . ذلك أن الانتقال من الحياة التي تعتمد في المحل الاول على الزراعة وعلى الانشطة المتعلقة بها ، الى الاعتماد على الصناعة وما يرتبط بها من زيادة التخصص والمهارة وتقسيم العمل ، والتحركات السكانية نتيجة لجذب المراكز الصناعية والحضرية للايدي العاملة من المناطق الريفية ، وانفصال العامل بالتالي عن عائلته الكبيرة ، وما نجم عن ذلك من تخلخل البناء العائلي التقليدي ، وظهور الاسر الصغيرة او العائلات النواة ـ كما يسميها علماء الاجتماع والانثروبولوجيا ـ التي أصبحت تؤلف الشكل الرئيسي للتنظيم العائلي في المجتمعات الصناعية والمتقدمة عموما ، كل هذا كانت له آثار عميقة على تنشئة الطفل وعلى تغيير النظرة الى الطفولة والمعاملة التي يلقاها الاطفال ، كما كان وراء ذلك الاهتمام الطبيعي والعميق بدراسة مشكلات الطفولة ووضع الطفل ثم المراهق في المجتمع الحديث .

فالمعروف مثلا ان الاوضاع الاقتصادية في المجتمع الصناعي الحديث تستلزم خروج الرجل والمرأة على السواء للعمل . وقد ترتب على ذلك ظهور اوضاع كثيرة كان لها اثرها في حياة الطفل ونوع الرعاية التي يلقاها ، اذ ان انصراف الام ـ ولو جزئيا ـ عن حياة البيت ورعاية الاطفال كان يتطلب ضرورة ايجاد من يحل محلها للقيام بهذه الوظيفة سواء كان ذلك عن طريق الاعتماد على اشخاص آخرين او على مؤسسات متخصصة ، وهي كلها بدائل لم تكن العائلة التقليدية الكبيرة تعرفها ، اذ كان الطفل ينشأ بين افرادها العديدين في وسط صحي يوفر له ما يحتاج اليه من حسن الرعاية والعناية والاهتمام . بل ان هذه الظروف الاقتصادية ذاتها ، واستقلال المرأة اقتصاديا وعدم اعتمادها في حياتها على الرجل كما كان عليه الحال في المجتمع التقليدي ، أدت بالضرورة الى انكماش دور الاب في حيات الاسرة الحديثة ، بحيث لم يعد يؤدي نفس الوظيفة القديمة ـ او على الاقل لم يعد هو المركز الرئيسي الذي تدور حوله حياة الاسرة ، واصبح عدم وجود الاب في المجتمع الصناعي الحديث ظاهرة مألوفة ، بحيث تجد من بعض علماء الاجتماع من يتكلم الآن عما يسمى بالمجتمع الذي لا يعرف نظام الابوة او المجتمع بدون آباء fatherless society ، وهو تعبير يكشف عن كثير من المخاطر والمشكلات التي يعاني منها المجتمع الحديث ، وهي مشكلات تتراوح بين انفصال الزوجين الى الطلاق الى ظهور العلاقات الجنسية

خارج الزواج وانجاب اطفال لا يعرفون لهم آباء شرعيين . ومحصلة هذا كله قلة الرعاية التي يجدها الاطفال فى الاسرة ، وزيادة الانحرافات السلوكية بينهم وبخاصة بين المراهقين ، وان كانت هنالك بغير شك اسباب وعوامل اخرى لهذا السلوك الانحرافى ، الى جانب قلة الاهتمام بالاطفال داخل الاسرة . ولكن الذى يهمنا هنا هو ان انصراف الاسرة عن بذل العناية اللازمة للاطفال ، وظهور مؤسسات متخصصة للقيام بهذه المهمة ، وما ارتبط بهذا كله من مشاكل تعترض حياة الطفل واساليب تربيته كانت كلها من اهم الاسباب التي دفعت الى زيادة الاهتمام بدراسة هذه المشكلات ، او الى اعتبار الطفولة والمراهقة كمشكلة من المشاكل التي يجب على المتخصصين فى العلوم الاجتماعية والسلوكية ان يعطوها ما تستحقه من جهد وعناية .

وليس المقصود بذلك ان الاهتمام بمشكلات الطفولة والمراهقة لم يظهر الا فى القرن العشرين ، اذ الواقع ان حياة الطفل والمراهق كانت تثير دائما قدرا من الاهتمام ، وكل ما نقصده هو ان القرن العشرين شهد تغيرا كبيرا فى نوع الاهتمام نتيجة لتلك التغيرات الاجتماعية والاقتصادية . ولقد تجلى ذلك فى النظريات الكثيرة والآراء الجديدة المتضاربة التي ظهرت بكثرة منذ بداية هذا القرن وهي نظريات وآراء نجد عرضا لها فى الدراسات التي يقدمها لنا الاساتذة الدكتور سيد خيرى والدكتور سيد غنيم والدكتور عبد الرحمن عيسوى ، والتي يعالجون فيها نواحى هامة فى التطور الفيزيقي والعقلي والانفعالى لدى الطفل والمراهق . ولقد كان لعلم النفس والتحليل النفسي اكبر الفضل فى القاء كثير من الاضواء على هذه الجوانب . ولقد دفعت كتابات فرويد وبياجيه Piajet الدراسات السيكولوجية والسيكوتحليلية فى هذا المجال دفعة قوية . بل ان كثيرا من العلماء عكفوا ليس على دراسة الطفولة والمراهقة كمرحلة قائمة بذاتها او كوحدة متمايزة بل على دراسة فترة صغيرة محدودة من هذه المرحلة بقصد التعمق فى اسرارها . فقد زاد الاهتمام مثلا بدراسة التطور العقلي لدى الطفل خلال الشهور الستة الاولى من حياته ، واعتمد هؤلاء العلماء فى ذلك على العاب الطفل باعتبارها تعبيرا رمزيا عن تجاربه وتخيلاته وأحواله الانفعالية . وربما كانت ميلاني كلاين Melanie Klein وهي من تلميذات فرويد – من أهم من عمل فى هذا المجال بقصد الكشف عن التطورات التي يمر بها الطفل فى هذه المرحلة المبكرة من حياته ، ثم عمل ونيكوت Winnicott وهو طبيب اطفال ومحلل نفساني – بعد ذلك على تطوير افكار ميلاني كلاين ، وآرائها واساليبها وطرائقها ، بحيث استطاع ان يتغلغل في عقل الطفل فى شهره السادس ، وذلك على اساس ان هذه المرحلة المبكرة لها اهميتها القصوى فى تكوين الطفل ونموه وتطوره العقلي والجسماني على السواء . فسن الستة شهور تعتبر هي « المرحلة الحاسمة التي يبدأ فيها المخ باستخدام الخلايا العصبية الاضافية التي يحصل عليها فى اثناء نموه والتي رفعت الانسان فوق مرتبة باقي الرئيسيات ، وتصبح حاسة اللمس والمناولة الوسيلة المفضلة لادراك العالم الخارجي . . . وفى تلك المرحلة فقط يبدأ الطفل في ادراك حقيقة وجود عالم خارجي ، وبالتالي عالم داخلي ايضا وهو (الأنا) . اما قبل تلك المرحلة فان معظم المليارين

من الخلايا العصبية للمخ لم تكن قد استخدمت بعد في مجالات التجربة والذاكرة والمنطق ... » وهكذا . (انظر موسوعة الهدف ... ٢ ، صفحة ١٤٧٤ من الترجمة العربية) . وبصرف النظر عن الاهمية العلمية والعملية لمثل هذه المعلومات ، فالمهم هنا هو ان الاهتمام بالطفل وبحياته وتطوره بلغ درجة عالية جدا ، بحيث اصبحت مرحلة الطفولة تقسم الى مراحل فرعية قصيرة وصغيرة يتوفر على دراسة كل منها فريق من العلماء بغية التوصل الى مزيد من المعلومات والتفاصيل الدقيقة ، التي قد يمكن الاستعانة بها في تحديد نوع التربية والطريقة السليمة لمعاملة الطفل وتنشئته اجتماعيا في المجتمع والثقافة اللتين ينتمي اليهما .

• • •

ولقد اسهم علماء الاجتماع بنصيب وافر في دراسة مشكلات الطفولة والمراهقة ، وان كانت معظم دراساتهم تدور بطبيعة الحال حول موضوع التنشئة الاجتماعية ، وبخاصة دور العائلة في هذه العملية المعقدة ، والدور الذي يلعبه الوالدان بالذات في تربية الطفل ، او على الاصح في تطويعه وتشكيله لنمط الحياة في المجتمع الحديث ، والقيم والقواعد التي تحكم سلوك اعضائه . كذلك اهتم البعض منهم بدراسة العلاقة بين نمو شخصية الطفل او المراهق ، واختلاف الادوار التي يضطلع بها ، والاوضاع التي قد تؤدي الى انحرافات السلوك لدى كل منهما . والملاحظ هنا على العموم ان معظم الكتابات السوسيولوجية التي تعالج هذه المسائل متأثرة الى حد كبير بنظريات علم النفس والتحليل النفسي ، وان كان ثمة اتجاه قوي الان الى دراسة التنشئة الاجتماعية على انها عملية تفاعل اجتماعي بكل معاني الكلمة ، اذ يتفاعل فيها الاطفال مع البالغين في العائلة وفي المجتمع ككل وفي كل مناشط الحياة . فهي ليست مجرد عملية تلقين او توجيه وتدريب من البالغين للاطفال الذين كانوا يعتبرون مجرد صفحة بيضاء يمكن للآباء ان يسطروا عليها تعاليمهم وتوجيهاتهم التي يتقبلها الاطفال ويستوعبونها ويتمثلونها ، وبحيث تصبغ شخصياتهم بصبغة معينة محددة . ومع التسليم بان عملية التنشئة تهدف في آخر الامر الى تنمية قوى الطفل وملكاته العقلية ، وتعمل على تلاؤمه مع المجتمع وتوجيه طاقته واستغلالها الى ابعد حد ممكن ، وتنمية خلقه وارادته وشخصيته عموما ، وتعريفه كيف يتقبل عادات المجتمع وانماطه السلوكية واوامره وقوانينه ، فان علماء الاجتماع الان يرون ان هذه العملية لا يمكن ان تؤدي الى ان يفقد الفرد شخصيته وفرديته ، على الاقل لان كل طفل يولد مختلفا عن غيره من الناحية الفيزيقية ، كما يمر بتجارب وخبرات تختلف تماما عن تلك التي يتعرض لها غيره من الاطفال . فكان المسألة ـ في نظر هؤلاء العلماء ـ ليست مجرد عملية صب الاطفال في قالب جامد ، وانما للطفل دوره الايجابي الذي يقوم به في عملية التنشئة ، وهو دور يجب ان يدرس عن طريق مقابلته بدور البالغين والكبار .

وعلى اية حال فانه يمكن القول ان علماء الاجتماع فى مجموعهم يحرصون فى كتاباتهم حول هذا الموضوع على ابراز اثر الظروف والاوضاع الاجتماعية على سلوك الطفل والمراهق ، وتاثرهما باعضاء المجتمع الاخرين ، وتاثيرهما فيهم . ومن هنا كنا نجد معظم الكتابات السوسيولوجية تعالج موضوعات مثل اثر العائلة في الطفل ، واثر المدرسة والعوامل المؤثرة فى سلوكهم كالعنف والتسامح فى التربية ، وذلك الى جانب البحوث « التجريبية » التي تعتمد على ملاحظة الاطفال الذين يخضعون لنوع معين من التنشئة كما هو الحال بالنسبة للتنشئة فى مؤسسات معينة او فى مستعمرات خاصة ، لها نظمها وقواعدها وقوانينها وفلسفاتها المتعلقة بالتربية وهكذا . وقد ادت هذه الدراسات كلها آخر الامر الى ظهور سوسيولوجيا التربية او علم الاجتماع التربوى ، الذى يحتل فى الوقت الراهن مكانة هامة بين فروع علم الاجتماع ، وان لم يحظ بالاهتمام الكافي فى جامعاتنا وبين علمائنا ودارسينا .

• • •

واخيرا فقد افلح علماء الانثروبولوجيا فى ارتياد مجالات جديدة وطريفة فى دراسة مشكلات الطفولة والمراهقة وذلك حين بذلوا كثير امن الجهد والاهتمام فى التطور الاجتماعي للفرد في المجتمعات التقليدية التي كانت تعرف عموما باسم (المجتمعات البدائية) وهي تسمية آخذة الآن فى الاختفاء نظرا لما تحمله من مدلولات تقويمية . ولقد اتجهت الدراسات والبحوث الانثروبولوجية عدة اتجاهات ربما كان اهمها الاتجاه الذى يعنى بدراسة المراحل الاجتماعية التي يمكن التمييز بينها ضمن دورة الحياة بالنسبة للفرد ، وبخاصة فى المجتمعات القبلية التي يعتمد تنظيمها الاجتماعي على عامل السن اعتمادا مباشرا ، بحيث يتوزع جميع اعضاء المجتمع فى فئات متمايزة كل التمايز ، وبحيث تضم كل فئة منها الافراد الذين ينتمون الى مجموعة عمومية واحدة ، ويحتلون بفضل عامل السن مرتبة اجتماعية معينة ، ويمارسون معا نوعا محددا من النشاط الاجتماعي او الاقتصادى او السياسي او الحربي او الديني يتفق مع عمر افرادها ، ومع قدراتهم الفيزيقية وخبراتهم فى شئون الحياة والمجتمع . ويعرف هذا النظام فى الكتابات الانثروبولوجية باسم نظام طبقات العمر ، على اعتبار ان السن هو العامل الرئيسي او حتى العامل الوحيد فى التفاضل او التفاوت الاجتماعي ، وبصرف النظر عن الاختلافات والفوارق الأخرى مثل تفاوت الثروة او غير ذلك . وتعتبر الطفولة والمراهقة فى مثل هذه المجتمعات مرحلة عمرية واجتماعية واحدة ، تتميز بارتباط الطفل والمراهق ارتباطا شديدا بمجتمع النساء ، بحيث لايسمح لأى منهما فى الاغلب بالاختلاط بالرجال البالغين الا بقدر وحساب ، كما ان الطفل او المراهق ينتقل الى مرحلة الشباب والبلوغ التي يمارس اصحابها مهمة الحرب والبطولة والاغارات الا بعد ان يمر بطقوس وشعائر خاصة تختبر فيها قدراته الجسمية على تحمل المشاق والصمود للصعوبات والقدرة على الحرب ، وهي الشعائر المعروفة فى الكتابات الانثروبولوجية باسم

التكريس التي تتميز بما فيها من قسوة وعنف . فبمقتضى هذه الشعائر ينتقل الفرد رسميا من مرحلة الطفولة والمراهقة الى مرحلة الشباب والرجولة المبكرة ، كما يدخل اجتماعيا الى مجتمع الرجال وينفصل عن مجتمع النساء ، ويعتبر لاول مرة عضوا كاملا في المجتمع ككل . وهذا معناه ان مرحلة الطفولة والمراهقة ليست مجرد حالة فيزيقية او فسيولوجية ، وانما هي في المحل الاول مرتبة اجتماعية خاصة اذا عرفنا ان هذه (المرحلة) تضم افرادا تتراوح اعمارهم بين سن الولادة ، وسن الخامسة عشرة او اكثر ما دام هؤلاء الافراد لم يتم تكريسهم . ومن هذه الناحية يعتبرون ـ بصرف النظر عن اعمارهم الفيزيقية التي تقدر بعدد السنين ـ اقرانا وزملاء في الطبقة ، ويعاملون معاملة واحدة متشابهة ، ويحتلون مكانة اجتماعية مجددا مع بعض التمييزات الطفيفة داخل الطبقة لا تؤثر في خصائص النظام كنظام . (انظر في ذلك كله مقالنا عن : « نظام طبقات العمر » ـ مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ١٩٦٢) .

والاتجاه الرئيسي الثاني الذي اتجهت اليه بحوث الانثروبولوجيين في دراسة الطفولة والمراهقة ، وافلحوا في الاسهام فيه اسهاما وافرا هو الدراسات المقارنة التي تعنى بمقارنة العادات والتقاليد المتبعة في معاملة الطفل او المراهق في مختلف الشعوب والثقافات ، وكذلك مقارنة الطقوس المرتبطة بذلك ، واختلاف نظرة المجتمع الى كل منهما ، والمتاعب او المشكلات التي يقابلها كل منهما مع الاهتمام بابراز العلاقة بين المقومات الثقافية وتلك المشكلات .

وربما كانت كتابات العالمة الامريكية مارجريت ميد هي اشهر هذه الاسهامات وان لم تكن اكثرها عمقا او اشدها دلالة . فكتابات ميد ـ كما يقول ايفانز بريتشارد بحق ـ كتابات « انثوية بمعنى الكلمة » فيها « كثير من الجدل والاستطراد اللذين يبلغان حد الثرثرة » ، كما انها تنزع الى « تصوير الاشياء في صورة زاهية خلابة » . ولعل افضل مثال لذلك هو كتابها الشهير عن « البلوغ في مجتمع ساموا Coming of Age in Samoa » الذي ظهر اول مرة عام ١٩٢٩ واعيد نشره عشرات المرات ، وفيه تقارن بين متاعب المراهقة لدى الفتيات في هذا المجتمع (البدائي) وفي المجتمع الامريكي المتقدم الحديث . ويلخص ايفانز بريتشارد الكتاب بقوله ـ وانا انقل هنا عن ترجمتي العربية لكتابه عن « الانثروبولوجيا الاجتماعية » ـ و « الكتاب يهدف في اساسه الى ان يبين ان مشكلات المراهقة ـ وبخاصة عند الفتيات ـ التي تعتبر ظاهرة عامة اساسية في الحياة الامريكية لا توجد في ساموا ، وان ظهورها يلازم نوعا معينا من البيئة الاجتماعية ، بمعنى انها لا تنشأ عن الطبيعة ، وانما تنجم عن القيود التي تفرضها الحضارة الحديثة . وعلى ذلك تشرع الدكتورة ميد في دراسة الاختلافات القائمة بين الظروف التي تصاحب مراهقة الفتاة في كلا المجتمعين . وقد اضطرها ذلك الى ذكر كل ما تعرفه عن الوضع الاجتماعي العام للفتاة الساموية . فهي تتكلم مثلا عن طريقة تنشئتها ونوع الطفولة التي تمر بها والمكانة التي تشغلها في حياة الاسرة والقرية والمجتمع المحلي الكبير ،

كما تتكلم عن علاقاتها الجنسية المتنوعة مع مختلف الشبان . ولكنها تحرص أشد الحرص اثناء ذلك كله على ان تربط هذه المسائل بمشكلة البحث الاساسية لكي تبين مدى تأثير الظروف الاجتماعية فى تشكيل شخصية الفتاة المراهقة ، ونوع رد الفعل الذى يصدر عن هذه الشخصية ازاء التغيرات الفسيولوجية التى يحدثها البلوغ .

والنتيجة التى تنتهى اليها مارجريت ميد من هذه الدراسات هى انه لا توجد فوارق بين الفتاة الامريكية والفتاة الساموية فى عملية المراهقة ذاتها ، وانما تكمن الفوارق والاختلافات فى الاستجابة لها . فالمراهقة فى ساموا تطور رتيب منظم للميول والاهتمامات ومختلف انواع النشاط ، ولا ينجم عنها اى اجهاد او كرب اوازمات ، وبذلك تكون عقول الفتيات بمنأى عن الاهواء المختلفة المتضاربة والصراعات المتعارضة المتباينة ، فلا تراودها التأملات الفلسفية او المطالب الجامحة التى يصعب تحقيقها . والواقع ان الفتاة هناك لا تطمع فى اكثر من ان تعيش لاطول مدة ممكنة قبل زواجها مع اكبر عدد ممكن من العشاق والمحبين ، ثم تتزوج من بعد ذلك فى نفس قريتها لتعيش مع اهلها واقاربها وتنجب عددا كبيرا من الاطفال .

وعلى العكس من ذلك تماما تعانى الفتاة الامريكية المراهقة كثيرا من الارهاصات والتوتر والاجهاد بسبب اختلاف بيئتها الاجتماعية . فماهى اذن الفوارق البارزة الهامة بين الحالتين ؟ تعتقد الدكتورة ميد ان اهم الفوارق يرجع الى انعدام الوجدانات الشخصية والقيم المتصارعة فى ساموا . فالفتاة الساموية لا تهتم لانسان معين او لشىء معين اهتماما بالغا شديد العمق ، كما انها لا تبنى آمالا عريضة على اية علاقة واحدة بالذات . وقد يكون ذلك راجعا الى ان الفتاة لاتنشأ هناك فى محيط العائلة الضيق المحصوره، وانما تجد نفسها تتحرك منذ الصغر فى محيط الاقارب الواسع الرحب ، حيث تتوزع السلطة والمحبة بين عدد كبير من الاشخاص ، ولاتنحصران فى افراد العائلة وحدهم . ولكن الاهم من ذلك هو ان الثقافة السائدة فى ساموا ثقافة متجانسة الى حد بعيد . فهم جميعا يتبعون نفس معايير السلوك ، ويعتنقون نفس المعتقدات الدينية ، ويخضعون لنفس القانون الخلقى . وعلى ذلك فليس هناك اى مجال للمفاضلة او الاختيار مما يقلل فرص النضال والاحتكاك بالآخرين ، ومما يساعد الفتاة المراهقة على تجنب الصراع الداخلي الذى يدور فى النفس عادة اثناء عملية الاختيار بين القيم المختلفة ، وما يترتب على ذلك الصراع من سوء التوافق ومن العصابات . اما الفتاة الامريكية المراهقة فانها على العكس من ذلك تجابه فى بيئتها الاجتماعية انواعا عديدة من القيم الاجتماعية المتنافرة ، مما يضطرها الى المفاضلة والى الاختيار . والاختيار هو مقدمة الصراع والنضال (الطبعة الأولى من الترجمة العربية — منشأة المعارف ١٩٥٨ — صفحات ١٤٣ — ١٤٥) .

والاساس القوى الذى تقوم عليه كل هذه البحوث الحقلية العديدة التى يضطلع بها علماء الانثربولوجيا ويقومون بها فى مجتمعات محددة ومعينة بالذات لدراسة عملية التنشئة الاجتماعية

والثقافية ، والتعرف على أساليب التربية والمشكلات التى يواجهها الطفل والمراهق ، ويعتمدون فى ذلك على الاتصال المباشر والمعيشة لفترة طويلة من الزمن تتجاوز السنة الكاملة فى معظم الاحيان مع استخدام اسلوب الملاحظة المباشرة . فكتابات هؤلاء الباحثين وتقاريرهم هى التى تزود غيرهم من العلماء من أصحاب النظريات بالمعلومات الاساسية التى يقيمون عليها نظرياتهم ويصوغون افكارهم وآراءهم العامة حول المشكلة . . ولذا كانت هذه البحوث والتقارير الحقلية تحتل مكانة خاصة لدى المهتمين بالموضوع .

• • •

كل هذه الدراسات والبحوث والنظريات والاراء المتضاربة تدل على الاهمية البالغة التى تحظى بها الآن مشكلات الطفولة والمراهقة فى مجال العلوم الاجتماعية من ناحية ، كما تعكس من الناحية الاخرى مدى الاهتمام العام ، وبخاصة بين الاباء ، بالتعرف على خير الوسائل التى يمكن اتباعها فى تنشئة الاطفال والمراهقين ، بحيث يتحقق الهدف من التنشئة ، وهو تنمية مدارك الاطفال والمراهقين وقواهم وملكاتهم ، مع الحرص على تحقيق تلاؤمهم مع قيم المجتمع وتقاليده . ومن هنا كان السؤال الملح الذى يواجه العلماء والاباء على السواء الان هو كيف تعامل الاطفال ؟ وما هو الغرض من التربية ؟ وكيف يمكن تحقيق الشخصية السوية ؟ هذه كلها اسئلة لم تكن تتردد فى الاغلب ـ على الاقل بنفس هذه الدرجة من الالحاح ـ فى الماضى . اذ انه على الرغم من كل ما يقال عن الثورة الصناعية والتغيرات التى احدثتها فى المجتمع فقد كانت هناك فى القرن التاسع عشر اوضاع محددة ترسم لكل شخص مكانته ومركزه ودوره وطريقة سلوكه ، سواء ضمن الجماعة التى ينتسب اليها عمريا ، او مع الاجيال السابقة واللاحقة عليه . ولقد كانت العلاقات بين الاباء والابناء بالذات تتصف بالجدية والصراحة التى قد تخفى وراءها كثيرا من الاهتمام والحب الأبوى ، وان لم يكن الاب يهتم باظهار ذلك الحب او التعبير عن عواطفه نحو اولاده ، ويعتبر ذلك نوعا من التدليل والافساد . ولذا كانت وظيفة التنشئة تنحصر فى تشكيل الطفل وتطويعه بحيث يتلاءم مع تلك الاوضاع القائمة . ورغم كل ما يؤخذ على هذه الطريقة من جمود وصرامة فلقد افلحت ـ كما يقول درايتزل Hans Peter Dreitzel فى أن تنجب رجالا ونساء لعبوا دورا هاما فى تاريخ القرن التاسع عشر فى اوروبا . كذلك فانها رغم كل ما يؤخذ عليها كانت تخفى وراءها كثيرا من الاهتمام الحقيقى والحب والتماسك العائلى بحيث كان الطفل يشعر بكثير من الاطمئنان والارتياح والاحساس بالامن ، وهى كلها عناصر يفتقر اليها كثير من الأسر الحديثة فى المجتمعات المتقدمة والصناعية . وهذا لا يعنى بطبيعة الحال انه لم تكن هناك حالات من الانحراف فى السلوك ، اذ لكل عصر ولكل مجتمع اسبابه واوضاعه التى تدفع الى انحراف بعض اعضائه .

هذه الصرامة فى المعاملة يقابلها الآن التسامح والحرية الزائدة التي يلقاها الأطفال والتي تدفع

الكثيرين الى التساؤل الناجم عن الحيرة من اى الاسلوبين فى التربية هو الصحيح والمجدى ، او على الاقل الاكثر جدوى ؟ واين هو الحد الفاصل بين الصرامة الزائدة والحرية الزائدة والذى يمكن ان يؤدى الى خلق الطفل السوى ؟ ومثل هـذه التساؤلات تبين لنا ان موقف الاباء من اطفالهم قد تغير تغيرا جذريا ، وان الاباء لم يعودوا يأخذون اطفالهم على انهم مجرد مسألة مسلم بها او تحصيل حاصل ، وانما على انهم مشكلة تستحق التفكير والاهتمام . ويقول آخر لم تعد الأم او الأب الذى يفشل احد اطفاله فى حياته يكتفي بأن يندب حظه التعس ويشفق على نفسه من سلوك طفله ، بل اصبح بدلا من ذلك يميل الى التعرف على اسباب انحراف الطفل او فشله ، وقد يرد ذلك فى كثير من الاحيان الى نوع المعاملة التى لقيها الطفل . والموقف الصعب الذى يجد البالغون والاطفال على السواء انفسهم فيه الآن هو كيف يمكن التوفيق او الاختيار بين الافكار التقليدية التى نشأت والبالغون يميلون الى فرضها ويؤمنون بجداوها ، وبين النظريات والاتجاهات الحديثة التى تعطى للطفل مكانة واعتبارا لم يكن يتمتع بهما فى الماضي ؟ والمعروف ان التنشئة الاجتماعيه هي بالضرورة – ومهما يقل عن الاتجاهات التقدمية فيها – عملية فيها جانب كبير (رجعى) أو (محافظ) ان صح هذا التعبير لانها – وان كانت تهدف الى خلق الشخصية السوية – فانها تهدف فى الوقت ذاته الى المحافظـة علـى البناء الاجتماعى والثقافى التقليدى حتى يمكن ضمان استمرارية الحياة الاجتماعية عن طريق نقل التراث الاجتماعى والثقافى الى الاجيال التالية . والمعادلة الصعبة هى فى ايجاد وسيلة للتوفيق بين هذين الاتجاهين لضمان الاستمرار مع التجديد ، بحيث يمكن اعداد الطفل لعصر يختلف فى مفاهيمه واتجاهاته وقيمه ونظرته الى الحياة عن العصر الذى يعيش فيه الاباء . ان الوصول الى حل هذه المعادلة الصعبة هو فى الاغلب الوسيلة الفعالة لضمان عدم تمرد الشباب والاجيال التالية ، وهى المشكلة التى تعانى منها المجتمعات الحديثة . ويعرض لنا الاستاذ الدكتور جواد رضا فى دراسته عددا من اللوحات التى تكشف لنا عن كثير من هذه الأمور .

الا ان المشـاهد على العمـوم ان معظم الدراسات التى تعالج هذه المسائل تؤكد موقف الاباء الاكثر تسامحا ازاء الاطفال ، ويعتبرون ذلك موقفا صحيا يقوم على التقدير الصحيح والفهم الصائب لمشكلات الطفولة والمراهقة . كما يكشف عن استعداد الاباء لمراجعة انفسهم ومواقفهم من اطفالهم . وهذا هو ماكنا نقصد اليه حين قلنا ان الاتجاه يزيد الآن نحو عدم اعتبار الاطفال عنصرا سلبيا فى عملية التنشئة ، او انهم يستجيبون دائما للمؤثرات الخارجية التى ترد اليهم مـن البالغين والكبار ، وان الكبار انفسهم ليسوا دائما عوامل ثابتة فى بيئة الطفل الاجتماعية ، ولكنهم خليقون بأن يتغيروا تحت تأثير التحدى الصادر من اطفالهم . ومن الغريب انه حتى عهد قريب جدا لم تكن معظم بحوث التنشئة الاجتماعية تعتبر الاطفال « كائنات سيكولوجية واجتماعية وتاريخية فى ذاتهم » على ما يقول درايزل ، ولم تكن تعتبر الطفولة تصورا او مفهوما متميزا فى ذاته ، وانه لم يساعد على ظهور هذا المفهوم الا انشاء المدارس الحديثة بعد التغيرات الواضحة التى طرأت على بناء المجتمع الحديث . كذلك من الغريب ان نجد انه رغم كل الاهتمام الذى يبديه المجتمع الحديث

بالأطفال والمراهقين ولعمليات التنشئة فان هذاالمجتمع الحديث نفسه يخلق جوا غير ملائم تماما للاطفال بوجه عام ، لدرجة ان الكثيرين من الكتاب يتشككون فيما اذا كانت هذه المرونة او هذا التسامح ازاء الاطفال ناجم حقيقة عن فهم مشاكل الطفولة والرغبة في العمل على حلها ، والايمان بضرورة الاهتمام بمتطلباتها ، أو انه ناجم عن الشعور بالعجز واليأس والاستسلام للاوضاع الراهنة التي لا يجد الآباء والعلماء لها حلا بعد ان فقدت المؤسسات والنظم الاجتماعية التقليدية ، وبخاصة الاسرة ، دورها ووظيفتها في تنشئة الاطفال ، وبعد ان اصبحت المدرسة ذاتها تعاني الكثير من المشكلات ، نظرا لأن المدارس في العادة توجه التلاميذ نحو سياسة تربوية محددة ومرسومة ، بدلا من ان تعمل على الكشف عن القدرات الخاصة بكل طفل وتوجيهها الوجهة الصحيحة للافادة منهم . ان هذا التشكك ومايتعلق به من تساؤلات كثيرة وما يدور حوله من آراء خليق بان يجد من علمائنا ومفكرينا ما يستحقه من عناية ودراسة واهتمام ، حتى يمكن ان نتجنب في اساليب ووسائل تنشئة الاطفال والمراهقين في مجتمعاتنا كثيرا من المشكلات التي يعاني منها الآباء والابناء في المجتمعات الغربية الأكثر تقدما .

* * *

سيد خيري

النمو الجسمي في مرحلتي الطفولة

من الطريف ان نجد أن الاهتمام بدراسة الاطفال وخبراتهم وسلوكهم يعتبر مركز جذب لأشخاص عديدين غير أولئك الذين يرتبطون ارتباطا طبيعيا وثيقا بتربية الطفل ، واهم هؤلاء جميعا الآباء والأمهات، فهم الذين، بحكم حبهم لأطفالهم، يميلون لملاحظتهم في ولع واهتمام عاطفي ، ويتتبعون تطور شخصياتهم ، ويلمحون معالم التغير في كل ظاهرة من ظواهر حياتهم ، يشاركهم في ذلك كل مهتم بعملية التربية والتنشئة لهؤلاء الاطفال كالمدرسين والمدرسات والمربين والمربيات، وغير هؤلاء كثيرون . الا ان هذا الاهتمام الشديد كثيرا ما يجعل ملاحظاتهم ونتائج تتبعهم لما يطرأ على هذه الشخصيات من تغير يشوبها كثير من التحيز والاتجاه الى جانب واحد في احكامهم لما يلاحظونه ، فغالبية الآباء يلاحظون كل ما يؤيد امتياز اطفالهم عقليا ، ويتذكرون في ذلك كل حادثة صغيرة مرت امام اعينهم تسير في هذا الاتجاه ، بل وينحون في تفسيراتهم هذا المنحى ، ولهذا فان الاعتماد على تقارير الآباء والأمهات وذاكرتهم المتعلقة بمراحل النمو التى مر عليها اطفالهم ينبغي لدارس نمو الطفل ان يأخذها بحذر شديد ، وان يجمع ملاحظاته من مصادر

متعددة حتى يستطيع المقابلة بين مختلف الملاحظات والذكريات ويخرج بأكبر قدر من الصحة فيما يتعلق بهذه التغيرات .

اما المتخصصون العلميون ، فانهم يهتمون كذلك بدراسة الاطفال فى فروع كثيرة مختلفة من فروع المعرفة العلمية ، فانهم بالرغم من ان موضوع دراستهم غالبا ما تكون مشتركة موحدة تنحصر فى نمو الطفل وتطوره الا ان كلا منهم ينظر الى هذا النمو من وجهة نظر خاصة ترتبط بناحية تخصصه ، وهذه النظرات المختلفة فى تجمعها تعطى الصورة المتكاملة عن عملية النمو فى شخصية الطفل جسميا ونفسيا من مرحلة ماقبل الميلاد حتى مرحلة النضج التى يستقر فيها النمو ، بل ويذهب الكثيرون الا ان دراسة النمو لا تتوقف عند مرحلة معينة ، فدراسة المسنين مرتع خصيب فى الوقت الحالى للفحوص العلمية الشيقة .

ولعل اهم هؤلاء العلماء اتصالا بموضوع النمو هو التخصص فى علم النفس الارتقائى ، او سيكولوجية التطور Developmental Psychology **او علم نفس الطفل كما يسمى عادة** Child Psychology **وبالرغم** من ان الدراسة العلمية لهذا المتخصص تنصب على متابعة نمو الطفل وتطوره ، الا انه يستمد خبراته وبياناته التى تخدم أغراضه هذه من فروع مختلفة من فروع المعرفة ، ويبدو ذلك طبيعيا اذا تتبعنا المجموعة الهائلة والمتنوعة من العوامل الداخلية والخارجية التى تحدد وتؤثر فى عملية النمو .

فبعض هذه المحددات نستمدها من علم الوراثة العضوية والوظيفية ، وبعضها الآخر نستمدها من علم الطب عندما تتعرض للخصائص المرضية والعوامل المؤثرة على صحة الطفل ونموه الجسمى والوظيفى ، ويدخل فى ذلك علم وظائف الاعضاء Physiology والتشريح Anatomy وعلم الحياة Biology واكثر اتصالا من ذلك فروع علم النفس المختلفة كعلم النفس التجريبى Experimental Psychology وعلم النفس المرضى Psychopathology والصحة النفسية Mental Hygiene والتوجيه التعليمى Educational Guidance وغير ذلك من العلوم المرتبطة ارتباطا وثيقا بعلم النفس كعلم الاجتماع Sociology والانثروبولوجى Anthropology وبوجه خاص التربية .

فدراستنا الحالية لنمو الطفل لايمكن ان تخلو من التعرض لحقائق مختلفة من هذه العلوم التى ذكرناها وغيرها بالقدر الذى يحتاج اليه توضيح معالم هذه الدراسة .

وهذه الفروع المختلفة المرتبطة بدراسة النمو تلقى ضوءا هاما على مايحدث للطفل فى مراحل طفولته المختلفة وقد رأينا ان نبدأ بمرحلة ماقبل الولادة . فحتى عهد حديث كانت دراسة النمو تبدأ من ميلاد الطفل ، اما اليوم فانه من المعترف به ان هناك مظاهر كثيرة على جانب كبير من الاهمية تؤثر فى النمو بعد الميلاد تتم قبل الولادة ولهذا فان تحديد دراستنا فى السنوات التى تلى الميلاد تكون بمثابة مشاهدة رواية تمثيلية من منتصفها أو بعد مرور عدد من فصولها . فاذا بدأنا دراستنا من يوم الميلاد اصبح ما تم قبل ذلك مجهولا لنا تماما ، بالضبط كما يحدث فى حضور الرواية من منتصفها عندما تغيب عنا أشياء كثيرة عن خلفيات الشخصيات التى تقوم

بالأدوار المختلفة ، وانه ليصعب علينا أن نتتبع نموذج النمو والتطور للطفل الا اذا عرفنا الكثير عنه قبل الميلاد . فلهذا أصبحت دراسة نمو الطفل تبدا منذ الحمل وتمتد حتى نهاية مرحلة النضج . ولهذا فان دراسة نمو الطفل ينبغي ان تبدأ من مرحلة ماقبل الميلاد لما لهذا المرحلة من اهمية في توضيح مظاهر ومفاهيم كثيرة في عملية النمو ، علاوة على مساعدة ذلك على ايضاح ما يزود به الطفل عند ولادته من امكانيات جسمية وعقلية يتضمنها مفهوم النمو او التطور، وقد رأينا قبل عرض مراحل النمو المختلفة للطفل ان من واجبنا ان نوضح ما نعنيه بمصطلح النمو ، ونعرفه تعريفا اجرائيا واضحا ، ثم نعرض اهم الطرق العلمية لدراسة هذه النمو .

ولما كانت عملية النمو خلاصة لتفاعل النضج الطبيعي Maturation مع عوامل التدريب والتعليم Learning من البيئة وجدنا من اللازم ايضا توضيح هذا التفاعل بشيء من التفصيل قبل عرض المراحل المختلفة لهذا النمو .

وبالرغم من تداخل هذه المراحل المتدرجة تداخلا كبيرا نظرا لطبيعتها ونظرا لأن النمو في ذاته عملية متكاملة فان الدراسة العلمية للنمو تتطلب تقسيمه الى مراحل متميزة ، ونوضح المعالم الرئيسية لكل مرحلة من هذه المراحل .

ولعل انسب تقسيم لمرحلة الطفولة ينحصر في التمييز بين اربعة مراحل مختلفة :

ا ــ مرحلة ما قبل الميلاد

ب ــ مرحلة الرضاعة

جـ ــ مرحلة الحضانة

د ــ مرحلة الطفولة : المبكرة والمتاخرة

ويمكننا أن نحدد هذه المراحل الاربع باعمار تقريبية متدرجة فنقول ان مرحلة ماقبل الميلاد تتم خلال الشهور التسعة التي يتم فيها نمو الجنين في بطن امه منذ تلقيح البويضة حتى وقت الميلاد . اما مرحلة الرضاعة فتبدا من الميلاد حتى نهاية السنة الاولى تقريبا . واما مرحلة الحضانه فتمتد من السنة الثانية حتى نهاية السنة الثالثة . واما مرحلة الطفولة فتنتهي بمرحلة المراهقة ويمكن ان نحددها بين الثالثة والثانية عشرة تقريبا ، وهناك اختلافات كثيرة وخاصة حول المراحل التي تسبق الطفولة "الاولى(المبكرة) التي تبدا من الثالثة .

والمرحلة الاولى تستمر حوالى ٩ شهور او ٢٨٠ يوما ، وبالرغم من صغر مدتها الا ان النمو فيها يتم بغاية السرعة ، واهم مظهر لهذا النمو هو المظهر الفسيولوجي الذى يتكون خلاله التركيب الجسمي ، اما المرحلة الثانية فهي التي تتضمن انتقال الرضيع الى بيئة مخالفة تماما للبيئة التي نشأ فيها وتعتبر مرحلة ركود في نمو الطفل الرضيع، ووظيفتها احداث عملية التوافق مع جسم الأم الخارجي ، وتستمر فيها عملية النمو راكدة حتى تتم عملية التوافق هذه . ووظيفة مرحلة الحضانة تدرج الطفل من الاعتماد على غيره في قضاء لوازم حياته الى ان يصل

الى القدرة على التحكم فى عضلات جسمه ، فيستطيع ان يأكل بنفسه ويلبس ويتكلم ويلعب ، وتعتبر مرحلة الطفولة امتدادا لذلك ، فالطفل الذى تعلم التحكم فى عضلاته يتعلم هنا السيطرة على بيئته كما يتعلم كيف يتوافق توافقا اجتماعيا ، وهذا يبدأ في سن السادسة تقريبا ، ولهذا يفضل الكثيرون تقسيم هذه الفترة الى فترتين الطفولة الأولى وتنتهى عند السادسة والطفولة المتأخرة وتبدأ بدخول المدرسة . وهاتان المرحلتان هما اللتان يتعلق بهما بحثنا هذا(١) .

● ● ●

المقصود من النمو :

هناك لفظان يستخدمان بمعنى واحد غالبا ، وهما النمو Growth والتطور Development ونرى منذ البداية التفريق بينهما بالرغم من أنه يصعب الفصل بينهما ، فهما يحدثان معا ودائما ولا يمكن ان يحدث أحدهما في غياب الآخر . والنمو يقصد به التغيرات الكمية فى اجزاء ووظائف الكائن الحى كزيادة في الحجم والتركيب وزيادة الوزن وزيادة حجم الجمجمة والتغير في وزن الاعضاء الداخلة فى بنيان جسمه ووزن وحجم المخ ، وقد ينتج عن ذلك زيادة فى قدرة الطفل على التذكر او التفكير او الاستدلال او التعلم او الادراك ، فالطفل ينمو بهذه الصورة عقليا وجسيما .

واما التطور فنقصد به هذا التغير النوعى ، ويمكن أن نعرفه بانه التتابع المستمر المرتب المتسق من التغيرات والتحولات التى تؤدى فى نهايتها الى هدف النضج ، ويقصد باستمرار هذا التتابع فى هذا المجال ان التغيرات تسير فى اتجاه واحد وهو الاتجاه الى الامام لا الى الخلف ، كما ان تعريفا كهذا يفترض ان هناك دائما علاقة بين كل مرحلة والمرحلة او المراحل التى قبلها ، وبالاضافة الى ذلك فان التتابع لا يحدث عن مجرد اضافة بحيث يصبح طول القامة زائدا عن طولها الاصلى ببضعة سنتيمترات ، او يصبح حجم المخ اكبر من حجمه الاصلى بقدر من السنتيمترات المكعبة ، ولكن المفروض فى التطور ما يحدث من تفاعل ، فهو عملية معقدة متكاملة بين مختلف التركيبات والوظائف ، ولهذا فان كل تغير يعتمد على المراحل السابقة وبالتالى يؤثر على المراحل المقبلة . فالنمو اذن عملية ديناميكية تفاعلية متكاملة ، وينتهى النمو بطبيعة الحال بمرحلة النضج الذى يصل فيه التغير التركيبى نهاية مراحله ، وتستطيع الاعضاء المختلفة القيام بوظائفها على الوجه الاكمل بالمستوى الذى تتيحه له خصائص الطفل وقدراته وامكانياته الجسمية والنفسية ، وبالرغم من أن كل مرحلة من مراحل النمو تقرب الشخص من مرحلة النضج الا انها فى حد ذاتها تعتبر فترة كاملة تعطى دليلا على مدى مطابقة سرعة نمو الفرد بالسرعة الطبيعية واقتراب قدرات الشخص وامكانياته الجسمية والعقلية من المعدل او المتوسط المفروض الوصول اليه فى هذا السن المعين فى تلك البيئة التى يعيش فيها ، فالسن الأولى التى تظهر الطفل تعتبر دليلا على دخوله مرحلة مميزة من مراحل النمو فهى تدل على الاقل على انه

---

(١) الارقام بين القوسين تدل على رقم المرجع فى قائمة المراجع فى نهاية البحث .

لم يتأخر في عملية التسنين وأن هذه العملية تسير بتقدم طبيعي في حالات وانه متأخر او متقدم في حالات اخرى .

ان الكائن الحي دائما في تغير مستمر جسميا وعقليا منذ يوم ولادته (او قبله) حتى يوم وفاته . وهذه التغيرات تمر في مراحل مختلفة فقد تكون في بدايتها في أحد الاعمار ، وقد تبلغ اقصاها في اعمار اخرى ، وقد تصل الى نهايتها في اعمار ثالثة .

وهذه التغيرات المختلفة تؤثر على النمو بأساليب مختلفة ويمكن تقسيمها الى اربعة انواع رئيسية :

١ – **التغير في الحجم** : ففي كل عام كلما ينمو الطفل فان ارتفاع قامته ووزنه ومحيط جسمه يزداد عادة . كما أن الاعضاء الداخلية والتركيبات الحشوية تنمو في الحجم لتواجه المطالب المتزايدة للجسم . وليس هذا قاصرا على المظاهر الجسمية بل يلاحظ كذلك في الوظائف العقلية كالمحصول اللغوي وقدراته العقلية المختلفة .

٢ – **التغير في النسب** : لا يمكننا أن نعتبر الطفل رجلا صغيرا كما كان يظن سابقا ، فان ابعاد جسمه تتغير مع زيادة النمو ، فنسبة حجم الجمجمة والبطن والساقين بالنسبة الى حجم الجسم كلها لا تستمر ثابتة اثناء عملية النمو بل تتغير من مرحلة الى اخرى ، وكما ذكرنا في التغير في الحجم فاننا نلاحظ هذا أيضا في الوظائف والعمليات العقلية ، وهذا ما يميز كل مرحلة عن غيرها من مراحل النمو ، فنسبة الخيال والعدوان والانانية مثلا تزداد في مراحل خاصة وتقل في غيرها بالنسبة لسلوك الطفل .

٣ – **اختفاء بعض المعالم العضوية** : كشعر الجسم الرفيع الذي يكسو الجلد في الرضيع ، وشعر الرأس الناعم والاسنان اللبنية وبعض الافعال المنعكسة والمناغاة والصراخ وغير ذلك تعتبر من المظاهر الجسمية التي تختفي لعدم الحاجة اليها كلما ازداد الطفل نموا ، ويتبع ذلك اختفاء بعض المظاهر العقلية والانفعالية كحب التملك والأثرة والزهو بالانتصار وجمع الاشياء والتافهة وغير ذلك وكلها مظاهر لا تثبت مع الطفل بعد ظهورها في مرحلة من مراحل النمو .

٤ – **ظهور بعض المعالم العضوية الجديدة** : وذلك لأن بعض المعالم العضوية أو العقلية قد تظهر نتيجة لعملية التعلم ، كما أن عملية النضج Maturatim تدفع ببعض المؤشرات للظهور كظهور الاسنان الثابتة والمعالم الجنسية الاولية والثانوية ، وفي العمليات العقلية يمكننا أن نذكر حب الاستطلاع والمعرفة والدافع الجنسي والتأمل والتفكير الديني وغير ذلك .

وبوجه عام نقول ان عملية النمو تتضمن عمليتين متضادتين ، اولاهما ينتج عنها اضافة أجزاء ومميزات جديدة ، والثانية تتضمن اختفاء وزوال بعض المعالم القديمة ، وبطبيعة الحال فان عملية الاضافة تزداد اثرا في الاعمار الصغيرة وتبدو اكثر وضوحا ، فهي تساعد على التكوين وملاءمة الصغير للمطالب المتزايدة للحياة المقبلة بينما تزداد عملية الحذف كلما ازداد النمو ودخل الطفل في مراحل جديدة ، ولكن هذا لا يمنع من وجود العمليتين دائما في عملية النمو .

كما ان بعض هذه العمليات تتآزر في وظيفتها وتسير جنبا لجنب في تأدية وظيفة واحدة ، كما يظهر ذلك في تغير الحجم ونسب وابعاد الجسم وازدياد الوزن فانه يكون نتيجة عادة لنمو في العضلات والعظام ، وكما يحدث ذلك التآزر في المظاهر البدنية يبدو ايضا في المظاهر النفسية والعقلية كما يحدث نمو في الذاكرة وفي مستوى الذكاء والقدرة على الاستدلال تبعا لازدياد نمو الطفل .

ان النمو سواء كان جسميا او عقليا لا يسير بطريقة منتظمة فهو يبلغ اقصى سرعة خلال الاشهر التسعة الاولى قبل الميلاد (اثناء الحمل) ، حيث ينمو الجنين من خلية ميكروسكوبية الى طفل يزن ٧ ارطال في المتوسط و ٢٠ بوصة في طول القامة .

وبوجه عام فان النمو تزداد سرعته بدرجة ملحوظة خلال السنوات الاولى من حياة الطفل ، ويبدو ذلك واضحا اذا قارنا بين الطفل الوليد والطفل الذى يصل عمره الى ثلاث سنوات ، فمثلا في هذه المدة نجد ان النمو يكون ملحوظا وواضحا حتى للوالدين اللذين يقضيان مع الطفل طول الوقت ، وهذا الاسراع في النمو الجسمي يصحبه اسراع في النمو العقلي كذلك ، واما في المرحلة التالية التى تبدأ في سن الثالثة وتنتهي في سن السادسة فان النمو فيها يسير بسرعة كذلك ، ولكن هذه السرعة لن تصل الى السرعة السابقة ، وزيادة من ذلك فان سرعة النمو تبطيء اكثر بعد السادسة تدريجيا حتى مرحلة البلوغ ، فالطفل ينمو في هذه المرحلة الا ان نموه هذا لا يقاس بالنمو الذى يحدث في السنوات الثلاث الاولى .

وهذا النمو بوجه عام قد لا يلحظه الطفل نفسه ، بل هذا ما يحدث عادة حيث لا ينتبه الطفل لما يحدث بجسمه من تغير الا اذا نبهه اليه غيره او سمع تعليقا عليه ، اما الاطفال الاكبر سنا فانهم يكونون اكثر وعيا لما يحدث في اجسامهم من تغيرات وخاصة في المراحل التى تحدث تغيرات وظيفية كمرحلة المراهقة .

ان معرفتنا للنموذج الذى يتبعه النمو البشرى يمكننا اولا ان نعرف ما نتوقعه من اطفالنا في السنوات المختلفة ، فدراسة النمو وملاحظته يؤدى الى تفهم طبيعة المرحلة ومايحدث فيها من نمو جسمي وعقلى ، وعن طريق التنبؤ ما دام الطفل ينمو باسلوب عادى بوجه عام يستطيع المربى ان يعرف من قبل ما سيحدث له جسميا وعقليا فيعد العدة لاستقبال هذا التغير المنتظر . وبذلك لا نتطلب من طفلنا اكثر مما يستطيع اداءه جسميا او عقليا ، ولنضرب مثلا على ذلك ان استخدام القلم والقبض عليه باصابع اليد بطريقة يسهل معها توجيهه الوجهة التى يريدها الطفل تتطلب ان يكون الطفل قد مر بمرحلة معينة يستطيع معها التحكم في اطراف الاصابع واحداث التآزر بين ثنى وتحريك اصابع اليد المختلفة ، وقد تجبر الطفل على هذه العملية قبل اوانها ، ونطالبه بالتحكم فيها وتتهمه بالتأخر اذا لم يستطع اتقانها ، وبالمثل فان ما يحدث من اجبار الطفل احيانا على التحكم في عمليات النظافة في التبول والتبرز قبل المرحلة العادية

الطبيعية فيه اشعار للطفل بعدم كفاءته للقيام بما كان يجب عليه القيام به مما يسبب له مشكلات انفعالية في المستقبل ، والطفل في هذه المرحلة ينظر الى اوامر وتوجيهات والديه على انها الاوامر الطبيعية للطفل العادي في نفس سنه وبذلك يحرم الطفل دائما من الحوافز والمشجعات التي تعينه على تحقيق ثمرات نموه . وقد يؤدي هذا به الى مقاومة دائمة لكل من يقلل من شان قدراته وامكاناته الطبيعية .

والقيمة التشخيصية الاخرى لدراسة مراحل النمو ومعدلاته تنحصر في وضع معايير المعدلات التي يصل اليها الطفل العادي في مرحلة من المراحل ، فنحن نعلم مثلا أن التسنين الاول يبدأ عند الطفل العادي في مرحلة معينة ، وان المشي او الحبو يبدأ في المتوسط في سن متوسط محدد ، فاذا تأخر الطفل في عملية من عمليات النمو عما يحدث عادة في الطفل العادي كان هذا نذيرا بتأخر جسمي او عقلي لدى الطفل ، واستوجب هذا عناية خاصة منا بالطفل ، ومن الطبيعي ان هذا المعدل بالرغم من انه عام الا انه يتغير نسبيا بين الجنسين ، كما يتغير في كل جنس منهما من مكان الى آخر ، فنعلم مثلا ان مرحلة المراهقة تبدأ في بعض المناطق مبكرة عن غيرها ، ذلك لأن المعروف أن النمو دالة السن اى ان (ن = (د) س) وليس معنى ذلك انه يتوقف على السن وحده بل يتوقف على عوامل وراثية وبيئية كثيرة يمكن تحديدها الى حد كبير كالمرض والتغذية والعوامل النفسية وغير ذلك . فاذا حدث لدى الطفل ما قد ادى الى تأخر نموه في مرحلة معينة كانت مهمتنا بعد ذلك مهمة تشخيصية ، حيث يضع الشخص امام عينيه جميع العوامل المحتملة ، وبطريق الحذف يستطيع ان يحدد نفسه في عدد من العوامل القليلة ، وبالرغم من ان هذه العملية التشخيصية تبدو سهلة هينة الا انها في حقيقتها عملية شاقة ، حيث لا تتوفر لدى الاخصائي النفسي عادة المعلومات الكافية التي تساعد على رسم الصورة الكاملة ، ويصبح واجبه أولا تحديد الناقص ثم كيف يملأ هذه الفراغات الناقصة ، ففي بعض الاحيان لا يساعده التقدم العلمي الحالي لاكتشاف هذه الفجوات ، ويكون السبيل الوحيد الى ذلك هو استخدام البحث العلمي ، وقد يتطرق هذا البحث العلمي الى فروع كثيرة غير علم النفس كالطب والتربية والانثروبولوجي والاجتماع مثلا ، فمن علم الانثروبولوجيا عرفنا الكثير عن اثر نموذج التدريب في الطفولة على سرعة النمو وطبيعته ، وقد امدنا علم الاجتماع بحقائق كثيرة عن العلاقة بين حجم الاسرة والعلاقات العائلية وخاصة بين الأخوة مما يؤثر على النمو نفسه ، ولما كانت التغيرات الجسمية والنفسية التي تحدث خلال فترات النمو ترتبط ارتباطا وثيقا بالتغيرات العضوية والوظيفية كان من اللازم دائما ان نلجأ الى الطب وعلم وظائف الاعضاء في بحوثنا عن النمو ومسببات سرعته ، أما التربية فهي التي تتيح الفرصة لعامل النضج الوظيفي والعضوي لان يسير في مجراه الطبيعي ، ويمكننا ان نقتبس هنا المعايير الشائعة الاستخدام وهي توضح الامكانيات التي يستطيع الطفل في كل مرحلة القيام بها .

اولا ـ مرحلة الحضانة Infancy والطفولة الاولى Early Childhood (من الميلاد حتى ٦ سنوات) .

القدرة على المشى

القدرة على تناول الاكولات الصلبة

القدرة على الكلام

القدرة على التحكم فى التخلص من فضلات الجسم

ادراك الفروق الجنسية

احراز الاستقرار الفسيولوجى

تكوين المفاهيم البسيطة عن الحقائق الاجتماعية

القدرة على ادراك علاقته انفعاليا بوالديه واخوته وباقى افراد مجتمعه .

القدرة على التمييز بين الصواب والخطا وظهور ما يمكن ان نطلق عليه الضمير .

ثانيا ـ الطفولة المتاخرة (٦ـ١٢ سنة) Late Childhood

اكتساب المهارات اللازمة للالعاب العادية

بناء اتجاهات عامة نحو نفسه باعتباره كائنا ناميا

تعلم التصرف مع زملائه من نفس عمره .

ادراك دوره كشخص مذكر او مؤنث .

تنمية المهارات الاساسية للقراءة والكتابة والحساب .

تنمية المفاهيم اللازمة للحياة اليومية .

تنمية الضمير الاخلاقى وادراك مجموعة القيم الاساسية .

تحقيق الاستقلال الذاتى .

تكوين اتجاهات نحو الجماعات والمؤسسات الاجتماعية (٢) .

وقد ذكرنا ان هذه المعايير بغض النظر عن الفروق البيئية والفردية البسيطة نسبيا فهى واحدة وثابتة لجميع الاطفال فى كل سن ، وبهذا نستطيع ان نكتشف الانحراف فى كل طفل عن هذا المعيار، والبحث بالطرق العلمية عن الجوانب التى ادت الى هذا الانحراف ، ونعمل على علاجه سواء من الناحية الجسمية أو الانفعالية او الاجتماعية . وينبغى ان ندرك ان هذه المظاهر المختلفة فى كل مرحلة مرتبطة متشابكة بحيث لا يتسنى لنا ان نعزل مظاهر النمو العضوى او الجسمى عن الانفعالى أو الاجتماعى ، ولنضرب مثلا بسيطا على ذلك : لنفرض ان الطفل كان

حجمه فى سن معين زائدا عن المعدل بحيث يبدو اكبر من سنه فان مجرد كبر حجم جسمه هذا يجعله يعانى من مشكلات كثيرة انفعالية واجتماعية فهو لا يستطيع ان يتكيف بسهولة مع الاطفال الذين فى سنه لانهم يعتبرونه اكبر منهم ، ويجد هو نفسه حرجا في اللعب معهم، كما انه لا يستطيع ان يتكيف بسهولة مع الاطفال الذين يناسبونه فى الحجم ، ذلك لانهم سيكونون اكبر سنا ولهم ما يناسب هذا السن الكبير من القدرات والميول والاهتمامات ، وعده بطبيعة الحال لابد وان تختلف عن خصائصه النفسية والاجتماعية ، مما قد يدفع به الى الميل للعزلة وتجنب الآخرين ، والسبب هنا مشكلة جسمية غاية فى البساطة كما تبدو .

• • •

الدراسة العلمية للنمو :

ان بداية الاهتمام بدراسة الطفل لم تأت من اهتمام علماء النفس بالطفل نفسه بل من اهتمامهم بطريقة تربيته ومعاملته المعاملة المناسبة له وتتبع ما يظهر عليه من تقدم او تأخر لجعل طرق تربيته تتمشى مع ما يظهر عليه من هذه المظاهر .

ومن أول المصلحين التربويين كان John Amos Comenius الذى عاش في القرن السابع عشر والذى كان ينادى دائما بدراسة الطفل كما هو لا على اعتبار انه رجل صغير وقد كتب كتابين أولهما المدرسة فى مرحلة الحضانة School of Infancy الذى نشر في سنة ١٦٢٨ الذى وصف فيه نمو الطفل حتى السادسة من عمره .

وبعد كومنيس ظهر اتجاهان مختلفان فى دراسة الطفل · الاتجاه الاول كان متميزا بالمعالجات الفلسفية للتربية ، بينما كان الثانى مباشرا في دراسة الطفل عن طريق الملاحظة . ويمثل الاتجاه الاول لوك Loke فى انجلترا وروسو Rousseau فى فرنسا ، وبستالوزى Pestalozzi فى سويسرا ،وهربارت وفروبل فى المانيا . وقد كان الاتجاه الثانى اكثر فائدة فى دراسة النمو ، ولعل اول خيط في هذا الاتجاه ظهر فى سنة ١٧٧٤ وتمثل في مذكرات بستالوزى عن طفلة في سن الثالثة والنصف ، وبعد ذلك فى ملاحظات تايدمان Tidemann التى دونها عن أطفاله ،كما كانت ملاحظات Millicent Skinn التى ظهرت سنة ١٩٠٠ عن نمو طفلة ابنة اختها خلال السنة الاولى من عمرها طريفة للغاية .

وببداية الدراسة العلمية للطفل التى قام بها Stanley Hall في جامعة كلارك Clark فى سنة ١٨٩١ اتجهت الدراسات بعد ذلك الاتجاه العلمى ، واتخذت الاسلوب العلمى المبنى على الملاحظة الدقيقة المضبوطة ضبطا علميا ، واصبح الاهتمام الاساسى هو دراسة الطفل ذاته فى اعماره المختلفة وفى مواقفه المتباينة .

ومن ذلك يتضح ان دراسة وتتبع نمو الطفل قد اتخذ اهدافا متعددة ، فبينما كانت الدراسة في أولها تهدف الى النهوض بأساليب تربية الطفل انحرف التركيز الى الاهتمام بالطفل

قبل مرحلة المدرسة بهدف الوصول بتدريبه على العمليات الجسمية والعضوية البسيطة الى اقصى ما تتيحه وسائل التدريب ، ثم تركزت الدراسة بعد ذلك في معرفة الامكانيات الطبيعية (الفطرية) التي يزود بها الطفل في مراحله الاولى بحكم فطرته وطبيعته ، حتى يمكن معرفة ما يمكننا بعد ذلك اكسابه من مهارات والى اى حد نسير معه في عملية التدريب . كما ان من بين الاهداف الرئيسية التي اتخذتها دراسة الاطفال الصغار اكتشاف مدى صدق بعض النظريات السيكولوجية التي ظهرت في هذا الوقت كنظريات Watson المتعلقة بالانفعالات الفطرية الثلاثة ، او باكتساب الانفعالات عن طريق الاشتراط ، وغير ذلك من الجوانب العقلية من شخصية الطفل ، كثبات معامل الذكاء والعلاقة بين ذكاء الطفل وذكاء والديه ، والعلاقة بين ذكائه ومهنة الوالد وهكذا(٢) .

• • •

طرق دراسة نمو الطفل :

مما سبق يتضح ان دراسة نمو الطفل تنحصر في :

١ ـ الملاحظة الحالية لسلوك طفل معين في مرحلة معينة ، وقد تتسع هذه الطريقة فتتضمن ملاحظة عدة اطفال في نفس المرحلة من العمر ، والخروج بسلوك متوسط تتميز به هذه المرحلة سواء كان ذلك في الجوانب الحسية الحركية ام في النواحي الوظيفية العقلية ام في النواحي الانفعالية .

٢ ـ استرجاع نتائج ملاحظات سابقة Retrospective Reports لطفل معين ، والحصول من هذه التقارير على مميزات كل مرحلة مر عليها الطفل .

٣ ـ الاستجابات التي يحصل عليها الباحث من استبيان يملاه الوالد او الوالدة او الاخوة او الافراد الذين يحتكون بالطفل غالبا كالمربية او احدى القريبات .

وسواء استخدم الباحث وسيلة او غيرها من هذه الوسائل فان دراسته لابد ان تكون واحدة من نوعين :

ا ـ الدراسة المستعرضة Cross-Sectional حيث يضم الباحث عدة دراسات تخصص كل منها في جانب معين من جوانب الشخصية ونخرج من هذه الدراسات بمميزات مرحلة من المراحل ، تضم الجوانب الجسمية ـ الحركية والجوانب الوظيفية والنمو الانفعالي ومختلف مظاهر النمو ، ويتكرر ذلك في كل مرحلة ، وبذلك يخرج الباحث بصور متتابعة لشخصية الطفل ، والمهم في هذه البحوث ان تكون العينات التي تدرس عينات ممثلة تمثيلا احصائيا صادقا لمجتمع الدراسة ، وبجمع نتائج هذه الدراسات التي اجريت على عينات مختلفة يمكننا ان نتخلص من الآثار البيئية بقدر الامكان في المجتمع الواحد .

وبالرغم من المزايا العديدة لهذا النوع من الدراسات ، واتباعها المنهج العلمي السليم بقدر الامكان الا ان لها مثالب لا يمكن ان نغفلها ، فهي لا تعطينا الا صورة تقريبية للنمو وتتابعه، ولا يمكن ان نصل بها الى صورة دقيقة للنمو في بيئة محددة ، فاذا اردنا ان ندرس النمو الذى يطرأ على سن الرابعة عشرة مثلا فلابد ان تتضمن العينات الأولاد والبنات في أماكن مختلفة قد يختلف فيها النمو الجنسي والعضوي مع مايتبع ذلك من تغيرات نفسية ، والنتائج التى تحصل عليها في هذه الحالة لا تنطبق على نتائج دراسة النمو لهذه المرحلة في مكان معين ولجنس معين فهي لا تأخذ في اعتبارها الاختلافات البيئية التي تحدث خلال حياة الفرد الواحد من مرحلة لمرحلة إخرى .

كما انها لا تدلنا على سرعة التغير في مهارة معينة من مهارات الشخصية ، ولنأخذ مثلا مهارة استخدام اطراف الاصابع وتطور هذه المهارة من الميلاد حتى نهاية السنة السادسة فان الدراسة المستعرضة لا تصل في تفاصيلها والدقة في دراستها الى تتبع مظهر دقيق من مظاهر التغير ، كما ان هذه الدراسة لا تدلنا على الوقت الذى يزداد فيه تطور هذه المهارة والفترة التى تبطىء فيها .

ب ـ الدراسة الطولية Longitudenal وتتضمن هذه الدراسة فحص مجموعة من الاطفال عدة فحوص في فترات مختلفة متتابعة هي اقسام فترة الدراسة التى يخططها الباحث لنفسه قبل بحثه ، وهذه الدراسة اذا توخت الدقة كانت حريصة على الحصول على نفس أفراد العينة من الاطفال خلال نموهم . ولكن الباحث كثيرا ما تضطره ظروف بحثه الى التنازل من هذا الاشتراط فيأخذ عينات مختلفة في المراحل المختلفة في نفس الوقت الذى يجرى فيه البحث مفترضا في ذلك افتراضا فيه مغالطة كبيرة وهى ان العينات المختلفة تعادل في خصائصها نفس العينة الاولى عندما تصل الى نفس سنها ونفس مرحلة العمر التى تمر بها الآن ، وبذلك يتغلب الباحث على عامل الوقت الطويل الذى كان يمكن ان تستغرقه الدراسة الطولية لو سارت كما يجب ، وتضمنت الدراسة نفس العينة في مختلف اعمارها ، وفي هذه الحالة تستغرق الدراسة عشرات السنوات ، وعلاوة على ذلك فان الباحث لا يضمن بقاء أفراد العينة تحت سيطرته وملاحظته المضبوطة دون تغير حتى في حالتهم الدافعية وتقبلهم لوضعهم موضع الدراسة طول هذه الفترة .

ولكن هذه الدراسة بالرغم من الصعوبات الآنفة تساعد الباحث على دراسة التغير في ظاهرة أو وظيفة معينة مهما كانت دقتها خلال فترة النمو ، ولهذا فنحن نفضلها وسنستخدمها في هذا البحث ، ويعتقد كثير من الباحثين النفسيين ان هذه الطريقة هى المسؤلة عن وجود فجوات في معرفتنا عن النمو في الوظائف المختلفة في مختلف المراحل ، لان الباحث عادة لا يستطيع ان يتتبع النمو خلال كل فترة صغيرة من فترات النمو بل يأخذ دراسته في فترات زمنية لابد ان يفصل بينها فترات مهما كانت صغيرة ، هي التى تخرج عن الدراسة ، وتظل هذه الفترة مجهولة مع ما قد يصاحبها من تغيرات قد تكون حاسمة في دراسات معينة .

وبالرغم من ان هاتين الطريقتين هما الطريقتان الرئيسيتان في دراسة النمو فان كلا منهما قد تتخذ الاساليب العلمية المناسبة للدراسة ، ومن بين هذه الاساليب العلمية : التجريب عن طريق التحكم فى العوامل المؤثرة ، وتثبيت بعض العوامل وتغير غيرها ، وطريقة التجريب على الحيوان على اساس ما بين نمو الطفل الادمى والطفل الحيوان من عوامل متشابهة ، او الدراسة المقارنة بين الانسان والحيوان فى مرحلة معينة من مراحل النمو ، كما يتبع بعض الدارسين طريقة عزل فرد او افراد من العينة للتخلص من بعض العوامل البيئية والاجتماعية ، وهذه تتبع بدرجة اكثر مع الحيوان لصعوبة تطبيقها على الانسان . ومهما كان اسلوب الدراسة فيجب الا نسقط من اعتبارنا الفروق الواسعة بين تغير الانسان والحيوان خلال انتقالهما من مرحلة الى اخرى ، وما قد يتخلل هذا التغير من اختلاف فى النضج العضوى والبيولوجى ، وفرص التدريب خلال الحياة وهذا الموضوع هو الذى سنعالجه في النقطة الآتية :

• • •

النضج والتدريب Maturation and Learning (training)

قد نستنتج مما ذكر من الاهمية الكبرى للنضج ، الذى يتضمن ظهور نماذج سلوكية على الطفل مهما كان اسلوب التدريب الذى يتلقاه من البيئة ، ان واجب الوالدين لا يزيد عن انتظار حدوث عملية النضج كى تتم فى مجراها الطبيعى دون ان تتدخل فى استعجالها او تحويلها ، والواقع يختلف عن ذلك كثيرا فالعوامل البيئية والتدريب الذى يتلقاه الطفل الصغير من بيئته يلعب دورا هاما في عملية النمو فالعمليتان تسيران معا ، ولكن يمكن تمييز احداهما عن الاخرى ، وعلى المربى فعلا ان يميز بين هاتين العمليتين ، فزارع النبات لابد ان يميز ما اذا كان سبب رداءة النبات راجعا الى ضعف فى البذره اوقلة الرعاية وسوء الظروف البيئية حتى يستطيع تحسين الناتج فى المستقبل . ولا يكفى الآن ان نسلم بان العمليتين تتفاعلان فى عملية النمو بحيث نستطيع ان نرجع كل مظهر من مظاهر النمو اليهما معا ، ولكن الاهم من ذلك ان نحدد طبيعة عملهما والى اى حد يؤثر كل منهما فى نمو الطفل .

ويجدر بنا بادىء ذى بدء ان نبين ان عملهما لا يكون على صورة الاضافة بل التفاعل التام ، بمعنى اننا لانستطيع ان نقول ان النمو = النضج + التدريب ولكن الأصح ان نقول ان النمو = النضج × التدريب ، وذلك لانه اذا انعدم احد الاثنين فان الناتج ينعدم تماما ويختفى النمو .

فالطفل الرضيع يكون لديه الطاقة الطبيعية لان يحبو على الارض فى وقت معين ، ولكن عملية الحبو فى هذا الوقت لن تتم بنجاح الا ان وجد الطفل امامه فسحة من ارض وكانت لديه حرية الحركة فى وقت من اوقات نموه ، والطفل تكون لديه القابلية في وقت معين لينطق ببعض حروف ويستخدم حنجرته فى اظهار الاصوات ، ولكنه يحتاج في هذا الوقت الى عملية التشجيع

والتدريب من المحيطين به حتى تتم عملية الكلام والتحدث بطريقة سلسة وفق تيارها الطبيعي . ويمكننا ان نلخص هنا القواعد التي يتم عليها التفاعل بين العمليتين فيما يلي :

(١) ان التدريب الذي يلقاه الطفل من البيئة التي تحيط به هي الوسط الذي تعمل فيه الامكانيات الطبيعية التي يزود بها الطفل والتي تنضج لديه في سن معين .

(٢) كلما كانت الظروف المادية التي تحيط بعملية التدريب مناسبة أسرع النمو وكانت نتائجه اكثر ضبطا واتقانا .

(٣) بالرغم من ان عملية النضج تتم طبيعيا فان عوامل التدريب قد تعطل من اثر هذه العملية .

ولكن هذا التعطيل غالبا ما يكون محدود التاثير وكامنا ، بحيث اذا اعطيته الظروف المناسبة عادت سرعة عملية النضج الى طبيعتها ، بل قد تعوض الفترة التي ادت الى تعطيلها من عدم اتاحة الظروف المناسبة .

ولقد لخص جيزيل Gesell هذه القواعد في جملة واحدة حيث يقول(٤) :

« ان النمو الداخلي هبة من الطبيعة ، فنحن يتسنى لنا ان توجهه ولكننا لا نستطيع ان نخلقه . كما اننا لا نستطيع ان نمنعه باية قوة بيئية » . ومعنى هذا ان عملية التدريب وماتحدثه من توافق انما هي محدودة بالخصائص الذاتية والداخلية للكائن الحي الذي ينمو . وينبغي مراعاة هذا فنيا في عمليات التربية والتدريب والتوجيه التعليمي ، حيث ان قدرا كبيرا من الافساد لطبيعة الطفل تحدث عندما تدفع بالطفل دفعا لعملية لم يستعد لها ولا تناسب خصائص نموه وامكاناته النفسية في هذه المرحلة التي يمر بها ، وهذا ما اوضحه جيزيل في تجاربه العديدة على الاطفال العاديين والتوائم . والقدرات الجسمية الحركية تخضع لهذا التفاعل بين النضج والتدريب ، فبالرغم من ان الاطفال في بعض البلاد كانوا يقيدون في حركاتهم برباط محكم اثناء فترات حياتهم الاولى الا انهم يلحقون بغيرهم من الاطفال الآخرين عندما تترك لهم فرصة الحركة العادية .

واذا قلنا ان التدريب يتيح للامكانيات الطبيعية الفرصة لان تعمل في اعلى حدودها فاننا نفترض عادة وجود حد اعلى لكل وظيفة من وظائف النمو يمكن ان تصل اليه ، ولكن هذا افتراض فقط . ولكننا لابد وان نعترف بان التدريب له اثره الفعال في نتائج عوامل النضج، فالاطفال الذين يربون في مؤسسات في سنواتهم الاولى يظهر تأخرهم عندما تحل مرحلة انطلاق القدرة على الكلام حيث يبدو تاخرهم في هذه المهارة عن الأطفال العاديين بدرجة ملحوظة الى ان يسير تفاعلهم الاجتماعي سيرا عاديا فتتحسن قدرتهم على التعبير والانطلاق اللغوي والى ان يستردوا امكانياتهم الطبيعية في ذلك .

ولعل النقطة الأساسية في عملية التفاعل بين التدريب والنمو تنحصر في عملية التوقيت ، فالتدريب لا يجدى اذا بذل في مرحلة سابقة على مراحل النضج . فالامكانيات الفسيولوجية

ينبغي ان تكون معدة قبل ان تظهر القدرة العقلية ، ومعنى هذا انه بالرغم من ان الوظيفة والتكوين الجبلي يعملان جنبا لجنب وفي تفاعل تام الا ان التكوين الجبلي ينبغي أن يسبق الوظيفة ، وهذا ينطبق على المهارات الحركية ، والمهارات العقلية والسلوك الجنسي على حد سواء . فالاطفال الصغار لا يمكن أن يكتسبوا مهارة مبينة على فصل متعكس شرطي الا اذا كانت مرحلة النضج في الجهاز العصبي مهيأة لذلك مهما اكسبناهم من تدريب ، وقدرة الرضيع على قبض الاشياء بيديه لا يجدي معها التدريب قبل أن يكون هو معدا لذلك .

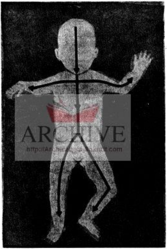
ولعل الصعوبة تنحصر في تحديد السن المناسب تماما بوجه عام في جميع الاطفال في سن معينة لكي يجرى التدريب معهم ، وذلك لسببين : السبب الاول هو اننا لم نستطع حتى الآن الوصول الى تحديد علمي للسن الذي يتم فيه نضج الوظائف الجسمية والعقلية وذلك لوجود الاختلافات الواسعة والفروق الفردية والبيئية بين الأطفال ، وثانيا بسبب الافكار غير الصحيحة التي سادت تربية الطفل فترة من الزمن والتي لازالت مؤثرة على المربين ، ومؤداها أن كل طفل ينبغي ان يكون قادرا على التعلم اذا دخل المدرسة او اتيحت له فرصة التدريب المثمر. والواقع ان هذا يتوقف على امور ثلاثة :

(١) اهتمام الطفل بالتعليم واحراز التقدم مهما كان صغيرا .

(٢) مدى بقاء هذا الاهتمام ودوامه لدى الطفل .

(٣) مدى التقدم الذي يحرز نتيجة التدريب والتعلم ، وهذه العوامل ينبغي أن تكون متوفرة جميعا عندما تحل مرحلة الوصول الى النضج في المهارة التي يقوم المربي بتدريبها لدى الطفل .

وبالرغم من الأثر الواضح لتفاعل التدريب مع النضج فان النمو عادة يتخذ نموذجا عاما في تقدمه مع وجود الفروق الفردية التي اوضحناها . والمراحل التي يمر بها النمو في جميع الاطفال لا تختلف كثيرا من طفل الى طفل في بيئة معينة . ويكون اثر هذا التفاعل في حدود السياق الذي تشترك فيه جميع الاطفال في معالمه . فالنمو مثلا يتنقل من الخصائص العامة الى الخاصة ، فالدراسات العلمية قد اوضحت ان الطفل الصغير يتعلم اولا الكلمات العامة قبل الكلمات الخاصة ، والجنين قبل الولادة مثلا يحرك جسمه كله اولا قبل أن يستطيع ان يحدث استجابات محددة ، وحتى في الجانب الانفعالي : فان انفعالات الطفل الصغير تبدأ عامة ثم تتميز بعد ذلك الى انفعالات محددة وهكذا . كما ان النمو يبدأ بالاجزاء القريبة اولا ثم يتدرج الى الأجزاء البعيدة وهذا ما يطلق عليه Propimodistal Law ويمكن ان تطلق عليه القانون التقاربي اي يبدأ مثلا من المحور المركزي للجسم الى الاطراف البعيدة ، وينطبق هذا على النمو قبل الميلاد حيث ينمو الراس والجذع قبل ان تظهر مباديء الاطراف وحتى في الناحية الوظيفية فان الطفل يستخدم ذراعيه جيدا قبل ان يستخدم يديه ، ويستخدم يديه قبل أن يستخدم اصابعه ويسيطر على حركاتها .



شكل (١) قوانين اتجاه النمو ، ماخوذة من (١٧)

ولعل ظهور الاسنان دليل آخر على ثبوت نمط التتابع والسياق في النمو لدى الاطفال ، فبوجه عام تظهر الاسنان السفلى قبل العليا والقواطع قبل الاضراس وبوجه عام نستطيع ان نقول ان الاسنان التي تظهر اولا للطفل هي اولى الاسنان التي تستبدل باسنان دائمة وهكذا. وهذا ما يجعلنا نستطيع ان نرتب التطور السلوكي في مراحل عامة على النحو الآتي :

من ٤ اسابيع الى ١٦ اسبوعا يستطيع الوضيع السيطرة على عضلاته الحركية .

من ١٦ الى ٢٨ اسبوعا يستطيع الرضيع السيطرة على عضلاته التي تحمل راسه وتحرك ذراعه ، وهذا ما يجعله يبدأ في محاولة الوصول الى الاشياء البعيدة عن جسمه .

من ٢٨ الى ٤٠ اسبوعا يسيطر على جذعه ويديه ، وهذا يمكنه من الجلوس والقبض والانتقال وتداول الاشياء بيديه .

من ٤٠ الى ٥٢ اسبوعا تمتد سيطرته الى ساقيه وقدميه والى اصابعه . كما انه يستطيع ان يقف ، وخلال السنة الرابعة يسال اسئلة كثيرة ، ويبدأ في التعميمات وتكوين بعض المفاهيم المبسطة ـ اما في الحياة اليومية المنزلية ففي هذه المرحلة يبدأ في الاعتماد على نفسه ويزيد هذا الاعتماد حتى نهاية السنة السادسة حين يبدأ بالتعامل مع بيئته حتى نهاية مرحلة الطفولة المتاخرة كما سبق ايضاحه .

ونظرا لان هذا البحث يتعلق بالنمو الجسمي لمرحلتي الطفولة فان التركيز سيكون على مرحلة الطفولة المبكرة التي تنحصر بين السادسة والثانية عشرة ومع هذا فلا يمكننا ان نتجاهل المراحل السابقة وهي ما قبل الميلاد ومرحلة الرضاعة والحضانة بالقدر الذي نوضح به تاثير هذه المراحل على مرحلتي الطفولة .الا ان دراستنا ستكون طوليه فنتتبع مظاهر معينة منذ الولادة حتى نهاية الطفولة دون تقسيم لهذه المراحل في هذا التتبع ولكننا سنفرد جزءا خاصا موجزا عن مرحلة ما قبل الميلاد نظرا لتميزها وارتباط مظاهرها ارتباطا يضطرنا الى دراستها كوحدة متكاملة .

• • •

مرحلة ما قبل الميلاد *

منذ القدم تداولت افكار اغلبها خرافي عن تاثير خبرات الام على تطور الجنين في بطنها، فنواحي الشذوذ الجسمي والعقلي في الطفل كانت تعزى لتاثير دم الام ، ولكن الآن بعد ان اوضح العلماء ان دم الطفل ودم الام لا يختلطان،واتضح ان دم الجنين انما يتكون من الاوكسجين

* المعايير الخاصة بالنمو المذكورة في هذا البحث مستمدة من
HURLOCK, E.B. : Child development M.C. Graw-Hill Book Company

والماء والمواد الغذائية التى تمتص الى دم الجنين من طريق تركيب يشبه المصفاة تعدل الرأى السابق . وقد اتخذت دراسة الجنين أساليب متعددة يمكن تلخيصها فى :

(١) التقارير التى تقدمها الأم عن تحركات الجنين .

(٢) صوت ضربات الجنين والحركات التى يمكن تتبعها بأدوات تتصل ببطن الأم .

(٣) الملاحظة المباشرة لأجنة اخرجت من طريق العمليات الجراحية من بطون امهاتهم .

(٤) دراسات الأجنة فى الحيوان .

ولسنا بصدد توضيح لعملية الوراثة فى هذا المجال لشرح التكوين الكروموزومى للجنين بما فيه من مورثات ، كما لا تعنينا أيضا الأساليب الموضوعية والعلمية لتحديد جنس الجنين قبل الولادة ، ولكن الذى يعنينا ما يتصل بما يكون عليه الجنين عند ولادته مباشرة . فبمجرد أن تلقح البويضة بالحيوان المنوى الذكرى يبدأ النمو ويتطور من خلية واحدة الى طفل قد يصل تكوينه الى ٢٠٠ بليون خلية من أنواع مختلفة ،يتم هذا كله خلال تسعة أشهر في المعتاد ،ويظهر التغير من خلية مفردة ليس لها قدرة فى ذاتها الى طفل يتكون من عظام وعضلات وجلد واعضاء داخلية وجهاز عصبى مستعد للعمل حتى قبل الميلاد . وتدل البحوث على أن النمو لايتخذ فقط صورة ظهور اعضاء جديدة بل قيام الجسم بوظائف جديدة كذلك بحيث يبدو النشاط على الجنين متخذا صورا مختلفة .

وقد وجد ان بعض الأجنة تكون نشيطة خلال ٧٥٪ من وقتها ، بينما نجد ان بعضها الآخر لا يملأ نشاطها أكثر من ٥٠٪ من وقتها .وبعض الأجنة تدير رأسها ، وقد بينت الدراسات أن الحركة في كل اجزاء الجسم تحدث فى أوقات محددة يمكن التنبؤ بها على قدر من الدقة . وقد تبين انه حتى في حالة الأطفال الذين يولدون من طريق عملية جراحية فان الحركة تسير تبعا لنفس النمط وهى تشبه حركة الدودة بانقباض الاذرع والساقين . ويمكن تقسيم حركة الوليد الى نوعين .

(١) نشاط عام يتضمن جزءا كبيرا من الجسم .

(٢) افعال منعكسة أكثر تحديدا ،وحركة الوليد تتوقف على عوامل كثيرة فبعد الولادة مباشرة تقل الحركات فى الدقائق الخمسة الأولى ثم تزداد تدريجيا حتى الدقائق الثلاثين الأولى .وقد وجد ان الاطفال الذين كانت حركتهم زائدة وهم في بطون امهاتهم يكتسبون بعض المهارات الحركية فى وقت أسرع بعد ميلادهم من الأطفال الذين كانت حركاتهم قليلة ، وعلى العكس بالنسبة للتوافق مع البيئة الخارجية فالأجنة الكثيرو الحركة يجدون صعوبة أكثر من الأجنة قليلى الحركة فى توافقهم مع بيئتهم،وهناك دراسات عديدة تدور حول اثر طريقة الولادة على نمو الطفل الجسمى والعقلى بصدد ذلك ولكن اغلبها غير مؤكد ، اللهم الا اذا كانت الولادة العسرة قد احدثت فعلا تلفا فى دماغ الطفل نتيجة استخدام الادوات الميكانيكية في اخراج الطفل . فقد وجد وايل وديفز Wile, S. and R. Davis ان الأطفال الذين يولدون

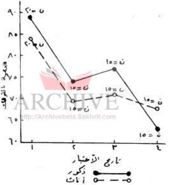
بمساعدات ميكانيكية تظهر عليهم زيادة الحركة عن المعتاد وعدم الاستقرار ، ثم في كبرهم يجدون صعوبة في النطق وفي تركيز الانتباه أكثر من غيرهم ممن يولدون بالطرق العادية ، الا انه لا يؤكد ان هذه النتائج المتأخرة تعزى حتما الى أسلوب الولادة ، وبوجه عام فان مشكلة تلف الدماغ اثناء الولادة ليست شائعة لدرجة تستحق معها معالجة نظرية خاصة ، فنسبة من يولدون بتلف في ادمغتهم لا تتعدى ٥ر٧ ٪ من الاطفال الاحياء .

ومن المهم أن نشير هنا الى ان نوع تغذية الام وكمية ما تتناوله من غذاء يؤثر في حجم المولود ؛ فهناك علاقة بين حجم المولود وكمية البروتين الذى تتناوله الأم اثناء الحمل كما ظهر لدى كثير من الباحثين ، كما أن ميريديث Meredith يشير الى ان المولود الاول يكون أصغر حجما من المواليد بعد ذلك(٥) .

اما عن نشاطه فان حركاته تكون عشوائية سواء كانت حركات كلية او جزئية ، فاذا استثير اى جزء من الجسم في النوع الأول من الحركات فان الجسم يتحول كله كجزء واحد ، وقد يكون اكثر شدة في الجزء المستثار . والحركة في هذه الحالة تكون غير متناسقة ويكون اكثر اجزاء الجسم نشاطا هو الجذع والساقان ، وهناك فروق فردية بين الأطفال حديثى الولادة في كمية هذه الحركة . أما النوع الثانى فيتمثل في حركات خاصة كالتركيز البصرى على الضوء ، والحركات التلقائية للعينين ، والحركات المنتظمة للفم ، والتثاؤب ، وتحريك ورفع الرأس ، والحركات العشوائية لليدين والساقين ، ومد الذراعين والقدمين .

وعند الميلاد تكون أعضاء الحس مستعدة للعمل ، الا ان بعض هذه الاعضاء تكون أكثر اكتمالا ونشاطا من غيرها ، فحاسة الشم والذوق والاحساسات الجلدية (كاللمس والضغط والألم والحرارة) كما ان الاحساسات العضوية (كالجوع والعطش) كل هذه تكون اكثر استعدادا للعمل قبل غيرها (مثل النظر والسمع) التى تتأخر قليلا ، كما ان الاحساس بالألم يزداد بسرعة بعد الميلاد بسرعات مختلفة في مواضع مختلفة من الجسم ، فعتبة الالم تكون اقل في الرأس عنها في الأطراف ، وهناك فروق فردية أيضا لدى الاطفال حديثى الولادة للاحساس بالألم كما يتضح من شكل (٢) .

تلك باختصار أهم المظاهر التى تهمنا في دراسة هذه المرحلة التى تقودنا بعد ذلك الى دراسة الطفولة بمراحلها ، ولن نقسم الدراسة تبعا لهذه المراحل ، متبعين في ذلك الطريقة العرضية بل نفضل في هذه المعالجة الطريقة الطولية ، فسنتناول المظاهر والمهارات التى تظهر على الطفل واحدة واحدة متتبعين تطورها منذ ولادته حتى نهاية طفولته ، مبينين السنة التى يظهر فيها كل تغير حتى تتضح معالم التطور الذى يحدث في هذه الامكانات كل على حدة وسندخل في هذه الدراسة مرحلتا الرضاعة والحضانة ، دون الحاجة الى فصلها وتمييزها وسنطلق على هذه المراحل معا الطفولة المتقدمة والمتأخرة مندمجتين ، فتمتد الدراسة في هذا الجزء لتشمل حياة الطفل من الميلاد حتى نهاية السنة الثانية عشرة .



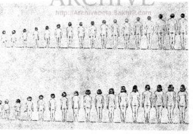
شكل (٢) الفروق الفردية فى عتبات الألم عند الرضيع الذكور والاناث مأخوذ من (١٩)

(الطفولة المتقدمة والمتاخرة)

دورات النمو : ينمو الطفل عادة فى دورات ولا ينمو بانتظام ، فالطفل مثلا يزداد وزنه عددا ثابتا من الارطال شهريا ، او يزداد طوله عددا من البوصات بانتظام فى كل فترة . ولقد بينت دراسة النمو ان هناك اربع دورات للنمو اثنتان منها تتميزان بنمو بطىء والاثنتان الأخريان تتميزان بنمو اسرع من ولادة الطفل حتى استقرار نموه في نهاية مرحلة النضج . وتتم منها مرحلتان حتى نهاية الطفولة المتاخرة . فمن وقت ميلاد الطفل الى نهاية السنة الثانية تزداد سرعة النمو، يلى ذلك فترة من النمو البطىء تتم في نهاية مرحلة الطفولة المتاخرة حوالى السنة الثانية عشرة .

وينطبق هذا على النمو بوجه عام كما ينطبق على الاعضاء الخاصة واجزاء الجسم المختلفة ، فالنمو بها يتم على دورات منتظمة وثابتة كذلك .

فلكل عضو او جزء من الجسم فترة خاصة من النمو السريع او البطىء ، وكل منها يصل الى حجمه الناضج فى وقت خاص به وهذه الظاهرة يطلق عليها « **النمو المنفصل** Asynchronous growth » وبالرغم من ان هناك معامل ارتباط موجب **بين نماذج النمو فى الاعضاء** المختلفة او فى العظام فان فى كل مجال من مجالات جسم الطفل تباين كبير فى سرعة وبطء النمو



شكل (٢) مميزات الفروق الجنسية فى النمو الجسمي ماخوذة من (٧) ويتضح فى الشكل دورات النمو فى الجنسين

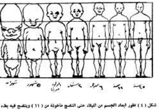
فى اية مرحلة من مراحل الطفولة . ويبدو هذابوضوح أكثر فى مرحلة المراهقة كما يتضح من شكل (٤) .

ولقد اوضحت منحنيات النمو المتعلقةبطول القامة والوزن انه اذا استثنيا السنة الاولى من العمر فان نمو الوزن يسير بسرعة اكبرمن نمو الطول كما يتضح من شكل (٥) . وفى المراحل الاخيرة من الطفولة (الطفولة المتاخرة)فان الاطراف تنمو اسرع من الجذع ، لدرجة ان الطفل فى هذه المرحلة يبدو وكانه لا يتكون الا من يدين ورجلين .

وتبدو قاعدة النمو المنفصل ايضا فيالوجه، حيث ينمو الجزء الأسفل اسرع مما ينمو الأعلى ، وخاصة بين سن الخامسة والثامنة منعمر الطفل . كما بينت بحوث دجنز Duggins التى نشرها سنة ١٩٥٠ أن شعر الراس يزدادحجمه بانتظام خلال السنوات الثلاث الاولى من عمر الطفل ، ثم يسير النمو بدرجة أبطابعد ذلك(٦) .

كما أن هذه القاعدة تنطبق ايضا علىالعضلات والعظام والرئتين ، حيث تزداد نموا حتى مرحلة النضج بما يقرب عشرين مرة منحجمها الأصلى ، بينما نجد أن العينين وحجم المخ وبعض الاعضاء الاخرى التى تكون اكثرنضجا فى وقت الميلاد لا تزيد كثيرا عن حجمها خلال مراحل النمو .

وبالاضافة الى قاعدة النمو المنفصل نجدقاعدة اخرى تسير فى اتجاه عكسى وهى قاعدة « اتجاه النمو » Developmental Direction فهناك اتجاه عام لنمو الوظائف والاعضاء المختلفة ، ففى جميع اجزاء الجسم نجد أن التغيرات فى اجزاء الجسم لها قاعدة معينة ايضا ، فالتغيرات في نسب الجسم تكون طفيفةخلال الاشهر الستة الأولى من حياة الطفل ،ومن



شكل (٤) تطور ابعاد الجسم من الميلاد حتى النضج ماخوذة من (١١) ويتضح فيه بطء نمو حجم الراس وسرعة نمو الاطراف

هذا الوقت حتى نهاية النضج نجد ان حجم الراس ينمو ببطء والاطراف تنمو بسرعة والجذع ينمو بسرعة متوسطة كما ان المخ وملامح الوجه تنضج وتصل الى نهاية تغيرها في الحجم قبل ان تصل باقى الاعضاء واجزاء الجذع والاطراف الى هذه المرحلة من نهاية النمو .

ولنتناول الآن نمو اجزاء الجسم ومعالمه بشيء من التفصيل واحدة واحدة من وقت الميلاد حتى نهاية الطفولة المتاخرة دون ان نهتم بالتقسيمات الداخلية فى هذه الفترة حتى تتضح وحدة النمو وتكاملها في هذه الفترة التى تعتبر وحدة اساسية فى حياة الانسان ونفصلها فيما يلى :

ا ـ حجم الجسم وطول القامة والوزن.

ب ـ نسب الراس والوجه .

جـ ـ نسب الجذع .

د ـ نسب الذراعين والساقين .

هـ ـ العظام والعضلات .

و ـ الاسنان .

ز ـ الجهاز العصبى .

(ا) حجم الجسم : طول القامة والوزن

يتحكم فى نمو حجم الجسم الهرمون الخاص بالنمو Growth Hormone الذى يفرز من الفص الداخلى للغدة النخامية . فاذا كان افراز هذا الهرمون بدرجة معتدلة وفي الوقت المناسب فان حجم الجسم ينمو بدرجة معتدلة ويصبح الجسم عاديا مناسبا لمرحلة النمو التى يمر بها الطفل ، اما اذا قل افراز هذه الغدة عن المعتاد فان نمو حجم الجسم يتوقف قبل أن يصل الى نهايته المعتادة ولا يصل الطفل الى الحجم الذى تؤهله له امكانياته الوراثية ، اما اذا زاد افراز هذ الهرمون فان النمو يزداد عن طبيعته. ولا يتوقف حجم الجسم على هذا الافراز وحده بل يتعلق كذلك بافرازات غدد اخرى كالغدة الدرقية وغيرها .

اما فيما يتعلق بطول القامة فانه بالرغم من الاختلافات الواسعة التى توجد بين طول قامة الاطفال فى مرحلة معينة فان هناك نموذجا تتشابه فيه جميع اطفال المرحلة الواحدة . ويمكننا ان نضع هذا النموذج فى صورة معدلات يعطينا صورة واضحة للنمو العادى للطفل العادى . فالمولود في وقت ولادته يبلغ بين ١٩ ، ٢٠ بوصة (نصف متر تقريبا) في طول القامة ، واثناء السنتين الاوليين تزداد سرعة نمو طول القامة حتى يصل فى الشهر الرابع الى ٢٣ بوصة او ٢٤ بوصة (٦٠ سم تقريبا) وعندما يصل الطفل الى الشهر الثامن يصل

طول القامة الى ٢٦ أو ٢٨ بوصة (٦٥ ــ ٧٠سم) . وعند تمام السنة الاولى يرتفع الطول الى ٢٨ ــ ٣٠ بوصة (٧٥ سم تقريبا) . وفي نهاية السنتين يصل طول القامة الى ٣٢ ــ ٣٤ بوصة (٨٥ سم تقريبا) . حتى يصل الى سن الخامسة يرتفع طول القامة الى ضعف ماكان عليه وقت الميلاد (متر تقريبا) ومن ذلك الوقت حتى مرحلة المراهقة نجد ان طول القامة يزداد ببطء بمعدل ٣ بوصات في كل سنة . ومن الطبيعي ان يختلف طول القامة في البنين عنه في البنات ، فبما ان مرحلة المراهقة تبدأ في البنين متاخرة عنها في البنات قليلا (قد يكون الفرق ستة اشهر) فان طول قامة الولد غالبا ما تقل بوصة او نصف بوصة عن البنت العادية ، كما ان هذه المعايير لابد وأن تختلف باختلاف البيئات ، فقد تنخفض قليلا في البيئات العربية عنها في البيئة الامريكية التي اجريت فيها هذه البحوث ، فالمنحنيان المرسومان في شكل (٥) يمثلان تدرج الوزن والطول لاحد الاطفال الامريكيين .

والتنبؤ بطول قامة الطفل يمكن احرازه بقدر لاباس به من الدقة اليوم باستخدام الاشعة السينية لطول العظام ، وبالاضافة الى ذلك فان قامة الطفل تميل دائما لان تزداد زيادة مرتبطة بطول قامة الوالدين ، وبذلك نجد ان طول قامة الوالدين تصلح في التنبؤ بطول قامة الطفل . وقد وجد بايلى Bayley ان معامل الارتباط بين طول قامة الطفل وطول قامة والديه يزداد كلما نما الطفل وازداد عمره ، وهذا يزيد من قيمة التنبؤ مع ازدياد مرحلة نمو الطفل (٧) .

اما عن الوزن فان وزن المولود عند الميلاد يتراوح بين ٦ و ٨ ارطال (مايعادل ٣ او ٣½ كيلو جرامات تقريبا) ، وقد يقل الوزن كثيرا عن ذلك في حالة بعض الاطفال ، فقد يصل الى نصف ذلك بينما قد يصل البعض الى ضعف ذلك ، ولكن هذا الاختلاف في وزن الاطفال قد يسير بنفس النظام بعد ذلك . ففي نهاية الشهر الخامس نجد ان الرضيع العادى لا ينحصر نموه في تعويض الوزن الناقص اثناء الميلاد بل يستطيع ان يضيف عليه بقدر اضاق من النمو ، ففى نهاية الشهر الرابع نجد ان وزن الرضيع العادى يعادل ضعف وزنه عند الميلاد . وفي نهاية العام الاول نجد ان الوزن قد بلغ ثلاثة اضعاف هذا الوزن عند الولادة . وفي خلال العام الثاني والثالث نجد انه يكتسب من ٣ الى ٥ ارطال سنويا ، الا ان الوزن بعد السنة الثالثة يتزايد ببطء نسبيا الى ان يبلغ الطفل بداية المراهقة ، ففي نهاية السنة الخامسة ينبغي ان يصل وزن الطفل الى خمسة اضعاف وزنه عند الميلاد ، وفي بداية المراهقة او عند نهاية مرحلة الطفولة المتاخرة يتراوح الوزن بين ٨٠ و ٩٠ رطلا (مايقرب من ٤٠ كيلو جراما) .

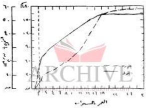
يزداد وزن البنت قليلا عند بداية المراهقة او نهاية مرحلة الطفولة المتاخرة ، حيث تزن في المتوسط ٨٨٫٥ رطلا بينما يقل الولد العادى اقل من ذلك بثلاثة ارطال تقريبا .

والمعايير التى توضع لكل طفل فى اية مرحلةتتوقف الى حـد كبير على البنيان الجسـمى Body built ويمكن تقسيـم هذا البنيـانالجسمي الى ثلاثة انواع :

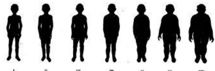
١ ـ النوع المكتز Endomorph ويتميزبجسم زائد السمنة .

٢ ـ النوع المفتول Mesomorph ويتميزبجسم ثقيل ومتين .

٣ ـ النوع الدقيق Ectomorph ويتميزبجسم طويل ملتف ذىعضلات ملتفة رفيعة نسبيا وعظام طويلة ورفيعة .



شكل (٥) منحنى نمو طول القامة والوزن . ماخوذة من (١٨)



شكل (٦) انواع البنيان الجسمي مدرجة (I) النوع الدقيق جدا (II) النوع الدقيق (III) النوع الدقيق نوعا (IV) النوع المفتول (V) النوع المكتنز نوعا (VI) النوع المكتنز (VII) النوع المكتنزجدا الرسم ماخوذ من (١) .

وازدياد الوزن اثناء النمو لا يتوقف على ازدياد نسبة الدهن في الانسجة بل يتوقف ايضا على ازدياد حجم العظام وانسجة العضلات . اما في مرحلة الحضانة فان الازدياد في الوزن يرجع اساسا الى ازدياد الانسجة الدهنية ، نظرا لازدياد كمية الدهن في اللبن الذي يعتبر الوجبة الاساسية في هذا السن ، وكلما نما الطفل وتقدم في مراحل نموه فان وزنه يرجع الى نسبة العظام والعضلات اكثر من الانسجة الدهنية . وفي المراحل المتأخرة من الطفولة تقل اهمية الانسجة الدهنية عن ذلك حتى تصبح مسئولة عما يقرب من ٢١ الى ٢٩٪ من الوزن الكلي للطفل (٨) .

ب ـ نسب الراس والوجه :

ينمو حجم الراس بسرعة اقل نسبيا من باقي الجسم منذ ولادة المولود . فعند الميلاد نجد ان طول الراس يبلغ ٢٢٪ من طول الجسم كله ، فاذا بقيت النسبة كما هي لاصبح طول الراس في نهاية النضج ما يقرب من ١٦ بوصة بدلا من ٨ او ٩ بوصات كما هي في الواقع . فمن وقت الولادة الى نهاية النضج نجد ان طول الراس يبلغ ضعف ما كان عليه عند الميلاد بينما يبلغ طول القامة مايقرب من ثلاثة امثال ماكان عليه ، واذا رجعنا الى مساحة الراس وقت الميلاد وجدنا ان المساحة الكلية للراس تبلغ ٢١٪ من المساحة الكلية للجسم ، بينما تصل نفس النسبة الى ١٢٪ بعد خمس سنوات و ١٠٪ عند نهاية مرحلة الطفولة المتاخرة ، واذا فحصنا ابعاد الراس وجدنا ان مؤخرة الراس تكون اكبر حجما من الجزء الوجهي من الراس وتكون النسبة بين عرض الراس وطوله اكبر منها في الاطفال عن الكبار ، فعرض الراس يكون قد وصل الى نهاية نموه عندما يصل الى الثالثة من عمره ، ولكنه يستمر في الزيادة في الطول حتى بعد نهاية مرحلة الطفولة المتاخرة .

والنموذج الذي تتبعه زيادة الراس طولا وعرضا لايختلف في البنات عنه في الاولاد ، ولو ان راس الولد يكون عادة اكبر حجما قليلا من راس البنت في جميع مراحل النمو تقريبا .

ولنتناول الآن نسبة الوجه بشيء من التوضيح : نلاحظ ان الجزء الاسفل من الراس اثناء فترة الحضانة ومرحلة الطفولة الاولى يكون صغيرا وناقص النمو ، ويرجع ذلك اساسا الى صغر اسنان الطفل الصغير ، وتزداد نسبة الهيكل الوجهي الى الجزء الخلفي من الراس من بداية الولادة حتى نهاية السنة الثامنة ، وفي هذه السن يختفي مظهر الطفولة الاولى نتيجة لذلك ، حيث تحل مرحلة نمو سريع بين سن الخامسة والثامنة وخاصة بين الاولاد اكثر من اى وقت آخر . ولولا حدوث هذا التغير في نسبة الوجه لاصبحت العين في منتصف الوجه .

وبانتقال الطفل من مرحلة الرضاعة الى مرحلة الاسنان الدائمة تزداد المواءمة بين الفكين العلوى والسفلى ، وتصبح اسنان الفكين اكثر انطباقا ، وهذا يؤثر بطبيعة الحال على شكل الوجه في الطفل ، وسوء المواءمة بين الفكين قد ينتج من عدم انتظام في نمو الفكين او الاختلاف بين حجم الاسنان العليا والسفلى ، او عن طريق مص الاصابع وخاصة قبل سن الخامسة ، او التنفس عن طريق الفم او الضغط على الذقن وخاصة في النوم على الوجه او عض اللسان في مراحل الرضاعة .

وقد يؤثر سوء المواءمة بين الفكين على طريق المضغ عند الصغير وبذلك يؤثر على عملية الهضم، وبالرغم من ان هذا المظهر قد يتحسن مع تقدم النمو الا ان العلاج التصحيحي قد يكون لازما في مثل هذه الحالات حتى تنمو لدى الطفل معالم صحيحة للوجه مع وجود الاسنان والذقن في نسبها المعتادة ، وخطوطها المعتدلة .

وبتقدم النمو تحدث تغيرات في معالم الوجه وشكله ، فمنذ البداية تكون مقدمة الوجه كبيرة مستديرة وبارزة ، ثم تصبح مسطحة تدريجيا ، وتقل في الحجم بالنسبة الى باقي الوجه حتى يصل الطفل الى الخامسة من عمره ، وتبلغ العينان حجمهما الاقصى كلما اقترب الطفل من نهاية مرحلة طفولته المتاخرة ، وتتباعد العينان بعضهما عن بعض ، كما ان الشفتين الرفيعتين تزدادان امتلاء حتى تصلان الى شكلهما الثابت عندما ينضج الطفل جنسيا .

ولعل الانف هو العضو الذى يبدو في الطفولة اقل تناسبا من باقي اجزاء الوجه ، فهو يكون في البداية صغيرا واكثر انبساطا وتسطحا على الوجه ، ومن سن الخامسة الى العاشرة ينمو بسرعة اكبر من اى جزء آخر بالوجه ، وينتج عن ذلك ان الانف هو اول اجزاء الوجه التي تصل الى نهاية نموها ، وهذا يحدث في حوالي الرابعة عشرة .

ونلاحظ انه كلما نمت اعضاء الوجه وقربت من نهاية نضجها يزداد الوجه تحددا وتثبت ملامح الوجه مع تقدم النمو (٩و١٠) . (راجع شكل (٤) في هذا البحث) .

(ج) نسب الجذع

ان زيادة وزن الطفل اثناء نموه تؤدى طبيعيا الى صعوبة اتزان الجسم ويجب العمل على تخفيفها قبل ان يتعلم الجلوس او الوقوف او المشى، فكلما كبر الطفل فان التغيرات في نسب الجسم اللازمة لحصوله على الاتزان المناسب تتحقق عن طريق استطالة الجذع والساقين والرقبة ، واذا وصل الطفل الى سن السادسة فان طول جذعه وعرضه يصل الى ما يقرب من ضعف طوله وعرضه عند الميلاد ، ومنذ ذلك الحين حتى البلوغ فان طول الجذع يزداد بما يقرب من ٥٠٪ مما كان عليه ، ورقبة الطفل في مرحلة الرضاعة تكاد لا توجد ، حيث يستند راسه تقريبا على كتفيه ، وبالتدريج في مرحلة الطفولة الاولى تظهر له رقبة قصيرة ممتلئة تتصل بكتفيه المنحدرين . وحوالى سن الخامسة تبدا الرقبة في الاستطالة وتبدو اكثر استدارة، بينما ياخذ الكتفان في ان يكونا اكثر عرضا واكثر ثباتا ، وكلما انخفض الكتفان مع استطالة الرقبة فان وزن الطفل يزدادا تناسقا وتوزعا على انحاء جسمه .

كما ان شكل الجذع ايضا تحدث به تغيرات سريعة ، ففى السنة الاولى يكون جسم الطفل اكثر سمكا من اى مرحلة اخرى ويرجع ذلك الى الزيادة الكبيرة في المحيط العرضى عن الطول . وحتى سن الرابعة او الخامسة يكون شكل الجذع شبيها بالكيس حيث لا يتميز فيه خط للوسط بشكل ظاهر ، كما يكون الكتفان منحدرين ويكون الصدر مستديرا ويكون البطن بارزا مستديرا ، ومنذ ذلك الحين حتى نهاية مرحلة الطفولة يحدث نقص تدريجى في كثافة وامتلاء

الجذع ، ويتجه الجسم لأن يأخذ الشكل المخروطي أو الاسطواني المنبسط المنسق الذي يتميز فيه الوسط عن باقي الجسم . وفي هذا الشكل المخروطي فإن الأكتاف تأخذ الشكل المستطيل المستعرض وخاصة عند الأولاد ، كما أن شكل البطن ينبسط ويقل امتلاؤه واستدارته وبروزه ، ويصبح خط الوسط ظاهراً بشكل واضح ، كما أن الحوض يصبح أكثر عرضاً وأقل استقامة .

وبطبيعة الحال فإن شكل الجذع عند الكبار البالغين يتأثر كثيراً بالسن الذي تتضح فيه المظاهر الجنسية . فقوام الذكر الذي يتصف بعرض في الكتفين وضيق في المقعدين يظهر في الأولاد العاديين ، والبنات اللواتي تبدو لهن أكتاف عريضة هن اللواتي يتأخر نضجهن ، وبوجه عام فإنه بدون اعتبار للسن الذي يتم فيه النضج فإننا نلاحظ أن الشكل العام للجذع عند البنت يختلف عن الشكل العام لدى الولد ، فالأجزاء التي يتميز النمو فيها في الولد غالباً ما يقل النمو فيها عند البنت ، وتعتبر هذه المميزات في كل جنس دليلاً على أن النمو عند كل منهما لم يتخذ مجراه الطبيعي ، وقد يحتاج إلى العلاج الذي يعيد لكل فرد من الجنسين الشكل المميز لجنسه ، وهذه الفروق بين الجنسين تختلف مرحلة ظهورها بشكل مميز باختلاف البيئة ، فهي عند الشرقيين تختلف إلى حد ما عنها عند الغربيين وقد تقل أو تظهر بشكل أوضح في بيئة عن غيرها(١١) .

(د) نسب الذراعين والساقين

ان التغيرات التي تطرأ على نسب الذراعين والساقين أثناء مراحل العمر المختلفة هي التي تعطي الجسم صورة الجسم البشري وتبعده عن الصورة الحيوانية . فعند الميلاد يكون ساقا الوليد قصيرين بشكل ظاهر بالنسبة لأبعاد أجزاء الجسم المختلفة ، كما أن الذرعين يكونان زائدي الطول ، وتكون اليدان والساقان صغيرين نسبياً . فنحن إذا تصورنا انطباق نفس الوليد على الشخص البالغ فإن ساقي الشخص البالغ تبلغان من القصر حداً يجعل مقعديه في مستوى يعادل مستوى الركبتين أو أعلى قليلاً ، وهذا ما يوضح ضرورة اختلاف السرعة التي تنمو بها الأجزاء المختلفة من الجسم .

فالذراعان والساقان تنموان بمقدار ٦٠٪ إلى ٧٥٪ من وقت الميلاد إلى أن يصل الطفل إلى سنتين من العمر ، وعندما يبلغ الطفل سن الثامنة فإن الذراعين يزداد طولهما بمقدار ٥٠٪ على طولهما في سن الثانية . ونظراً إلى قلة سمك الذراعين عادة لدى الطفل بالنسبة لجذعه فإن النمو في عضلاتهما في الشخص العادي لا يكون ملحوظاً ، ويكون للذراعين عادة شكل اسطواني عام في هذه المرحلة . وبعد سن الثامنة ينمو الذراعان نمواً بطيئاً في معدله بالنسبة لطولهما ، بينما نموهما في السمك يزداد بشكل أوضح نظراً لازدياد عضلات الذراع في السمك والامتلاء .

اما الساقان عند المولود حديثاً فتكونان قصيرتين منجهتين بطريقة تجعل بطن القدمين يتجهان كل منهما للآخر . وكلما نما الساقان ازدادا انبساطاً واستقامة ، فعندما يصل الطفل إلى سن السادسة ينبغي أن يكون الساقان والركبتان مستقيمتين لا اعوجاج فيهما ولا تقوس ،

وخلال السنتين الاوليين في حياة الطفل تنمو الساقان بمعدل ٤٠٪ من طولهما الاصلي ، وعندما يصل الى سن الثامنة يزداد طول الساقين بمعدل ٥٠٪ من طولهما الاصلى عندما كان في سن الثانية ، ومعنى هذا ان الساقين ينموان بمعدل ابطأ من نمو الذراعين في بداية مرحلة الطفولة . واذا طبقنا ما ذكر عن الذراعين فان الساقين تبدوان رفيعتين واسطوانيتين حتى نهاية سن الطفولة ، وفى الوقت نفسه عندما تبطىء سرعة نمو طول الساقين نجد ان الزيادة تتم في النمو العضلى لهما وينتج عن ذلك تغير ملحوظ في شكليهما . ونلاحظ ان الاطفال الذين يكون نموهما مبكرا عن الاطفال العاديين يميلون لأن يكون لهم ساقان قصيران مختلفان عند تمام نضجهما ، بينما نلاحظ ان الاطفال الذين يتاخر نموهم عن المعتاد عادة ما يكون لهم ساقان طويلان اسطوانيان .

واذا تعرضنا لليدين والقدمين وجدنا انهما لدى الطفل الرضيع ينموان في الحجم كما ينموان ايضا في الناحية العضلية قبل ان يتم استخدامهما، فخلال الطفولة الاولى والطفولة المتوسطة (المرحلة المتوسطة بين سنوات نهاية مرحلة الطفولة الاولى وبداية مرحلة الطفولة المتاخرة) نجد ان الاصابع تكون قصيرة بسبب النمو البطىء للعظام ثم يزداد نموها بعد ذلك حتى يصلا الى حجمهما العادى بعد نهاية الطفولة المتاخرة (حوالي سن الرابعة عشرة او الخامسة عشرة) وهذا يحدث ايضا في القدمين واليدين على حد سواء في وقت واحد ، ويلاحظ ان الاولاد عادة تكون اقدامهم اكبر من اقدام البنات ، وتصل الى نهاية نموها متاخرة عن البنات، ومن الطريف ان نعرف بأن البحوث قد دلت على وجود معامل ارتباط موجب بين حجم القدم وطول قامة الفرد (١١) .

(هـ) العظام والعضلات

ينحصر نمو العظام في ازدياد حجمها وفي عددها وفي تكوينها ، وهذه المظاهر كلها تتبع نفس السياق الذى سبق ان اوضحناه في ازدياد حجم الطفل ، ومعنى هذا ان النمو تزداد سرعته خلال السنة الاولى من العمر ، ثم تبطىء هذه السرعة نسبيا بعد ذلك حتى نهاية مرحلة الطفولة المتاخرة (راجع شكل (٤) من هذا البحث) .

ففى الشهور الاولى بعد الميلاد تكون انسجة العظام هشة واسفنجية التركيب ،كما انه تنشا للوليد غضاريف او اغشية سميكة في الاماكن التى تظهر فيها العظام بعد ذلك ، وتكون عظام الوليد محتوية على مقدار اكبر من الماء والموارد الشبيهة بالبروتين ، كما تحتوى على كميات اقل من المحتويات المعدنية عن عظام الشخص الكبير البالغ . كما نجد ان هناك تدفقا اكبر للدم وكمية من الاوعية الدموية وذلك لتزويد الطفل بالمواد اللازمة للنمو وتكون الاغطية الخارجية للطفل سميكة بالقدر الذى يمنع به حدوث الكسور المركبة . وفى ذلك الوقت نفسه تكون العظمة ضعيفة الالتحام ببعضها وعلى عكس ذلك كثيرا ما توجد فجوات بين نهايات العظام .

ويكون نمو العظام كما ذكرنا في الطول من اطرافها حيث تتحول مواضع الالتحام بين العظام بعضها ببعض الى مناطق عظمية مع تقدم النمو . ومع وصول الطفل الى نهاية الطفولة

المتأخرة وبداية المراهقة تتوقف العظام عن النمو. أما نمو العظام في العرض فينتج عن اضافة انسجة عظيمة الى حافتها الخارجية فيتضخم السمك وتزداد العظام متانة . وازدياد المتانة والصعوبة لا يحدث الا بعد الميلاد ، ويتدرج من الجزء المتقدم من السنة الاولى حتى نهاية الطفولة المتأخرة وبداية المراهقة ، وينتج ذلك من تدخل عنصري الكالسيوم والفسفور وبعض الأملاح المعدنية في تركيب العظام كلما تقدم النمو .

أما ما يتعلق بالعضلات فانها تلعب دوراً فعالاً في تنظيم نمو الاعضاء الاساسية للجسم كالقلب واعضاء الجهاز الهضمي والغدد ، كما انها المسئولة الاساسية عن قوة الجسم وتآزر النشاط . ففي وقت الميلاد تكون الألياف العضلية في حالة غير ناضجة ، وهذا ما يجعل الوليد ضعيف القوة وقليل النشاط ، وبالرغم من أنه لا تنشأ انسجة عضلية جديدة بعد الميلاد فان الانسجة الموجودة منذ الميلاد تتغير في الحجم والشكل والتركيب ، كما تزداد طولا وعرضا وسمكا وينتج عن ذلك زيادة في وزنها .

ففي الشخص العادي نجد أن وزن العضلات يزداد من وقت الميلاد الى نهاية النضج ما يقرب من ٤٠ مرة . وحتى سن الخامسة فان نمو العضلات يتم بنفس نسبة وزيادة وزن الجسم عامة ، ومن الخامسة حتى السادسة تزداد سرعة نمو العضلات وفي هذا الوقت تبلغ زيادة وزن الجسم عموما ١٥٪ تقريبا من وزن العضلات فقط . اما بعد هذه المرحلة فان نمو العضلات يصبح بطيئا نسبيا، ولكن يتبعها مرحلة تتميز بسرعة النمو ، كما انه مما يلاحظ كذلك ان العضلات في الطفولة المبكرة تكون محتوية على قدر كبير من المياه وقدر قليل من الاجسام الصلبة والبروتينات اكثر مما يتوفر في عضلات الشخص البالغ نسبيا . وبالاضافة الى ذلك فانها تكون اكثر رقة واقل متانة في اتصالها بالعظام ويصل سمكها عند تمام النضج الى ما يقرب من خمسة امثال سمكها عند الميلاد . كما ان تكوينها يتحول من ٧٢٪ من الماء و ٢٨٪ مواد صلبة الى ٦٦ ٪ من الماء و ٣٤٪ موادصلبة في البالغ وينتج عن ذلك ان العضلات تصبح اكثر صلابة وثباتا ، فنجد أن الطفل تتولد لديه تدريجيا الدوافع القوية للقيام بالنشاط العضلي . وقد يدفعه ، وهذا ما يحدث كثيرا ، الى التحفز وعدم الاستقرار في الحالات التي يجد نفسه فيها عديم النشاط .

وكأي وظائف عضوية اخرى نجد أن هناك فروقا فردية واسعة في القدرة العضلية لدى الاطفال ، فالافراد الذين يمتلكون العضلات العريضة السميكة يكتسبون قوة عضلية فائقة كما ان ذوي العضلات الصغيرة يبدون قدرا احسن من التآزر في اوجه النشاط العضلي وبينما نجد ان بعض الاطفال تتعب عضلاتهم بسرعة نجد ان البعض الآخر لهم عضلات لها قدرة كبيرة على التحمل والمشقة .

وتتوقف حالة عضلات الطفل جزئيا على امكاناته الوراثية وجزئيا على حالته الصحية في الوقت الراهن وبوجه عام ، ومدى استخدامه لعضلاته ، فحتى في الطفل الواحد نجد اختلافات في حالة العضلات ، فهي بعد حالة المرض مثلا غير حالتها قبله ، حيث نجده بعد حالة المرض

سريع الاجهاد والتعب . وبالرغم من ان الفروق بين نمو العضلات في الجنسين لا تكون ظاهرة بالقدرة الكافي في الطفولة فانها تبدأ في الظهور بعد ذلك حيث تصبح عضلات الذكر اكبر واقوى من عضلات الانثى منذ المراهقة (١٢) .

(و) الأسنان :

ينمو للطفل نوعان من الاسنان : اللبنية والدائمة ، وهذان النوعان يختلفان من نواح كثيرة .

(١) هناك عشرون فقط من الاسنان اللبنية ، بينما الاسنان الدائمة عددها اثنان وثلاثون .

(٢) يكون حجم الاسنان اللبنية أصغر من الاسنان الدائمة .

(٣) تكون الاسنان الدائمة افضل جودة ونوعا من الاسنان اللبنية ، ولذلك تكون اكثر استدامة، وتبدأ عملية ظهور الاسنان منذ الشهر الثالث بعد الميلاد وتستمر هذه العملية فترة طويلة حيث تصل اسنان العقل الى نهاية حجمها من سن الواحدة وعشرين الى الخامسة وعشرين، ويكون ظهور الاسنان اللبنية مصحوبا بآلام قد تسبب للرضيع فقدا للشهية وقد تجعله قليل الاستقرار ظاهر العصبية ، بينما الاسنان الدائمة قد تبرز من اللثة دون ان تصاحبها اية آلام .

وفي المعتاد تظهر أولى الاسنان اللبنية بين الشهر السادس والثامن ولكن سن الظهور هذا يختلف من طفل لآخر ويتوقف على الصحة والاستعدادات الوراثية والتغذية قبل وبعد الميلاد . كما ان للجنسية والجنس وبعض العوامل الاخرى اثرها في ذلك . وقد اتضح من الملاحظات العلمية ان الطفل العادى عندما يصل الى الشهر التاسع تكون ثلاثة من الاسنان اللبنية قد ظهرت له ، كما اتضح ايضا ان الاناث كقاعدة عامة يظهر السن الاول لديهن قبل الذكور ، ولكن بين الشهر التاسع والسنة الثانية فان الذكور يسبقون الاناث في ذلك .

اما ما يتعلق بالاسنان الدائمة فان الطفل العادى عندما يصل الى سن السادسة يكون لديه سن واحد او اثنان ، ويزداد عددها الى ١٠ أو ١١ سنا عند الثامنة ، ثم من ١٤ الى ١٦ سنا في سن العاشرة ، وفي الثانية عشرة قد تصل الى ٢٤ او ٢٦ سنا ثم الى ٢٨ سنا حوالى سن الثالثة عشرة ، اما الاسنان الاربعة الاخيرة فهي اضراس العقل التى تظهر بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين وقد لا تظهر اطلاقا .

وقد تظهر حالات تسوس الاسنان حتى قبل ان يكتمل نمو الاسنان الدائمة ، وهذه الظاهرة تظهر بنوع خاص اثناء النمو السريع للطفل حيث تكون مطالب التغذية اكثر الحاحا ، وتكون اغذية الطفل من اصناف ينقصها التنوع المتزن ولذا تظهر كثيرا في مرحلة المراهقة .

والمرحلة التى تفصل بين ازالة الاسنان اللبنية وظهور الاسنان الدائمة تمثل فترة تظهر فيها صعوبات في نطق بعض الحروف، حيث يوجد عادة فراغ في مقدمة الفكين يسبب صعوبة في نطق بعض الحروف ويظهر ذلك من حديث الطفل، ولهذا فان معظم الاطفال يتعجلون ظهور الاسنان

الدائمة علاوة على ما يحدثه ظهور الاسنان الدائمة من آثار نفسية على الطفل ، فهي دليل على اتجاه النمو نحو الاكتمال(١٣) .

(ز) الجهاز العصبي

ان نمو الجهاز العصبي يكون سريعا قبل الميلاد خلال السنوات الثلاث أو الاربعة الاولى. وينحصر نمو الجهاز العصبي في فترة ما قبل الميلاد في ازدياد عدد وحجم الخلايا العصبية بينا ينحصر النمو بعد ذلك في تطور ونضج الخلايا التي لم تكن قد نضجت بعد عند الميلاد . وبعد سن الثالثة أو الرابعة يسير نمو الجهاز العصبي بسرعة بطيئة نسبيا .

اما ما يتعلق بنمو المخ فان دراسته دراسة مباشرة تصبح مستحيلة ، ولكن يمكن دراسته بطريقة غير مباشرة ، وتكون الدراسة تقديرية وليست دقيقة ، ويتم ذلك عن طريق فحص مخ الافراد بعد الممات أو عن طريق قياس ابعاد الجمجمة في حالة الحياة .

وتدل هذه الدراسات على ان نمو المخ يكون سريعا جدا من الميلاد الى نهاية السنة الرابعة، ويبطىء سرعة نموه بين الرابعة والثامنة من العمر ، ثم يستمر النمو اكثر بطئا حتى حوالى سن السادسة عشرة اى بعد مرحلة الطفولة المتاخرة بكثير ، وعند ذلك يكون حجم المخ قد وصل الى نهايته ، ونظرا لان عظام الجمجمة تكون مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا غير وثيق عن طريق الاغشية خلال الشهور القليلة الاولى من الحياة فان فراغا كبيرا في حجم الجمجمة يترك لنمو المخ .

ومن حيث وزن المخ فان وزن المخ يبلغ في المتوسط ٣٥٠ جراما ، بينما يتراوح وزن مخ البالغ الكبير من ١٢٦٠ – ١٤٠٠ جراما ، ولعل النمو السريع في حجم المخ خلال السنوات الاولى من الحياة هو احد الاسباب التي تؤدي الى اعطاء الجمجمة وزنها الثقيل نسبيا وحجمها غير المتناسب .

ومهما كانت العلاقة بين نمو الاجزاء المختلفة من المخ والنمو العقلي للطفل فان ملاحظة سلوك الاطفال تدل على انهم يكونون قادرين على التذكر وترابط المعاني بين الاشياء والاشخاص ، وعلى القيام ببعض الاشكال البسيطة من الاستدلال . وكلما ارتقى النمو سنة بعد سنة تزداد هذه القدرات العقلية تطورا واكتمالا . وليس المجال في هذا البحث متعلقا بربط النمو الجسمي بالنمو العقلي فهو موضوع آخر يخرج عن نطاق هذا البحث (١٤) .

• • •

عرضنا في الجزء السابق بعضا من اهم مظاهر النمو الجسمي في الطفل من وقت ميلاده حتى نهاية مرحلة الطفولة المتاخرة وقد راينا (كما سبق ايضاحه) ان نورد النمو في هذه الفترة التي يمكن تقسيمها الى عدة فترات واحدة واحدة في كل مظهر من مظاهر النمو الجسمي حتى يسهل تتبعه وملاحظة سياق التطور دون قطع الدراسة بطريقة مصطنعة الى اجزاء تحدها هذه المراحل التفصيلية .

ويهمنا الآن بعد ان اوضحنا هذا النموالجسمى في هذه الفترة ان ننتقل من الجانب البنائى Structural **الى الجانب الوظيفى** Functional فنتتبع النمو الحركى عارضين في هذا النمو ما يحدث من تطور في أهم المهارات الحركية التى تظهر لدى الطفل خلال هذه الفترة . ويمكن تلخيص اهمية النشاط الحركى في الجوانب الآتية :

(١) ان الصحة الجيدة التى تعتبر حيويةبالنسبة لنمو الطفل وسعادته تتوقف جزئيا على تدريبه على المهارات الحركية ، فاذا كان تناسقه الحركى ضعيفا كان أداؤه غالبا أقل من زملائه ، ولا يشعر الطفل بارتياح يذكر في قيامه بالنشاط الحركى ، ويقل بذلك دافعه للاشتراك فيه .

(٢) ان النشاط الحركى يخلص الطفل عادة من الطاقة الزائدة التى يزود بها ويجعله مقبلا على النشاط الذى يزيد من قوة عضلاته ويحسن صحته بوجه عام .

(٣) يعتبر النشاط الحركى اسلوبا من اساليب التغيير والترويح على الطفل ، فنشاط الطفل في اللعب بأدوات اللعب في الصغر يساعده على تركيز انتباهه واستخدام وظائفه العقلية ، ومن ثم يساعد على احداث التغيير والمتعة في حياته .

(٤) كما ان النشاط الحركى يعطى الطفل فرصة للتفاعل الاجتماعى ، فالنشاط الحركى في الاطفال عادة لا يتم حينما يكون الطفل منفردا بل يؤدى الى الاتصال بغيره والتعامل معه .

(٥) يساعد النشاط الحركى الطفل على تنمية مفهوم الذات عنده ، فنجاح أدائه أيا كان يزيد من مشاعره بالأمن تجاه البيئة التى يتفاعل معها .

وسنتناول فيما يلى النمو الحركى في الاجزاء الآتية من الجسم :

(أ) منطقة الراس .

(ب) الجذع .

(جـ) الأطراف .

(أ) منطقة الراس .

تبدا في هذه المنطقة بتآزر العين الذى يكون ضعيفا خلال الساعات الاولى من الميلاد ، ولكن ذلك يتحسن بسرعة ، لدرجة ان الوليد العادى في نهاية الشهر الرابع يكون قادرا على اغلب الحركات اللازمة في عينيه ، فهو في نهاية الشهر الثانى يستطيع ان يركز عينه على شيء ثابت وبعد شهر يستطيع ان يتتبع عادة شيئا متحركا . ولكن التناسق اللازم في حركة العين لا يكتمل عادة بشكل يمكنه من القراءة دون اجهاد للعين قبل ان يصل الطفل الى سن السادسة .

ومن الملاحظ ان انعكاسات الابتسام استجابة للمثيرات اللمسية والحركية تظهر على الوليد من نهاية الاسبوع الاول من حياته ، اما الابتسامة (الاجتماعية) لشخص او استجابة لابتسامة

اخرى لا تحدث حتى الشهر الثالث من العمر . ويرى بعض الباحثين ان هذه الظاهرة تعتبر اولى الاستجابات الاجتماعية للطفل .

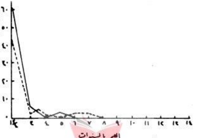
كما نلاحظ ايضا ان اغلب الاطفال الذين ولدوا حديثا يستطيعون ان يرفعوا رؤوسهم للحظات قصيرة ، فالوليد في الشهر الاول قد يحتفظ براسه افقية مستقيمة مع جسمه اذا حمل افقيا ، وبعد شهرين يستطيع ان يرفع راسه مائلة على الافقي بحوالى ٣٠ درجة وكلما تقدمت الشهور يستطيع ان يرتفع براسه وصدره اثناء نومه . ثم يستطيع بعد ذلك ان يدير راسه بادارة كتفيه واستخدام عضلات الجزء الاعلى من الجذع ، ولكنه لا يستطيع ان يحتفظ براسه راسية عندما يجلس دون مساعدة الا عند نهاية الشهر السادس ، وبتقدمه في العمر تطول المدة التى يستطيع فيها الاحتفاظ براسه على هذا الوضع(١٥) .

(ب) الجذع

ان دوران الجسم من جانب لآخر اثناء النوم لا يتوفر للطفل المولود ، ولكن عندما ينتهى الشهر الثانى فان الوليد يستطيع ان ينتقل من النوم على جانبه الى ان يصير نائما على ظهره وفي نهاية الشهر السادس يستطيع الرضيع ان يدير جسمه دورة كاملة . وقد لا يتم له ذلك دفعة واحدة ، بل يتم على مراحل ، وفي دورانه عادة يبدا بمنطقة الراس ثم الاكتاف ثم الجزء الأسفل من الجسم ، وعن طريق الدفع بالساقين يستطيع الرضيع ان يدير كل جسمه .

ويصبح جذعه تحت سيطرته قبل ان يتمكن من الجلوس بنفسه فهو عندما يصل الى الاسبوع العشرين يستطيع أن يجلس بمساعدة محتفظا بجسمه معتدلا . وبين الشهر التاسع والعاشر فان الوليد العادى يستطيع الجلوس دون مساعدة لدقائق معدودة، وفي بداية تعلمه الجلوس يميل بجسمه قليلا الى الامام ليحتفظ بتوازنه ، كما ان ذراعيه يكونان ممتدين على جانبى جسمه وكما يكون ساقاه مقوسين بقدميه متقابلين ليعطيه هذا الوضع حيزا كبيرا للاتزان .

ومن بين عضلات منطقة الجذع تكون اعضاء الاخراج وتاخر قدرة الطفل للسيطرة عليها وذلك لحاجتها الى عضلات دقيقة ، فالتحكم في الاخراج معناه كف العمليات التى كانت بطبيعتها لا ارادية . وهذا التحكم لن يتم الا اذا اصبحت عضلاته قويه ومتازرة ، حتى يستطيع أن يمنع بذلك الفضلات التى تعمل على الخروج من الجسم . وبالرغم من أن هناك فروقا فردية بين الاطفال في القدرة على هذا التحكم الا أن هذا يبدا عادة عندما يتم الرضيع شهره السادس بينما التحكم في المثانة قد يتاخر حتى الشهر الخامس عشر او السادس عشر حتى السنتين او السنتين والنصف ، مع حدوث هفوات في حالة مرض الطفل او اجهاده او قلقه الانفعالى. اما الامتناع عن التبول ليلا فانه يحتاج الى سنة اخرى من النمو . وبوجه عام فان الطفل عند دخوله المدرسة ينبغي ان يكون قد اكتسب عادة التحكم في البول حتى في حالات الاجهاد والقلق الانفعالى والاستثارة(١٦) .



شكل (٧) نمو عادات النظافة في الطفل (التحكم في التبول) ماخوذة من (١)

(ج) الأطراف

من أول ما يظهر في اشكال الحركات المتآزرفي الذراعين ينحصر في الحركات الدفاعية . وتبدو هذه من الايام الاولى من الحياة . وتكون في بداية الامر حركات ضعيفة التآزر والتنسيق ولكنها في نهاية الاسبوع الثاني بعد الولادة تكتسب قدرا كبيرا من التـآزر ـ أما الوصـول الى الأشياء والقبض على الاشياء ، ما عدا في الحالات التي تلمس اليد الشيء صدفة ، فانها تحتاج الى قدر من التآزر بين العين واليد . حيث يجب ان تعمل العينان معا ، ويرتبط عملهما بحركة اليدين. وفي المراحل الاولى من التآزر بين العين واليد ينظر الى الشيء الذى امامه دون أن يصل بيديه اليه . وخلال الشهر الرابع يبدأ بالقبض على الاشياء ولكن بشكل بطيء وغير منتظم ، ويتحسن ذلك بعد شهرين . وبعد عدة شهور يستطيع الرضيع الوصول الى الشيء بيديه والقبض عليه ثم يحوله مباشرة الى فمه .

وفي انعكاس القبض على الاشياء Grasping Reflex الذى يظهر عند الميلاد او بعد ذلك بقليل يقوم الابهام والاصابع مقام الخطاف ، ويتم ذلك قبل ان يستخدم الرضيع يده لاغراض اخرى وفي هذه الحالة فان الابهام يعمل في اتجاه مخالف للاصابع ، ومعنى هذا انه يعمل كوحدة منفصلة.

وانفصال الابهام عن باقي الاصابع يتم عادة بين الشهر الثالث والرابع ، اما اخذ الاشياء فانه يتاخر حتى الشهر الثامن او التاسع . كما ان القدرة على القبض على اكثر من شيء واحد او اخذها معا يظهر في شهور متاخرة . فالطفل العادي في الشهر الخامس ينبغي ان يكون قادرا على ان يقبض على شيء يقدم له ، بينما في الشهر السابع يستطيع ان يقبض على شيئين ، وفي الشهر العاشر على ثلاثة اشياء (١٧) .

ولنبدأ الآن بالنمو الحركي في الساقين والقدمين : نلاحظ ان الحركات اللازمة للمشي تبدا عند الميلاد او حتى قبل ذلك . فالطفل المولود حديثا يقوم بحركات بقدمية تشبه الركلات او تشبه الخطو ، وكنتيجة لامتداد الساق والركلات فان الوليد يتعلم التآزر بين عضلات ساقيه وجذعه ، ثم يتعلم بعد ذلك احراز الاتزان بين اجزاء جسمه ، وهذا كله اساسي لعملية المشي ولا يمكن تحقيقه في فترة زمنية بسيطة ، وكثير من الرضع يكون لديهم استعداد للمشي بين الشهر التاسع والخامس عشر ، فعظام وعضلات واعصاب الساق والجذع تكون معدة لذلك ، ولكن الرضيع يلزمه الاستثارة والمعاونة من الكبار قبل ان يستطيع المشي .

ونشاهد أن الرضيع في نهاية الاسبوع الثاني يستطيع عن طريق حركات ساقيه ان يحرك جسمه عن موضعه ، كما ان اول مظهر للانتقال يتم في الرضيع عن طريق الرفس ثم الحبو الذي يبدا في حوالي الشهر الرابع ، ويصل الى قمة اتقانه بين الشهرين السابع والتاسع . وبعض الرضع لا يمرون في هذه المراحل وينتقلون مباشرة الى المشي ، بينما نجد الآخرين يبقون في مرحلة من هذه المراحل فترة قد لا تطول ثم ينتقلون الى المشي .

وفي المراحل المتقدمة من الحركة التي تسبق المشي نجد أن الرضيع يقوم بحركات زائدة في انحاء جسمه ، وبالتدريب ينتقل التآزر من الراس حتى منطقة الساقين ، ويظهر التآزر جيدا ومتقنا في مرحلة الزحف ، وبتقدم هذه المهارات تزداد سرعة الطفل في الانتقال .

ويسبق المشي عادة القدرة على الوقوف ويحدث غالبا ان الوقوف مع المساعدة يسير جنبا لجنب مع الزحف ، والسن المعتاد للوقوف مع المساعدة لمدة دقيقة واحدة هو اربعون اسبوعا حتى خمسين اسبوعا . ولكي يحافظ الرضيع على توازنه فانه يقف متباعد الساقين واصابع القدم متجهة للخارج والركبتان متقاربتان ، ويتجه الراس والجزء العلوي من الجسم الى الامام ، وبالتدرج يقلل الرضيع من الضغط الذي يبذله على من يساعده في الوقوف الى ان يستطيع الوقوف بمفرده تماما .

ويستطيع بعض الصغار المشي بمجرد وقوفهم بينما يتأخر البعض الآخر قدرا من الوقت حتى يكتسب الثقة في نفسه ليخطو الخطوة الأولى . ويحدث المشي التدريجي بمساعدة عادة مع الوقوف في وقت واحد . وفي دراسة لاحد الاطفال وجد أن فترة ٢٥ يوما قد مرت بين الوقوف بمفرده واتخاذ الخطوة الأولى في المشي .

وفي كل انواع الانتقال نجد ان الرضيع يحتفظ برأسه معتدلا حتى يكتشف طريقه ، وفي المشي يكون الجسم معتدلا وتكون الحركة عن طريق تحريك الساقين وحدهما ، وكمساعدة لاحتفاظه بتوازنه فان ذراعي الرضيع تتجهان للخارج ، وتتجه القدمان للخارج ، وتتصلب الساقان ، وتتجه العينان الى الامام دون اهتمام بالنظر الى الارض ، وكثيرا ما يتسبب عن هذا وقوع الصغير اثناء المشي لغياب ما تحت قدميه عن نظره ولصعوبة اتزانه في البداية ولقيامه بحركات زائدة لا تفيده في عملية التحرك .

وبنمو الصغير يحدث تغيران في عملية المشي :

(أ) يتناقص ارتفاع مركز ثقل الساقين

(ب) ويتم بذلك سهولة في الخطو . فبعدما كانت الساقان ترتفعان الى اعلى مما يجب في بداية المشي ، وبعد ان كان يبذل جهدا وطاقة كبيرين في نقل قدميه وتتابع الحركة فيها يقل الجهد تدريجيا وتزداد الخطوة اتساعا ويقل ارتفاع الساقين ويتم ذلك حوالي السنة الثانية او الثالثة من العمر (١٨) .

اكتساب المهارات في الطفولة

بعد ان يكتسب الطفل القدرة على التحكم في حركاته الكبيرة يبدأ في تنمية مهاراته ، ويقصد بذلك مجموعة التآزرات الدقيقة التي تلعب العضلات فيها دورا هاما . ويمكننا ان نصف المهارة بتعبيرات خاصة بها مثل « آلية وسريعة ودقيقة ومرنة » وينبغي الا ننظر الى المهارة على انها عمل مفرد دقيق ، فكل مهارة مهما صغرت حتى كتابة حرف من الحروف الهجائية هو سلسلة من مئات عمليات التوافق في خلايا الجهاز العصبي ، وتصبح الحركة المعتمدة على اية مهارة عملية معقدة للغاية تتضمن عمليات من التكامل والتمايز للحركات الدقيقة ومراحل متتابعة من المحاولات وحذف الاخطاء . وتنقسم المهارات الحركية الى نوعين مختلفين :

(١) المهارات العضلية الكبيرة Gross Mucular Skills وهذه مثل الجري والقفز والرفع والتسلق .

(٢) المهارات العضلية الدقيقة Fine Muscular Skills مثل الكتابة والعزف على الادوات الموسيقية الصغيرة ، او القيام بالاعمال الدقيقة التي تتطلب مهارة في الاداء .

ومن خصائص المهارات ان تعلمها يؤدي الى « العادات الحركية » فالنشاط الذي يتكرر حدوثه بسهولة وارتياح يؤدي هذا التكرار الى اكتساب العادات التي تسهل من ادائه وتتابع الحركات فيه وتقليل الانتباه عند القيام به ، فتكرار الصغير لعملية الخطو والمشي يسهل من اداء حركاته وتتابعها بعد ذلك ، ويصبح المشي عادة حركية لا تحتاج الى تركيز الانتباه عند الطفل الكبير كما كانت تحتاج عند الطفل الصغير .

والمهارات لا يكفى مجرد النضج Maturation في ارتقائها بالرغم من ان الاساس في القيام بها فسيولوجي الطبيعة ، اذ يتطلب نضج الاعصاب والعضلات ومناطق المخ المتصلة بعمليات هذه المهارات ، والتحكم في اوجه النشاط الارادى المتآزر .

فبالاضافة الى النضج فان المهارات تتطلب تدريبا ، ولكن الاهم في التدريب هو كميته ونوعه ودقته ، فبالرغم ان المهارة تكتسب وتزداد اتقانا مع تكرار المرات المتتابعة ، الا ان نوع التدريب لهذه المهارات له اكبر الاثر في اتقانها وسهولة اداء حركاتها بعد ذلك ، وكما سبق ان أوضحنا في الجزء الخاص بالنضج والتدريب فان اهمية التدريب وما ينتجه من محصول وقيمة لا يحصل عليها الطفل الا اذا جاء في الوقت المناسب الذى يرتبط ارتباطا مباشرا بمرحلة النضج الخاصة بالعمليات التي تتضمنها المهارة المطلوبة . ويمكننا ان نفصل ذلك فنوضح العوامل التى يتوقف عليها اتقان الطفل لمهارة معينة :

١ ـ التدريب في السن المناسب .

٢ ـ التوجيه والارشاد بدلا من ترك الطفل ليعتمد على المحاولة والخطا في اثناء العمليات اللازمة ، وقد يحدث الارشاد حتما عن طريق تقليد الطفل لحركات احد والديه ، وحتى في هذه الحالة يحتاج الطفل الى توجيهه ليحدث التقليد باسلوب متقن بعيد من الخطا .

٣ ـ الدافع لاتقان المهارة وقد ينشأ الدافع عن طريق تحقيق الطفل للهدف الذى يصرف من اجله الوقت والجهد . فالطفل الصغير حين يبذل جهده في عملية المشى عند تعلمها ، ويجد انه قد حقق بذلك احراز الانتقال من مكانه والوصول الى الاشياء التى لم يكن يستطيع الوصول اليها في وضعه الثابت فانما يصاحب ذلك من ارتياح نفسي ومشاعر الانتصار تساعد الصغير على مواصلة بذل الجهد وتكرار العمليات اللازمة التي تؤدى الى الوصول الى الهدف .

• • •

وبعد ، فتلك عجالة عن تتبع النمو خلال مرحلتي الطفولة ، وقد قدمنا لها بمرحلة ما قبل الميلاد ، وادمجنا بها الفترات القصيرة التي بها يبدا نمو الطفل ، وبذلك جعلنا الدراسة تتضمن الطفل من وقت ميلاده الى نهاية طفولته ، اى خلال ما يقرب من اثنى عشر عاما . وقد تتبعنا خلال هذه الفترة النمو الجسمي والنمو الحركي ، وحاولنا بقدر الامكان بيان الاعمار التى تظهر فيها مراحل التغير في كل جزء من الاجزاء الهامة من جسم الطفل ، وفي كل مظهر من مظاهر نموه وكل مهارة حركية يكتسبها .

المراجـــع

(1) Hurlockb, E. : **Child development.** Mc Craw-Hill., 1964.

(2) Havighurst, R. T. : Leisure and life-style., **Amer. J. Sociology**, 1959.

(3) Shinn, M. W. : **The biography of a baby.** New York : Macmillan, 1900.

(4) Gesecll, A.: Maturation and the patterning of behavior. in C. Murchisorn (Ed), **A handbook of child Psychology.** Worecester : Clark University press., 1933.

(5) Meredith, H. V.: Adiscriptive concept of physical development., In D. R. Harris (Ed.) **The concept of development : an issue in the study of human behavior.** Minneapolis : University of Minnesota press, 1957.

(6) Duggins, O. H., and M. Trotter: Age changes in head hair from birth to maturity, **Amer. J. phys. Anthrop.**, 1950.

(7) BAYLEY, N. : Some Psychological correlates of somatic androgyny, **Child Develpm.**, 1951.

(8) Garn, S. M.: Fat thickness and growth process during infancy **Num. Biol.**, 1948.

(9) Allen, L: Facial growth in children five to eight years of age. **Hum. Biol.**, 1948.

(10) Meredith, H. V.: A time series Analysis of growth in nose hight during childhood, **Child Developm.**, 1958.

(11) Thompson, H. : Physical growth. In L. carmichael (Ed.) Manual of Child Psychology, New York : Wiley 1954.

(12) Walker, R. N.: Body build and behavior in young children, **child developm.** 1962.

(13) Massler, M., and B. S. Savara : Natal and neonatal teeth. **J. Pediat.**, 1950.

(14) Fiavell. J. H. : **The developmental Psychology of Jean piaget.** Princeton : van Nostrand, 1963.

(15) Breckenridge, M. E., and E. L. Vincent : Child Developsment philadelphia saunders, 1960.

(16) Spits, R. A. : Purposing grasping. Personality, 1951.

(17) E. L. Vincent, and P. C. Narin : **Human psychological development,** Ronald, 1961.

(18) Carmichael L. : **Manual of child psychology,** 1954.

(19) Lipsitt, L. P. and N. Levy : Electrotactual threshold in the **child Develpm,** 1959.

سيّد محمد غنيم

النمو النفسي من الطفل إلى الراشد

مقدمة

يلقى علم نفس الطفل اهتماما كبيرا من جمهرة المشتغلين بعلم النفس . وقد يكون مرجع هذا الاهتمام هو الطفل ذاته ، نظرا لما للطفولة من جاذبية شديدة نحسها نحن الكبار تجاه الاطفال . وليس من شك ان غالبية الاباء في الازمنة القديمة كانوا يحبون ابناءهم ويهتمون بتربيتهم ، كما نحبهم نحن اليوم ونهتم بتربيتهم، مع اختلاف وجهات النظر الى الطفل والطفولة . لقد اشار فيليب اريس فى استعراضه « للطفولة عبر القرون » (١٩٦٢) الى ان اطفال القرون الوسطى كانوا ابتداء من سن الثالثة او الرابعة وما بعدها يشاركون فى كثير من انشطة الكبار . ولم تكن للاطفال شخصياتهم المستقلة كاطفال . وقد تطلب الامر مرور مئات السنين فى الازمنة الحديثة ، قبل ان تتغير نظرتنا الى الاطفال عام ، باعتبار ان لهم شخصياتهم المتميزة عن شخصيات الراشدين . وقد سار المجتمع الحديث خطوات واضحة في فصل عالم الاطفال من عالم الكبار .

والاهتمام الكبير بعلم نفس الطفل أمر تمليه ضرورة فهم الطفل الذى نتعامل معه . فقد أصبح لزاما على الآباء والمربين أن يفهموا الأطفال من أجل أن يتوافقوا معهم ومع مشكلاتهم التى يواجهونها ، وأن يساعدوهم على حل هذه المشكلات بما يهيىء المجال أمام نمو نفسي سليم. فمن خلال الدراسة المنظمة لعملية النمو النفسي والاجتماعي للطفل يمكن أن نقف على ما هو عادى وما هو شاذ فى سن معينة ، وأن نعرف الكثير من جوانب شخصيته ، وأن نوجهه التوجيه السليم الذى يتوافق مع مرحلة نموه والظروف التى يعيش فيها . وقد يكون هذا الاتجاه من نتاج الأفكار الحديثة ، اذ لم تكن ثمة حاجة قديما ، لفهم الطفل ولا حتى معرفة خصائص المرحلة النمائية التى يمر بها ، كما كانت تسود علاقته بالكبار بعض الافكار التى أثرت فى نظرتهم اليه وأسلوب معاملتهم معه ، فهو مثلا يرى ولا يسمع ، ومن ثم لسنا فى حاجة لمعرفة ما يجرى فى عقله من أفكار أو ما يتكون لديه من ميول واتجاهات . ولقد حدث تغير ملحوظ في تفكيرنا عندما بدأنا ننظر الى التربية كشيء ضرورى بالنسبة للطفل ، وكان هذا التغير نتيجة لما طرأ على العالم من تغير اجتماعي ومن ثورة صناعية ، وما نجم عن ذلك من تغير فى اقتصاديات هذا العالم ، والأدوار الوظيفية المعقدة التى ظهرت والتى لايمكن اكتسابها عن طريق التقليد أو النموذج على نحو ما كانت تسير عليه التربية القديمة .

واذا كان النظام التربوى القديم يتسم بالشدة والصرامة فى معاملة الطفل ، الا ان عقلاء المفكرين والمربين سرعان ما أدركوا أهمية الدافعية وأن « **الحصان الذى يقاد الى الماء قسرا لايشرب بالضرورة** حتى لو ضرب » ، كما أدركوا أهمية الفروق **الفردية بين الأطفال فى النواحى الجسمية** والعقلية والانفعالية وفى الشخصية . ومن هنا ظهرت الحاجة الماسة الى ضرورة ادخال تعديلات على مناهج الدراسة كى تتلاءم ومستويات نضج الطفل . واذا كان الالتحاق بالمدارس الى عهد قريب قاصرا على طبقات معينة يمكنها الانفاق على العملية التعليمية ، فقد أصبح اليوم عاما واجباريا . واذا كان الوقت الذى يقضيه الطفل فى المدرسة قليلا في البداية ، فقد أصبح في الغالبية العظمى من أنظمة التعليم فى العالم اليوم ، يمثل جانبا كبيرا من ساعات نهار الطفل ، هذا بالاضافة الى انشغاله بعد عودته من المدرسة ، بالكثير من الواجبات المدرسية . وقد تطلب هذا الامر وجود قدر كبير من المهارات والقدرات لمواجهة هذه الواجبات ، مما دعا المدرسين الى الاستعانة بعلماء نفس الطفل للاجابة على كثير من المشكلات التي تواجههم فى العملية التعليمية .

غير ان المشكلات التى تواجه المدرسين ليست شيئا بالقياس لتلك التى تواجه الآباء فى تربيتهم للأبناء ، فحين يصبح الآباء أكثر تعلما وتثقفا وادراكا ووعيا ، فانهم يبدأون فى اثارة الكثير من الشكوك حول الرغبة فى الاتجاه الى أسلوب التربية أو النظام الذى تربوا هم أنفسهم عليه . فربما كانت هناك الرغبة الشعورية أو اللاشعورية في أن يكون أسلوب تربيتنا لأبنائنا أفضل بكثير من أسلوب تربية آبائنا لنا . ومن ثم أصبح أسلوب « التعقل والفهم » هو الاسلوب السائد اليوم ، أما الاتجاه الى توقيع العقاب والضرب ، فانه ـ اذا حدث ـ يكون للذنب وقع

فيه الطفل ، او يكون نتيجة احساس شخص بالفشل . والواقع ان معظم الاسر اليوم تتخذ اسلوب الفهم والتعقل في معالجة مشكلات ابنائها ، كما تغيرت الكثير من المفاهيم والافكار عن الطفل . فهو اليوم يرى ويسمع ، بل ويؤثر الى حد ما في قرارات الاسرة وخاصة اذا ما حفزناه الى القيام بمثل هذه المشاركة . والحقيقة ان هذا التغير هو نتيجة لرغبتنا في ان نصبح اكثر ديموقراطية في اسلوب معاملتنا مع الآخرين . ففي المجتمعات الاكثر تقليدية ، تقاس قيمة الفرد الى حد كبير بمركزه ووضعه في البناء الاجتماعي . ولما كانت مثل هذه المجتمعات متجهة نحو الكبار ونحو سيطرة الرجال ، فان مركز الطفل والمراة كان فيها وضيعا ومغبونا او مهملا ، ونادرا ما كانت تسمع آراؤهم كافراد .

وثمة سبب آخر للاهتمام الموجه نحو دراسة علم نفس الطفل في السنوات الاخيرة يتلخص في الرغبة في فهم انفسنا كراشدين . فاخذ الاساليب الهامة لفهم الذات او اكتشافها يكمن في دراستنا لسيكولوجية الطفل . فمن خلال دراستنا للطفل ، يمكن ان نعثر على بعض المفاتيح لمعرفة غموض انفسنا ومعرفة من نحن . اننا جميعا ندرك اننا الآن وبالتاكيد اكثر مما كنا عليه في طفولتنا ، وان اكتشافنا للاحداث والخبرات التي مرت بطفولتنا من شانه ان يملأ الفراغ القائم بين انفسنا في الطفولة وانفسنا اليوم . فنحن ندرس تقارير هذه الاحداث والخبرات التي مرت بنا في الطفولة ، بحثا عن انفسنا ، وعن تفسيرات لنجاحنا او فشلنا ، وعن نواحي الكف والاعاقة التي تعرضنا لها ، واثرها في سلوكنا وقدراتنا وامكانياتنا . وكما يقول **كونجر وموسن وكيجان** ان دراسة سيكولوجية الطفولة تزودنا بالاساس الذى لا بد منه لكي نفهم سلوك الراشدين فهما اكثر دقة . فالبيانات الاكلينيكية المستمدة من تواريخ الحالات الخاصة بالمجرمين والمرضى في العيادات والمستشفيات العقلية تكشف لنا عن ان سوء التوافق الشخصي والاجتماعي الذى يشيع بين الكبار يعود بصفة دائمة تقريبا الى الخبرات التي يقيمها الفرد في حياته المبكرة . ولقد كان لسيجموند فرويد ، ابي التحليل النفسي ، الفضل في ان اظهر بقوة ما لاحداث الطفولة من اهمية ، كما استطاع بتحليلاته النفاذة للمرضى الذين كان يعمل معهم ان يوضح صدق قول الشاعر « الطفل ابو الرجل » **(الترجمة العربية ١٩٧٠) .**

• • •

● المجالات والطرق والنظريات :

ويهمنا الآن ان نلقى نظرة على مجالات دراسة الطفل وتطورها ، والطرق التي استخدمت في هذا المجال بما يسمح لنا بالقاء المزيد من الضوء على النظريات التي عالجت النمو النفسي للفرد في طفولته ورشده ..

ولنبدا الآن بمجال دراسة الطفل :

ارتبطت دراسة الطفل — كمجال من مجالات الاهتمام — بغيرها من المجالات الكبرى . اذ تمتد اصولها القديمة الى الفلسفة والتربية والتاريخ الطبيعي ، كما ترتبط حديثا بمصادر

كثيرة مثل علم النفس التجريبي وعلم النفس الاكلينيكي والطب النفسي والفسيولوجيا وطب الاطفال وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا واللغويات. ورغم اختلاط أصوله، فمن الممكن النظر اليه باعتباره مجالا شبه مستقل. ومع ذلك فحدوده لاتزال غير محددة، كما ان اهدافه واهتماماته متنوعة. ومن الممكن ان نشير الى ثلاثة مجالات ينقسم كل منها الى قسمين، تعتبر بمثابة اطار لجميع الوان النشاط التي تجرى في هذا الميدان.

فالدراسة قد تتجه اولا : اما الى ناحية البحث او الى ناحية التطبيق، اى اما الى الكشف عن كيف يعمل الطفل، وكيف ينمو، او الى القيام بعمل اشياء للطفل ومن اجل الطفل. ومجالات التطبيق المتصلة بالطفل كثيرة ومتعددة تتجلى في مجالات العيادات النفسية، وعيادات الطب النفسي، وفي التوجيه المدرسي، ومحاكم الاحداث وفي برامج توجيه الآباء والابناء.

وقد تتجه الدراسة ثانيا : اما الى الطفل العادى أو الى الطفل الشاذ. اعنى اما الى النمو الذى يسير سيره الطبيعي او الى النمو الذى يشذ عن الطريق العادى او الطبيعي.

وقد يتجه مجال الاهتمام ثالثا : اما الى الطفل نفسه وما يجرى به داخليا من عمليات عقلية ونفسية وما يعتريه من انفعالات، او الى البيئة المحيطة به وكيف تؤثر في سلوكه ونموه من خلال عملية التطبيع الاجتماعي التي تأخذ بها الطفل منذ وقت مبكر في عملية نموه.

ومع ذلك، وبصرف النظر عن ناحية الاهتمام، فان الهدف هو معرفة شيء او الكشف عن شيء يتصل بالطفل. ولقد تعددت النواحي التي يركز الباحثون عليها دراستهم للاطفال. فالبعض يهتم بالاطفال كاطفال، اى باعتبارهم مجموعة فرعية مستقلة عن الكبار، وبالطرق المميزة التي يسلك بها الاطفال جميعا او الاطفال في سن معينة او الاطفال من نوع خاص او الاطفال الذين يعيشون تحت ظروف بيئية معينة على نحو ما يتضح في دراسات **وودكوك (١٩٤١)** ، **وبايير وميرفي (١٩٤٢)** وكذلك في دراسات **جيزل** المستعرضة التي اجراها على اعمار خاصة.

اما البعض الآخر فقد ركز الاهتمام على كيف يتغير الطفل اكثر مما ركزه على كيف يسلك في وقت معين. وهذا الاهتمام بالتغيرات النمائية قد يتركز على التغيرات الجسمية، او على النمو العقلي او على النمو الانفعالي أو على النمو عامة. والامثلة في هذا الصدد لا حصر لها ويكفى الرجوع الى ما كتبته اليزابيت هرلوك وشارلوت بهلر وارنولد جيزل وجان بياجيه وجوردون البورت وغيرهم كثيرون.

وثمة جماعة ثالثة ركزت اهتمامها على عملية النمو ذاتها مستقلة الى حد كبير أو صغير عن الشيء النامى؛ طفلا كان ام حيوانا ام حضارة. وهذا الاتجاه يتضح على وجه الخصوص في كتاب هاينز فرنر حيث تساءل في مقدمة كتابه « علم النفس المقارن للنمو العقلى » عن ما هو علم النفس النمائي وما مشكلاته ؟ ورد على ذلك بقوله : ان مفهوم علم النفس النمائى يتضح تماما اذا فهمنا انه يعنى العلم الذى يختص بدراسة نمو الحياة العقلية والذى يتخذ منهجا محددا، ونعنى به منهج ملاحظة الظواهر السيكولوجية من وجهة نظر نمائية.

وهناك جماعة رابعة تهتم بدراسة اطفال مفردين ، وكيف يؤدون وظائفهم ، وكيف ينمون وذلك اما بقصد التشخيص الاكلينيكي ، أو بقصد البحث في نواحي الشخصية أو نمو الشخصية وديناميتها على نحو ما يتضح في دراساته ميرفي عن المهارات والمصادر التي يستعملونها مع البيئة .

واخيرا يمكن أن نشير الى الدراسات التي تجرى بطريقة عرضية على الاطفال والتي يستخدم فيها الاطفال كموضوعات للدراسة التجريبية ، لا لان الباحث يهتم بمعرفة شيء عن الاطفال ، ولكن لأن الاطفال هم الاشخاص الذين في متناول يده ، ويمكنه ان يجرى عليهم ابحاثه وتجاربه باعتبارهم عينات للجنس البشري عامة. ومن أهم دراسات هذا النوع تلك التي تتصل بأبحاث التعليم ، سواء اجريت في المعمل أو في الفصل ، والتي تحاول أن تحدد الظروف الخارجية للتعليم ، والتي يمكن فيها ان يستخدم الكبار أو الفيران مكان الاطفال . ومع ذلك يمكن القول انه حتى في هذا النوع من الدراسات التي لا تخبرنا بشيء عن الاطفال من حيث هم كذلك ، فقد يكون لها اهمية تطبيقية بالنسبة للمدرسين او الآباء .

وهكذا يتبين لنا أن دراسة الطفل تمثل لنا اشياء كثيرة مختلفة يمكن ان يقوم بها اناس كثيرون مختلفون .

• • •

● طرق البحث في دراسة النمو

ليس الهدف هنا تقديم عرض تفصيلي لمناهج البحث ، بقدر الاشارة الى بعض الطرق الاساسية والافكار المنهجية التي ظهرت كادوات خاصة في دراسة النمو . وقد وصلت الينا هذه الادوات من مجالات متعددة ، ومن وجهات نظر مختلفة في دراسة الطفل . ولذا يحسن النظر اليها في ضوء المشكلات والفروض التي اوجدتها ، أمني في ضوء نظرة تاريخية نربط فيها بين الادوات والحقب الزمنية أو التاريخية التي ظهرت فيها ، بشكل يلقى لنا الضوء على تطور استخدام هذه الادوات في دراسة الطفل .

ومن الممكن ان نتتبع بالدراسة اربعة انواع من الادوات الرئيسية هي : طرق الملاحظة ، **والطرق المعملية** ، **والاختبارات والمقاييس** ، **والطرق الاكلينيكية** . وكل طريقة منها تقابل حقبة زمنية ظهرت فيها . وهذه الحقب الزمنية الاربع هي **الحقبة الطبيعية** Naturalist Era والتي بدأت في القرن الثامن عشر وبلغت ذروتها في منتصف القرن التاسع عشر ، وحقبة علم النفس التجريبي القديم ، والتي بلغت ذروتها في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، ثم حقبة الفروق الفردية والتي سادت الثلث الاول من القرن العشرين ، ثم حقبة دراسة الشخصية والتي بلغت ذروتها في السنوات العشرين الاخيرة من هذا القرن . وهذا التقسيم التاريخي يقوم على المفهوم المتغير للفرد على نحو ما سوف يتضح من خلال المناقشة التالية لها.

اولا : الحقبة الطبيعية : من المعروف لنا ان الاهتمام بدراسة الطفل ليس وليد العصر الحديث ، بل يمتد الى عهود قديمة . فقد وردت في الكتب السماوية ما يشير الى تربية الصغار وتقويمهم ، وكذلك في النظريات التى نادى بها افلاطون في الجمهورية ، وفي كتابات المحدثين من الفلاسفة من امثال جون لوك ، وجان جاك روسو وغيرهما عن تنشئة الطفل . لقد كان جون لوك (١٦٣٢ ــ ١٧٠٤) من اوائل المفكرين الذين مهدوا لهذه الحقبة ، فناقش الكثير من الافكار القديمة التى تتصل بتربية الطفل ونشر سنة ١٦٩٣ مقالته « بعض الافكار المتصلة بالتربية » نصح فيها المربين بترك الحرية للطفل كي يعبر عن مشاعره ، والا تقيد حريته الا قليلا. ولم يكن يتفق والآراء التى تذهب الى تدريب الطفل على الصبينة ، او تاجيرهم للعمل ، لان من واجب الآباء ان يهتموا بتربية ابنائهم وان يبقوا الى جوارهم ما امكنهم ذلك . وكون الاباء نماذج طيبة امام الابناء هو احسن نمط يمكن التاثير به في شخصية الابناء . ولقد كان **لوك** احد المفكرين الاقوياء من اصحاب التاثير في تنمية الاسلوب العلمى . فرفض الاعتقاد بان المعرفة فطرية ، واكد ان كثيرا من معرفتنا انما مبعثه الاحتكاك بالبيئة ، وان هذه النتائج يجب أن تدعم من خلال الطرق التجريبية . وتعتبر اعمال لوك في الادراك الحسى والتذكر وتداعي الافكار والانفعالات ونمو اللغة من الاعمال التى ساهمت فيما بعد في ارساء قواعد علم النفس التجريبى .

وثمة مفكر آخر كان له تاثير عظيم على الاتجاهات نحو الاطفال ونعنى به **جان جاك رسو (١٧١٢ ــ ١٧٧٨)** والذى رفض ــ شانه شان لوك ــ الكثير من الافكار التى كانت سائدة في العصور الوسطى عن الاطفال . **ان ما نخرج به من قراءتنا لروسو هو الاحترام الكبير للاطفال كافراد .** فمثلا يجب الا يفسر الآباء على اعتذار الطفل لانه لا يهدف بطبعه الى القيام بالخطيئة. انه مخلوق طيب بطبعه ، وان ما يفرضه مجتمع الكبار عليه من قيود وتحريات هو الذى يعرقله ويضطره الى ان يكون شخصا اقل نبالة وفضيلة، وقد كانت نظرته تخالف ما تواضع عليه المجتمع فدعا الى تشجيع الطفل على ان يعبر تعبيرا حرا غير مقيد عن نوازعه الاصيلة التى هى في جوهرها واصلها نوازع نبيلة .

لقد بدات لحقبة الطبيعية في اواخر القرن القرن الثامن عشر حين اخذ نفر من الباحثين في دراسة الاطفال باستخدام منهج الملاحظة الفعلية . من ذلك ما قام به المربى السويسرى **جوهان هاينريش بستالوتزى** (١٧٤٦ ــ ١٨٢٧) من نشر مذكرات تقوم على الملاحظة الدقيقة التى قام بها لنمو ابنه الذى يبلغ من العمر الثالثة والنصف . وقد أعلن هو الآخر اهمية فهم الاطفال وسلوكهم . وقد نظر الى الام باعتبارها اول واهم مرب للطفل ، وحفزها على ان تصدق مشاعرها نحو الطفل ، وان تفتح امامه آفاق هذا العالم وتعده لاستخدام حواسه وتقوية ملاحظته .

وفى القرن التاسع عشر بدات تظهر سلسلة متتابعة من تراجم حياة الاطفال . فقد قدم العالم المشهور تشارلس داروين (١٨٠٩ ــ ١٨٨٢) من بين اعماله العديدة ، مقالة اورد فيها ملاحظاته عن طفله الاول . كما قدم العالم الفسيولوجى **ولهلم تيرى براير Preyer** ملاحظاته الدقيقة عن النمو العقلى لطفله خلال السنوات الاربع الاولى من حياته .

لقد لاحظ نمو الانعكاسات منذ الولادة ، كمالاحظ اثر الخبرة والتعلم . ويعد كتابه « **عقل الطفل** **The Mind of the Child** » وهو خلاصة ملاحظاته أحد أمهات الكتب القديمة فى علم نفس الطفل .

فالمنهج الطبيعى فى دراسة الطفل ـ شأنهشأن المنهج الطبيعى فى علم البيولوجيا ـ يقوم اساسا على الملاحظة والتسجيل الدقيقين لمايقوم به الطفل فى موقف طبيعى وفي مجالنشاطه اليومى . فلم يكن الاهتمام موجها اذن بوجهعام **نحو تحليل او معالجة التغيرات في الموقف** بقصد دراسة الانواع الخاصة للاستجابات أوالتأثير على النمو .

وثمة مظهر آخر لمنهج الطبيعين ونعنى بهالدراسة الطولية Longitudinal والتى تقوم على تكرار الملاحظات على نفس الفرد فى فتراتمتعاقبة (وهذه الطريقة الطولية تختلف عن الطريقة المستعرضة Cross-Sectional حيثتدرس النمو بمقارنة اطفال مختلفين في اعمار مختلفة) .

والحقيقةان الكثير من ملاحظات الطبيعيينالقدامى تبدو لنا اليوم بسيطة وساذجة . فهى ملاحظات غير منهجية ، وتتم على فتراتغيرمنتظمة ، وطالما انها كانت **تفتقر الى المقارنات بين الاطفال وبين المواقف** والظروف المختلفةللنمو بين الملاحظين ، فانها كانت اذن دراسات غير مضبوطة تماما . هذا بالاضافة الى انالملاحظين فى الاغلب كانوا لا يحجمون عن اقحام مشاعرهم الذاتية وتفسيراتهم الشخصية علىما يرونه من سلوك الطفل ، والذى هو في الاغلب ابنه او احد اقاربه . ومع ذلك ، ورغم كل هذهالانتقادات ، فلا تزال مثل هذه التراجم الاولى مصدرا ثروة للمادة العارضة في نمو الطفل . كماانها تعد بمثابة دراسة للفردية بالمعنى الحديث فالباحثون القدامى كانوا يوجهون اهتمامهم الىدراسة سلوك الطفل « بعامة » اكثر من اهتمامهم **بدراسة النواحى التى يختلف فيها طفل عنالآخر** .

وبطبيعة الحال استمر المنهج الطبيعىفى خلال الحقبة الثانية وهى حقبة علم النفس التجريبي القديم ، ولكن بصورة معدله وحتىوقتنا الحاضر . فالباحثون القدامى الذين اهتموا بدراسة الطفل كانوا اساسا طبيعيين فىاتجاهاتهم ولكنهم بدأوا فى تكييف مناهجهم القديمة مع الاتجاه التجريبى الجديد . ومن ثمنجد **سير ستانلى هول (١٨٤٦ – ١٩٢٤)** والذى كان مهتما ببحث « محتويات عقول الاطفال »**يلجأ الى استخدام منهج جديد للبحث هو منهج** الاستخبار questionaire والذى يتالفمن سلسلة من الاسئلة وضعت للحصول على المعلومات عن سلوكالطفل والمراهق ، واتجاهاتهماواهتماماتهما ،كما كان يجمع الاستجابات المكتوبة على هذه الاستخبارات من كل من الاطفال وآبائهمعلى السواء . ويمكن القول أن عمل «هول»الذى استمر فى القرن العشرين يحدد بداية الدراسةالمنظمة لعلم نفس الطفل . لقد بدأ يركز الانتباه على جوانب معينة من نشاط الطفل ، كما انهيعد من الناحية المنهجية **أكثر موضوعية** من المناهج الفلسفية وتراجم الحياة ، هذا بالاضافةالى مكان معالجة نتائج هذه الاستخبارات في صورة كمية .

ثانيا : حقبة علم النفس التجريبى القديم: وعلى خلاف الطبيعيين الذين اهتموا بالتركيز على الوظائف الكلية للطفل — والطفل دائما — فان التجريبيين الاول قد ركزوا اهتمامهم على دراسة الوظائف الجزئية كعمليات التفكير والتذكر والادراك والتصور وما أشبه . ولكنهم كانوا يشبهون الطبيعيين فى ناحية البحث عن القوانين العامة او الصور الكلية لهذه الوظائف المجردة النقية . ومن اجل البحث وراء العمومية والنقاء ، تركوا المجال الطبيعى ودخلوا المعمل حيث يمكن تجنب الكثير من تعقيدات الحياة اليومية وتعقد الظروف فيها . وفى المعمل يمكن استخدام الطرق السيكوفيزيقية وتغيير الظروف بشكل منتظم واستخدام كل ظرف على حدة . ولجعل الظروف نقية تماما لجأ بعضهم الى تخليص المثيرات ، قدر الامكان ، من جميع المعانى على نحو ما فعل ابنجهوس فى تجاربه المشهورة على التذكر ، والتى استخدم فيها مقاطع صماء عديمة المعنى ، كما انهم في بحثهم عن العمومية نظروا الى الفروق الفردية التى توجد بين الافراد فى الاستجابة للمثيرات المختلفة باعتبارها شوائب تجريبية او اخطاء فى القياس ، ولجأوا الى تكرار الاقيسة من اجل الحصول على متوسطاتها . وبالمثل لم يكن يرحب هؤلاء بالتغيرات او الاختلافات في الفروق النمائية . فالتجريبيون الاول كانوا مهتمين اساسا بالوظائف الجزئية عند الكبار ودراستها فى ظروف نقية قدر الامكان ، بقصد الوصول الى القوانين العامة التى تخضع لها . ولذا كان نصيب التجريب المعملى على الاطفال فى هذه الحقبة السيكوفيزيقية المبكرة ضئيلا .

ولكن بعد ذلك ، اخذ علماء النفس المعملى يوجهون اهتمامهم نحو التغيرات النمائية ، واجريت دراسات على التغير مع السن فى مظاهر السلوك المختلفة مثل زمن الرجع ، وفترات التذكر والنسيان وحل المشكلات وغيرها .

يضاف الى ذلك ان المناهج التجريبية فى المعمل اصبحت قابلة للتطبيق على عدد كبير من المشكلات خارج جدران المعمل حيث يمكن دراسة الآثار المباشرة والبعيدة المدى لظروف اكثر تعقيدا ، مثل دراسة القيادة التسلطية ضد القيادة الديموقراطية ضد القيادة المطلقة ، او دراسة منهج تعليم القراءة عن طريق السمع فى مقابل البصر . والواقع ان المنهج الاساسى للتجريب والذى استعير من السيكوفيزيقا يتطلب فقط ضبط الظروف والمقارنة بينها .

ثالثا : حقيقة الفروق الفردية ثم ظهر مجال جديد من مجالات الاهتمام فى علم النفس العلمى في السنوات الاولى من القرن العشرين . لقد اخذ هذا الاتجاه الجديد مظهرين : الاول النظر الى الناس على اساس وجود سمات متعددة لديهم . والثانى كيفية توزيع هذه السمات على المجموع العام من الناس . فمجال الاهتمام والتركيز فى هذه الحقبة لم يكن منصبا على طبيعة الوظائف العقلية او العمليات العقلية المفردة — كما كان فى الحقبة السابقة ، بل على مقدار وجودها وتوزيعها بين الناس .

والفكرة الاساسية التى يقوم عليها هذا الاتجاه ، هى تلك العبارة التى دوى صداها في تلك الايام والتى تعزى الى **ثورنديك** حيث يقول « ان كل ما يوجد ، يوجد بمقدار ، وكل

ما يوجد بمقدار يمكن قياسه » . وفي هذه الحقبة ، كانت الاختبارات كأداة ، هي موضع اهتمام بالغ لدى علماء النفس . فمع بداية الحرب العالمية الاولى ظهرت الحاجة ماسة الى اجراء الاختبارات السيكولوجية على نطاق واسع على المجندين الجدد في الجيش ، ومن ثم ظهر العديد من اختبارات الذكاء . وكان من نتيجة ذلك ايضا ان ظهرت الاختبارات الجمعية التي يمكن ان تطبق على عدد كبير من الافراد في وقت واحد . وبعد الحرب استخدمت الاختبارات العقلية على نطاق واسع في مجال المدرسة وميدان التعليم . ومن قياس الذكاء انتشرت الاستخدامات المختلفة للاختبارات ، فاستخدمت في قياس القدرات الخاصة عند الفرد كالقدرة اللغوية أو الرياضية أو الميكانيكية او الموسيقية ، كما استخدمت ايضا في قياس الشخصية .

ومن ائمة حركة القياس تذكر **جالتون وجيمس ماكيدكاتل وثورنديك وترستون وترمان وسبيرمان** وغيرهم كثيرون ممن اتى بعدهم . وكانت حركة القياس والتي تعرف الآن باسم « السيكومترية » ظاهرة من ظواهر علم النفس الامريكي ، وان كانت هذه الحركة قد بدأت اولا في فرنسا على يد طبيب فرنسي مشهور هو « الفرد بينيه » ويعتبر بينيه احد الرواد الاول في قياس الذكاء ، حيث وضع اختباره المشهور هو وزميله سيمون والذي عرف فيما بعد باسم «مقياس استنفورد ـ بينيه ـ للذكاء » ـ والذي خرجنا منه بفكرة هامة في قياس **الذكاء هي فكرة العمر العقلي . وكانت هذه** الفكرة هي بداية كثير من الافكار التي من هذا النوع والتي استخدمت على نطاق واسع بعد ذلك في دراسة الطفل : كالعمر التحصيلي والعمر التعليمي والعمر القرائي الخ .. ومن المهم ان نلاحظ ان قياس السمات على اساس العمر او اى مقاييس اخرى هو دائما نسبي بالنسبة للمجموع العام من الناس . ومع ذلك فقد عولجت في الاغلب كما لو كانت مقاييس مطلقة تعبر عن المقدار الفعلي للذكاء او اى سمة اخرى لدى الفرد .

ويجدر بنا ان نشير الى ان اهتمام السيكومتريين الاول بالفروق الفردية كان في الحقيقة موجها الى اختلاف الجماعات في سمة ما في وقت واحد ، وليس الى الطريقة التي بها يختلف فرد عن آخر . ومع ذلك ، فقد طبقت المقاييس العقلية على الافراد بقصد التصنيف التربوى او المهني . واستخدام اختبار بينيه اساسا كوسيلة تساعد على تقدير قدرة الفرد على التعليم ، وفي التمييز بين العاديين وغير العاديين .

ولقد حاول نفر من **السيكومتريين** بعد ذلك الوصول الى تقدير شامل للفرد بتحديد درجته في مجموعة من الاختبارات توضع لقياس سمات مختلفة . ورغم ان هذه الطريقة مكنت المختبر من وضع عدد من الاحكام المستقلة المنفصلة عن الفرد موضع الدراسة ، الا انها لم تبين لنا كيف ترتبط هذه السمات بعضها ببعض .

وغالبا ما يركز السيكومتريون على وسائل القياس ذاتها ، وعلى الانماط العامة لتغير الجماعة في حدود منحنى التوزيع الاعتدالي ، واغفال الافراد موضوع الدراسة (او حتى السمات) . وعلى الرغم من استخدام الاطفال كافراد عند تطبيق الاختبارات ، الا ان الاهتمام

الرئيسي لحركة القياس لم يكن موجها الى دراسة طبيعة الطفل كطفل . ولكن حديثا ، اصبح المختبرون اكثر مرونة في تفسير نتائج القياس ، واصبحت الاختبارات وسيلة ضرورية وهامة في دراسة الطفل .

ولكن كي تكون النتائج التى نحصل عليها من استخدام الوسائل السيكومترية مفيدة ونافعة ، يلزم ان تتوفر فكرتان اساسيتان في نفس المقياس ونعنى بهما الثبات والصدق .

اما **الثبات** فمعناه ان المقياس يعطى اساسا نفس التقدير عند اعادة تطبيقه على الافراد .

اما **الصدق** فمعناه ان الاختبار يقيس ما وضع لقياسه . والاختبار الجيد يمكننا من التنبؤ بما سيكون عليه سلوك الطفل او الفرد بوجه عام . فمثلا اختبار الذكاء يمكننا من التنبؤ بمدى تحسن التلميذ او الطفل في المدرسة ، ومدى استعداده للدراسة في مستقبل ايامه . ولكن الاحكام الخاصة باداء الطفل في المدرسة ليست ثابتة تماما ، حيث تتأثر بعدد كبير من العوامل الاخرى غير الذكاء . وعلى العموم ، فنتائج اختبار الذكاء ترتبط ارتباطا عاليا بالتحصيل ، اعنى ان الذين يحصلون على تقديرات عالية في اختبار الذكاء ، يحتمل ان يكون تحصيلهم الدراسي عاليا ، كذلك والعكس لكن تحدث استثناءات فردية يمكن أن ترجع الى خطأ في احكام المدرسين انفسهم او الى عمل عدة عوامل اخرى تتدخل الى جانب الذكاء او الى الاختبارات ذاتها .

ويجب الا يظن القارىء ان الاختبارات كانت هى وحدها الادوات الجديدة التي استخدمت في هذه الحقبة الخاصة بالاقيسة العقلية . ذلك ان مناهج الملاحظة التى اتبعت في الحقبة الطبيعية قد عدلت واخذت هى الاخرى صورة كمية . فقد ظهرت لدينا طريقتان جديدتان انتشرتا انتشارا واسعا ، ونعنى بهما مقاييس التقدير rating scale والعينة الزمنية time sample وهذه الاخيرة بالذات وضعت للاستعمال مع الاطفال ، وعلى العموم فقد استخدمت كلا منهما استخداما واسعا في دراسة الطفل .

وطريقة مقياس التقدير طريقة يحدد فيها الحكم Judge درجة الفرد بالنسبة لسمة او مجموعة من السمات كالامانة والتعاون والخضوع او السيطرة . ويمكن ان يكون هذا التقدير نسبيا اى بالنسبة لاعضاء نفس الجماعة التى ينتمي اليها الطفل في ضوء قوائم وضعية توضع لذلك ، او قد يكون تقديرا تقريبيا كما يقوم على اساس الاحساس الذاتي للحكم . وتقوم التقديرات في هذه الحالة على اساس الملاحظات الخاصة التي يقوم بها الحكم للسلوك الخاص للطفل ، او المواقف الخاصة او على اساس المعرفة الطويلة الأمد بالطفل على نحو ما هو الحال في تقدير الاباء والمدرسين للطفل . وبمقارنة تقديرات نفس الطفل على نفس السمة في اوقات مختلفة ، او بالنسبة لتقديرات حكام مختلفين يمكن ان نصل الى معرفة **لمدى ثبات هذه التقديرات** . وعندما تتوفر للتقديرات درجة ثبات عالية ، فان التقديرات تسمح لنا في هذه الحالة باجراء مقارنات بين الافراد ، وبين الجماعات او بين الظروف ــ على نحو ما يحدث بالنسبة لمناهج التدريس ــ التى تؤثر في الافراد او الجماعات . ويمكن ان تطبق التقديرات على الاشياء كما تطبق

على الاشخاص ، على نحو ما تستخدم مثلا في الحكم على رسومات الاطفال تحت ظروف مختلفة . وتعتبر تقديرات الذكاء احدى الوسائل الهامة التى تستخدم فى تقدير صدق اختبارات الذكاء ، رغم أن الاختبارات يقصد منها في الحقيقة ان تحل محل هذه النتائج اللاتية . والمشكلة الرئيسية فى مقاييس التقدير هى في الواقع تحديد السمات المراد تقديرها بحيث يمكن ان تطبق بطريقة مفهومة على جميع الافراد.

اما النوع الثانى ونقصد به العينة الزمنية فهى طريقة من طرق الملاحظة يتركز فيها انتباه الملاحظ على حدوث او عدم حدوث أنواع من السلوك تحدد سلفا ، وتعتبر ممثلة للسمة المراد دراستها. وتجرى الملاحظات على عدد محدود من الاطفال فى فترات زمنية ، وتحدد من قبل وتعطى عينة من نشاط الطفل بصرف النظر عن التأثيرات العارضة ، كالحالة المزاجية للطفل أو الاحداث الخاصة وما شابه . فمثلا استخدمت طريقة العينة الزمنية فى دراسة العلاقة بين كون الطفل لديه عدد قليل او كثير من اللعب ، وبين تكرار انفجارات او ثورات الغضب والعدوان لديه ، وظهور او انتشار سمات معينة كالعصبية والاتجاهات الاجتماعية فى اعمار مختلفة او تحت ظروف مختلفة .

وهناك اتجاه آخر ظهر فى الحقبة السيكومترية يلقى الضوء على الاهتمام بالفردية في الحقبة التى تلى ذلك ، ونعنى به ظهور عدد من **الدراسات الطولية** . ولكن ابتداء من اعمال ستانلى هول تحولت معظم دراسات نمو الطفل الى دراسات مستعرضة ، اى مقارنة اطفال مختلفين في اعمار مختلفة . وهذه الطريقة المستعرضة اثارت مشكلة منهجية خطيرة وهى هل وصف عمليات النمو التى تقوم على اساس مادة مستمدة من افراد مختلفين فى اعمار مختلفة، يمكن ان تعتبر حقا دراسة أو وصفا للنمو، وكانت الدراسات الطولية التى اجريت للاجابة عن هذا السؤال هى تخطيط النمو بالنسبة لنفس الافراد منذ الولادة وما بعدها ، وقد أوضحت بالطبع أن منحنيات نمو الافراد تختلف اختلافا دالا عن المنحنيات التى تجرى لها تسويات والتى تقوم على أساس متوسطات الجماعات .ونحن ندين للدراسات الطولية بمعرفة فترات الكمون والطفرات فى النمو ، والمسالك النمطية للنمو والتى يسير فيها الافراد المختلفون . ورغم تركيز الباحثين على النمو الفردى ، فان دراسات النمو قد نظر اليها داخل اطار الاقيسة ، كما ركزت على الطرق السيكومترية او مقاييس السمات الجسمية .

رابعا : **حقبة دراسة الشخصية** : ان علم النفس يهتم اساسا بمعرفة كيف يسلك الناس .والسيكولوجيون العلميون الاول وكذلك السيكومتريون ، كانوا مع ذلك مهتمين اساسا بالمشكلة الفنية ، وهى كيف يمكن فصل العمل الانسانى من اجل الدراسة السهلة . ولكن ابتداء من منتصف الثلاثينات كان هناك احساس متزايد بالشكوى من مصادر متعددة من ان دراسة الانسان انتهت الى أن تصبح دراسة اجزاء متعددة ، وان الوقت قد حان الى النظر اليه ككل ، وتجمع هذه الاجزاء فى كل متكامل .لانه اذا نظر للكائن الحى جزءا جزءا ، فان الخصائص الانسانية المميزة التى تنتمى الى هذا الكل النامى تميل الى الاختفاء : مشاعره واحساساته واهدافه واسلوبه الشخصى .

فالفرد ليس حزمة بسيطة من السمات التي يمتلكها بمقادير تتفاوت في الكبر والصغر . فسماته المتعددة انما تخضع ـ وظيفيا في نمط منظم ـ الى اهتماماته الانسانية الخاصة ، وانه مهما كانت لديه سمات مشتركة بينه وبين الاشخاص الآخرين ، فان هذه السمات تأخذ معناها الفردي الخاص بالنسبة للمحتوى العام الذي يتميز به سلوك الفرد . والحقيقة انه تحت تأثير مدرسة الجشتلت ومدرسة التحليل النفسي ، اصبح علماء النفس أكثر اهتماما بمفهوم الشخصية ودراستها وطبيعة الفردية، وكيف ينتظم الناس مع هذه الطبيعة . واذا كان السيكوفيزيقيون الاول بحثوا قياس الوظائف النقية « مستقلة عن المعنى ، واذا كان السيكومتريون الاول بحثوا قياس الذكاء الخالص مستقلا عن الخبرة السابقة والسمات الاخرى كالانفعالية ، فان هذا الجيل الجديد من الباحثين اراد ان يعطي لكل هذه الامور دورها الكامل ، وان يرى الانسان ككل يتفاعل مع بيئته الحقيقية . وبهذا المعنى ، فان هذه الحقبة الجديدة تعتبر عودا الى الحقبة الطبيعية ، ولكنها تختلف عنها من حيث اهتمامها بالفرد وبوحدة الشخصية وبالاختلافات والعموميات على حد سواء .

وقد عادت بعض الطرق التي ظهرت في الحقبة الطبيعية الى الظهور ثانية ولكن بصورة معدلة . "فالتقارير اليومية استخدمت بشكل اكثر دقة، وامكن تدريب الملاحظين لسلوك الاطفال من اجل ان تكون التقارير اكثر ثباتا ودقة ، كما درب الملاحظ ايضا كيف يبقى بعيدا في نفس الوقت الذي يلاحظ فيه سلوك الاطفال ، بمعنى الا تصبح مشاعره مختلفة بما يقوم بملاحظته من سلوك الطفل ، اعني بعبارة ابسط درب الملاحظ على ان يكون موضوعيا في ملاحظته . كما عادت الى الظهور الدراسات الميدانية . فابحاث ليفين عن القيادة حاولت ان تهيىء تجريبيا ، بيئة طبيعية بدرجة كبيرة او صغيرة لجميع الاشخاص ، كما استخدمت طرق ملاحظة المجال .

غير ان الطرق الحقيقية التي تنتمي الى هذه الحقبة ، فهي تلك التي اطلق عليها « جوردون البورت » اسم المنحى الناموسي **nomothetic** الذي يهدف الى الكشف عن القوانين العامة **والمنحى المتفرد او الاكلينيكي الفردي** idiographic الذي يهدف الى الكشف عن الوحدة المتفردة للكائن الحي . ذلك ان من عادة العلماء ان يتجه اهتمامهم الى الكشف عن القانون العام او القاعدة السائدة في السلوك الانساني ، والى وضع المبادىء العامة والكشف عن العلاقات والتفاعلات بين المتغيرات ، او الى استخراج معايير النمو . وهم يستعينون من اجل تحقيق ذلك بدراسة مجموعات كبيرة من الافراد يقومون بدراستهم او يطبقون عليهم اختباراتهم وملاحظاتهم بقصد معرفة القانون العام الذي تخضع له هذه الظاهرة موضوع الدراسة . حقيقة، هناك خصائص عامة مشتركة بين افراد الجنس الواحد ، وقوانين عامة تنطبق عليهم ، ولكننا مع ذلك لا نجد اثنين من البشر متطابقين تمام التطابق . فالناس في تفردهم اشبه ببصمات الاصابع ، ومن المستحيل ان نجد بصمتين متشابهتين لشخصين مختلفين . كما ان عالم النفس والمربي كثيرا ما يضطر الواحد منهما الى ان يركز انتباهه على فرد معين بالذات

ليحاول فهمه فهما دقيقا شاملا ، ومن لم يجدنفسه مضطرا الا يقتصر على مجرد فهم المبادىء العامة للنمو والتطور والقوانين العامة التى تحكم سلوك الفرد ، بل يركز اهتمامه على الفرد ككل . فالخاصية المميزة للانسان هى فرديته ، أعنى اعتباره مخلوقا فريدا في الطبيعة وانه مستقل مكانيا عن غيره من الافراد ولا يشبه تماما اى فرد آخر ، وان يسلك فى مجاله الخاص فى الحياة وعلى طريقته الخاصة .

وفي بداية الثلاثينات شاعت بعض الطرق التى تعنى بالمنحى المتفرد والتى من اهمها تلك المسماة بالطرق الاسقاطية ، وهذه التسمية اطلقها عليها لورانس فرانك سنة ١٩٣٩ .

وهذه الطرق تواجه الفرد بموقف أو مادة غير محدودة وغير متشكلة وغامضة الى حد ما ليستجيب اليها كما يشاء وكما يحب . والدلالات الخاصة التى يعزوها للموقف تعتبر ذات اهمية بالنسبة له ولطريقة ادراكه لهذا العالم . ومن اشهر الاختبارات الاسقاطية المعروفة والواسعة الانتشار والتى تستخدم على نطاق واسع فيدراسة الشخصية اختبار بقع الحبر لهرمان رور شاخ حيث يفسر المفحوص طفلا كان أم كبيرا ، عددا من بقع الحبر غير المتشكلة . وكذلك اختبار تفهم الموضوع لهنرى مورى حيث يكون الفرد قصة عن كل صورة من الصور التى تعرض عليه ، يكشف فيها عن مشاعره واتجاهاته نحو الموضوعات الرئيسية التى تتضمنها الصورة . وهناك اختبار تداعى الكلمات لـ « كارل يونج » حيث يستجيب المفحوص لقائمة من الكلمات التى تعرض عليه شفاهة كلمة كلمة ، ويسجل زمن الرجع والاستجابة التى يذكرها المفحوص ، والذى بواسطته يمكن الكشف عن الميول والاتجاهات المكبوتة في حياة الفرد . واذا كانت هذه الاختبارات قد وضعت للصغار والكبار على السواء ، فان هناك عددا آخر قد وضع خصيصا للاطفال كاختبار اللعب (لويزا ديز) واختبار تفهم الموضوع للاطفال . وعلى العموم يمكن القول بان ليس هناك استجابات صحيحة واخرى خاطئة للاختبارات الاسقاطية ، وان مايراه كل فرد انما يتشكل وفق ادراكاته وحالته الانفعالية واتجاهاته وميوله وقيمه . وهذه الاختبارات الاسقاطية يمكنها ان تكشف عن التنظيم الداخلى للفرد دون ان يشعر الفرد بذلك ، او دون ان توجه اليه الاسئلة بطريقة مباشرة على نحو ما نجده مثلا فى الاستخبارات التى يحاول المفحوص احيانا الا يجيب عنها بصراحة او دقة متناهية .

وفى خلال هذه الحقبة ايضا كان هناك اهتمام متزايد « بالتجربة الطبيعية » هذا المنهج الذى استخدم فى ميادين مختلفة كالفلك والاجتماع والطب ، أو حيث تكون الظروف التي نقوم بدراستها خارج قدرة الباحث ويصعب عليه اخضاعها للتجريب وعوامل الضبط (اما لاسباب خلقية أو لاسباب عملية) . ولذا فليس على الباحث الا ان ينتظر حتى تنفصل الظاهرة بالمثول بطريقة طبيعية لملاحظتها ودراستها . والدراسات التي اجريت على اثر اصابات المخ فيالانسان تدخل بالضرورة تحت هذا النوع . وبالمثل ايضا الدراسات التي قام بها **شبتز Spitz** عن اثر الحرمان المبكر على الاطفال ، وكذلك دراسات آنا فرويد والمجلس القومى للبحوث فى امريكا عن الاثار النفسية للكوارث . وبالمثل فان اى باحث يهتم

بدراسة النمو الشاذ ، نجده مضطرا للتعامل مع مثل هذه الحالات التي يقابلها . وبالطبع يمكن اجراء الدراسة على الحيوان حيث يكون الباحث اكثر قدرة على اجراء التجارب واعداد الظروف التي يستحيل اجراؤها على الانسان. والجدير بالذكر ان جانبا كبيرا من الافكار في سيكولوجية النمو ، ياتي من دراسات اجريت على الحيوانات ويمكن ان نشير الى دراسات ليدل Liddell وغيره على الماعز والخراف ، في علاقة الصغار بالام ، وعلى العصاب التجريبي . ولذلك تعتبر التجربة الطبيعية هي منهج السيكولوجي الاكلينيكي او الطبيب النفسي ، الذي يريد دراسة شخص فرد نتيجة اهتمامه بآثار ظروف خاصة ، او البحث عن فروق في الشخصية او في المناهج العلاجية .

تلك هي المناهج الاربعة الرئيسية في دراسة النمو – الملاحظة والتجربة والاختبارات والمقاييس الاكلينيكية . وقد ظهرت بالتتابع نتيجة اهتمامات واتجاهات مختلفة لدى الباحثين ، ولكنها جميعها اثبتت نفعها لعديد من الاغراض في دراستنا للكائن الحي الانساني .

• • •

● نظرة الى دراسات النمو النفسي

اعتاد غالبية علماء نفس الطفل عند دراستهم لعملية النمو ، النظر الى التغيرات المختلفة التي تطرا على الكائن الحي منذ اللحظة الاولى التي تبدا فيها الحياة جنينا في بطن الام ثم تعقبه بالدراسة حتى الرشد . وقد اخذ هؤلاء بفكرة تقسيم النمو الى مراحل زمنية يمر بها الكائن الحي . **فهناك مرحلة ما قبل الولادة والطفولة المبكرة والمتاخرة والمراهقة . وعادة يتتبع الباحث داخل كل مرحلة دراسة مظاهر النمو المختلفة وتطورها . فهناك النمو الجسمي والعقلي والاجتماعي والانفعالي** . وقد ياخذ الباحث مرحلة بعينها ويعالج فيها جوانب النمو المختلفة ثم ينتقل الى التي تليها وهكذا ، او قد ياخذ مظهرا بعينه من مظاهر النمو ويتتبعه بالدراسة في جميع المراحل ثم ينتقل الى مظهر آخر وهكذا . والنتيجة واحدة في كلتا الحالتين وان اختلف الاسلوب الذي يتبعه الباحث ، ولو اطلعنا على الكثير من كتب علم نفس النمو ، سواء ما كتب منها بالعربية او باللغات الاجنبية ، نجدانها قد سلكت سبيل هذه الدراسة الوضعية او الشكلية . **ومن امهات الكتب في هذا المجال ما قدمته اليزابيث هرلوك في مجموعتها الثلاثية الهامة .**

(١) Developmental Psychology

و (٢) Child Development

و (٣) Adolescent Development, وما قدمه ارنولد جيزل وآخرون في تلك السلسلة الرائعة من كتب النمو والتي تعد دراسة تطورية هامة من الطفولة المبكرة حتى الشباب والتي وردت بكتبهم .

(١) Infant and child in the culture of today

و (٢) Child from five to ten

و (٣) Youth والتي ترجمت كلها الى اللغة العربية ، وكذلك كتاب آرثر جيرسلد وآخرون Child psychology . ولا يمكن حصر الكتب التي سارت على هذا النحو في هذا المجال .

غير أن ثمة اتجاها آخر ركز على الكائن الحي ككل واهتم بالاطار النظري العام لعملية النمو واقتربت الدراسة فيه من دراسة لنمو الشخصية . والنظرة هنا في شمولها نظرة ديناميه اكثر منها وصفية . فقد ركزت معظم النظريات التي اتبعت هذا المنحى الاخير على دراسة العوامل المؤثرة في نمو الشخصية ابتداء من الطفل حتى الرشد ، وكيف اثرت هذه العوامل او المحددات في بناء الشخصية وفي نوع النمو الناتج عنها . وكان من الطبيعي ان تتعدد ايضا النظريات التي سلكت هذا السبيل . ذلك ان ابنية الشخصية وعملياتها لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر وانما يتطلب الامر الاستدلال عليها من النمط للاستجابات التي يقوم بها الفرد داخل اطار موقفي معين . ولذا فليس مما يثير الدهشة اذن ان تختلف نظرة الباحثين لنمو الشخصية او بمعنى أوسع النمو النفسي للفرد . فاذا كان فرويد مثلا يؤكد في تحليله للنمو النفسي على تطور الدوافع والانفعالات وبخاصة خلال السنوات الثلاث الاولى من الحياة ، فان كتابا آخرين من أصحاب الاتجاه الثاني من امثال هاينز فرنر وجان بياجيه لا يلقون اهتماما بالكلية الى نمو الدوافع أو الانماط الانفعالية ، بل يوجهون اهتمامهم بأكمله الى النمو المعرفي ، والتفكير التكيفي ، على حين يتمسك آخرون بالنظرية الفرويدية ولكنهم يدخلون عليها بعض التعديلات والاضافات على نحو ما فعل اريكسون .

واذا كانت النظريات التي كتبت في هذا الاتجاه الثاني كثيرة ومتعددة ، فان ضيق المجال لا يسمح لنا بالتعرض لها جميعها . ولذا سوف يخص الباحث هنا بالذكر نظريات اربعة لها اهميتها وهي نظرية النمو النفسي ـ الجنسي لفرويد ، ثم نظرية النمو النفسي ـ الاجتماعي لاريكسون ، والتي تعد تعديلا للاولى واضافة عليها ، ثم نظرية نمو الذات عند جوردون البورت ، واخيرا نظرية النمو العقلي المعرفي عند جان بياجيه . وسوف نشير الى كل نظرية منها بشيء من الافاضة .

اولا : النظرية النفسية ـ الجنسية لفرويد :

ان مادة التحليل النفسي وكتاباته لا حصر لها . ومن المستحيل في مثل هذا المجال ان تقدم عرضا وافيا لمثل هذه النظرية الضخمة . ولذا سوف نقصر انفسنا هنا على الجوانب التي من شأنها ان تساعدنا في التعرف على النمو النفسي عند اصحاب نظرية التحليل النفسي . ويحسن قبل ان نتعرض لمراحل النمو النفسي الجنسي في نظرية فرويد ان نلقي الضوء على ديناميات الشخصية وبنائها ثم نعرض لمراحل النمو .

ديناميات الشخصية :

● ان نظرية التحليل النفسي ـ ككل النظريات الدينامية ـ تدور حول القوى أو الحوافز ، فهي اساسا نظرية دافعية . والظواهر العقلية ينظر اليها على انها نتيجة قوى متفاعلة يمكن ان تفهم من وجهة نظر تاريخية . وبعبارة ابسط ان فرويد ينظر الى الاحداث الراهنة باعتبارها نتاج نمو سابق تمتد جذوره الى الماضي .

والمصطلح الذى استخدمه فرويد للدلالة على الطاقات او القوى التى تستثير النشاط الانساني هو المصطلح الالمانى Trieb والذى ترجم الى اللغة الانجليزية ، بالمصطلح Instinct والذى يعرف فى اللغة العربية بالغريزة . ولكن هذه الترجمة للمصطلح الالمانى ادت الى الخلط فى فهم هذا المصطلح . ذلك ان Trieb كما استعمله فرويد ، لا يتضمن معنى النمط الثابت غير القابل للتغير ، والذى يعنيه المصطلح Instinct . فتحت الظروف والتاثيرات البيئية ، يمكن للغريزة بمعانيها فى المصطلح الالماني ، ان تغير من اهدافها وموضوعاتها .

ومفهوم الغريزة من المفاهيم الاساسية فى كتابات فرويد وتفكيره . ومعظم كتابات فرويد تمليها فكرته وهى ان الانسان ولد مزودا بغرائز معينة . ولقد صادق فرويد على وجود نوعين من الحوافز الانسانية او الغرائز وكلاهما بيولوجى فى طبيعته . اما النوع الاول فيتكون من الحاجات الجسمية البسيطة كالجوع والعطش والاخراج والتنفس ، هذه الحوافز او الدوافع تستثيرها التغيرات البدنية التى تحدث داخل الكائن الحى العضوى . واشباع هذه الحوافز او الحاجات الاساسية امر حيوى لبقاء الانسان ، كما ان اهدافها لا يمكن تغييرها او تعديلها . ولذا ، فان الاختلاف بين الافراد بالنسبة لهذه الحاجات قليل للغاية ومن ثم فانها تعد قليلة الاهمية نسبيا لعالم النفس .

اما المجموعة الثانية من الحوافز فهي تلك التى وصل اليها فرويد من دراساته للمرضى النفسيين . وهذه يمكن تقسيمها الى قسمين: غريزة الحياة وغريزة الموت . الاولى تخدم غرض الحفاظ على الحياة وتكاثر الجنس ، ويطلق فرويد على القوة الحيوية الدافعة لها اسم « الليبيدو » وهو هذا الجزء من تركيب « الهو » الذى يبحث عن اشباعه من الحوافز الجنسية . ومعنى الجنس عند فرويد اوسع بكثير من مفهومه الدارج فى حياتنا اليومية وفي لغتنا الدارجة . فهو يتضمن بالاضافة الى معناه المتصل بالحوافز الجنسية عند الكبار ـ كل ما يؤدى الى الشعور باللذة من خلال استثارة المناطق الشبقية للجسم ، وهى المناطق التى لها قدرة على اثارة الاحساس السار او الشعور باللذة عند الفرد . وهى غالبا المناطق الحساسة في جسم الانسان كالشفاه والتجويف الفمى والمنطقة الشرجية واعضاء التناسل . والغريزة الثانية وهى غريزة الموت فهى تخدم اغراض الهدم والتدمير .

وتتميز الغريزة عند فرويد باربع خصائص وظيفية اساسية هى : المصدر والهدف والموضوع والقوة الدافعة . ولتوضيح هذه الخصائص لنفرض ان انسانا ما يحس بالم فى

أسنانه ، فان نتيجة هذا الاحساس تدفعه من خلال مبدأ التوازن الداخلي الى خفض التوتر على النحو التالي :

المصدر Source : وهو الحالة البدنية للشخص وهو هنا الالم الذى يحسه الفرد في أسنانه .

الهدف Aim : وهو التخلص من الاستثارة او التهيج البدني . وهو هنا ازالة الالم الناتج عن تسوس السن والعودة الى حالة الارتياح التى كان يحس بها قبل حدوث الالم .

الموضوع Object : وهو يشير الى ضروب النشاط التى تقع بين ظهور الحاجة وتحقيقها . فهو لا يشير الى شيء بعينه او حالة تشبع الحاجة فحسب ، بل انه يتضمن كذلك كل أشكال السلوك الذى يحدث مستهدفا الحصول على الشيء او الحالة اللازمة. وهو في هذا المثال ترتيب موعد مع الطبيب والذهاب اليه والجلوس على الكرسي .

القوة الدافعة Impetus : ويقصد بها قوة او شدة الحاجة المحركة . فالم الاسنان حين تخف حدته اثناء النهار تقل قيمة المثير الى حد ما ، ولكن حين يصبح الالم غير محتمل خلال الساعات الاولى من الليل تزداد قوة المثير بشكل واضح وتصبح القوة الدافعة اكثر شدة فيزداد اصرار الشخص على ضرورة الذهاب الى الطبيب .

ويرى فرويد أن مصدر الغريزة وهدفها يظلان ثابتين طوال الحياة ، مالم يتغير المصدر او يزول نتيجة النضج الفيزيقي . اما الموضوع او الوسيلة التى يحاول بها الفرد اشباع الحاجة فهى تتباين تباينا ملموسا خلال حياة الفرد ، وذلك نتيجة قابلية الطاقة النفسية للازاحة من موضوع لآخر . واذا كان هذا الابدال او هذه الازاحة ممكنة بالنسبة للموضوع فهى غير ممكنة بالنسبة لمصدر الغريزة او هدفها .

• • •

* بناء الشخصية :

وتتكون الشخصية من ثلاثة نظم اساسية: الهو ، والانا ، والانا الاعلى . ورغم ان لكل جزء منها وظائفه وخصائصه ومكوناته ومبادئه وديناميأته وميكانزماته التى يعمل وفقا لها ، الا انها جميعا تتفاعل معا تفاعلا وثيقا بحيث يستحيل فصل تاثير كل منها عن الآخر وتقدير وزنه النسبى في سلوك الانسان . فالسلوك ، في الاغلب ، هو محصلة تفاعل هذه الانظمة الثلاثة. ونادرا ما ينفرد احداها بالعمل دون الآخرين. وسوف نوضح فيما يلى كل واحدة منها على حدة وباختصار .

الهو : لقد كتب الكثير عن هذا المصطلح الذي وضعه فرويد . و « الهو » هو النظام الاصلي للشخصية والذي يعتبر اساسا لكل حياة انسانية . فهو يوجد مع الانسان منذ لحظة ولادته ، ويظل معه طول حياته . هو ذلك الجزء من النفس الذي يحوي كل ما هو موروث او غريزي ، كما يحوي العمليات العقلية المكبوتة التي فصلتها المقاومة عن الحياة النفسية الشعورية . فالهو مستودع الطاقة النفسية كما انه يزود العمليات التي يقوم بها النظامان الاخران بطاقاتهما .

ويخضع **الهو** لمبدا اللذة فقط ولا يهتم بأي شيء آخر . انه هذا الجزء الخام ، غير المرتب ، غير المهذب ، الباحث عن اللذة . انه الزاد الاساسي الذي يحرك الانسان خلال حياته، انه لايعرف القوانين ولا يخضع لقواعد ويبحث فقط عن شهواته . انه القوة المحركة لوجود الانسان . وعلى الرغم من انه وثيق الصلة بالعمليات الجسمية التي يستمد منها طاقته ، فان « الهو » نظام نفسي حقيقي ، وليس له مكان محسوس في جسم الانسان ، كالقلب او المخ مثلا .

ولا يمكننا ابدا ان ندرك الهو في صورته الخام . وربما كانت اقرب صورة للهو ، ما يبدو لنا في دراسة الطفل الصغير او في سلوك الذهاني (المريض عقليا) . فالطفل الصغير يسلك سلوكا انانيا تماما ، يهدف الى اشباع رغباته وتحقيق لذاته دون مراعاة لحاجات الاخرين ، فهو يخضع لمبدا اللذة فحسب . وكذلك الذهاني الذي يسلك كيفما يحب ويعجبه ، فسلوك الطفل والذهاني اقرب الى ما يطلبه فرويد بمفهوم « الهو » .

الانا : ومن المفترض ان الهو في صورته الخام ، اذا ترك لاساليبه الخاصة فقد يحطم نفسه . فهو في حاجة الى ما يضبط طاقته ويوجهها نحو اكبر اشباع وبقدر ما تسمح به مطالب الحياة ودون ان يهدم نفسه او يحطمها. ويذهب فرويد الى ان الانا تحقق هذه الوظائف وتحققها جيدا . فالانا تتبع مبدا الواقع وتعمل وفق العمليات الثانوية . فاذا كان الهو يعمل وفق مبدا اللذة ويستخدم العملية الاولية وتفريغ التوتر بتكوين صورة لموضوع من شانه ان يزيل التوتر ، الا ان الكائن الحي يتطلب معاملات مناسبة واشباعا واقعيا ، ومن ثم يفرق الانا بين الاشياء التي توجد في العقل والاشياء التي توجد في العالم الخارجي . ومن هنا تطيع الانا مبدا الواقع الذي يعمل على الحيلولة دون تفريغ التوتر حتى يتم اكتشاف الموضوع المناسب لاشباع الحاجة . فمبدا الواقع يرجيء مبدا اللذة مؤقتا ، لان مبدا اللذة هو الذي سوف يخدم في نهاية الامر عندما يوجد الموضوع المرغوب فيه ، ومن ثم يخفض التوتر .

فالانا اذن امتداد للهو وغير مستقل عنه ابدا . والانا هو الجزء المنظم وهو الذي يبحث فقط عن ايجاد مخارج تخدم اغراض الهو ، دون ان يترتب على ذلك تحطيمه . ان الانا يستمتع بكل الاشباعات التي يسمح للهو ان يستمتع بها أيضا ، ولكنه يستمتع بها بذكاء وبتعقل في ضبط واختيار وتقرير ما يشبع وكيف يشبع . فالانا اذن يخضع لمبدا الواقع ، يفكر تفكيرا موضوعيا ومعتدلا ومتمشيا مع الاوضاع الاجتماعية المتعارف عليها . اما وظيفته

فهى الدفاع عن الشخصية والعمل على توافقهامع البيئة وحل الصراع بين الكائن الحى والواقع او بين الحاجات المتعارضة للكائن الحى .

الأنا الاعلى : وهذا هو المكون الثالثلشخصية الفرد ، وهو مكون يقع فى الطرف الاخر من الهو ، والانا الاعلى هو الاخير فى عمليةالنمو النفسى لهذه الابعاد الثلاثة للشخصية . انه الممثل الداخلى القيم التقليدية للمجتمع ،وهو شىء موجود داخل الفرد وليس خارجه . انه مكون داخلى وليس مجموعة من القوانينالحاكمة ، وعندما ينمى الفرد « انا اعلى » داخل نفسه ، يكون حينئذ قد أصبح شخصية ناضجة . فالانا الاعلى هو هذا الجانب الخلقى للشخصية، انه مثالى وليس واقعيا ، هدفه الكمال وليساللذة . انه هو الذى يقرر ما اذا كان نشاط ما حسنا أم سيئا وفق معايير المجتمع التىيتقبلها ، والقوانين الاجتماعية لا تعنى شيئا بالنسبة اليه ما لم يتقبلها ويتوحد معها .

ويمكن تلخيص الوظائف الاساسية للاناالاعلى فيما يلى :

١ ـ كف دفعات الهو وبخاصة تلكالدفعات ذات الطابع الجنسى أو العدوانى ، حيث ان هذه الدفعات هى التى يقابل التعبيرعنها من المجتمع باشد صور الادانة والرفض.

٢ ـ اقناع الانا باحلال الاهداف الاخلاقيةمحل الاهداف الواقعية .

٣ ـ العمل على بلوغ الكمال ، اى ان الاناالاعلى يميل الى معارضة الهو والانا معا ، والى تشكيل العالم على صورته . الا انه يشبه« الهو » فى انه غير خلقى ، ويشبه الانا فىمحاولته ممارسة التحكم فى الغرائز ، ويختلف « الاناالاعلى » عن « الانا » فى انه لا يحاول ارجاء الاشباع الغريزى فحسب ، بل انه يحاولالحيلولة دونه على الدوام .

تلك هى ديناميات الشخصية وبناؤهافى نظرية التحليل النفسى . وفي ضوئها قام فرويد بتفسير أساليب السلوك المختلفة والمراحلالنمائية التى نمر بها ابتداء من الطفولة حتى الرشد . ويمثل هذا الانتقال من مرحلة الىمرحلة النمو النفسى الجنسى للفرد ، والذى قد يتخذ صورة سوية أو غير سوية نتيجةالمؤثراتالمختلفة التى يتعرض لها الفرد . وسوف نشير باختصار الى هذه المراحل المختلفة التى يمر بهاالفرد فى نموه النفسى من الطفولة حتى الرشد .

• • •

＊ مراحل النمو :

ولفظ مراحل يشير الى تتبع نمو الانسانوشخصيته ابتداء من الولادة حتى الكبر . فالطفل قد يمر عبر سلسلة من المراحل المحددةتكوينيا ، ومالم يتعرض هذا النمو في سيره الى تدخل ظروف شاذة أو معوقة ، فمنالمتوقعله ان يسير على نحو طبيعى،وعلى شاكلة ماتجده عند الغالبية العظمى من الناس .

ان فكرة بناء الشخصية ونموها عند فرويد اشبه ما يكون بالطريقة التي يقوم بها البناء حائطا من الطوب حيث توضع طوبة طوبة ، ويسير البناء من اسفل الى أعلى ، وترتبط قمة البناء بأساسه او اصله . فشكل البناء وسمكه وجميع خصائصه ترسي قواعده في الاساس الذي يقام عليه . وتغيير شكل البناء تغييرا ملحوظا قد يترتب عليه هدم البناء بأكمله . والشخصية بالمثل ـ في نموها ـ ترسى قواعدها في السنوات الاولى من حياة الكائن الحي . وهذا الاساس غير قابل للتغير وهو يحدد ما يمكن ان يقام عليه بعد ذلك . فان كان الاساس ضعيفا مهزوزا وغير مستقر ، نشأت الشخصية وتطورت بشكل ضعيف مهزوز غير مستقر كذلك . ومن هنا جاء قول فرويد ان « الطفل ابو الرجل » ، وان الاساس الذي يوضع في الطفولة هو الذي يحدد ما سيكون عليه الفردي الكبر . ولكن ليس معنى ذلك أنه حين ينمو البناء لا يمكن تغييره . ان من الممكن احداث تغييرات طفيفة ، ولكنها لا تتجاوز ابدا حدود ما يتحمله الاساس أو الشكل الذى اتخذه . فان حدث هذا التجاوز انهار البناء (على نحو ما نجد في الشخصيات الذهانية والعصابية) . وفي العادة يتغير الكثيرون منا مع النمو ، ولكن احساسا منا بخطر الانهيار ، وخوفا على انفسنا من اهتزاز البناء ، فاننا نحذر الابتعاد كثيرا عما يمكن ان يتحمله بناء شخصياتنا .

وعلى هذا النحو ، نجد فرويد يعطي اهمية كبرى لعملية البناء طوبة طوبة من اجل بناء شخصية الفرد في المستقبل ، كما يعطي اهمية كبرى للسنوات الخمس الاولى من حياتنا ، باعتبارها اهم سني العمر والاساس الذى يقام عليه كل بناء .

ومن حسن الحظ ان عوامل البناء تتوافر للغالبية العظمى من الناس . فاغلبنا ينشأ في احضان ابوين يتكاتفان معا على تربيته وتنشئته بشكل يجعل الرحلة الطويلة للحياة تسير في خطى وئيدة مطمئنة متعاقبة . فاكبر العوامل ذات الاثر في نمونا النفسي السوي وصحتنا العقلية في الرشد ، توضع خلال السنوات الاولى من الحياة .

ان الوليد عندما يرى النور لاول مرة تتركز اهتماماته على اشباع حاجاته الاساسية التي يولد مزودا بها ، واهمها حاجته الى الطعام الذى يحصل عليه عن طريق الفم ، وقرابة نهاية السنة الاولى تبدأ عمليات ضبط الاخراج والتدريب على العادات المتعلقة به ، ومن ثم يتركز اهتمامه حول هذه العمليات وتصبح محور التركيز من الناحية الجسمية . وفي حوالى سن الثالثة يبدأ الطفل في استطلاع غوامض تشريح اعضائه التناسلية او اعضاء المحيطين به . هذا ما يحدث لكل فرد . فكل طفل يمر بثلاث مراحل نمائية رئيسية تقع كلها في السنوات الاربع الاولى من حياته ، ويهتم كل منها بجزء خاص من تشريحات جسمه يكون مؤقتا موضع الاهتمام الاول بالنسبة للطفل . فهناك الفم ثم الشرج ثم الجهاز التناسلي . وهذه لا تصبح فقط موضوعات الاهتمام الخاص عند الطفل ، بل ان الخبرات التي ترتبط بها تصبح الطرق التي تؤدى الى الحصول على الاشباع وتؤدي الى الاحباطات ايضا .

فالطفل الصغير يركز اهتمامه أساسا طوال السنة الاولى تقريبا في المنطقة الفمية ، ثم ينتقل هذا التركيز بعد ذلك طوال السنة الثانية والثالثة تقريبا حول منطقة الشرج ، ثم يتركز الاهتمام اخيرا حول المنطقة التناسلية ، وذلك بعد سن الثالثة الى سن السادسة . وطبيعي أن ليست هناك قواعد ثابتة محددة لمجرد الزمن الذى يتحول فيه الطفل من خبرة الى أخرى ، لان ذلك يتوقف الى حد كبير على اسلوب المعاملة الاسرية ، كما ان ليس هناك بالتاكيد فواصل مميزة دقيقة بين كل مرحلة واخرى .

« لقد لقد سمى فرويد هذه المراحل باسم «مراحل النمو النفسى الجنسى » وهذا هو التعبير الذى لا زالت نعرف به . . ان هذا التعبير يعني ان الطفل على طول تطوره النفسى ، يمر بعلامات مميزة ومحددة لمراحل النمو النفسى الخاصة كلما كانت القوى والدوافع الداخلية فى هذا الشخص الجديد تحاول ان تصله بالناس المحيطين به ، وان تجد الطرائق التى تعطيه الاشباع من هذا الاتصال » .

وسوف نوضح مراحل النمو النفسى الجنسى هذه دون الاضافة في ذلك :

(أ) **المرحلة الفمية** : ترتبط أول مرحلة من مراحل النمو فى تكوين شخصية الفرد بالمنطقة الشبقية الفمية وعلى وجه الخصوص بالشفتين . فالطفل يبدأ عقب الولادة بقليل استخدام الشفتين فى الحصول على الطعام ، ويستخدم الطفل وسيلة الاتصال الهامة بالعالم ، وهو لا يستعمله للحصول على هذا الطعام الشهي اللذيذ الذى من شأنه ان يخفف من حدة التوتر الذى يشعر به فى احشائه فحسب ، بل وايضا ليستمتع بحنان الام التى تضمه الى صدرها وقت اشباع هذه الحاجة . ويتكرر هذا الحدث الهام فى حياة الطفل كل ثلاث او اربع ساعات ، كما يكتسب الشخص الذى يحتضنه وهو يطعمه من الثدى أو الزجاجة بمرور الزمن نفس اهمية الطعام .

وليس ثمة شك ان هذا الطعام الذى يحصل عليه الطفل يعتبر مصدر اشباع ولذة . فهو طعام شهي ولذيذ (وهذا هو مبدأ اللذة) . وسواء كان يحصل عليه عن طريق الثدى اوعن طريق الزجاجة ، فان الوليد فى شهره الاول سرعان ما يتعلم (عن طريق مبدأ اجبار التكرار) ان التجويف الفمي واللسان والشفتين عندما تمس هذه الاشياء تصبح مصدر لذة وسعادة بالنسبة له (منطقة شبقية) . ومن الطبيعي ان يتعلم الطفل استخدام الشفاه كلما اراد الحصول على هذا الاحساس السار او اللذة ، فهو عندما يحس ثانية بالجوع ، تقوم المنطقة الفمية بدورها وتؤدى به الى الشعور باللذة . ولما كان الطفل فى هذه المراحل الاولى من حياته يعتمد كثيرا على العادات التى يكونها ، فانه يلجأ الى استخدام الشفاه في الحصول على اللذة ايا كانت حالة الجوع التى يكون عليها . وتبعا لذلك ، وبعد ان يكون قد درب الشفاه على احداث اللذة ، فقد يلجأ الى استخدام الاصابع او اى مثير آخر (كاصابع القدم مثلا) من اجل الحصول على اللذة سواء كان جائعا ام غير جائع (خفض التوتر) . وهكذا تصبح الشفاه من الآن فصاعدا مصدرا للحصول على اللذة .

ولما كانت الاشياء التى تظهر اولا فى نظامما ، تكون آخر ما يترك هذا النظام ، فان المرحلة الفمية والمنطقة الشبقية الفمية تكونان على هذا الاساس اطول واقوى مراحل حياة الانسان . فهو دائما يبحث عن لذة المنطقة الفمية ، وهو يقوم بذلك حتى اذا كان مثل هذا النشاط غير مجد فى حل المشكلة او فى خفض التوتر .

(ب) **المرحلة الشرجية :** والمجموعة التالية من الخبرات ذات الاهمية البالغة فى تشكيل طباعنا وعلاقاتنا بالناس هى التدريب على عملية الاخراج وعاداته . وكما كان الحال خلال المرحلة السابقة لا يتركز الانتباه فقط على جزء معين من تشريح الجسم ، ولكن على وظيفة هامة ترتبط به . وتختلف الاتجاهات التى تتكون فى هذه المرحلة اختلافات بينة ، الامر الذى يتوقف على ما يقلته الآباء احسن مران ونظام للتدريب يمكن استعماله » .

وحين يتجمع قدر كاف من فضلات الطعام لدى الطفل ، فان ذلك يسبب له توترا فى الامعاء يؤدى الى الشعور بعدم الارتياح او الالم . وطرد الفضلات واخراجها يزيل عنه مصدر القلق ، ويحدث له الشعور بالراحة . وعند بداية التدريب على النظافة – وهذا ما يحدث عادة فى السنة الثانية من العمر – يلتقى الطفل باول خبرة حاسمة له مع التنظيم الخارجى لدفعة غريزية . فعليه ان يتعلم ارجاء اللذة التى يحققها له تخلصه من توتره الشرجى ، اى عليه ان يتعلم الخضوع لمبدأ الواقع ، وان يقوم بعملية الاخراج حين تصل هذه الضغوط الى حد معين ، وان يقوم بها فى اماكن معينة وليس فى اى مكان شاء . وتتوقف نتائج هذا التدريب على الاسلوب الذى تتبعه الام فى تدريبه على ضبط عملية الاخراج . فان كان اسلوبا شديدا صارما ، فقد يقبض الطفل على فضلاته ويطالب بالامساك ، وحين يعمم هذا الاسلوب فى الاستجابة الى مجالات من السلوك فيما بعد ، فقد ينمو لدى الفرد خلق قابض ويصبح عنيدا شحيحا ... اما اذا كانت الام من النوع الذى يتودد الى الطفل ليخرج فضلاته والسرف فى مديحه عندما يستجيب لذلك ، فان الطفل تتكون لديه فكرة قوامها ان النشاط الاخراجى باكمله امر بالغ الاهمية .

وقد تكون هذه الفكرة اساس الخلق والانتاج . وعلى العموم ، يقال ان العديد من السمات الاخرى ترجع جذورها الى المرحلة الشرجية (هول ولندزى ص ٧٦) .

وبالتاكيد يستطيع الطفل ان يحس بان عملية التدريب على الاخراج هامة جدا بالنسبة لامه وابيه ، والا فلماذا كل هذه الضجة التى تثار حولها . انه يتعلم فى وقت مبكر ان ما يقوم به من عمل او مال يؤديه يكون له اثره على المحيطين به . وليس من شك فى ان الخبرات التى ترتبط بالتدريب على الاخراج ، وما ينتج عن ذلك من اتجاهات الاطفال نحو الآباء ، تضع اللبنات الاولى لكثير من الاتجاهات والاعمال التى يقوم بها الفرد فى مستقبل حياته . انها اول عهده بالتأديب والنظافة ، وربما قد يتعلم منها اشياء اخرى كثيرة . فقد يتعلم من هذه العملية « ان يثابر على العمل حتى ينتهى من العملية الاخراجية » ، وهذه بلا شك خبرة لها علاقة بالمثابرة والاصرار فيما بعد ذلك من ايام الحياة فى اى عمل تقوم به ، كما قد تغذى عنده الاحساس بالقوة اذ يمكنه التحدى والعناد ومنع الاخراج ، وليس هناك من يجبره على القيام بذلك اذا اراد الامتناع عن القيام به .

(ج) **المرحلة الجنسية** وتتفجر فى حياة كل كائن بشرى في حوالى سن الثالثة اوالرابعة رغبة فى استطلاع امور الجنس ، ويرتبط بهذه الرغبة قدر معين من الاستثارة الجنسية . والمنطقة الشبقية الثالثة التى تلى المنطقتين السابقتين هى الاعضاء التناسلية . ولا شك أن الطفل يستمد لذة من العبث بهذه الاعضاء. ولكون حياة الطفل الانفعالية اى علاقته الوجدانية بافراد الوسط المحيط به في هذه الفترة ، اشبه بالحياة العاطفية للكبار . وفى خلال هذه الفترة (من سن ٣ — ٥) تكون علاقاته العاطفية والاجتماعية بوالديه قد اخذت تنمو وتتعقد وتهيىء السبيل لظهور عقدة أوديب . وتستمد عقدة أوديب اسمها من اساطير الاغريق حيث كان أوديب طفلا لاحد الملوك ، وتكهن المنجمون أنه سوف يقتل اباه حين يكبر ، فنبذه الملك فى العراء . ولما كبر أوديب التقى بالملك وتنازعا على امر ما ، فقتل أوديب الملك دون ان يعرف انه ابوه ، ثم دخل المدينة وتزوج ملكتها ، وهى امه ، دون أن يعرف انها امه . وقد اتخذ فرويد من هذه الاسطورة صورة لما يعانيه الطفل الانسانى ابان طفولته المبكرة فى صلته بوالديه والتى تسمى باسم « الصراع الاوديبى » .

ذلك أن اول موضوع يمر بخبرة الطفل ـ عدا نفسه ـ هى امه . انها أول انسان يطعمه ويلبسه ويحبه ويجيب كل مطالبه وحاجاته . والطفل يعتمد على الام فى هذه المرحلة الاولى من حياته اعتمادا كليا . ومن هذا الاعتماد من اجل الحياة والتوحد معها ، ينمو الاحساس بالحب للام .

ثم ان الطفل بالاضافة الى حبه لامه واكتشافه لجسمه واعضائه التناسلية يصبح أيضا على معرفة بالدور الذى يقوم به الاب فى حياته ، فالاب انسان اكبر واقوى منه بكثير، وانه أقل وجودا معه فى البيت ، وانه يشبهه في الجنس ، ثم انه يشاركه فى حب الام ويحظى باهتمامها .

وفى الحقيقة يبدو ان له بعض الاولوية فى وقت الام ومحبتها ، وتكون النتيجة الطبيعية لهذا هو الاحساس بمنافسة خفية وغير مصاحبة . وفى المراحل الاولى لهذه المعرفة ، لا يفعل الطفل الذكر شيئا لكبح احساسه بالغيره . ومع ذلك يبدأ الكبت فى الظهور مع استمرار النمو . ثم هو يلاحظ أيضا انه من الناحية الجسمية ، اقرب شبها بابيه منه بامه ، وهى حقيقة تؤدى به الى التوحيد مع الاب مثلما توحد مع الام . وينشأ التناقض الوجداني (مبدأ الازدواج أو الثنائية) عن هذه الشحنة الوجدانية نحو شخصين مختلفين كلاهما يعتبر ضروريا وهاما لسعادته وراحته . فهو من ناحية يحب أن يشارك الاب فى حب الام ، تلك المشاركة التى لا يحبها نظرا لرغبته في الاستئثار بحبها ، ولكنه من ناحية اخرى اكثر شبها بالاب منه بالام ، وهو احساس بالتوحيد يجلب له السرور والرضا. وطالما أنه مع استمرار النمو ينمو أيضا مبدأ الواقع ، فانه قد يتوقع نوعا من العقاب يوقعه به الاب ، أعنى عقاب الاب له على مشاركته فى حب الام . ولما كانت معرفته بالعالم لا تزال قاصرة ، ولما كانت تربيته لا تزال تدور حول المناطق الفمية والشرجية والجنسية ، فان اى عقاب يمكن أن يوقعه به الاب ، سوف يتصل بهذه المناطق الشبقية . ولما كانت الصفة الجسمية الوحيدة التي تميزه من الام هى عضوه

الذكرى ، اذن ، فان هذا العضو هو الذى يمكن ان يوجه اليه الثار والانتقام من جهة الاب ، حتى يجعله اقرب شبها بالانثى ويبعد عنه فى الوقت نفسه صفته الذكرية الوحيدة . ويشبه ذلك من حيث الاهمية ايضا ان عضو التذكير هو عضو التحريم الذى يجب ان يزال من اجل استبعاد اى احتمال لمجرد التفكير فى قيام اية علاقة محرمة مع الام . وهذا الخوف الشديد هو الذى اشار اليه فرويد باسم عقدة « الخصاء » . فالطفل الذكر يخاف من ازالة هذا العضو الذى يجعل منه ذكرا شبيها بالاب مما يترتب عليه فقد التوحد مع الاب ، كما يخاف ايضا من منافسته المستمرة للاب فى حب الام وجذب اهتمامها . ومبدأ الثنائية هذا يترتب عليه ظهور القلق عند الطفل بشكل يعجز معه عن احداث التوافق الى ان يدخل مبدأ الواقع ميكانزم الدفاع عن الانا وتعنى به ميكانزم الكبت . وبذلك يجد الطفل طريقا لحل مشكلته .

وتعتبر الفترة من الثالثة حتى الخامسة او السادسة من اقوى فترات النضال العنيف لدى الطفل . ومع ذلك فهى تستمر كعامل حيوى خلال حياة الفرد ، كما يكون لها اثر فى اتجاه المراهق نحو الجنس الاخر ونحو مصادر السلطة وفي علاقته بزوجته واطفاله .

هذا فيما يتصل بالولد الذكر . اما عن البنت ، فان عقدتها تسمى باسم **« عقدة الكترا »** . وتتطور علاقتها بابيها تطورا اكثر تعقيدا ، يتاثر بما تستشعره البنت من احساس بالغيرة من الام لمشاركتها فى حب الاب . وما تستشعره من وجودها بغير هذا العضو الذكرى واعتبارها امها مسئولة عن ذلك . والى جانب اتهامها لامها بانها المسئولة عن حالة الفقد هذه ، فانها تتوحد بقوة مع الاب ، لانه يمتلك هذا العضو الذى تحسده عليه ، ويظهر حسدها واضحا فى المقارنة مع ابيها الذي يمتلك شيئا تفتقده هى .

ومرة اخرى تظهر الثنائية عند الفتاة . ذلك ان مشاركتها لامها من حيث افتقارهما الى شيء ما ، يقوى توحدها الاول والاصلى مع الام ، ويحدث التناقض الوجدانى حالة قلق انفعالى عند الفتاة . وقد اطلق فرويد على حالة القلق هذه اسم « حسد القضيب » . ولاتصل البنت بسهولة الى حل هذا التناقض الوجدانى مع وجود فروق سيكولوجية عديدة بين الذكر والانثى . ويستمر هذا الحسد لدى الفتاة فترة اطول ، كما تصبح اكثر تمردا على الام مع المراهقة ، وتعدل اتجاهها تدريجيا حتى توفق هى الاخرى في الحصول على شريك حياتها بالزواج . ومرة اخرى تكشف ــ كام ــ عن تناقضها الوجدانى نحو الجنس وذلك فى دورها كام لاولاد وبنات ودورها كزوجة لرجل .

(د) فترة الكمون :

ويدخل الطفل فى مرحلة كمون جنسي تبدا في حوالى سن السادسة او السابعة او الثامنة . وفى هذا الوقت يصبح الطفل اكثر اهتماما بالعديد من الامور الاخرى غير الجنس ، اذ يخصص لمثل هذه الامور وقتا اطول مما كان يخصصه لها من قبل . ولكن لا يحتمل ان تفوته فرصة استطلاع امور الجنس فى اى مجال من المجالات التي تتاح له فيها فرصة القيام بذلك . وغالبا ما يحصل الطفل فى هذه المرحلة على المتعة من اللعب

والعمل المدرسي ويمكن القول بوجه عام ان الكثير من صراعات الطفل القديمة عن الجنس تكون قد تقدمت قليلا في ناحية الاتضاح ، وان الموضوع كله قد اصبح مفهوما بصورة افضل .

وبالاضافة الى ذلك ، فان الاطفال في هذه المرحلة يبداون في استغلال بعض اهتمامهم وميولهم في غيرهم من الناس كاصدقائهم وزملائهم في المدرسة ، بدلا من ان يكونوا منطوين على انفسهم . وفي هذا الوقت تتاح لهم اول فرصة لتنمية مشاعر الحب والمتعة والتعلق بالرفقاء في عالمهم الذي بدأ يتسع بعض الشيء ، ولو انه لازال صغيرا ومعروفا ـ عالم زملاء اللعب والمعلمين والابطال والنجوم من الذكور والاناث .

(هـ) **المرحلة التناسلية** : والمراحل الثلاث السابقة على مرحلة الكمون ـ وهي الفمية والشرجية والقضيبية ـ تعرف **باسم المراحل قبل التناسلية** . وتتميز شحناتها بانها ذات طابع نرجسي حيث يحصل الفرد على اللذة من تنبيه مناطق معينة من جسمه ، وان شحناته تستهدف الآخرين لانهم يتيحون له اشكالا اضافية من اللذة الجسمية فحسب . ومع المراهقة يبدا بعض هذا الحب يتلمس طرقا تقوده الى اختيارات موضوع حقيقي ، ويشرع المراهق في حب الآخرين ، تحدوه دوافع الايثاروليس مجرد اسباب نرجسية . فالجاذبية الجنسية والتنشئة الاجتماعية والنشاط الجماعي والتخطيط المهني والاستعداد للزواج وتكوين الاسرة تبدا جميعها في التعبير عن نفسها بصورة واضحة . وفي نهاية المراهقة تصبح الشحنات الانفعالية الاجتماعية الغرية الثبات ، ويتحول الفرد من النرجسية او البحث عن اللذة الذاتية الى راشد تسيره الحقيقة الواقعية والمجتمع (هول وليندزى ص ٨٠) .

واخيرا ، يحسن ان نشير الى انه على الرغم من ان فرويد قد ميز بين مراحل اربع من النمو النفسي الجنسي ، الا ان هذه المراحل ليست منفصلة بعضها عن بعض ، او ان الانتقال يكون فجائيا من مرحلة الى اخرى . وبذلك يكون التنظيم النهائي للشخصية هو نتيجة اسهامات هذه المراحل الاربع .

• • •

ثانيا : نظرية اريكسون :

لقد ادخل اريك اريكسون تعديلات على نظرية فرويد في النمو النفسي الجنسي في ناحيتين اساسيتين : الاولى : التوكيد على التفاعل المتبادل ـ وربما بصورة اكثر مما عند فرويد ـ بين المحتوى الاجتماعي والمراحل البيولوجية المعينة التي يمر بها الكائن الحي . **والثانية** : التوسع في المراحل . فبعد ان كانت هذه المراحل اربع عند فرويد (الفمية ـ الشرجية ـ القضيبية ـ التناسلية) ، اصبحت ثمانية عند اريكسون .

وسوف نعرض نظرية اريكسون بشيء من الاختصار مستعينين في ذلك بما قدمه في كتابيه **« الطفولة والمجتمع » طبعة ١٩٧٠ (١٧) ، « والهوية : الشباب والازمات » طبعة ١٩٦٨ (١٨)** .

وقد أشار اريكسون في بداية حديثه عن نمو الشخصية الى ان هناك صورا كثيرة لخصائص الشخصية السوية واخذ بتعريف **ماري جاهودا Marie Jahooda** التي تذهب الى ان الشخصية السوية هي « تلك التي تسيطر على البيئة بنشاط ، وتكشف عن وحدة معينة ، ولديها القدرة على ادراك العالم وادراك نفسها على نحو سليم » . ومن الواضح ان هذه المعايير تعد نسبية اذا نظرنا اليها من ناحية النمو المعرفي والاجتماعي للطفل . فالطفولة تتميز في الحقيقة بالغياب المبدئي لهذه المعايير ، وبنموها التدريجي بعد ذلك في خطوات معقدة من التمايز المطرد . ومن هنا ، يرى اريكسون ان من المفيد ان تبين الطريق الاساسي لنمو الشخصية وخصائصها السوية .

ويذهب اريكسون الى انه عند محاولة فهم عملية النمو ، يحسن ان نتذكر جيدا مبدأ **« التخلق المتعاقب » (*) Epigenetic Principle** والذي نستمده من نمو الكائن الحي العضوي داخل الرحم . وبتعميم هذا المبدأ نوعا ما ، يمكن القول بان اي شيء ينمو ، انما يكون له منذ البداية ، خطة اساسية ينمو وفقا لها . ومن هذه الخطة الاساسية تقوم الاجزاء ، ويكون لكل جزء وقت محدد لظهوره ، حتى يكتمل ظهور الاجزاء جميعا ، فتكون كلا وظيفيا . هذا ما يصدق بشكل واضح على نمو الجنين ، حيث يكون لكل جزء من اجزائه وقت محدد للظهوره ، والا تعرض للتلف او نقص التكوين . وعند الولادة يتخلى الطفل عن التبادل الكيميائي الذي كان يتم داخل الرحم ، كي يفسح المجال امام نظام جديد من التبادل الاجتماعي مع مجتمعه الذي سيحيا فيه ، وحيث تتعرض قدراته وامكانياته المتزايدة بالتدريج لكثير من فرص النمو ومن الاحباطات التي تظهر داخل الاطار الثقافي الذي يعيش فيه . اما كيف يستمر الكائن الحي النامي في نموه ، لا عن طريق نمو اعضاء جديدة ، ولكن عن طريق التتابع المحدد لظهور القدرات الحسية والحركية والاجتماعية ، فهذا ما تمتلىء به كتب النمو . لقد امدنا التحليل النفسي بالكثير من المعلومات التي تتصل بالخبرات المزاجية ، وعلى وجه الخصوص بالصراعات الداخلية التي تكشف عن الطريقة التي بها يصبح الفرد شخصية متميزة ، ولكن من المهم ايضا ان نتحقق من ان الطفل السوي في تتابع خبراته الشخصية يمكنه ، اذا منح قدرا معقولا من التوجيه السليم ، ان يخضع لقوانين النمو الداخلية ، تلك القوانين التي تسمح بتتابع ظهور الامكانيات في تفاعلها الهام مع الشخصيات والمؤسسات الاجتماعية التي يتفاعل معها . واذا كان هذا التفاعل يختلف من ثقافة لأخرى ، الا انه يجب ان يظل داخل اطار « المعدل الطبيعي للسرعة والتتابع السري » الذي يحكم كل تخلق متعاقب . وعلى ذلك ، يمكن القول بان الشخصية تنمو وفقا لخطوات محددة سلفا في استعداد الكائن الحي العضوي ، من اجل ان يعرف ويتفاعل ويتجه نحو مجال اوسع من الاشخاص والمؤسسات ذات الاهمية بالنسبة له .. ولذا يستخدم اريكسون عند عرضه لمراحل نمو الشخصية تصورا لهذا التخلق المتعاقب في النمو النفسي ابتداء من الطفولة الاولى حتى الرشد .

---

* Epigenesis : التخلق التعاقبي : نظرية تقول بان الجنين يتكون بسلسلة من التشكلات المتعاقبة (وهي تناقض التخلق السبقي القائلة بان جميع اعضاء الجنين موجودة وجودا سبقيا في الجرثومة) .

ومن الطبيعي انيواجه الطفل في كلمرحلةمن مراحل نموه مشكلة أساسية عليه ان يحلها بصورة مؤقتة على الأقل ، اذا اراد ان يتقدم فيحيوية وثقة الى المرحلة التالية .وهذه المشكلات او هذه الصراعات بين المشاعر وبين الرغبات لاتحل باكملها على الاطلاق ، فكل تغير في الخبرة والبيئة من شأنه ان يظهر هذه الصراعات في صورة جديدة . على ان من المعتقد ان كل نوع من هذه الصراعات يبدوفي أنقى صورة واوضحهافي مرحلة معينة من مراحل نمو الطفل ، ومتى حل: هذا الصراع او هذه المشكلة حلا طيبا في ذلك الوقت ، تم وضع أساس التقدم الى المرحلة التالية .

ونقدم فيما يلي وصفا للمراحل الثمانيةالثمان عند اريكسون .

١ ــ الاحساس بالثقة الاساسية في مقابلعدم الثقة الاساسية : وعند وصف مجموعة الاتجاهات الاساسية المتعاقبة للنمو ، استخدماريكسون مصطلح « الاحساس بـ» sense of ومع ذلك ، يجب ان يكون من الواضح بشكلمباشر أن مثل هذه الاحساسات ، كالاحساس بالصحة او الحيوية او الاحساس بالافتقار اليكليهما ، تنطبق على جميع الاشياء التي تنتشر ظاهرة على السطح او توجد في الاعماق . فهيتنطبق على الحالات الشعورية وما قبل الشعورية واللاشعورية . فالثقة ، كخبرة شعورية يمكنان تخضع للاستبطان ، ولكنها هي أيضا وسيلة للسلوك تقبل الملاحظة من الآخرين ، ثم بانها اخيراحالة داخلية يمكن ان تتحقق فقط عن طريق الفحص والتفسير بالتحليل النفسي . وكل هذهالابعاد الثلاثة يمكن الاستدلال عليها حين نتحدث عن « الاحساس بـ » .

واول مكون للشخصية السليمة هو« الاحساس بالثقة » . وهذا الاحساس يظهر عادة خلال السنة الاولى من حياة الطفل ، وهوكغيره من مكونات الشخصية لا ينمو مستقلا عن غيره من مظاهر النمو الاخرى . والشعور بالثقةلايعني أن الطفل قد أصبح قادرا على استخدام جسمه في حركة هادفة ، وانه قادر على التعرفعلى من حوله من الناس والاشياء فحسب ، بل وايضا يستعمل كتعبير موجز عن خاصية مميزةلكل خبرات الطفل المشبعة في هذا السن المبكر .

واول مظهر منمظاهر الثقة الاجتماعية لدىالطفل في هذه المرحلة هو ما يتجلى في سهولة الحصول على الغذاء ، وعمق النوم ، والشعوربالارتياح عقب القيام بعملية الاخراج . وتساعد خبرة التنظيم المتبادل بين قدراته المستقبلة .واساليب الام التي تزوده تدريجيا باحتياجاته المختلفة ، على احداث التوازن لمشاعر عدمالارتياح . ومع ازدياد ساعات اليقظة ، يجد الطفل ان الخبرات الحسية المتزايدة من شانهاان تثير لديه الاحساس بالالفة والتوافق مع مشاعر الارتياح الداخلية ، وتصبح اشكالالارتياح ، وكذلك الناس والاشياء المحيطة به ، امورا مالوفة لديه .

ويستمد الطفل من الثقافة التي يعيشفيها بعض الاساليب الاساسية . ومن ابسطها واسرعها ظهورا ، اسلوب « الاخذ » ، لا بمعنى« ان يذهب وياخذ » ، ولكن بمعنى ان «يستقبل ويتقبل ما يقدم له » وهذه العملية تبدوسهلة وبسيطة ، ومع ذلك فان اي اضطراب

فيها من شانه ان يكشف عن مـدى تعقد هـذه العملية . فهذا الطفل الصغير يتعلم كيف ينظم استعداده « للاخـذ » مـع اساليب الام التي تسمح بدورها للطفل ان ينسق وسائله ، عندما تنمى هى وسائلها فى العطاء . ونتيجة لهذا كله ينمى الطفل ايضا التوحد مع الام ، ويصبح اخيرا معطيا على نحو ما كانت الام .

وقد يظهر لدى بعض الاطفال الحساسين على وجه الخصوص او الذين لا تعوض احباطاتهم المبكرة ، قدر من الضعف فى احداث مثل هـذا التنظيم المتبادل المبكر ، الامر الذى يسبب اضطراب العلاقة مع العالم الخـارجى بعامة ، ومع الاشخاص المهمين بخاصة . غير ان هناك بالطبع طرقا اخرى لتوكيد هذا التبادل من خلال مواقف اخرى غير المواقف الفمية المستقبلة . فهناك احساس الطفل بالسرور عندما تضمه الام الى صـدرها او عندما تبتسم له او تتحدث اليه او تدلله . والى جانب مثل هذا التعويض « الافقى » (الذى يحدث خلال نفس مرحلة النمو) وهناك ايضا التعويضات « الطولية » فى الحياة والتى تظهر خلال المراحل التالية من دورة حياة الفرد .

وخلال المرحلة الفمية الثانية ، تنمو لدى الطفل بعض القدرات للحصول على اللذة باتخاذ اساليب اكثر ايجابية واكثر ادماجا ، وبشكل مباشر . ففى هذه المرحلة تبزغ الاسنان ، ومع بزوغها يظهر السرور من القيام بالقضم على الاشياء او عضها . ويتصف هذا الاسلوب الادماجى النشط بعديد من الانشطة الاخرى . فالعين التى كانت من قبل سلبية فى استقبالها للانطباعات التى تحدث ، تتعلم الآن التركيز على الاشياء وفصلها وادراكها على ارضيتها الغامضـة وتتبعها . وبالمثل تتعلم أعضاء السمع تمييز الاصوات الهامة والتركيز عليها وادارة الراس وراءها ، وتتعلم الاذرع الوصول الى الاشياء والقبض عليها باليدين بشكل محدد .

ومن الصعب تقـدير أزمة هذه المـرحلة الفمية نظـرا لانها تتالف من الاتفاق الزمنى لنماءات ثلاثة : (ا) حافز قوى الادماج وافراده وملاحظة التوتر المصحوب بعدم الارتياح نتيجة بزوغ السن وغيرها من التغيرات فى الجهاز الفمى (ب) المعرفة المتزايدة للطفل بنفســه كشخص متميز . (جـ) التحول التدريجى للام بعيـدا عن الطفل ، وتجاه أمور كانت قد تخلت عنها الى حد ما خلال فترات الحمل الاخيرة ، او المـدة الاولى للرعاية ، او ربما لاستقبال طفل جديد.

وعندما تـستمر الام فى تقديم الثدى خلال مرحلة العض ، فان من الضرورى اذن أن يتعلم الطفل كيف يستمر في الرضاعة من غير عض ، وحتى لا يترتب على ذلك ان تسحب الام الثدى فى غضب او الم . ويشير العمل الاكلينيكى الى ان هذه المرحلة المبكرة فى تاريخ حياة الطفل تزوده ببعض الاحساس بفقدان الثقة ، وتترك انطباعا لديه بأن وحدته مع الام قد تحطمت مرةً واحدة والى الابد . وهذا الفقدان المفاجىء لحب الام الذى اعتاده الطفل – ودون أن يكون هناك بديـل مناسب في هذا الوقت المبكر يعوضه هذا الحب – من شانه ان يحدث اكتئابا شـديدا لـدى الطفـل ، او على احسن الظـروف احسـاسا بالانقسام الداخلى وحنينا غامضا للجنة المفقودة. وازاء هذا التجمع القوى للاحساس بالحـرمان والشعور بالانقسام والفقدان يجب أن تؤكد الثقة الاسـاسـية ذاتها خلال حياة الفرد .

ويتضح فقدان الثقة الاساسية في حالات المرض النفسي ولدى حالات الفصام الطفلي ، كما تتضح مظاهر الفقدان الكامل الطويل الامد لهذه الثقة في شخصيات الراشدين الذين يتسمون بالانسحاب الشديد والبعد عن الناس وبالاكتئاب . وقد وجد بالنسبة لمثل هذه الحالات ، ان اعادة بناء الثقة بالنفس هو المطلب الاساسي للعلاج ، لانه ايا كانت الظروف التي احدثت الاضطراب الذهاني ، فان الشذوذ او الانسحاب الذي يظهر في سلوك الكثيرين من المرضى ، انما يخفي وراءه محاولة لاستعادة التبادل الاجتماعي واعادة الثقة مرة اخرى .

واول عمل للانا هو اقامة انماط متينة ثابتة لحل الصراع الرئيسي للثقة مقابل فقدان الثقة ، وهذا بلا شك واجب من واجبات الرعاية التي تقوم بها الام . ويجب ان نوضح هنا ، ان مقدار الثقة المستمد من الخبرة الطفلية المبكرة ، لا يتوقف على الكميات او المقادير المطلقة للطعام او على اظهار المحبة للطفل فحسب ، وانما يتوقف ايضا على نوع العلاقة بين الطفل والام . فالامهات يخلقن الاحساس بالثقة في ابنائهن عن طريق هذا النوع من المعالجة الذي يتضمن الرعاية الحساسة لحاجات الطفل ، وعن طريق هذا الاحساس العميق بأنه جدير بالثقة الشخصية داخل اطار الثقة في اسلوب حياة المجتمع والثقافة التي يحيافيها . ومن شان هذا ان يشكل لدى الطفل اساس الاحساس بالهوية ، والذي سوف ينضم فيما بعد الى الاحساس بان الامور « تسير على ما يرام » وانه « هو هو » ، وانه « جدير بثقة الاخرين به » . حقيقة قد يواجه الطفل ، سواء في هذه المرحلة او المراحل التالية عليها ، مجموعة من الاحباطات التي لا يمكن للطفل النامي تحملها احيانا ، ولذا يجب الا يعتمد الاباء في اسلوب تربيتهم للطفل على وسائل معينة للتوجيه عن طريق المنع او المنح فحسب ، بل يجب ان يكون لديهم ايضا القدرة على الاقناع العميق للطفل بان ثمة معان تكمن وراء ما يقدمونه له من اشياء ومن أوامر ونواه . ان الطفل لا يصبح في النهاية عصابيا نتيجة ما يتعرض له من احباطات ، وانما لفقدانه المعنى الاجتماعي لهذه الاحباطات .

٢ - الاحساس بالاستقلال مقابل الشعور بالخجل والشك وبعد ان توضع بذور الاحساس بالثقة على اساس متين ، يبدا الانتقال الى المكون الثاني من مكونات الشخصية السليمة ، وذلك في الفترة ما بين سن الاثنى عشر والخمسة عشر شهرا . وتنصرف معظم طاقة الطفل في هذه المرحلة الى توكيد ذاته من خلال الافعال التي يقوم بها من حيث انه انسان له عقل وله ارادة خاصة .

وهناك اساس فسيولوجي للسلوك المتميز في هذه المرحلة . ذلك ان نضج الجهاز العضلي وما يترتب عليه من تآزر وتوافق بين عدد من الانماط المتصارعة للحركة والفعل ، يهيىء المسرح امام تجربة مجموعتين من الاساليب الاجتماعية في وقت واحد : القبض والاسترخاء ، الامساك والاخراج . وكما هو الامر بالنسبة لكثير من الحالات ، يمكن ان تؤدي صراعاتها الاساسية في النهاية اما الى العدوان او الى توقعات واتجاهات لطيفة معتدلة . فالقبض او الامساك يمكن ان يصبح احتجازا قاسيا اومدمرا ، كما يمكن ان يصبح نمطا من الرعاية ، بمعنى انه يمتلك ويحتفظ بما يمتلك . وبالمثل قد يصبح الاخراج او الاسترخاء وسيلة لاخراج عدواني لقوى مدمرة ، كما يمكن ان يصبح استرخاء بمعنى « دع الامور تمر وتنتهي » .

وفى هذه المرحلة يجب ان يكون الضبط الخارجي من النوع الذى يعيد الطمانينة مع قدر من الحزم . فالطفل يجب ان يشعر ان الثقة الاساسية في الوجود ، والتى استمر محتفظا بها رغم ثورات المرحلة السابقة وازماتها سوف لا تتعرض للخطر نتيجة هذا التغير الكامل المفاجىء ، وهذه الرغبة العنيفة المفاجئة للقيام بالاختيار بين ان يحتفظ بعناية او ان يخرج بعناد . فالحزم فى هذه المرحلة امر ضرورى لانه يجب ان يحميه من الفوضى التى يمكن ان يتردى فيها نتيجة لاحساسه غير المدرب على التمييز والتفضيل ، وعدم قدرته على القبض والاخراج دون تحفظ وحذر . فينبغى على الام والبيئة المحيطة به اذن ، ان تعضد الطفل وتشجعه على « الوقوف على قدميه » والاستقلال بنفسه ، وان تحميه ضد الخبرات القاسية والعديمة المعنى والتى يسيطر عليها الخجل والشك .

فالبيئة اذن يجب ان توجهه التوجيه الحكيم ، وان تجنبه مشاعر الخجل والشك فى قيمته كشخص ، وان تسلك ازاءه بحزم وتسامح ، بحيث يستطيع ان يتمتع بكونه شخصا مستقلا ، وان يمنح الاستقلال للآخرين .

ويذهب اريكسون الى ان الخجل انفعال لم يدرس بعد بما فيه الكفاية ، لاننا فى مجتمعاتنا الحديثة ، سرعان ما نمتصه الخطيئة بسهولة . ويفترض الخجل ان الفرد قد تعرى تماما ، كما يفترض ايضا الشعور بان الآخرين قد اطلعوا عليه ونظروا اليه . فهو واع بذاته او خجل من نفسه . لقد رؤى وهو على غير استعداد لان يراه احد . ولعل هذا هو السبب فى اننا نحلم احيانا بالخجل فى موقف يشعر فيه الفرد ان الآخرين يتفرسون فيه وهو فى حالة من العرى الكامل او وهو في ملابس الليل « وبقوى سروال » وكان يعبرا عن الخجل كدافع يدفع الفرد « ان يدفن وجهه بين يديه » او « ان يتمنى ان تبتلعه الارض هنا او هناك » . ويعتبر اريكسون الخجل اساسا بمثابة ثورة موجهة ضد الذات . فهذا الذى يشعر بالخجل يود لو اجبر العالم الا ينظر اليه والا يلاحظ ثورته ، يود لو يحطم اعين العالم ، ثم هو بالاضافة الى ذلك يود ان يصبح هو ذاته غير مرئى .

والشك قرين الخجل . واذا كان الخجل يتوقف على الشعور بالتعرى والانكشاف امام الناس ، فان الشك ـ حسب ما اوصلته الملاحظة الاكلينيكية الى الاعتقاد ـ يتصل بالشعور بأن للفرد « قبل ودبر » (اى امام وخلف) وخاصة الدبر ، لان هذه المنطقة الخلفية من الجسم مع تركيزها العدوانى والليبيدى على العضلات العاصرة والارداف ، لا يمكن ان يراها الطفل ، ومع ذلك يمكن ان تخضع لارادة الغير . « فالدبر » هى تلك المنطقة من الجسم التى يمكن ان يسيطر عليها او يكتسحها ـ بالخيال او بالفعل ـ هؤلاء الذين يمكنهم مهاجمة قدرة الفرد على الاستقلال ، او الذين قد يصفون ما تخرجه الامعاء بانه خطأ او عيب فى الوقت الذى يشعر فيه الطفل بالارتياح وقت اخراجها . وهذا الاحساس الرئيسي بالشك فيما يخلفه الفرد وراءه ، يشكل قوام الصور الاخيرة واللفظية للشك القهرى ، والذى يعبر عنه في الرشد فى خوف المصاب بالهذاء من المضطهدين المختفين ، ومن الاضطهادات الخفية السرية التى تدبر من الخلف .

وتعتبر هذه المرحلة من مراحل النموالنفسى الحاسمة فى تكوين الفرد نظرا لما يوجد فيها من صراع بين الحب والكراهية ، بين التعاون والعناد ، بين حرية التعبير عن الذات وقمع الذات . فمن الاحساس بضبط النفس دون فقدان التقدير للذات ، ينتج احساس مستمر ودائم بالارادة والاستقلال والزهو ، على حين ينتج من الاحساس بعدم القدرة على ضبط النفس ، وان التحكم مصدره خارجى ، احساس مستمر ودائم بالشك والخجل .

ويجدر بنا ان نشير الى ان هذه النتائج المتصلة بالاحساس بالاستقلال والخجل والشك ليست امورا مبالغ فيها نتيجة الاهتمام الزائد بالمشكلات الاكلينيكية ، وانما هى امور نجدها متمثلة « حتى لدى الراشدين الناضجين وغير العصابيين . **فهؤلاء غالبا ما يكشفون عن حساسية** تتصل « بالفقدان المخجل لماء الوجه » . ومن « خوف من ان يهاجم من الخلف » ومعظم هذه الاحساسات هى بقايا لمراحل النمو المبكرة التى يمر بها الفرد من طفولته ، والتى يتغلب على معظمها وهو فى طريقه الى الانتقال الى المراحل التالية .

٢ ـ الاحساس بالمبادأة مقابل الاحساس بالذنب وفى كل مرحلة جديدة تظهر معجزة اخرى تتكشف للعيان وتمثل املا جديدا ومسئولية جديدة للجميع . ومعجزة هذه المرحلة هى الاحساس بالمبادأة . ونحن الآن نقترب من نهاية السنة الثالثة حيث تصبح عملية المشى سهلة وميسورة لدى الطفل . حقيقة ان كتب النمو تشير الى ان الطفل يمكنه ان يمشى قبل هذا السن بكثير ، ولكن المشى والجرى يصبحان جزءا هاما من اساليب سيطرة الطفل على البيئة المحيطة به . انه يريد ان يكتشف المجال الحيوى الذى يعيش فيه . فالطفل فى هذه المرحلة شغوف بعقد مقارنات بين الاشياء والاشخاص ، ولديه القدرة على الاستطلاع المستمر للفروق فى الحجم والنوع بعامة ، والفروق فى الجنس والسن بخاصة . انه يحاول ان يفهم الادوار المستقبلة والادوار الجديرة بأن يتخيلها ، انه يريد ان يكتشف اى نوع من الاشخاص يمكن ان يكونه . وهو يحس فجاة بانه قد نما وكبر سواء فى جسمه او فى نفسه ، وانه قد اصبح اكثر نشاطا وحيوية واكثر لمانا وذكاء فى احكامه وانه يمتلك مزيدا من الطاقة والنشاط اللذين يسمحان له بأن ينسى الفشل بسرعة ، وان يقترب مما هو مرغوب (حتى ولو بدا هذا المرغوب غير مؤكد او خطرا) فالمرحلة مرحلة تعلم نشط عنيف ، تعلم يقود الطفل من نواحى قصوره وضعفه الى امكانات مستقبلة وجديدة ، مرحلة اندفاع فى المكان من طريق الحركة العنيفة النشطة ، مرحلة غزو للمجهول يدفعه اليه حب استطلاع شديد . ثم هو فى هذه المرحلة يستطيع ان يرتبط وبشكل مباشر برفاقه من نفس سنه ، ويمكنه بتوجيه الاطفال الاكبر منه سنا ، او بتوجيه الكبار من حوله ، ان يتعلم سياسة التعامل مع هؤلاء الرفاق ، سواء فى المدرسة او فى الشارع او المجتمع الخارجى .

وهكذا تضيف المبادأة الى الاستقلال صفة مباشرة العمل ومواجهته وتخطيطه من اجل ان يصبح نشطا ومتحركا . ويرى اريكسون ان مصطلح المبادأة ـ رغم ما يحمله من مدلول امريكى ذى صبغة اقتصادية ـ يعد جزءا ضروريا بالنسبة لكل عمل . فالانسان يحتاج الى

الاحساس بالمبادأة بالنسبة لكل نشاط يقوم به ، وكل عمل يتعلمه أو يؤديه ابتداء من جمع المحصول في الحقل الى القيام بتنفيذ مشروع هندسي .

ويرى اريكسون ان تعلم الطفل في هذه المرحلة هو الى حد بعيد من النوع الاقتحامي والعنيف . انه يبعد الطفل عن نواحي قصوره وضعفه ، ويقربه في ذات الوقت من امكاناته المستقبلة .

واسلوب الاقتحام الذى يسيطر على كثير من مظاهر سلوك هذه المرحلة قد يتخذ العديد من الانشطة والتخيلات المتشابهة . وتتضمن هذه :

(١) اقتحام المكان بحركة نشطة وعنيفة .

(٢) اقحام الطفل بنفسه فيما لا يعنيه من أمور عن طريق حب الاستطلاع .

(٣) اقحام نفسه في آذان الاخرين وعقولهم عن طريق صراخه العدواني .

(٤) اقحام نفسه على اجسام الاخرين بالهجوم المادى عليهم .

(٥) واخيرا باقحام عضو التذكير ـ بالتفكير او التخيل ـ في جسم انثى . وهذه المرحلة هي نفسها المرحلة القضيبية في نظرية الجنسية الطفلية عند فرويد . انها مرحلة حب استطلاع طفلي واستثارة جنسية واهتمام زائد وانشغال بامور الجنس كافتقار البنت الى عضو التذكير .

ومرحلة التجول ـ والتي هي مرحلة لعب وجنسية طفلية ـ تضيف الى الاساليب الاجتماعية الاساسية اسلوبا جديدا لدى الجنسين هو اسلوب « الاحداث او الصنع making » وهو بالمعنى الطفلي **اسلوب « الفوز بشيء »** وهذه العبارة توحي بالاستمتاع بالمنافسة والاصرار على بلوغ الهدف واللذة في الفوز والسيطرة ، وينصب التركيز عند الولد الذكر على الاساليب « القضيبية ـ الاقتحامية » ، على حين تتحول عند الفتاة الى اساليب المسك المفاجىء والاختطاف العدواني او ـ في الحالات المعتدلة ـ اتخاذ اساليب تجعلها جميلة وجذابة . وبذلك ينمى الطفل متطلبات المبادأة الذكرية والانثوية وبعض صور الذات الجنسية التي سوف تصبح مقوما اساسيا من مقومات المظاهر الموجبة والسالبة لهويته المستقبلة ، كما تزداد تخيلات الطفل . فالولد ينغمس في تخيلات قوامها انه اصبح هائلا او اسدا ، ولكن احلامه تدور حول مخاوف تتصل بالحياة وبالاطراف . فهي مرحلة « عقدة الخصاء » والخوف العميق من الفقد . اما البنت فلديها اقتناع بانها قد فقدت العضو الذكرى عقابا لها عن تخيلات وافعال سرية خفية .

وفي هذه السن يكون الضمير قد نما واصبح اعظم حاكم للمبادأة . فالطفل لم يعد موجها بأناس من الخارج فحسب ، بل أصبح أيضا يسمع « الصوت الداخلي » لملاحظة الذات وتوجيهها وعقابها ، هذا الصوت الذى يعلق على افعاله ويحذره ويهدده ، وتلك هي بداية

نشوء الاخلاق عند الطفل . غير ان تزمت الكبار وتحميلهم للطفل اكثر مما يطيق ، سوف يجعل الامر صعبا وخطيرا بالنسبة للروح والاخلاق معا . ذلك ان ضمير الطفل يكون بدائيا وقاسيا وغير متسامح ، وقد ينتج عن ذلك نوع من الحصر الشديد . فاذا كان من الممنوع ان يفعل كذا ، فمن الخطورة بمكان ان يفكر حتى مجرد التفكير فيه ، وقد يدفع الى هذا القرار غيرة وحسد ومرارة واتجاه نفسي شرير تجاه العالم . ومثل هذه المشاعر تجبر الطفل على تقييد ذاته ، وقد يصبح هذا التقييد لا شعوريا ويكون جزءا من الشخصية يقوم بوظيفته ويؤثر في سلوكها . ولعل احد الصراعات العميقة في الحياة هو ذلك الصراع الذي يتكون نتيجة كراهية الاب الذي يكون في بداية الامر نموذجا للضمير ، ولكنه في النهاية يرتكب الخطايا التي لا يتحمل ضمير الطفل اتيانها . وهنا يصل الطفل الى الشعور بان المسالة ليست مسالة اخلاق عامة ، بل هي قوة قسرية وتعسفية تفرض عليه .

وهذه المرحلة النمائية لها مزايا ومخاطر. فالطفل في هذه المرحلة يكون اكثر استعدادا للتعلم بسرعة وقوة ومشاركة الالتزامات والاعمال التي يقوم بها الغير ، منه في اية مرحلة اخرى ، فهو شغوف لان يتعلم ، ومشوق وقادر في نفس الوقت على القيام بالاعمال التي يشارك ويتعاون فيها مع الاطفال الاخرين من اجل التصميم والبناء ، كما يرحب بالاستفادة من المدرسة ، وان يضاهي النماذج الاصلية التي يراها . انه يظل بالطبع متوحدا مع الاب من نفس الجنس ، ولكنه في الوقت نفسه يبحث عن فرص يتيح له فيها التوحد مع العمل ، مجالا للمبادأة دون حدوث صراع طفلي ، اوشعور اوديبي بالذنب ، وكذلك البحث عن توحد اكثر واقعية يقوم على روح المساواة التي خبرها من العمل مع الاخرين . واذا استطاع الطفل في هذه المرحلة ان يفهم جزئيا بعض الادوار والوظائف التي يستطيع القيام بها كشخص راشد ، فانه سوف يكون مستعدا للانتقال في نمو سليم الى المرحلة التالية .

٤ ـ الاحساس بالعمل مقابل الشعور بالنقص : واذا كان طفل المرحلة السابقة مستعدا لان يتعلم في شغف وسرعة وان يصبح كبيرا ، وان يشارك في الالتزامات والنظام والعمل ، وان يعمل ويشارك في البناء والتصميم فان اطفال هذه المرحلة يصبحون اكثر ارتباطا بالمدرسين وآباء الأطفال الآخرين ، واكثر ميلا الى ملاحظة وتقليد اعمال بعض الناس الذين يمكنهم ادراكها كرجل الشرطة ورجل المطافيء والبستاني . وهذه المرحلة تبدو كلها وكانها تمهد السبيل للدخول في الحياة . واقصد بالحياة هنا حياة الدرس ، سواء تم ذلك في الحقل او المعسكر او الفصل ، والطفل في هذه المرحلة ينسى الكثير من الامال والرغبات السابقة وينصرف الى الاعمال الحقيقية . ذلك ان الفرد قبل ان يصبح ابا من الناحية البيولوجية ، عليه ان يعمل أولا ليرعى اسرته ، ومع الدخول في مرحلة الكمون ينسى الطفل المتقدم بشكل طبيعي نحو النضج او يعلي الرغبة في ان يوجد اناسا او ان يصبح ابا او تصبح اما . انه يتعلم الآن ان يكتسب المعرفة عن طريق انتاج الاشياء .

واذا كان جميع الاطفال محتاجين في بعض الأوقات الى ان يتركوا يلعبون وحدهم او ان يتركوا ـ فيما بعد ـ في صحبة الكتب او الراديو او السينما او التلفزيون ، واذا كان جميع الاطفال يحتاجون في بعض الاوقات الى القيام ببعض الالعاب الايهامية ، فانهم ، ان عاجلا او آجلا ، سوف يحسون بالاستياء والسخط اذا لم يوجد لديهم الاحساس بالقدرة على القيام بعمل شيء ما او عمله جيدا وباتقان . وهذا الاحساس بالقدرة على العمل هو ما اطلق عليه اريكسون اسم «الاحساس بالانجاز» او « الاحساس بالصناعة » ، فبدونه يشعر الطفل بالضياع . فبالعمل يعرف الفرد ويعرف مجتمعه انه قد اصبح من الناحية النفسية مؤهلا لان يكون ابا ، حيث يلزمه العمل لرعاية الاسرة من الناحية الاجتماعية ، قبل ان يصبح ابا من الناحية البيولوجية .

وتقول « **ايفس هندريك** » ان مبدأ العمل يعلم الفرد لذة اتمام العمل وانجازه ، وذلك نتيجة الانتباه المستمر والاجتهاد المتواصل . والاطفال في جميع الثقافات يتلقون خلال هذه المرحلة بعض نواحي التعليم المنظم والذى يأخذ عادة صورة تعليم مدرسي حيث يتجمع الاطفال حول مدرسين مؤهلين جيدا للقيام بعملية التعليم . وفي المجتمعات البدائية ، حيث لا تعلم منظم ، يقوم الكبار بدور تعليم الصغار الذين يلتقطون المهن من الكبار . ويغلب الميل لدى الطفل في مثل هذه الحالات حين يقبل على تعلم صنعة ما . وعلى ذلك ، فان اساسيات التكنولوجيا تنمو عندما يصبح الطفل قادرا على معالجة الادوات والعدد والسهام التي يستخدمها الكبار من حوله . وحيث يتطلب الامر ان يصبح المتعلم على قدر من التخصص المهني ، فان واجب المدرسة في هذه الحالة هو أن تزود الطفل باكبر قدر من التعليم الاساسي لاتقان تخصصه . ومن الملاحظ انه كلما اصبح دور التعليم اكثر تخصصا ، واصبحت المواد الدراسية اكثر عمقا ، قل دور الآباء في العملية التعليمية واصبح اكثر تحديدا . ومن هنا ، تصبح المدرسة هي المصدر الاساسي للثقافة بما لها من قدرة وامكانات على تحقيق اهداف المجتمع التربوية .

والخطر الاساسي في هذه المرحلة يكمن في احساس الطفل بعدم الكفاية والنقص . وقد يرجع ذلك الى فشل الطفل في تنمية الشعور بالمبادأة في المرحلة السابقة ، او ان وضعه بين اقرانه الذين يشاركونه العمل او الدراسة يشعره بالعجز في التوحد معهم ، او ان مكان التعليم والعمل لا يوفر له من الخبرات والمثيرات ما يتحدى قدراته الكامنة . ومن هنا يصبح النجاح في المدرسة احد عوامل الصحة النفسية للطفل ، وكما يقولون النجاح يولد النجاح . ومن شان ذلك ان يجعل النمو النفسي للطفل سويا وطبيعيا الى حد بعيد . والمدرس الناجح هو الذى يعرف كيف يساعد التلميذ على ان يشق طريقه في المدرسة ، ويعينه على التغلب على مشكلاته المدرسية وعلى العوائق التي تعترض سبيله . انه يعرف جيدا كيف يجعل الطفل يتناول اللعب والعمل . انه يعرف كيف يقدم الجهود الخاصة وكيف يشجع الاطفال على بذل المزيد من الجهد ، وكيف يعالج هؤلاء الذين لا ينظرون باهتمام الى المدرسة ويعتبرونها سجنا . ولكن من واجب الآباء ايضا ان يجعلوا ابناءهم يحبون مدرسيهم

ويحسون بالثقة فيهم ، لأن الطفل محتاج الى التوحد مع مدرسه مثلما هو محتاج الى التوحد مع أبيه .

٥ ـ **الاحساس بالهوية مقابل اضطراب الدور** وباقامة صلات مبدئية حسنة مع عالم المهارات والادوات ، ومع الدخول في مرحلة **المراهقة** ، تنتهي فترة الطفولة الحقة ، وتبدأ مرحلة الشباب . وتعود المشكلات مرة أخرى الى الظهور بسبب التغيرات الجسمية والفسيولوجية السريعة ، والتي تعادل في سرعتها سرعة النمو في مراحل الطفولة المبكرة ، وكذلك بسبب الاضافات الجديدة للنمو الجنسي . ويصبح الشاب النامي الذى يواجه بمثل هذه التغيرات اكثر انشغالا بمظهره امام الاخرين ، اكثر مما هو عليه في الحقيقة .

والمشكلة الرئيسية في هذه المرحلة بالنسبة للمراهق هي مشكلة تكوين الاحساس بالهوية ، اى معرفة من هو ، وما دوره في هذا المجتمع ، وهل هو طفل ـ على نحو ما كان ينظر اليه من قبل ـ ام راشد ـ على نحو ما هو صائر اليه الآن ، وهل لديه القدرة التى **تجعل منه انسانا له كيانه وقيمته في هذا المجتمع** . ومثل هذه المشكلات تحتل مكانا هاما من تفكير المراهق واهتماماته ، كما يصبح اكثر انشغالا واهتماما بالتوفيق بين ما تعلمه من مهارات وادوار في مراحل نموه السابقة ، وبين ما هو مقبول اجتماعيا الآن . وهو في بحثه عن احساس جديد بالهوية والاستمرار ، عليه ان يخوض الكثير من المعارك التي سبق ان خاضها من قبل .

ويرى اريكسون أن التكامل الذى يحدث الآن في صورة هوية الذات ، اكبر من مجموع توحدات الطفولة . انه نتيجة الخبرة النامية لقدرة الانا على احداث تكامل بين كل التوحدات السابقة وتقلبات الليبيدو والقدرات المنبثقة من المواهب ، والفرص التي تقدمها له الادوار الاجتماعية . فكل هذه المتغيرات هي التي تعمل على احداث التكامل الجديد في صورة هوية الذات لدى المراهق .

ويتمثل خطر هذه المرحلة النمائية في اضطراب الدور role confusion وارتباكه . ولتوضيح معنى هذا المفهوم اشار اريكسون الى عبارة وردت في رواية آرثر ميللر Death of a Salesman على لسان احد المراهقين في سياق حديثه مع امه « انى لا استطيع ان امسك بشيء يا امى ، انى لا استطيع ان استحوذ على اى نوع من انواع الحياة » . فاذا التغيرات الجسمية السريعة التى تحدث للمراهق سواء من حيث الشكل أو الحجم ، وازاء نضجه الجنسي ، ونظرة المجتمع اليه ، والتغيرات المختلفة التي تطرأ على ادواره الاجتماعية ، لا يملك المراهق الا الاحساس بهذا الاضطراب في الهوية .

وسواء سيطر المراهق على اضطراب الهوية ، او اصبح نتيجة لذلك جانحا او عصابيا او ذهانيا ، فان هذا يتوقف على خبرات الماضي وعلى الشكوك القوية السابقة التي مرت به . فان تم تشخيص هذه الاحداث وعلاجها بشكل سليم ، فسوف يحدث تكامل جديد لدى الفرد ، ويرى طريقه في الحياة . وفي بعض حالات المراهقة ، يكون عدم القدرة

على الاستمرار او الاستقرار فى عمل ما او فى وظيفة واحدة احد الاسباب التي تؤدى الى اضطراب الهوية عند المراهق .

ويجد المراهقون راحة نفسية فى التواجدمعا ، فهم يميلون الى تكوين الشلل . ومن اجل الابقاء على وحدة الجماعة او الشلة ،يتوحد المراهق ، ولو وقتيا والى الحد الذى يصل فيه احيانا الى الفقد الظاهر لهويته ، مع ابطال الشلة . وهذه هى بداية « الوقوع فى الحب » والذى ليس اساسا او كلية ، حبا جنسيا . فحب المراهقة هو الى حد بعيد محاولة للوصول الى التعريف بهوية الفرد عن طريق اسقاط صورة الذات المختلطة على الغير ورؤيتها هكذا معكوسة وواضحة بالتدريج .ولعل هذا هو السبب فى ان معظم حب صغار الشباب هو حب كلام وحديث .

وصغار الشباب يتعصبون احيانا بشكل ملحوظ لبني جنسهم ويسلكون بقسوة وعدم تسامح تجاه من يختلف عنهم فى اللون او الاساس الثقافي او حتى فى بعض المظاهر البسيطة كالزى والشارات وغيرها من الامور التي ينظر اليها مؤقتا بانها علامات تشير الى من ينتمى الى جماعته ومن هو خارج عنها .ومن المهم ان نعرف ان مثل هذا التصلب وعدم القدرة على التسامح يمكن ان يكون اسلوبا دفاعيا ضد الاحساس باضطراب الهوية وتشوشها . فهم يساعدون بعضهم البعض بقوة وحرارة عند الوقوع فى مشكلات مع السلطة ويختبرون بصورة حمقاء احيانا قدرة بعضهم البعض ، ومدى انتمائهم الى هذه الجماعات من أجل ضمان الولاء لها ، واستعداد الشباب للقيام بمثل هذه الاختيارات القاسية وتحملها احيانا ، يفسر لنا مدى ما للمذاهب السياسية الدكتاتورية او بعض الجماعات المتطرفة من اغراء على عقول امثال هؤلاء الشبان . ففى مثل هذه الاحوال يفقد الفرد هويته نتيجة التشوش والاضطراب فى التفكير ،حيث لا يفكر الا بعقلية الجماعة التى تدفعه الى تحقيق اهدافها . وامثال هؤلاء الشباب يتعرضون للانفصال والانعزال عن حياة غالبية المجتمع الذى يعيشون فيه ، كما يفقدون الثقة بانفسهم وبقدرتهم على توجيه دفة حياتهم بسلام .

ومع ان « الاحساس بالهوية صعب التحقق ، الا انه يحفظ الفرد ويقيه من فوضى الدوافع البيولوجية ، ويمكنه من المحافظة على المبادىء والقوانين ، والوقوف امام ضمير مستبد قاس شكاك . اما فقدان الهوية او فقدان الشعور بان هناك قدرا من « التماثل » والاستمرار ، فانه يعرض الفرد لصراعاته الطفلية ، ويؤدى الى اضطرابات انفعالية » .

٦ ــ **الاحساس بالود والتالف مقابل العزلة** والقوة المكتسبة في اية مرحلة يمكن اختبارها بقدرة الفرد على تجاوزها بطريقة تسمح له بالحصول على فرص اكبر فى المرحلة التالية ، لم تكن متاحة له في المرحلة السابقة .فالراشد ــ الذى يخرج من البحث عن الهوية ــ يكون مشوقا ومرحبا ان يدمج هويته بهوية الاخرين . فهو على استعداد للاحساس بالود والتالف مع اشخاص من نفس الجنس او من الجنس الاخر او مع نفسه . فتكون لديه القدرة على ان يسلم نفسه للانتماءات والمشاركات المحسوسة مع الغير ، وان ينمى

لديه القوة الاخلاقية التى تمكنه مـن ان يفـي بتعهداته حتى لو اقتضى الامر القيام بتضحيات ووعود هامة .

وفي مقابل الالفة والود نجـد الابتعاد ، اعنى الاستعداد للعزلة ، واذا لزم الأمر ، هدم القوى والاشخاص الذين يبدو في وجودهم خطر يهدد الذات وتعدّ على العلاقات الوثيقة التـي تربط الفرد بالآخرين .

واذا تحرينا الدقة ، فان هذه المرحلة هي مرحلة النمو الكامل للتناسلية الحقيقية True Genitality . ذلك ان غالبية حياة الجنس السابقة كانت من نوع البحث عـن الهويـة او خاضعة للشهوات القضيبية أو الفرجيـة التي تجعل حياة الجنس نوعا من الصراع التناسلي . اما التناسلية الحقيقية ، فهي مـن الناحيـة الأخرى حالة دائمة مـن السـعادة الجنسيـة المتبادلة . لقد سئل فرويد مرة عما يظـن ان الشخص السوى قادر اكثر على فعله . فأجاب « ان يحب وان يعمل » to love and to work . وهذه العبارة البـسيطة تدعو الى التأمل العميق ، لانه عندما قال فرويد « ان يحب » كان يعني الحـب التناسلي . وعندمـا قـال « يحب ويعمل » فانه كان يعنى العمل المنتج عامة ، والذى لا يشغل الفرد الى الحد الـذى يفقد الفرد او ينسى حقـه او قدرته علـى ان يصبح كائنا محبا ومتناسلا .

واذا كان التحليـل النفسي قـد قطـع شوطا بعيدا في التوكيد على التناسلية كعلاج عام للمجتمع ، وقدم بذلك بضاعة جديدة لكثير ممن يرغبون لتفسير تعاليمه على هذا النمو ، الا انه لم يوضـح دائما – في نظر اريكسون – كـل الاهداف التي يجـب ان تتضمنها التناسليـة بالفعل . فمن اجل ان يصبح لهذه التناسليـة قيمة اجتماعية مستديمـة ، **فان الصورة المثلى للتناسلية يجب ان تتضمـن : ١ – تبادليـة الشبق الجنسي ٢ – ومع شريك يحبـه ٣ – ومن الجنس الاخر ٤ – وان يكون مستعـدا ومرحبا ان يشاركه الثقة المتبادلـة ٥ – وان يكون مستعدا ومرحبا ان ينظم معـه دورات (ا) العمل (ب) والانجاب (جـ) والترويح ٦ – وبذلك يضمن للنتاج او الصغار جميع مراحل النمو السوى .**

وخطر هذه المرحلة هو العزلة ، اعنى تجنب العلاقات التى تسلم الى الود والمحبة والتآلف ، وقد يؤدى هذا الاضـطراب وهـذه العزلة الى حدوث مشـكلات خطيرة في الشخصية .

(٧) الانتاجية مقابل الجمود . لقد كـان التركيـز فيمـا سـبق منصبا على الطفـولة والمراهقة . ولكن مع التقدم في السن والوصول الى الرشـد واكتمال النضج يبدأ الاحسـاس الابوى . والاحسـاس الابوى يتضمن النمو التطورى الذى جعل الانسان هو الكائن الحى المعلم والمتعلم على حـد سـواء . واصرارنا المستمر على تصـوير الاطفـال والنظر اليهم باعتبارهم معتمدين ومتكلين دائما على الكبار ، يجعلنا ننسى أيضا اعتماد الجيل الاكبر والمتقدم في السن على الجيل الاصغر منه . ان الشخص الناضج يحتاج دائما الى الشـعور بأن هنـاك من يحتاج اليه ، والنضج يحتـاج الى توجيـه مثلما يحتاج الى تشجيع ممن يقـدم اليه ورعاه .

والابوة ، اساسا ، هى الاهتمام بتربية الجيل الجديد الناتج وتوجيهه ، وان كان هناك آباء ـ اما بسبب سوء الحظ او عوامل نفسية خاصة ، لا يقومون بهذا العمل نحو اولادهم . وقد يتسع مفهوم الابوة ايضا فيشمل مترادفات اكثر الفة كالانتاج والخلق .

اما الاخفاق فى انماء هذا المكون من مكونات الشخصية السوية ، فكثيرا ما يؤدى الى نوع من الانغماس فى الذات والاحساس العام بالجمود والفقر الشخصى . فيبدأ الفرد غالبا فى امتاع ذاته واشباع رغباتها كما لو كان هو الشخص الوحيد او الطفل الوحيد ، ويتساهل مع نفسه وينتظر من الآخرين التساهل معه ، اى يسلك بطريقة طفلية غير ناضجة » .

وثمة حقيقة هامة تتلخص فى ان مجرد الطفل او حتى الرغبة فى انجابه ، لا ترتفع الى ضرورة الاحساس بالابوة . فبعض صغار الآباء يعانون فيما يبدو من تأخر فى القدرة على تنمية الرعاية الحقة لابنائهم ، ويمكن ان ترجع اسباب هذا الاخفاق الى الانطباعات غير السارة فى الطفولة المبكرة وفى التوحدات الخاطئة مع الآباء ، وفى الحب الزائد عن الحد للذات ، وفى الافتقار الى الثقة فى الاطفال او الرغبة فى الشعور بالاستقلال وعدم الارتباط بالغير ، والاحساس بالعزلة . وقد يحدث هذا عند بعض الاشخاص نقصا فى الاحساس بتكامل الانا .

(٨) تكامل الانا مقابل اليأس : Ego Integrity vs Despair وتظهر ثمار المراحل السبع السابقة فى هذا الشخص الذى نما على العناية بالاشياء والاشخاص ، وعلى ملاءمة نفسه مع النجاح والفشل فى هذا العالم » والذى اوجد الآخرين وولد الاشياء والافكار . ولم يجد اريكسون مصطلحا افضل من مصطلح « تكامل الانا » لوصف هذا الشخص . وهذا المصطلح يشير الى ان الفرد قد اصبح قادرا على توكيد نمو الانا فى نزعتها نحو النظام والمعنى ، ونحو التكامل الانفعالى المخلص لحملة صور الماضى ، والاستعداد لتحمل الزعامة والقيادة فى الحاضر والى تقبل دورة حياة الفرد ، وتقبل ما يتصل بها من اشخاص باعتبارهم ذوى اهمية ومغزى فى هذه المرحلة من تاريخه مادام قد ادوا رسالتهم فى هذا السبيل .

كما يعنى « تكامل الانا » ايضا حبا جديدا ومختلفا للابوين ، حبا خاليا من الرغبة فى ان يكونوا غير ما هم عليه ، او ان يتخلصوا من عيوبهم وان يتقبل حقيقة ان حياة المرء هى مسئوليته وحده . كما يعنى ايضا احساسا بزمالة الرجال والنساء الذين ساهموا فى خلق انظمة واشياء واقوال تكشف عن كرامة الانسانية . وعلى الرغم من معرفته بنسبية جميع الاساليب المختلفة للحياة والتى اعطت معنى للكفاح الانسانى ، فان الشخص الذى لديه تكامل الانا يكون على استعداد للدفاع عن كرامة اسلوبه فى الحياة « امام كل ما يتعرض له من تهديدات مادية كانت او اقتصادية . فهو يدرك ان حياة الفرد وكرامته تتوقف على تمسكه باسلوبه الذى يقوم عليه شعوره بالتوحد .

والادلة الاكلينيكية والانثروبولوجية توحى ان نقص او فقدان هذا النمو لتكامل الانا يتضح فى ناحيتى الاشمئزاز واليأس . فالقدر او المصير لا يتقبله الفرد كاطار للحياة ، كما انه يخاف الموت . وهو يعبر عن اليأس فى صورة الشعور بان الزمن قصير ، وانه اقصر من ان يسمح

للفرد ان يبدا حياة اخرى من جديد ، او ان يحاول تجربة طرق اخرى بديلة للتكامل . ومثل هذا الياس غالبا ما يختفى وراء مظاهر الاشمئزاز وبغض الجنس البشرى والاستياء المزرى المزمن لمؤسسات معينة واشخاص معينين ، وهذا الاشمئزاز وهذا الاستياء انما يعنيان فقط احتقار الفرد لنفسه وازدرائه لها .

وهكذا يربط اريكسون بين مراحل النمو والتكيف ،ويربط بين اتجاهه التحليلي واتجاهات اخرى انثروبولوجية واجتماعية .

• • •

ثالثا ـ نظرية نمو الذات عند جوردون البورت

جوردون البورت من كبار المشتغلين بدراسة الشخصية ، وكتب في هذا المجال العديد من الكتب . وقد نظر الى الشخصية من حيث هي اسلوب متميز من اساليب التكيف التى يقوم بها الفرد ، لا توجد عند الولادة ، وان كان من الممكن القول بان بذورها توضع مع الولادة ،ان اساليب التكيف المميزة المبكرة والتى على اساسها يمكن ان نفرق بين طفل وآخر تتضح في شدة نشاطهم التلقائي وتكراره ، وفي تعبيراتهم الانفعالية والمزاجية ، وانه ليس من المحتمل قبل بداية الشهر الرابع ان يكون الطفل قد نضج نضجا كافيا وتعلم تكوين عادات متميزة للتكيف .

ومع بداية النصف الثاني من السنة الاولى تبدا استجابات الطفل التوافقية المتميزة مع العالم المادى والاجتماعي تظهر بوضوح ، وان الصفات المتميزة التى يمكن ملاحظتها في وقت مبكر من حياة الطفل تميل الى الاستمرار وبشكل ملحوظ يسمح للملاحظ ان يتنبأ بما سيكون عليه شخصية الفرد في المستقبل . فالشخصية اذن نامية متطورة تخضع لمظاهر النمو النفسى السوى وغير السوى ،وفقا للمحددات المختلفة التى تؤثر فيها ، ووفقا للظروف التى يمر بها الفرد .

والذات هى لب الشخصية ، بل هى لب كيان الفرد ووجوده . وفكرة الذات تنمو وتتطور وتمر بمراحل متعددة في نموها وتطورها. واذا كنا عرضنا للنمو النفسى الجنسى عند فرويد ، والنمو النفسى الاجتماعى بصورته المتطورة عند اريكسون ، فجدير بنا ان نشير ايضا الى نظرية اخرى تتصل بصميم النمو النفسى للفرد ، وهى نمو ذاته ابتداء من الطفولة المبكرة حتى المراهقة ، وهذه النظرية هي نظرية البورت .

❋ مراحل نمو الذات عند البورت :

١ ـ الطفولة المبكرة : من المؤكد ان الطفل ليست لديه اية معرفة عن نفسه « كذات » وهذا ما تكشف عنه الملاحظات العديدة التى قام بها العديد من علماء نفس الطفل من امثال جان بياجيه وغيره . فالطفل لا يمكنه ان يميز بين ذاته والعالم الخارجي . فهو ينظر الى جسمه كما لو

كان شيئا غريبا عنه ويلعب بأصابع قدميه كمالو كانت دميته ، اى انه ليست لديه اية معرفة عن وجود ذات جسمية أو ذات اجتماعية . فالحدود الفاصلة بين ما هو جزء منه ، وماليس جزءا منه لم تتضح بعد ، ويحسن ان نفرق بين الشعور ، والشعور بالذات ، فهما ليسا مترادفين لا عند الطفل ولا حتى عند الراشد . فالطفل على الرغم من انه يحس ويشعر بما يجرى حوله من حالات وتغيرات نفسية ، الا انه يفتقر فى هذه المرحلة الاولى من عمره الى الشعور بالذات . أما البالغ فلديه الناحيتان معا ، وان كانتا غير متماثلتين : فهو يشعر ، كما انه يشعر بذاته .

والطفل يكتسب الشعور بالذات بشكل تدريجي خلال السنوات الاولى من حياته . وهذه المرحلة الاولى من حياة الطفل والتى تشتمل على السنتين الاوليين يسميهما بياجية باسم « المرحلة الحسية الحركية » وفيهما يستقبل الطفل انطباعات من العالم الخارجي ، ويستجيب لهذه الانطباعات دون ان تكون هناك ذات وسيطة بين هذه الانطباعات وهذه الاستجابات . فهو يحس ويشعر ويستجيب للضغوط الواقعة على سطح الجلد ، ويستجيب للاصوات الهادئة الناعمة الصادرة عن الام ، وردود الافعال الحسية الحركية هذه تدخل فى كل " غير « متشكل » أو كل " « غير متمايز » من الذات والعالم الخارجي على حد تعبير بياجية .

ومع استمرار النمو يبدأ الطفل يكتشف جسمه . ففى حوالى الشهر الخامس أو السادس يمسك بأصابع اليدين والقدمين ويمسك الاشياء الصغيرة المحيطة به . ولكن الاشياء والاصابع التى تقبض عليها هى شيء واحد بالنسبة اليه « شيء واحد لم يتمايز بعد الى مكوناته . وهو عندما يحملق فى قدميه ، يحاول ان يمسك بها وان يضع اصبع قدمه فى فمه ، وهو ان اصاب قدمه فهو يتألم دون ان تكون لديه اية فكرة عن انه هو سبب ألمه . وقد تستثيره رؤية صورته فى المرآة وهو فى شهره الثامن تقريبا ويحملق فيها ويحاول اللعب معها دون ان يدرك ان هذه الصورة التى يراها هى صورته هو . والجدير بالذكر ان الطفل فى العادة يميز صورة والديه فى المرآة ، قبل ان يستطيع ان يميز صورته هو بوقت طويل .

ثم هو حين يبدأ يتنقل فى ارجاء البيت بالزحف من مكان لآخر ، قد يصطدم باشياء كثيرة تسبب له ألما فيبدأ يدرك بالتدريج ان هناك اشياء خارجية جامدة ، وان الاصطدام بها يسبب له ألما . اى يبدأ يدرك ان هناك اشياء خارجية عنه . وهو يصل الى فكرة الشيء الخارجي الذى « ليس هو » قبل ان يتمكن من ان يدرك ان له ذاتا متميزة عن هذا العالم الخارجي بوقت طويل . وكما يدرك وجود الاشياء الخارجية قبل ادراكه لذاته ، فكذلك يدرك وجود الاخرين قبل ادراكه لذاته . فهو يتعرف على الوجوه المألوفة فى البيت من الابوين والاخوة ، كما يتعرف على الغرباء عن البيت . وهذا التعرف على « الغير » يسبق ايضا التعرف على الذات .

ويذهب البورت الى ان **اول مظهر** لفكرة الذات فى هذه المرحلة الاولى هو **« الاحساس بان له جسما »** ، وان هذا الجسم ، جسمه هو . فالطفل يستقبل سيلا من الاحساسات العضوية الداخلية ، كما انه يتأثر ايضا بالكثير من المثيرات العديدة الموجودة فى العالم الخارجي .

وبالطبع لا يكون لهذه الاحساسات الجسمية اى اثر فى تكوين الذات مالم تكن متكررة . ومعرفة هذا التكرار للاستجابات البسيطة المتلاحقة يتطلب نضجا مناسبا في اللحاء بشكل يسمح بالاحتفاظ باثار الخبرات السابقة. وكما ينمو الاحساس بالذات الجسمية من الاحساسات العضوية المتكررة التى تترك آثارها في نفس الطفل فانه ينمو ايضا من الاحباطات المتكررة التى تصدر عن العالم الخارجي . فالاحساس بالذات الجسمية هو فى نظر البورت وثيقة وجودنا ، بمعنى أن احساساتنا وحركاتنا تمدنا بمعرفة ثابتة عن وجودنا .

ولكن رغم ما للذات الجسمية من اهميـة ، الا انها ليست كل شىء في تكوين فكرة الذات عند الطفل فى هذه المرحلة الاولى من الحياة ، فهناك افكار اخرى لها اهميتها .

هناك ثانيا : هوية الذات واستمرارها : فانت هو نفس الانسان الذى كنت عليه وانت فى سن الثالثة او الرابعة من عمرك ، رغم أن كل شىء يتصل بك ، حتى خلايا جسمك والبيئة المحيطة بك قد مرت بها تغيرات عديدة جدا . ثم ان كل فرد منا يتعرف على ذاته . فانا اتذكر بعض الافكار والاحداث التى مرت بذهنى بالامس، وفي الغد سوف اتذكر بعض ما مر بى من افكار واحداث فى يومى وامسى . وانا على ثقة ايضا من ان هذه الافكار والاحداث تتصل بشخص واحد هو انا . ففكرة هوية الذات تعتبر بالغة الاهمية طالما ان التغير هو مع ذلك القاعدة الاساسية للنمو . فرغم ما يطرا على افعالنا وافكارنا من تغير ، الا ان الذات تبقى هي هى مستمرة ومتصلة .

وتلعب **اللغة** دورا هاما فى هذا الصدد . فعندما يبدا الطفل التحدث والتعبير عن رغباته يستخدم من الالفاظ ما يشير الى حاجاته ورغباته ، وانه ، يعنى « هو » ، يريد ان ياكل او ان يشرب او ان يحصل على لعبة ما : فلفظ « انا » او ما يشير اليه يعتبر عاملا واضحا فى علاقته بالعالم الخارجى . ثم ان اسم الطفل الذى يتردد على سمعه فى اليوم الواحد مرات عديدة ، قد يساعده ايضا على ان يدرك ذاته كشىء متميز ومستقل . وهذا الاسم يكتسب معنى ودلالة بالنسبة للطفل فى عامه الثانى . ومع الاسم تاتى المعرفة بالوضع المستقل ، وان له وجودا مستقلا عن وجود الآخرين يتمثل فى هذه الذات الجسمية التى بدا يحس بوجودها . والى جانب الاسم هناك اشياء اخرى يمكن ان تعد بمثابة نقط ارتكاز هامة للتعرف على الذات كالملابس والاشياء الخاصة . فبعض الاطفال فى سن الثانية او الثالثة ، قد يكشفون عن احساس بالهوية حين ينظرون الى بعض ممتلكاتهم الخاصة كالحذاء الجديد او شريط الراس او الفستان الذى ترتديه .

والى جانب الذات الجسمية وهوية الذات واستمرارها ، هناك ناحية ثالثة تلعب دورا هاما في هذه المرحلة من تكوين فكرة الذات هى **رغبة الطفل في اثبات وجوده او تقديره لذاته .** ففى سن الثانية او الثالثة يحاول الطفل القيام ببعض الاشياء بنفسه ، كدفع المشاية بنفسه او تناول بعض الاشياء واللعب بها بنفسه ، وينتقل فى ارجاء البيت يستكشف ما فيه . ويجد لذة كبيرة في القيام بمثل هذه الالوان من السلوك والتى ـ ان اعيقت من جانب الكبار ـ يشعر الطفل كانها ضربة موجهة لتقديره لذاته . بمعنى ان الذات قد احبطت او اعيقت ، وتنتج عن ذلك

شعور بالضعف او احساس بالغضب . ويحس الطفل بذاته ويكون واعيا بها لدرجة كبيرة . ويكون هذا السلوك واضحا لدى طفل هذه المرحلة حتى ان البعض يسميه الحاجة الى « الاستقلال الذاتي » . وهي سمة ملحوظة وبارزة في فكرة الذاتية عند طفل الثانية او الثالثة . وهذا ما يتجلى في ثورة المعارضة التي يتميز بها طفل هذه الفترة بالنسبة للطعام والملبس واطاعة الاوامر وكل ما يريده الاباعادة . فهو ينظر الى اوامر الكبار كما لو كانت تهديدا يهدد تكامله . ولذلك تتضح عنده ظاهرة الرفض ، كما لو كان الرفض بقوله «لا» وسيلة لحماية الذات من كل ما يؤدي الى تحقيرها . ولمثل هذه الفكرة ذهب اريكسون في دراسته للنمو النفسي عند الطفل في حديثه عن المرحلة الثانية من مراحل النمو النفسي للطفل والتي سماها باسم الاستقلال الذاتي ، كما سمى الخطر الذي تتعرض له هذه المرحلة باسم الخجل والشك . والفكرتان ـ تلكما اللتان اوردهما البورت واريكسون ـ قريبتان الى حد بعيد .

وعلى ذلك ، فالمظاهر المميزة لنمو فكرة الذات في السنوات الاولى من حياة الطفل عند البورت هي :

١ ـ **المظهر** الاول : الاحساس بالذات الجسمية .

٢ ـ **المظهر** الثاني : **هوية الذات واستمرارها .**

٣ ـ **المظهر** الثالث : تقدير الذات .

ب ـ مرحلة ما قبل المدرسة :

لكن مرحلة ما قبل المدرسة ـ وهي الفترة ما بين الرابعة والسادسة ـ سرعان ما يفقد الطفل فيها هويته ويختلط عنده الوهم بالحقيقة ، ويسيطر على العابه النوع المعروف باسم «اللعب الايهامي » الذي يتوهم الطفل نفسه فيه فارسا او شرطيا مثلا ، ويخلق له من الوهم والخيال اصدقاء : اطفالا كانوا ام حيوانات . وفكرة الذات الجسمية تكون عنده اكثر وضوحا ، فجميع اعضاء جسمه هي ملك خاص به وحده .

كما ان طفل هذه المرحلة يكون « ذاتي المركز » الى حد بعيد . فالاطار الرجعي لتفكيره هو ذاته . فالقمر يتبعه في كل مكان وحيثما سار ، والله موجود ليحفظه ويحميه ، كما ان وجهة نظره تعتبر مطلقة . فالاخرون يفكرون على نحو ما يفكر هو ، ولذا فهو ليس في حاجة لان يعبر عن وجهة نظره او يفسر اقواله وعباراته للاخرين . ولكن مركزية الذات هنا ليست قائمة على معرفة بالذات او انها تدور حول الذات ، وانما هي تصدر عن الطبيعة الشخصية لتفكير الطفل في هذه المرحلة فحسب .

ومن ثم فان هذه المرحلة تتميز في نظر البورت بمظهرين جديدين ، بالاضافة الى المظاهر الثلاثة السابقة التي تتميز بها السنوات الثلاث الاولى . وهذان المظهران هما :

٤ ـ المظهر الرابع : امتداد الذات واتساعها .

٥ ـ المظهر الخامس : صورة الذات .

فالذات تتسع لتشمل أشياء كثيرة ، كمايلعب الاحساس بالملكية في نفس الوقت دورا هاما . فهذه الكرة كرتي ، وهذه الدراجة دراجتي وهذه امي وهذا اخي وهذا بيتي .. الخ . وكلها تصبح امتدادا للذات وتشير ايضا الى اتساعها لتشمل العديد من الاشياء . وبطبيعة الحال لا تتسع ذات الصغير في هذه المرحلة لتشمل كل ما يحيط به في دائرة عالمه الكبير على نحو ما تجد مثلا بالنسبة للكبار ، وانما أساس هذا الاتساع الكبير الذى سوف يحدث فيما بعد يتم وضع بذوره في هذه المرحلة حينما يحس الطفل بتملك اشياء كثيرة .

وبالاضافة الى امتداد الذات واتساعها ، تأخذ صورة الذات فى الاتضاح اكثر واكثر . فمن طريق التفاعل المتبادل مع الكبار والوالدين يمكنه ان يقارن بين سلوكه الواقعي وما هو متوقع منه . فهو ولد مشاغب ، ووالداه يريدانه ولداهادئا مطيعا لطيفا . ولكن صورة الذات هنا ليست نامية على نحو ما هى فى المراهقة . وعلى العموم فيبدو ان فكرة الذات كما هي وكما يريد ان تكون عليه ، تكون موجودة فى هذه المرحلة .

جـ ـ مرحلة الطفولة المتاخرة : ومع دخول الطفل المدرسة الابتدائية اى فى الفترة ما بين سن **السادسة والثانية** عشرة ، يزداد احساس الطفل بهويته وبصورة ذاته وبقدرته على امتداد الذات . وسرعان ما يتعلم الطفل ان ماهو متوقع منه خارج المنزل يختلف الى حد كبير عما هو متوقع منه داخل المنزل . فمستويات الرفاق فى اللعب والمشى والكلام والملبس شيء جديد عليه . ثم هو يحاول أن يدمج نفسه مع جماعات الرفاق وان يندمج مع الشلة وفى عالم الواقع ، كما يقل لعبه الايهامى ، ويزداد احساسه بذاته الواقعية . ولذلك نجده يرتبط بالمعايير الخلقية واحكام اللعب وقواعدها ويتبعها بكل دقة . ويكون راضيا عن نفسه اذا هو تكيف مع الواقع الخارجي والاحكام الخارجية وامتزج مع الشلة ونمت صورة ذاته .

وهذه الفترة هى ايضا فترة نمو عقلى . وهى فترة تتميز بالمزيد من الرغبة فى المعرفة وحب الاستطلاع وكثرة الاسئلة والاستفسارات . وهذه هى بداية الاحساس بمظهر جديد من مظاهر نمو الذات وهو المظهر السادس عند البورت .

٦ ـ المظهر السادس : الذات منطقية عاقلة ووظيفة الذات هنا كوظيفة « الانا » عند فرويد التى تحاول ان تجد حلا ومخرجا للمشكلات التى تخلقها النزاعات الفريزية والنزعات المكبوتة « الهو » ثم الواقع او البيئة الخارجية ، ثم الاوامر والنواهى التى تصدر عن الوالدين والمجتمع (الانا الاعلى) . فوظيفة الذات العاقلة هى محاولة تجنب المشكلات والصعوبات التى تثيرها هذه النواحى الثلاث ، ولكنها بالطبع ليست دائما عاقلة تماما ، بل تكون احيانا مجرد ذات دفاعية تحاول خلق المعاذير والتبريرات كى لا تجرح الذات . فهى تنكر العوائق الموجودة القائمة وتتلمس وسائل الهروب ووضع الخطط التى هى مجرد حلول مزيفة لمشكلات الحياة .

د ـ مرحلة المراهقة :

واخيرا تاتى مرحلة المراهقة وفيها يبحث المراهق من جديد عن ذاته . فهو في طفولته المبكرة قد احس بهويته ولكنه فقدها ان شئنا القول في الاسرة وفي الشلة وفي الولاء لهما . والآن تصبح مشكلة المراهق هي البحث من جديد عن هويته .

وكثيرا ما تواجه المراهق في هذه الناحية صعوبات جمة تزيد من مشكلاته في هذه المرحلة. فاسلوب معاملة الوالدين له مرة كطفل ، ومرة كرجل ، من اسباب مشكلاته وعدم استقراره. فسلوكه وتصرفاته تكون احيانا كسلوك الاطفال وتصرفاتهم ، ولكنه مع ذلك قد بلغ من الناحية الجسمية والجنسية مبلغ النضج الذى يكفي للنظر اليه كرجل .

وصورة المراهق عن ذاته تتوقف على الاخرين وتقبلهم او نبذهم له . وثورة المراهق وتمرده على السلطة لهما علاقة هامة ببحثه عن هويته وذاته . انها محاولته الاخيرة للاستقلال الذاتي. وقد يلجأ المراهق الى اساليب تكشف عن قلقه وعن بحثه عن شيء لم يصل اليه بعد . فالوان الزى التي يرتديها . وتصفيف شعره بالصورة التي يقوم بها ، وتقليده للابطال المختلفين ، كل ذلك تعبير عن القلق وعدم الاستقرار . وعادة ماينظر الاباء الى مثل هذا السلوك وهذه الخبرات نظرة بعيدة عن الاحترام والتقدير للمراهق . ولذلك فهو يقوم به في الاغلب خارج البيت وفي صحبة الزملاء .

ويكون الصراع حول الحاجات الجنسية واضحا ، وتتناقض وجداناته وعواطفه ويتذبذب احيانا بين الايمان والالحاد . وقد يجد كثير من المراهقين في الدين حلا لمشكلاتهم ، كما تظهر اهداف المستقبل واضحة جلية ، ويحتل التفكير في المهنة التي يعد نفسه لها في المستقبل جزءا كبيرا من تفكيره . كما انه يرسم للمستقبل خطة موضوعة . وهو بهذا يدخل بعدا جديدا على ذاته لم يكن موجودا من قبل في الطفولة . وغالبا ما تكون آمال الشاب بعيدة ومستويات طموحه عالية جدا . ولكن مع تقدم السن سرعان ما يتكشف البعض ان ما لديهم من قدرات واستعدادات اقل مما لديهم من آمال واحلام، فيعدل من صورة ذاته ومن مستويات طموحه بما يتفق وقدراته واستعداداته . وهذا دليل على مستوى عال من النضج ، وعلى هذا النحو يضيف البورث البعد السابع في تكوين الذات ونموها وهو :

٧ ـ المظهر السابع : الجوهر المميز .

وهذا المظهر الاخير يتميز بالاتجاه والقصد المعرف مما يساعد على تحديد اهداف الفرد . وليس من الضروري ان تكون الاهداف جامدة وثابتة ، ولكن يوجد هدف رئيسي يهدف الفرد الى تحقيقه فقط . وهذا المظهر الهام في نمو الذات لم يكن موجودا من قبل . فالطفل الصغير الذى يريد ان يكون طيارا او طبيبا ليس لديه الاتجاه المتصل والجهد المتكامل لبلوغ ذلك وتحقيقه . اما الشاب فهو يرسم ويخطط ويحس بالهدف وينشط الى تحقيقه . وبالطبع يحتاج هذا كله الى قدر من النضج في الشخصية قد لا تجده عند جميع المراهقين . فالبعض قد

يصل الى مرحلة المراهقة دون ان يكون لديه احساس واضح بالهدف . وهؤلاء في الاغلب لا تكون شخصياتهم ناضجة ، ولذا ، فاحساسهم بالذات لا يزال فجا أوليا .

ولكن هذه المظاهر المختلفة للذات ليست متباعدة . فهي جميعا حالات تكشف عن الذات على نحو ما نحسها ونشعر بها . وكل واحدة منها مرحلة من مراحل نمو الذات ويمكن ان نربطها بعضها ببعض تحت اسم واحد . وقد اختار البورت لها اسم الذات الممتدة المميزة Proprium . وقد اشار البورت الى انه لم يسمها الذات وكفى ، لان معظم الكتاب يطلقون اسم الذات او الانا على مظهر واحد او مظهرين من المظاهر السابقة . ولهذا فهو يفضل أن يضع لها تسمية جديدة تضم هذه المظاهر المتعددة للذات .

٨ ــ المظهر الثامن : الذات العارفة

وبعد ان حدد البورت الوظائف الموحدة المميزة المتنوعة ، والتي تعتبر موجودة لدينا كلها يتساءل عما اذا كانت لدينا ، بالاضافة الى ما سبق ، ذات عارفة يمكن ان تضاف وظيفتها الى كل الوظائف الاخرى للذات الممتدة المميزة وتتعداها وتدركها ؟ لقد ذهب وليم جيمس الى انه لا توجد لدينا مثل هذه الذات العارفة . فهو لا توجد كشيء له كيان يمكن تمييزه عن المجموع الكلي للخبرات ، أو يمكن انتزاعه من مجرى هذه الخبرات . فكل لحظة شعورية ترتبط باللحظة السابقة ، وعلى هذا فالذات العارفة توجد مضمحلة على نحو ما ، في قوله « الافكار نفسها هي الذات المفكرة » .

اما معارضو جيمس فيقولون أن مجرد سلسلة من الخبرات لا يمكن ان تتحول هي ذاتها الى شعور او وعي بهذه السلسة كوحدة ، كما ان الافكار الماضية لا يمكن ان تؤخذ بذاتها على انها هامة أو مثيرة للاهتمام ، مالم تكن هناك ذات تثير اهتمامها او تكون هامة بالنسبة اليها. فالذات العارفة هي المحك النهائي ، وهي التي تنبثق كمتكلم نهائي لا مفر منه .

وسواء أخذنا برأي جيمس او برأي معارضيه ، فمن الملاحظ ان هناك اتفاقا بينهم في ناحية ان الوظيفة المعرفية ضرورية وحيوية بالنسبة لنمو الذات . فنحن لا نعرف اشياء فحسب ، بل اننا نعرف ونتعرف على الملامح التجريبية لذاتنا الموحدة المميزة ، انني انا الذي لدي احساسات جسمية ، وانا الذي الاحظ هويتي من يوم الى آخر ، وانا الذي الاحظ وافكر في توكيد ذاتي وامتدادها ، وفيما ابدية من تبريرات ، كما اراقب اهتماماتي وكفاحي وهكذا. افكر في وظائفي الخاصة الموحدة المميزة ، واكاد ادرك وحدتها الاساسية ، واشعر بارتباطها الوثيق على نحو ما بالوظيفة العارفة ذاتها » .

ومع ذلك يتدارك البورت الامر ويرى خطورة هذا القول اذا التزمنا بوجهة النظر العلمية ، فاذا صرحنا بان الذات «عامل مستقل» داخل الشخصية هي التي تعرف وتريد وتهدف الخ ، ألسنا في خطر اذن من خلق شخصية داخل الشخصية ؟ فاذا تساءلنا مثلا لماذا يعمل هذا الشخص بجد ، فاننا لا نفسر شيئا اذا قلنا لان ذاته تريد بذلك . فقولنا ان الذات

تفعل هذا او ذاك ، وتريد هذا او ذاك ، وترغب في هذا او ذاك ، انما يثير مجموعة من المشكلات الصعبة التي هي اقرب الى الفلسفة منها الى العلم . ولهذا يذهب البورت الى انه في بناء الشخصية ــ اذا فهم فهما صحيحا بما في ذلك البناء الموحد المميز ــ سوف نجد التفسيرات التي نبحث عنها . فليس من الحكمة ان يتخلى عالم النفس عن مسئولياته في تفسير مظاهر السلوك المختلفة ويعزو مشكلاتنا الى وسائط داخلية او الى عامل خفي يحرك الخيوط على حد تعبيره. واذا كان من الممكن ــ لاغراض فلسفية معينة ــ ان ننظر الى الذات كوحدة متصلة ثابتة او ان نهبها الخلود مثلا ، فاننا في علم النفس يجب ان نتجنب الفصل القاطع بين الذات « كعامل » ووظائف الانظمة الموحدة المميزة داخل الشخصية .

تلك هي المراحل الثمان التي يمر بها « نمو الذات » منذ الطفولة المبكرة حتى المراهقة عند البورت ، وليس من العسير علينا ان نجد الكثير من اوجه التشابه بينها وبين مراحل النمو النفسي عند اريكسون ، وان كانت الاسس النظرية التي يستند اليها كل منهما مختلفة الى حد ما .

رابعا ــ نظرية النمو عند جان بياجيه :

وكما هو الحال بالنسبة لفرويد ، فان جان بياجيه اهتم ايضا بدراسة المراحل العامة التي يمر خلالها الفرد في نموه النفسي العقلي . فنظريته نظرية شكلية تهدف الى وصف المراحل المختلفة للنمو . ولكنه ــ على عكس فرويد الذي اكد نمو العمليات الذاتية والانفعالية كالدوافع الجنسية والمشاعر المتصلة بها ، فان بياجيه ركز اهتمامه كله على النمو المعرفي ، اعني العمليات العقلية المميزة للنمو من الطفولة حتى المراهقة والرشد . وبالاضافة الى ذلك ، فان اسلوب الدراسة والملاحظة الذي استخدمه كل من فرويد وبياجيه كان مختلفا ؛ مثلما اختلفت مفاهيمهما في البحث . لقد درس فرويد النمو النفسي في الطفولة اساسا من خلال وصف الراشدين لحياتهم الوجدانية اثناء فترة الطفولة، وذلك خلال جلسة العلاج النفسي ، اما بياجيه فقد قام بالملاحظة الدقيقة لما يقوم به الطفل من سلوك ودون تدخل مباشر من جانبه . كان يعطي الاطفال مشكلات لحلها ويفحص الطرق التي يتبعونها في حل هذه المشكلات في اعمار زمنية مختلفة . وجزء كبير من اعمال بياجيه الاولى ، والتي نشرت سنة ١٩٢٦ في كتابه الاول « اللغة والفكر عند الطفل » كانت بمثابة تقرير للملاحظات الدقيقة التي قام بها على السلوك اللغوي التلقائي للطفل . كما ان كثيرا من مظاهر السلوك التي اوردها في دراساته الاولى والتي امتلأت بها ملاحظاته العديدة التي وردت في كتابه « ميلاد الذكاء عند الطفل » لم تكن نتيجة تدخل مباشر من جانبه كمجرب وباحث . ومع ذلك فقد تضمنت معظم دراساته واحدة او اكثر من صور التدخل التجريبي البسيطة ، والتي تتلخص في ادخال نوع من المثيرات في وقت معين خلال النشاط التلقائي للطفل . ومن هنا كانت معظم دراساته تحمل الطابع الشكلي للتجارب الدقيقة ، بمعنى

ان السلوك موضوع الدراسة منذ البداية بمثيرات معينة يدخلها المجرب . ومن الممكن ان تميز أنواعا مختلفة من الاساليب التى اتبعها على ضوء اهمية المثيرات والاستجابات اللفظية فى الموقف الاختبارى .

ولقد كانت وجهة نظر بياجية – كما هو الحال بالنسبة لفرويد – متسقة مع اتجاه داروين فى التكيف . فهو ينظر الى السلوك كعملية تكيف مع الحياة ، عن طريقها يؤكد الفرد حالة التوازن بين نفسه والبيئة . فالتغيرات التى تحدث فى البيئة تؤدى باستمرار الى اضطراب هذا التوازن؛ ومن الممكن ان يعود الفرد الى حالة التكيف فقط من خلال تغيير الفرد لنفسه (أى الملاءمة مع البيئة) او معالجة البيئة (التمثيل) وينمو التفكير العقلى من خلال عملية التغير التكيفى المستمر بين الفرد والبيئة .

دراسة تطور النمو المعرفي عند بياجيه :

الهدف من هذه الدراسة هو وصف النمو العقلى عند الطفل من الميلاد حتى النضج . لقد قسم بياجيه النمو العقلى عند الطفل الى اربع مراحل اساسية periods ، مشيرا بذلك الى الحقب النمائية الكبرى ، ثم قسم كل مرحلة منها الى مراحل فرعية stages ، مشيرا بذلك الى التقسيمات الفرعية الصغرى لكل مرحلة من المراحل الكبرى . فالمرحلة الحسية مثلا تنقسم الى ست مراحل فرعية لكل منها مميزاتها الخاصة . وسوف نقدم في دراستنا لهذا الموضوع تلخيصا موجزا للمراحل الاربع . ومن يريد التوسع فى هذا المجال ، عليه الاطلاع على الكتب العديدة التى كتبها بياجيه وتلاميذه فى هذا الصدد .

المرحلة الاولى : المرحلة الحسية الحركية – من الميلاد حتى الثانية Sensorimotor Period

والمرحلة الحسية الحركية للنمو تقابل من حيث الزمن الفترة المحددة للطفولة المبكرة التى تشمل السنتين الاوليين من حياة الطفل . والسمة البارزة لهذه الفترة ، كما يراها بياجيه ، هى ان الطفل فيها يكتسب المهارات والتوافقات البسيطة التى من النوع السلوكى . والصور الاجمالية العامة فى هذه المرحلة المبكرة صور حسية حركية . فهى تنظم المعرفة الحسية وتؤدى الى السلوك التكيفى ، ولكنها لا تكون مصحوبة بأى نوع من التصورات المعرفية او الذهنية للسلوك او البيئة الخارجية . والطفل فى خلال هذه المرحلة ينتقل من مجرد وليد يعمل على مستوى الفعل المنعكس والمستوى المركز حول الذات الى مستوى متسق نسبيا من الافعال الحسية الحركية ازاء بيئته المباشرة التى يحيا فيها . ولكن التنظيم في هذه المرحلة تنظيم « عملى » بمعنى أنه يتضمن القيام بالتوافقات الادراكية والحركية مع الاشياء ، اكثر مما يتضمن المعالجات الرمزية لهذه الاشياء .

وفي اثناء هذه المرحلة يكتسب الطفل القدرة على احداث التناسق بين المعلومات الصادرة عن الاجهزة الحسية العديدة ، وكأنها مصادر مختلفة للمعلومات عن الشيء الواحد اكثر مما هي مصادر غير مترابطة . فالطفل يصبح قادرا على النظر الى الشيء الذى يستمع اليه ، كما أن قبضه على الاشياء وسيره توجهه الادلة السمعية والبصرية واللمسية .

وثمة مظهر آخر لاكتساب الطفل في هذه المرحلة الحسية الحركية يتضح في قدرته على العمل كما لو كان العالم الخارجي مكانا ثابتا ، وليس شيئا يتوقف وجوده على ادراكه له ، فالطفل يصبح قادرا على البحث عن الاشياء التي اختفت من امامه ، ويبحث عنها على اساس معرفته بالمكان الذي ذهبت اليه او اختفت فيه . كما ان من الممكن ان يتخذ طريقا ـ في بحثه عن الشيء ـ غير الذي اخذه الشيء وكان لديه معرفة بالمجال المحيط تسمح له باتخاذ طرق عدة توصله لنفس المكان . كما ان في استطاعته ايضا ان يعود الى النقطة التي بدأ منها ، وربما اخذ طريقا يختلف عن الطريق الذي اتخذه أول الامر .

ثم انه يقدر على القيام بسلوك موجه نحو هدف ومحكوم منذ البداية بشيء من القصد . فمن الممكن ان ينظم معا عملين او ثلاثة بقصد الوصول الى نقطة النهاية في سلسلة ما . كما يمكنه ـ قرب نهاية المرحلة ـ ان يقوم بأعمال جديدة لم يحاول القيام بها من قبل للوصول الى اهداف لم يكن في استطاعته الوصول اليها . وبعبارة ابسط يكون في مقدوره أن يجرب أشياء جديدة ويختبر صوره الاجمالية العامة الواحدة تلو الاخرى ، كما لو كان يبحث عن الامكانيات السلوكية للشيء ففي امكانه ان يغير افعاله تلقائيا ومختارا .

وتعد كتبه الثلاثة الآتية المصادر الرئيسية لهذه المرحلة . **الكتاب الاول « ميلاد الذكاء عند الطفل »** حيث قدم فيه ملاحظاته عن نمو السلوك التكيفي عند الطفل ، كما أشار الى النمو التدريجي للصور الاجمالية الحسية الحركية خلال فترة الطفولة المبكرة . وقد تركزت ابحاثه في هذا الكتاب على الملاحظات الدقيقة والمتعمقة والتي استخدم فيها اساليب التجريب البسيط على اطفاله الثلاثة « جاكلين ولوسين ولوران » خلال فترة طفولتهم المبكرة منذ اكثر من أربعين عاما . **اما الكتاب الثاني فهو « تركيب الواقع عند الطفل »** والذي قام فيه بتحليل معرفة الطفل وكيف يعكس سلوكه الافتراضات العديدة عن طبيعة الاشياء والزمان والمكان والسببية . وفي **الكتاب الثالث « اللعب والاحلام والتقليد »** فيه يصف نمو اللعب والتقليد خلال فترة النمو الحسي الحركي . وفي **صورة موجزة للغاية يمكن ان نقدم الملامح الرئيسية للمراحل الستة الفرعية التي تشتمل عليها المرحلة الحسية الحركية :**

المرحلة الفرعية الاولى (من صفر الى شهر): لا يظهر فيها شيء كثير الى جانب الافعال المنعكسة التي يولد الطفل مزودا بها .

المرحلة الفرعية الثانية (من شهر الى ٤ شهور) : وفيها تبدأ الانشطة المنعكسة العديدة تخضع لتعديلات مستقلة نتيجة التجربة والخبرة وتتناسق بعضها مع بعض بطرق متعددة .

المرحلة الفرعية الثالثة : (من ٤ ـ ٨ شهور) : وفيها يبدأ الطفل القيام بأعمال موجهة نحو الاشياء والاحداث خارج حدود جسمه بصورة أكثر تحديدا . فهو في محاولاته اعادة ظهور الآثار البيئية التي حققها عفوا وعن غير قصد من قبل ، يكشف عن نوع من التبشير بالقصد أو الاتجاه نحو هدف .

المرحلة الفرعية الرابعة :(من٨ ـ ١٢ شهرا) : وفيها يتضح القصد بشكل ملحوظ محدد على نحو ما يتجلى في الوسائل والغايات الاولى .

المرحلة الفرعية الخامسة : (من ١٢ ـ ١٨شهرا) : واذا كان الطفل في المرحلة الرابعة يقنع بانماط السلوك العادى والمألوف ويستخدمهاكوسائل في المواقف الجديدة ، فانه في هذه المرحلة يجرب ليكتشف وسائل جديدة .

المرحلة الفرعية السادسة : (من ١٨ شهراالى سنتين) : وفيها يبدأ الطفل القيام بتصورات داخلية رمزية للمشكلات الحسية الحركية ،مخترعا الحلول عن طريق سلوك المحاولة والخطأ الضمنى ، أكثر منه من طريق السلوك الصريح .وبحدوث هذه التصورات الاولى المبدئية يكون الطفل قد تجاوز أساسا مرحلة النمو الحسىالحركى ليدخل فى مرحلة ما قبل العمليات .

ويكشف الطفل قرب نهاية هذه المرحلةالاولى من المراحل الكبرى ، عن استبصار وفهم ملحوظ بالبيئة التى يعيش فيها . ففى امكانهاستخدام الاداة للوصول الى الاشياء . كما يمكنه التنبؤ بالنتائج المباشرة نسبيا لما يحدث منافعال ، وان يدرك أسباب الاحداث التى تحدث . ويمكنه أيضا انيستخدم الاخرين كعوامل مساعدةلتحقيق النتائج التى يريدها . وهذه القدرات كلها قدرات محدودة . ولكن مجرد كونها موجودةيعتبر فى حد ذاته انجازا فى هذه المرحلة . ولتحقيق هذه الانجازات يجب مواجهة بعض المتطلبات الهامة التى منها :

ا ـ اكتساب صور اجمالية عامة (سكيماتكون مضبوطة داخليا وقابلة للانتقال . فالطفل يجب أن يكتسب ذخيرة من الصور الاجماليةالعامة التى تعمل بهدوء خلال قدر من الضبط الداخلى ، كما يجب أن تكون قادرة على الانتقالايضا . فكل صورة اجمالية يجب ان تكون مترابطة داخليا باتساق وانتظام . فالسلوك هوتتابع افعال حركية يؤدى كل فعل منها وبهدوء الى الفعل الذى يليه . وهذه السهولة فى اداءالوظيفة تتضمن ما اسميناه بجودة الضبط الداخلى . اما قابلية الصور الاجمالية للانتقالوالحركة فتتضمن قابليتها للتكيف بالنسبةلمجموعة من المواقف والاشياء . فطفل الثانية يمكنه انيلتقط الاشياء بشىء من الدقة ، ويمسك كل شىء بدقة وسهولة وبلا تردد ، وان كان القبض علىالاشياء يتغير ويتكيف تبعا للظروف المختلفة .

ب ـ مفهوم الواقع : وبالاضافة الى مايجبان يكون لدى الطفل من ذخيرة الصور الاجمالية العامة ، فمن الضرورى أن يميز الخصائصالرئيسية لبيئته . ففى طفولته الاولى يفترض ان الاشياء الخارجية لها صفة الدوام والاستمرارالنسبى ، وانها تستمر فى الوجود حتى ولو لم تصبح موضوعا لادراك مباشر . فالمعرفة الحسيةتتغير تغيرا جوهريا حين يغلق الطفل عينيه او يدير رأسه او عندما تتحرك الاشياء ذاتها فىالبيئةأو تغير شكلها . ويسمى بياجيه هذا الافتراض بهوية الاشياء الدائمة باسم « مفهوم الشىء » . فعندما ينظر الطفل بعيدا عن الشىء ، او عندما يختفى الشىء عن نظره ، يجب ان يكون الطفلقادرا على الرجوع اليه والبحث عنه وتوقعظهوره ثانية . والمادة الاولية لهذه السمة من سماتالنمو هى استجابة الطفللاختفاء الاشياء من مجال

ادراكه . ومع ذلك ، فليس يكفي مجرد ان يعرف الطفل ان الشيء المختفي لا يزال موجودا ، بل يجب ان يكون قادرا على تنظيم معرفته عنه حتى يكون بحثه وتنقيبه مناسبا . ومعنى ذلك ، انه يجب ان يفهم او يدرك ان الاشياء والافعال مستقرة في مكان وزمان متصلين ، وان هذا المكان الذي يوجد فيه يحوي الاشياء كما يحوي جسمه ايضا . والحقيقة انه يعمل كما لو كان جسمه شيئا في المكان شبيها ببقية الاشياء الاخرى .

جـ ـ التعرف على السبب والنتيجة : وبالاضافة الى مالديه من ذخيرة الصور الاجمالية وفكرته عن المكان الخارجي ، فمن الضروري ان يكون قادرا على معالجة مشكلات تتضمن السبب والنتيجة . ومرة اخرى ، قد يبدو الامر بالغ الصعوبة عندما نحاول تحديده . ذلك ان العلاقة العلية بين حادثتين يتم ادراكها فقط خلال ادلة معينة مثل التجاور والتقارب المكاني في تتابع الاحداث الوسيطة . ولكن واحدة من هذه ليست مؤكدة تماما . فالطفل قد يرفس قدمه في الهواء ، وقد ينجم عن ذلك حركة كرة موجودة الى جوار قدمه . ومع ذلك فليس من الضروري ان يؤدي نفس الفعل الى نفس النتيجة . الا انه اذا امكن للطفل ان يحدث مرات عديدة نفس النتيجة ، فقد يسلك على نحو كما لو كان يعتقد ان رفس القدم يحدث بطريقة آلية حركة الكرة . ومن الملاحظ انه قرب نهاية هذه المرحلة يصبح الطفل اكثر وعيا ومعرفة بالاحداث الوسيطة ، كما يحدث تقدم ملحوظ في التعرف على العوامل الخارجية المتضمنة في التتابع العلي .

المرحلة الثانية : مرحلة التفكير التصوري ـ من الثانية حتى السابعة **Preoperational Period** ويلي المرحلة الحسية الحركية مرحلة اخرى تستغرق عدة سنوات تنمو خلالها بالتدريج الصورة المعرفية الداخلية للطفل عن العالم الخارجي وقوانينه وعلاقاته الكثيرة . وتسير هذه المرحلة بطريقة تدريجية : فالصورة الاجمالية التصورية الاولى هي مجرد نسخة داخلية للصور الاجمالية الحسية الحركية . ومع ذلك وبالتدريج ، تنتظم الصور الاجمالية التصورية في انظمة مترابطة يسميها بياجيه ادائية او اجرائية operational . وهذا معناه ان الافعال الداخلية التي هي عناصر النظام تخضع لقوانين عقلية معينة كالمجموعات والتجميعات . وحين يحدث ذلك فان الطفل يكون قد وصل الى مرحلة العمليات العيانية Concrete operations .

ومرحلة ما قبل العمليات هي اساسا مرحلة انتقالية لا تتميز بحدوث اي توازن او اثبات . فنهاية المرحلة الحسية الحركية تمثل نوعا من التوازن على المستوى السلوكي ، كما ان مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية (المرحلة الثالثة) تمثل توازنا جديدا على مستوى اعلى ، بينما هذه المرحلة الثانية هي انتقال بين المرحلتين الاولى والثالثة . واذا توخينا الدقة ، يمكن القول بان بياجيه قد قصر نفسه على مراحل ثلاث فقط من مراحل النمو الفكري . وهو بالفعل فعل ذلك في بعض كتبه ، وهي : المرحلة الحسية الحركية التي تنتهي بالسنة الثانية ، ومرحلة العمليات

المحسوسة او العيانية والتي تنتهي عادةباكتساب قوانين التجميع والمجموعات المختلفة ، ثم مرحلة العمليات الشكلية والتي تبدأ عادة من الحاديةعشرة او الثانية عشرة . وكل مرحلة من هذه المراحل الثلاث السابق الاشارة اليها تتميز ببلوغ حالة من التوازن والثبات ، يميزها عن غيرها من المراحل .

وان كنا من أجل التوضيح سناخذ بفكرة جعل « مرحلة ما قبل العمليات » مرحلة قائمة بذاتها رغم كونها انتقالية .

وفي هذه المرحلة نلاحظ وقوع الطفل في اخطاء ظاهرة واضحة في مجال تفكيره التصوري او العقلي . فهو يقع في تناقضات ظاهرة احيانا . فقد يذكر في لحظة ما ان الشيء (أ) اكبر من الشيء (ب) ، ثم يعود بعد ذلك ، فيقول ان الشيء (ب) أكبر من الشيء (أ) دون ان يدرك التناقض الظاهر بين هذين القولين .

وفي هذه المرحلة ايضا يقوم الطفل بمحاولاته الاولى غير المنظمة نسبيا في الاتصال بعالم الرموز، هذا العالم الجديد الغريب بالنسبة اليه . **ويميز بياجيه احيانا مراحل فرعية ثلاثا داخل هذه المرحلة الثانية الكبرى وهي :**

ا ـ بدايات التفكير التصوري (من ٢ ـ ٤ سنوات) .

ب ـ التصورات او الحدوس البسيطة (من ٤ ـ ٥½ سنة) .

جـ ـ التصورات أو الحدوس المفصلة (من ٥½ ـ ٧ سنوات) .

واذا نظرنا بدقة الى طبيعة التصورات ، نجد ان أساس عملية التصور هي القدرة على التمييز بين الدال Signifiant و « المدلول عليه » Signifie .

ومن ثم القدرة على استدعاء احدهما والاستدلال عليه بمجرد ظهور الآخر او اثارته. وقد اطلق بياجيه على هذه العملية اسم « الوظيفة الرمزية La fonction symbolique . وعلى الرغم من ادراكه ان الطفل في المرحلة الحسية الحركية يكشف عن نوع من الاستدلال البسيط ، كاتخاذ الدليل الادراكي علامة على ان شيئا ما على وشك الظهور ـ الا انه لا يمكنه القيام بالتمييز بين الدال والمدلول عليه ، هذا التمييز الذي يحدد لنا امتلاك الطفل للوظيفة الرمزية والتي تسمح له بالانتقال بين الذكاء الحسي الحركي والذكاء التصوري . فطفل المرحلة الحسية الحركية لا يمكنه أن يستدعي ذهنيا الدال (سواء كان كلمة او صورة) . وابتداء من سن السنة والنصف وظهور اللغة عند الطفل ، نلاحظ تمايزا تدريجيا بين الدال والمدلول عليه . فالطفل يمكنه أن يستدعي صورة الشيء الغائب بواسطة شيء آخر (اي بالتصور) . وهذا التمايز بين الدال والمدلول عليه هو أساس ظهور الرمز . والرمز هو الذي يسمح لنا بالقيام بعملية التصور . فعن طريق قطعة الخشب يتصور الطفل وجود سيارة يتمثل فيها لعبته .

وليس ثمة شك ان الذكاء التصوري بامتلاكه الوظيفة التصورية يختلف اختلافا واضحا عن الذكاء الحسي الحركي الذي يفتقر اليها . ويمكن ان نوجز هذه الفروق في النقاط التالية :

اولا : ان الذكاء الحسي الحركي يصدر من الافعال او الادراكات المتتابعة التي يدركها الطفل الواحدة تلو الاخرى . اما التفكير التصوري فلديه القدرة من خلال وظيفته الرمزية هذه على ادراك مجموعة من الاحداث المنفصلة في صورة واحدة . فهو وسيلة اسرع واكثر مرونة ، يمكنه استدعاء الماضي وتمثل الحاضر والتنبؤ بالمستقبل في فعل واحد منظم ومختصر زمنيا .

ثانيا : ان الذكاء الحسي الحركي يستند اساسا الى المكان القريب ، اى المكان الذي يمكن للطفل ادراكه في المحيط الذي يوجد فيه . فهو لا يستجيب اذن للمكان البعيد (كالجبال والنجوم باستثناء القمر) وبالمثل يستند الذكاء الحسي الحركي الى الزمان الحاضر . فليس هناك توقع سوى لمستقبل مباشر قريب ، كما ان ليس هناك استجابة ، سوى لماض قريب حيث يواصل القيام بعمل ما تركه منذ لحظة وجيزة . اما التفكير التصوري ففيه يمد الطفل مجال المعرفة الى مكان بعيد ، والى زمان يتجاوز الماضي والمستقبل القريبين ، اى انه يتميز بالامتداد في الزمان والمكان .

ثالثا : لما كان الذكاء الحسي الحركي ذكاء فعليا او ذكاء عمليا ، فانه يقتصر على تتبع الاهداف المحسوسة للفعل اكثر من طلب المعرفة والبحث من حيث هما كذلك . اما التفكير التصوري فهو بطبيعته يهتم بتنظيم افعاله من حيث هي قائمة على اشياء ، اكثر من اهتمامه بتسجيل « النجاح او الفشل التجريبيين » . فالتفكير التصوري يهتم اذن بتأمل الفعل اكثر من اهتمامه بالفعل نفسه .

رابعا : وبواسطة قدرته على الخروج من نطاق الحاضر المباشر ، فان التفكير التصوري يمكنه ان يمد مجاله الى خارج نطاق الافعال المحسوسة الواقعية للذات ، وخارج مجال الموضوعات الواقعية المحسوسة في البيئة . وهدف هذا التحرر من الواقع المحسوس هو المعالجة الرمزية لاحداث غير محسوسة (على نحو ما يحدث فيما بعد في التفكير العلمي والرياضي عند الكبار) .

خامسا : لما كان الذكاء الحسي الحركي قاصرا على الافعال الحسية الحركية اكثر من تصور الواقع ، فهو بالضرورة حادث خاص او مسألة فردية . اما الذكاء التصوري فهو من ناحية اخرى يمكنه ان يصبح ـ بل هو يصبح بالفعل ـ اجتماعيا عن طريق مجموعة الرموز المتعارف عليها والتي يشارك فيها افراد الجماعة كلها .

وعلى ذلك ، فظهور الوظيفة الرمزية ـ اى القدرة على التمييز بين الدال والمدلول عليه ـ والقيام بعملية الاستدلال بينهما ، يؤدي الى صورة عقلية ذات امكانيات ابعد مدى بكثير من اية صورة من صور الذكاء الحسي الحركي .

وفى ضوء ما تقدم يمكن ان نقدم باختصاراهم الخصائص المميزة لمرحلة التفكير التصورى:

١ ـ **مركزية الذات** : فطفل مرحلة التفكيرالتصورى او مرحلة ما قبل العمليات ، يكون ـ بالنسبة للتصورات ـ مركزى الذات ، تماماًمثلما كان طفل المرحلة السابقة بالنسبة للافعال الحسية الحركية . ولصفة التمركز الذاتى فىمرحلة ما قبل العمليات ، نتائج كثيرة اهمها : ان الطفل يكشف باستمرار عن عجز نسبى فىالاخذ بعين الاعتبار بوجهة نظر الغير كاحد الاحتمالات الممكنة ، وان يحاول ان ينسقوجهةنظره مع وجهات نظر الغير .

ويمكن أن نوضح ذلك بمثال بسيط منالخبرات التى تمر بنا فى طفولتنا وتتعدل مع تقدم السن بالفرد • ان من يركب منا سيارةمثلا فى ليلة مقمرة ، يبدو له القمر كما لو كان يسير معه ويتبعه . ونحن جميعا نعلم بطريقةاو باخرى ان هذا مجرد خداع ، وان من بين المبررات التى تدفعنا الى عدم الاخذ بمثل هذاالاعتقاد الذى يلازمنا فى طفولتنا المبكرة ، ان نفترض مثلا أن هناك شخصين يركبان سيارتينتسيران فى اتجاهين متضادين . فاذا أصر كل منهما على أن القمر يتبعه ويسير في اتجاهه هو،كان معنى ذلك أن القمر يسير في نفس الوقت فى اتجاهين متضادين . وفى هذا بالطبع تناقضواضح . ومثل هذه النظرة تتطلب من الفرد فصل المظهر من الحقيقة . فالقمر ثابت ونحن الذين نسير ونتحرك . ومثل هذا الفصل بين المظهر والحقيقة يتطلبمن الفرد الاخذ بعين الاعتبار لوجهات نظر الغير ، الامر الذي لم يصل اليه الطفل فى تصوراته بعد ، وشبيه بهذا ايضا مانجده لدى الطفل فى مجال اللغة والاتصال حيث يبدو انه يقوم بجهد قليل حقا لتكييف لغتهوحديثه لحاجات المستمع .

ونتيجة لافتقار الطفل الى الاخذ بوجهةنظر الغير ، نجده لا يحس بالحاجة الى تبرير افكاره للاخرين او البحث عن التناقضاتالممكنة التي تكمن فى افكاره ومنطقه . فهو حين ينقل فكرة او افكارا الى اطفال آخرين ينقلهاكما لو كان الآخرون يفهمون افكاره ووجهة نظره . ويعتقد بياجيه اعتقادا جازما ان الطفليصبح على معرفة بنفسه ويصبح قادرا على تبرير افكاره والارتباط بالمعايير المنطقيةوالاجتماعية من خلال التفاعلات المتكررة مع الآخرين ، وبخاصة تلك التي يجد فيها الطفلنفسه مضطرا المرة تلو المرة ان يعرف دور الآخرين ، وأن يستمع لوجهة نظرهم وانيدخلها فى اعتباره . ومن هنا ، فان التفاعل الاجتماعى هو الذى يحطم مركزية الذات عندالطفل . ومع ذلك ، فهذا التمركز حول الذات طور من اطوار النمو لابد أن يمر به طفل هذهالمرحلة .

٢ ـ **فكرة الثبات** ومن الفروق الهامة بينالادراك الحسى والتفكير التصورى ان التفكير يربط الماضى بالحاضر مما يساعد تفسيرالمشكلة التي تواجه الفرد ،بينما الادراك يتحدد بالمادة التي تقع تحت حواس الفرد بشكلمباشر . وهذه السمة للتفكير تعتبر ذات اهمية

في نظر بياجيه ، وتكوين المفهوم يعتبر امراهاما بالنسبة لتفكير الطفل في هذه المرحلة . واحدى المشكلات الكبرى بالنسبة لطفل هذه المرحلة قد تكون عدم قدرته على ادماج المادة التي يستمدها من خبراته الماضية من اجل الوصول الى احكام صحيحة يستحيل الوصول اليها بدونها . ولقد عالج بياجيه موضوع الثبات في مجالات متعددة فدرس فكرة الثبات المكاني وثبات الكم المتصل وثبات الكم المنفصل، ويكفي ان نشير الى مثال واحد ولكن لثبات الكم المتصل من اجل ان نعرف الى اي حد يجد الطفل صعوبة في الوصول الى هذه الفكرة .

« اعطيت قطعتان من الصلصال من نفس الشكل وبنفس الحجم ونفس الكم . شكلت احداهما على هيئة قرص مستدير والاخرى على هيئة اسطوانة مستطيلة . ثم وجه السؤال الى الطفل : هل نفس كمية الصلصال واحدة في الاثنتين (ثبات المادة) ؟ وهل لدينا نفس الوزن ؟ هل لدينا نفس الحجم ؟ ... وقد وجد ان الطفل في بعض الاحيان لا يقول بالثبات . فيقول مثلا : ان هذه اكبر لانها طويلة ورفيعة ، وفي مرحلة ما قبل العمليات ، لا نجد ثباتا . اما في سن السابعة فان الطفل يصل الى فكرة ثبات الكم . وفي سن ٩ – ١١ سنة ، تجده يصل الى فكرة ثبات الوزن . اما فكرة ثبات الحجم فانه يصل اليها في حوالي سن ١١ – ١٢ سنة .

المرحلة الثالثة : مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية : من السابعة حتى الحادية عشرة Concrete Operations

وفي حوالي سن السابعة يكتسب التنظيم الفكري للطفل من البيئة المحيطة به ، صفة الثبات والتماسك بفضل تكوين مجموعة من التراكيب العرفية . وفي هذه المرحلة يبدا الطفل في ان يبدو معقولا ومنظما في توافقاته مع البيئة ، بمعنى انه يبدو ان لديه اطارا فكريا ثابتا ومنظما يستخدمه في تعامله مع عالم الاشياء المحيطة به . ففي استطاعته ان يرتب مجموعة من الاشياء حسب حجمها ويدخل اشياء جديدة داخل المجموعة . وفي امكانه أن يفهم ان عدد الاشياء في مجموعة ما ، لا يتغير بمجرد اعادة الترتيب المكاني لهذه الاشياء . ومن الممكن ايضا ان يفهم الكثير من العلاقات البسيطة بين اصناف او انواع الاشياء . فمثلا يمكنه ان يدرك ان صنفا ما لا يمكن ان يحتوي على اعداد اقل مما يحتوي عليه اي من الاصناف الفرعية الداخلة تحته . وباختصار يكتسب الطفل في هذه المرحلة مفهوما بدائيا عن الزمان والمكان والعدد والمنطق . وهذه المفاهيم التي في ضوئها تنتظم فكرتنا عن الاحداث والاشياء.

واذا كنا قد اوضحنا ان طفل مرحلة ما قبل العمليات العقلية (المرحلة الثانية) يختلف تفكيره عن طفل « المرحلة الحسية الحركية » من حيث انه يعمل على مستوى التصور الذهني في مقابل مستوى الفعل المباشر فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية والتي نحن بصددها يختلف في تفكيره عن طفل المرحلتين الاولى والثانية . فهو يختلف

من طفل المرحلة الحسية الحركية من حيث انه يعمل على مستوى العمليات ، اى الاداء العقلي غير المحدد ، وليس على مستوى الفعل المباشر. كما انه يختلف عن طفل المرحلة التصورية من حيث انه يعمل وفق نظام او نسق معرفي متكامل ، به ينظم العالم من حوله . فاذا كان تفكير طفل المرحلة التصورية يفتقر الى الثبات والتنظيم الذى يجعله يسلك احيانا بطريقة منطقية واحيانا يفشل فى مواصلة القيام بنسق منطقي بسيط فى الظاهر ، فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية – والمرحلة الشكلية التي تليها – يكون تفكيره ثابتا ومستقرا ، ينتج عن تنظيم « الافكار الادائية او الاجرائية فى انظمة مترابطة تمكن الطفل ان يسلك بثبات وبصورة منطقية ، وان يستخرج من أفكاره ما تتضمنه من نتائج . ولذا يقول بياجيه « ان طفل مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية يسلك فى مجموعة متنوعة من الافعال ، كما لو كان لديه تنظم تمثيلي غني متكامل يعمل فى حالة توازن مع عمليات الملاءمة . وهذا هو جوهر الخلاف بين هذه المرحلة والمرحلة السابقة عليها . والحقيقة أن معظم ما يتجلى فى المرحلة التصورية يمكن ان يفيد فى مرحلة العمليات المحسوسة .

وحين تبلغ الاعمال المعرفية العقلية هذا المستوى الخاص من الثبات والتنظيم ، أى حين تنتظم فى وحدات تامة متماسكة وتركيب محدد قوى ، هنا يطلق عليها بياجيه اسم « العمليات العقلية » . ومن هنا جاءت التسميات العديدة للمرحلة الثانية وهذه المرحلة الثالثة ثم المرحلة الرابعة ؛ فقد سميت هذه المراحل على التوالي باسم « مرحلة ما قبل العمليات العقلية » ومرحلة « العمليات المحسوسة أو العيانية » ومرحلة « عمليات التفكير الشكلى او المنطقى » . ان طفل مرحلة ما قبل العمليات العقلية لديه بالطبع افعال تصورية . ولكن هذه الافعال التصورية التى تسمى احيانا باسم « الحدس » انما هى تعبيرات معرفية منفصلة ومتفرقة ولا تتجمع في كليات متماسكة . ومن هنا يمكن القول بان « العمليات على نحو ما حددها بياجيه هى الملكة الخاصة بمرحلة الطفولة والمتاخرة ومرحلة المراهقة .

اما ما نوع الاداء الذى يسميه بياجيه باسم العمليات operations ، فان اى عمل تصورى ذهنى يكون جزءا متكاملا من شبكة اعمال مترابطة ، يعتبر اساسا « عملية » . ولقد اشار بياجيه الى العديد من هذه العمليات. فهناك عمليات الاضافة المنطقية (الجمع) ، وعمليات الطرح والضرب والقسمة ، سواء فيما يتصل بالانواع أو العلاقات . وهناك العمليات العقلية العددية المختلفة الانواع ، والتي اطلق عليها اسم العمليات المنطقية الاخص Infralogical Operations وتتضمن الكم والزمان والمكان وغيرها . وهناك أيضا العمليات التى تتصل بنظام القيم والتفاعل المتبادل بين الافراد . ولعل الاشارة الى العديد من هذه العمليات ، ما يجعل القارىء على الفتها . من ذلك مثلا : عملية الاستجابة لمجموعة من الاشياء المتشابهة فى ناحية معينة وتكوين نوع من الانواع ، وعملية ضم الانواع معا (الجمع

المنطقى للانواع) وتكوين فرع اشمل واعم يضم هذه الانواع جميعا كضم نوع النباتات ونوع الحيوانات لتكوين نوع الكائنات الحية ، ثم هناك عملية العود ثانية الى الانواع الاصلية عن طريق الطرح المنطقى، اى فصلها واستخراجها ثانية من النوع الذى يضم الانواع الى آخر هذه العمليات المتعددة التى اشار اليها بياجيه فى هذه المرحلة والتى ليس هنا مجال التوسع فى شرحها .

ومن الممكن ان نلخص اهم منجزات مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية بقولنا ان تفكير طفل مرحلة العمليات المحسوسة يكشف عن تقدم ملحوظ اذا قورن بتفكير طفل مرحلة ما قبل العمليات المنطقية اى المرحلة التصورية . ولعل اهم منجزات هذه المرحلة هى أن تراكيبها المعرفية تتالف من انظمة تكون فى حالة توازن ، اعنى تتالف من كليات متماسكة من العمليات القابلة للانعكاس ، والتى تمكنه من ايجاد التنظيم والثبات بين الاشياء والاحداث فى العالم المحيط به ، بشكل كان يستحيل على طفل مرحلة ما قبل العمليات أن يقوم به . فاذا كان طفل مرحلة « ما قبل العمليات » يميل الى العمل فقط فى ضوء الواقع الظاهرى الذى يقع امام ناظرية ، فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يبدأ بمد تفكيره من الواقع الى الممكن . وهذا النمو هو نتيجة طبيعية لتكوين التراكيب المحسوسة . فلو اخذنا متسلسلة مكونة من عناصر ثلاثة محسوسة ولتكن ا ، ب ، جـ (الواقع) فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يكون اكثر استعدادا من طفل مرحلة ما قبل العمليات للتنبؤ بامكان تطبيق هذه العلاقة على عناصر جديدة مثل د ، هـ (اى الممكن) . وهذه الخطوة تعتبر من اهم الخطوات تمهيدا للانتقال الى المرحلة الرابعة والاخيرة .

المرحلة الرابعة : مرحلة العمليات الشكلية ابتداء من سن الحادية عشرة Formal operations

وتبدا هذه المرحلة من حوالى سن ١١ ـ ١٢ سنة وتصل الى حالة توازن فى حوالى سن ١٤ ـ ١٥ سنة . وهى مرحلة بداية التفكير المنطقى عند الكبار . فالمراهق فى هذه المرحلة يمكنه ان يتعامل بنجاح ليس فقط مع عالم الواقع المحسوس (على نحو ما كان فى المرحلة السابقة) بل وايضا مع عالم المجردات والقضايا المنطقية . فهو يفهم المبادىء الاساسية للتفكير العلى، والتجريب العملى ، ويستطيع القيام بتجارب ، واستخلاص التضمنات الصحيحة على الاقل في بعض الحالات .

وتعتبر مرحلة العمليات المنطقية او الشكلية تتويجا للنمو العقلى . فهي بمثابة حالة التوازن النهائى التى يسير نحوها التطور العقلى المعرفي منذ بدايته الاولى. لقد عالج بياجيه هذا الموضوع في مؤلفات عديدة اهمها كتابه الذى الفه مع انهلدير عام ١٩٥٥ والذى ترجم الى اللغة الانجليزية عام ١٩٥٨ تحت عنوان « نمو التفكير المنطقى من الطفل حتى الرشد » والخاصية

المميزة للتفكير الشكلي ترجع بلا شك للدور الذي يقوم به « الممكن Possible » في علاقته بالواقع « Réal » فالتفكير الشكلي – اذا قورن بالتفكير في مرحلة العمليات المحسوسة – يكون بذلك صورة جديدة من صور التوازن التي يسير نحوها هذا التطور العقلي . ولعل مما يلقي الضوء على هذه العمليات الشكلية ان نربط بينها وبين العمليات المحسوسة السابقة عليها والتي صدرت عنها . **فطفل المرحلة المحسوسة او العيانية تواجهه صعوبات منها :**

١ – ان العمليات المحسوسة عيانية ، اي محسوسة وغير مجردة ، بمعنى ان تركيبها ونشاطها التنظيمي يتجه نحو الاشياء والاحداث المحسوسة الموجودة في الواقع المباشر . حقيقة ان تكوين الانظمة المحسوسة يسمح ببعض الانتقال والسير نحو الممكن او غير الموجود ، الا ان هذا السير او هذه الحركة يكون نطاقها محدودا وبتالف غالبا من تعميمات بسيطة التراكيب موجودة على محتوى جديد (على نحو ما سبق ان اشرنا في معرفة الطفل امكان نقل العلاقة أ ، ب ، جـ ، وتطبيقها على د ، هـ) ، كما ان نقطة البدء بالنسبة للعمليات المحسوسة – كما هو الحال ايضا بالنسبة لما قبل العمليات – هي دائما – « الواقع اكثر منه الممكن » . فطفل المرحلة من ٧ – ١١ يعمل كما لو كان واجبه الاساسي هو تنظيم وترتيب ما هو موجود امامه مباشرة . اما الانتقال البسيط المحدود للتنظيم والترتيب على اشياء ممكنة ، فهو امر يقوم به عند الضرورة . ولهذا فهو ينظر اليه كحالة خاصة من النشاط . اما ما لا يستطيع طفل مرحلة العمليات المحسوسة ان يفعله ، ويستطيع الراشد القيام به ، فهو يمثل جميع الاحتمالات الممكنة منذ البداية ومحاولة الكشف عن اي هذه الاحتمالات يوجد فعلا في المادة الراهنة . وبهذا الاسلوب الاخير يصبح الواقع حالة خاصة من الممكن وهذه هي احدى خصائص العمليات الشكلية المنطقية .

٢ – وكون طفل مرحلة العمليات المحسوسة لا يزال مقيدا – نسبيا – بالظواهر الخارجية ، فهذا من شانه ان يخلق صعوبة اخرى . ان عليه ان يتغلب على الخصائص المتعددة للاشياء والاحداث (كالكتلة ، والوزن والطول والزمن ... الخ) واحدة واحدة ، لان وسائله المعرفية ليست « شكلية » بدرجة كافية ، ولا منفصلة او مستقلة بدرجة كافية عن الموضوع الذي تحمل عليه من اجل ان تسمح بتمايز الشكل عن المحتوى . فالطفل بعد ان يصل الى فكرة ثبات الكم ، يظل لفترة غير قصيرة ، عاجزا عن بلوغ فكرة الثبات بالنسبة للوزن والحجم .

٣ – اما الصعوبة الثالثة فهي ان انظمة العمليات المحسوسة المتعددة ، تعتبر بمثابة نقط تنظيم اكثر واقل انفصالا من ٧ – ١١ سنة ، فهي لا تترابط فيما بينها لتكوين نظام متكامل بسيط ، نظام يمكن للطفل ان ينتقل من تركيب فرعي الى تركيب فرعي آخر بالنسبة لمشكلة واحدة . فبينما يوجد لدى طفل مرحلة من ٧–١١ سنة نوعا عمليات القابلية للانعكاس (وهما

النفى والتبادل) ، فانه لا يوجد لديه مع ذلك نظام كلى شامل يسمح له بتنسيق الاثنين معا ، وحل المشكلات ذات المتغيرات المتعددة والتى تتطلب هذا التنسيق . فالتراكيب المعرفية تعجز اذن من الترابط فيما بينها فى نظام كلى موحد لازم للقيام ببعض العمليات المعقدة .

وفى ضوء هذه الصعوبات التى نجدها فى مرحلة العمليات المحسوسة ، يمكن ان ننتقل الى دراسة اهم خصائص التفكير الشكلى الذى يتميز به تفكير الراشد . وكثير من خصائص تفكير هذه المرحلة ليست مترابطة بسهولة احداها بالاخرى بطريقة ذهنية واضحة ، ولكنها تعتبر مهمة فى نمو قدرة الفرد على حل المشكلة .

خصائص التفكير الشكلى :

الخاصية الاولى : تتصل بالتطور او بالنمو لقدرة الطفل على فهم العلاقات المنطقية بين الانواع . فاذا كان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يمكنه فهم العلاقات المنطقية بين الانواع التى تعرض او تقدم اليه ، فان الراشد فى مرحلة العمليات الشكلية عليه ان يدرك بوضوح او ان يتحقق من العلاقات الممكنة ، بحيث يمكنه تصميم مواقف تزوده بالمعلومات او المعرفة التى يحتاج اليها .

الخاصية الثانية : هى ان جزءا من قدرة الطفل على ادراك جميع الامكانيات يتمثل فى سهولة وقدرة الطفل على التفكير التوافقى او الترابطى . وبعبارة اخرى يتمثل فى قدرته على مراجعة كل الاختيارات بطريقة منتظمة تسمح بالانتقال خلالها تتابعيا اذا لزم الامر ، ويعرف انه استنفدها جميعا . وقد وصفت العلاقات الممكنة المختلفة بين الانواع فى نظرية المنطق الشكلى . ويكون طفل مرحلة العمليات الشكلية قادرا ـ بطريقة حدسية ـ على استعمال النسق الكامل للمنطق الشكلى من اجل الحصول على المعرفة التى يريدها .

الخاصة الثالثة : هى التغير الذى طرا على العلاقة بين الواقع والممكن . وهى اهم الخصائص جميعا ومنها استمد بياجيه بقية الخصائص الاخرى . فبدلا من ظهور « الممكن » فى صورة امتداد محدود وبسيط للواقع او للافعال التى تجرى فى هذا الواقع ، فان العكس هو الذى يحدث اذ يصبح الواقع تابعا للممكن . فالراشد ـ على عكس طفل مرحلة من ٧ ـ ١١ سنة ـ يبدا نظرته الى المشكلة موضوع البحث بمحاولة النظر فى جميع الاحتمالات والعلاقات الممكنة التى تصدق على المادة . ومن لم يحاول خلال الجمع بين التجريب والتحليل المنطقى ان يصل الى معرفة اى هذه العلاقات الممكنة تصدق فى الحقيقة على هذه المادة . فالواقع اصبح ينظر اليه كمجموعة فرعية داخل وحدة تامة من الاشياء التى تسمح المدة بظهورها كفروض . فهو ينظر الى «الواقع» كجزء موجود داخل وحدة « ممكنة » .

فنحن اذن بازاء خطوة فى غاية الاهمية من خطوات النمو الفكري ونعنى بها التحرر من عبودية الملاءمة للواقع المباشر على نحو ما وجدنا فى المرحلتين السابقتين . وهذا التحرر يأخذ شكلا جديدا فى المراهقة والرشد يتمثل فى قلب دور الواقع الى ممكن . وليس هذا بالامر اليسير ، اذ هو بمثابة اعادة توجيه اساسى نحو المشكلات المعرفيـة . فالراشـد لم يعد يشغل نفسـه بثبات وتنظيم الاشياء المحسوسة وهى التى تتصـل اتصالا مباشرا بالحواس ، وانما تظهر لديه خلال الاعادة الجديدة للتوجيه ، القـدرة على تصور كل ما يمكن وجوده .

ان التفكير الشـكلى هو فى اساسه تفكير « افتراضى ـ قياسى Hypothetico déductive والقياس لا يقوم هنا مباشرة على حقائق مدركة فى العـالم الخـارجى ، وانمـا على منطـوقات افتراضية ، اى على قضايا تقوم على فروض ، أن يضع المعطيات من حيث هى معطيات بسيطة مستقلة عن حقائقها الواقعية الخارجية . فالقياس يتالف اذن من ربط هذه المعطيات او الفروض فيما بينها واستخلاص النتائج الضرورية المترتبة على ذلك ، حتى ولـو لم تتجاوز حقيقتها التجريبية حدود الممكن . فهذا القلب لدور كل من الممكن والواقع ـ اكثر من اية خاصية اخرى ـ هو الذى يحدد التفكير الشكلى . وقد اوضح بالارد Ballard هذه الحقيقـة فى قوله : ان الاسـتدلال لا يقوم على الاعتقادات وانما على فروض . فاذا سلمنا بالافتراضات : كذا ، وكذا ، فانه يتبع اذن ان نصل الى كذا وكذا من النتائج . وطفل المرحلة من ٧ ـ ١١ سنة يقيم استدلالات لا على اساس معطيات المشكلة وفروضها ، بل على اساس الواقع والحقيقة . اما الراشـد ، فانه يستدل على اساس التسـليم بصدق او كذب الافتراضات التى يبدا منها استدلالاته .

تلك هى المراحل الاربع للنمو المعرفى ابتداء من الطفولة المبكرة حتى الرشد ، اى ابتداء من النمو الحسى الحـركى حتى التفكير المنطقى . وليس ثمة شك ان وراء هذا النمو هدف . لقد كشف لنا هذا النمو عن تقدم مستمر ومتصل نحو حالة من التوازن Equilibre يسير نحوها الذكاء . لقد كان هذا الذكاء فى بداية الامر امتدادا للمجال الادراكى الذى يفتقر الى وجود القابلية للانعكاس ، ثم مع بداية ظهور العمليات اصبح المجال اكثر اتساعا واكثر قـدرة على القيـام بالعمليات العقلية المختلفة ، واكثر تحـررا من الاشـياء الواقعيـة والمحسـوسات ، كما اصبح ايضا اكثر ثباتا وانتظاما على نحو ما يتضح لنا بشكل ظاهر فى المرحلة الرابعـة والاخـيرة من مراحل النمو العقلى وهى مرحلة التفكير الشكلى . فنمو الذكاء يتحـدد اسـاسا فى نظـرية بياجيه باعتباره تقدما نحو التوازن .

وليس من شـك ان ثمة عوامل اساسية هى التى تفسر لنا هذا السـير نحو التوازن . والنضج هو احد هذه العوامل ، وهو التفتح الطبيعى الذى يطرا على الكائن الحى ، ثم الخبرة وهى العامل الثانى . فالتعلم عملية هامة تفسر اكتساب الانسان لكثير من الخبرات التى تمر به

فى الحياة . ولا يمكننا بحال من الاحوال ان ننكرأثر التعليم أو أثر تراكم الخبرات المكتسبة من البيئة التى نعيش فيها . ثم هناك ثالثا الوسط الاجتماعى . فقد لا يكتسب الطفل مثلا فكرة الشيء (كفكرة الثبات) من البيئة المادية وتفاعله معها ، وانما قد يلقن هذه المفاهيم والافكار عن طريق الوالدين والمدرسين او المحيطين به . غير ان كل واحد من هذه العوامل لا يكفى لتفسير التنظيمات المعرفية ، ولذا ينتهى بياجيه الى تقديم نظريته التى تقوم أساسا على فكرة التوازن . فبسبب احتواء الانظمة العقلية المتسقة على تناقضات ذاتية ، وبسبب ما تحدثه لدى الطفل من صراعات ، فان الطفل يجد نفسه مدفوعا بقوة لاحداث التناسق بين افكاره واعادة تنظيمها فى كل متسق متوازن . وهذه هى عملية احداث التوازن عند بياجيه .

• • •

وبعد ، فقد استعرضنا اربع نظريات من نظريات النمو النفسى ، يمثل كل منها اتجاها من الاتجاهات الهامة فى نظريات النمو النفسى . فهناك نظرية النمو **النفسى الجنسى عند فرويد، ونظرية النمو** النفسى الاجتماعى **عند** اريكسون والتى ادخلت بعض **التعديلات والاضافات على النظرية الاولى** ، ثم هناك نظرية **نمو الذات عند** ألبورت ، واخيرا نظرية **النمو العقلى المعرفى عند بياجيه . واذا امعنا النظر** فى هذه النظريات الثمانية الاربع ، **نجد تقاربا واضحا بينها حاول الباحث بيانه فى** التخطيط التالى :

* * *

تخطيط للعلاقة بين النظريات النمائية لكل من
فرويد ـ اريكسون ـ البورت ـ بياجيه

المرحلة العمرية	المراحل النفسية الجنسية عند فرويد	المراحل النفسية / الاجتماعية عند اريكسون	مراحل نمو الذات عند البورت	مراحل النمو العقلي عند بياجيه
من صفر الى ٢	الفمية	الاحساس بالثقة مقابل عدم الثقة	الاحساس بالذات الجسمية	المرحلة الحسية الحركية
من ٢ الى ٣	الشرجية	الاحساس بالاستقلال مقابل الشك والخجل	هوية الذات تقدير الذات	المرحلة التصورية او مرحلة ما قبل العمليات العقلية
من ٣ الى ٦ (ما قبل المدرسة)	القضيبية (الاوديبية)	الاحساس بالمبادأة مقابل الشعور بالذنب	امتداد الذات صورة الذات	
من ٦ ـ ١١ (المدرسة الابتدائية)	الكمون	الاحساس بالانجاز والاتمام (الصناعة والعمل مقابل النقص)	الذات منطقية عاقلة	مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية
من ١٢ ـ ١٧ (المدرسة الثانوية ثم الرشد واكتمال النضج	التناسلية	الاحساس بالهوية مقابل اضطراب الهوية . والاحساس بالود والتآلف مقابل العزلة . الانتاجية مقابل الجمود . تكامل الانا مقابل اليأس	الجوهرة المميز الذات العارفة	مرحلة التفكير الشكلي او المنطقي

المراجع

اولا : المراجع العربية :

١ ـ جابر عبد الحميد جابر ومحمد مصطفى الشعبيني : النمو النفسي والتكيف الاجتماعي ـ القاهرة ـ دار النهضة العربية ـ ١٩٦٢ .

٢ ـ جون كونجر وبول موسن وجيروم كيجان سيكولوجية الطفولة والشخصية .
ترجمة احمد عبد العزيز سلامه وجابر عبد الحميدجابر . القاهرة ـ دار النهضة العربية ـ ١٩٧٠.

٣ ـ سيد محمد غنيم : اللغة والفكر عند الطفل .الكويت . عالم الفكر . المجلد الثاني ـ العدد الاول ـ ابريل / يوليو ١٩٧١

٤ ـ سيد محمد غنيم : النمو العقلي عند الطفل في نظرية جان بياجيه (الجزء الاول) القاهرة ـ حوليات كلية الاداب بجامعة عين شمس ـ ١٩٧٢ ـ العدد ١٣ .

٥ ـ سيد محمد غنيم : النمو العقلي عند الطفل ونظرية جان بياجيه (الجزء الثاني) القاهرة ـ المطبعة العالمية ـ ١٩٧٣ .

٦ ـ سيد محمد غنيم : سيكولوجية الشخصية :محدداتها ، قياسها ، نظرياتها ـ القاهرة ـ دار النهضة العربية ـ ١٩٧٥ .

٧ ـ هول . ك لندزي ج : نظريات الشخصية ، ترجمةفرج احمد فرج واخرين ـ الهيئة المصرية للتاليف والنشر القاهرة ـ ١٩٧١ .

ثانيا : المراجع الافرنجية :

7. Allport G. : Personality. A Psychological Interpretation. New York, Holt Richart and Winston, 1937.

8. Allport G. : **Becoming : Basic considerations for a Psychology of Personality.** New Haven. Conn. Yale Univer. Press 1955.

9. Allport G. : **Personality and Social Encounter.** Boston. Becon Press 1960.

10. Allport G. : **Pattern and Growth in Personality.** New York, Holt, Rinchart and Winston 1961.

11. Aires P. : **Centuries of Childhood.** New York, Knopf. 1962.

12. Bandura A. & Walter R. H. : **Social Learning and Personality development.** New York, Holt Rinchart & Winston 1963.

13. Barker R., Kounin J. & Wright H. : **Child Behavior and Development.** New York, McGraw Hill Book Company, 1943.

14. Bishchof L. J. : **Interpreting Personality Theories.** New York. Harper and Row, 1964.

15. Carmichael L. (ed.): **Manual of Child Psychology,** 2nd ed. New York, Wiley, 1954.

16. Cashdan A. & Whitehead J. (eds). **Personality Growth and Learning.** London, Longman Group Ltd. 1971.

17. Erikson E. H. : **Childhood and Society.** Penguin Books 1970.

18. Erickson E. H. Identity : **Youth and Crisis.** New York. W. W. Norton & Comp. 1968.

19. Flavell J. H. : **The Developmental Psychology of Jean Piaget.** Princeton Von Nostrand 1963.

20. Freud S. : **New Introductory Lectures on Psychoanalysis.** New York, Norton 1935.

21. Freud S. : **The Ego and the Id** (1923). Hogarth, 1947.

22. Freud S. : **Beyond the Pleasure Principle**, New York, Liveright 1950.

23. Gesell A. & Ilg. F. L. : **Child Development**, 2nd ed,. New York Harper 1949.

24. Hurlock E. B. : **Developmental Psychology.** New York. McGraw-Hill Book Comp., 1953.

25. Hurlock E. B.: **Adolescent Development,** (2nd ed.) New York, McGraw Hill Book Comp., 1955.

26. Hurlock E. B. : **Child Development,** (5th ed.) New York, McGraw Hill Book Company 1972.

27. Inhelder B. et Piaget J.: **De la logique de l'Enfant a la logique de l'Adolescent.** Paris. Presses. Univer. France, 1955.

28. Jersild A. T., Telford C. W. & Sawrey J. M. Child Psychology (7th ed.) New Jersey, Prentice Hall Inc. 1975.

29. Kegan J. & Moss H. A. : **Birth to Maturity: A Study in Psychological Development.** New York. Wiley 1962.

30. Medinnus, G. R. & Johnson R. : **Child & Adolescent Psychology.** New York. John Wiley & Sons Inc. 1969.

31. Mussen P. H., Conger J. J. & Kegan J. **Child Development and Personality.** New York, Harper and Row 1963.

32. Piaget, J. : **La génese du nombre chez l'Enfant.** Delachaux et Niestle Neuchâtel, 1941.

33. Piaget J. : **La Naissance de l'Intelligence chez l'Enfant.** Delachaux et Niestle Nechatel, 1948.

34. Piaget, J. : Play, **Dreams and Imitation in Childhood,** New York, Norton, 1951.

35. Piaget, J. : **Essai sur les Transformations des opérations logiques,** Paris, Presses Univer. France, 1952.

36. Piaget J. : " La formation des connaissances." **Bull. Psychol.** Paris 1955—1956, pp. 148-156, 268-495, 701-727.

37. Piaget, J. : "Les relations entre la perception et l'intelligence dans les development de l'enfant." **Bull. Psychol.** Paris, 1956-1957. 10, 376-381, 751-760.

38. Pichon E. : Le Development **Psychique de l'Enfant et de l'Adolescent.** 2 ieme ed. Paris Masson & Cie (Ed). 1947.

39. Rayner E. : **Human Development; an Introduction to the Psychodynamics of growth,** maturity and ageing. London. George Allen & Unwin Ltd. 1971.

40. Reese H. W. & Lipsitt L.P.: **Experimental Child Psychology.** New York Academic Press 1970.

41. Riegel, K. F. : „ History as a Nomothetic Science. Some Generalizations from Theories and Research in Developmental Psychology," **J. of social issues** 1969 Vol. XXV No. 4.

42. Riegel K. F. **The Changing Individual in the changing society.** New York, Academic Press 1972.

43. Riegel K. F.: "Influence of Economic and Political Ideologies on the development of Developmental Psychology," **Psychol. Bulletin,** 1972, Vol. 7 No. 2 129-141.

44. Ruch F. & Zimbardo P. Psychology of Life 8th ed. London Scott, Foresman and Company 1971.

45. Stone F. & Church J. Childhood and Adolescence. A pscychology **of growing Person,** 7th ed. New York. Random house 1957.

46. Watson R. I. & Lindgren H. C. Psychology of the Child, New York, John Wiley & Sons Inc. 1973.

* * *

محمد جواد رضا *

الانفصال عن العالم والرحيل إلى الاعماق

الواح ملونة من ازمات الطفولة والشباب في المجتمع المعاصر

اللوح الأول

العالم الكئيب

« يتهامسون معا ...
هادئون بلا معنى ...
كالريح في الاعشاب ...
او اقدام الفئران على الحصاد الهشيم ...
في مخزننا الجاف ...
صور بلا هيولى ... ظلال بلا الوان ...
قوى مشلولة ... ايماءات بلا حراك ...

(*) عميد كلية الاداب والتربية في جامعة الكويت واستاذ التربية المقارنة فيها . له العديد من الكتب والبحوث المنشورة منها (فلسفة التربية واثرها في تفكير معلمي المستقبل)، (التربية والتبدل الاجتماعي في الكويت والخليج العربي) ، (التربية والصراع الاجتماعي) ، (التعليم الثانوي)، و (ظاهرة العنف في المجتمعات المعاصرة ـ تفسير سايكو سوسيولوجي) .

الرجال الجوف ...
سقط القناع ...
يتساندون ...
خوذا مملوءة قشا ...

تى . اس . ايليوت
« الرجال الجوف »
مجموعة قصائد
١٩٠٩ – ١٩٢٥

●●●

« ارى افقا بنجيع الدماء
تنور واختفت الأنجم
وجيلا من الارض يرمى به
كما قذف الصاعد السلم
اذا مد كفا له ناكث
تصدى ليقطعها مبرم
تكور من جثث حوله
شخاص واجداها اضخم
وكفا تمسد وراء الحجاب
فترسم في الأفق ما ترسم
وجيلا يروح وجيلا يجيء
ونارا ازاءهما تضرم
وبا ويح خانقة من غد
اذا نفس الغد مايكظم »

محمد مهدى الجواهرى
١٩٤٩

●●●

« سمعت صوت بنادق . شعرت بالذعر . كانوا يطلقون نيران بنادقهم ومسدساتهم في الليل ولم استطع النوم . كنت مترنوئة وفزعة من انهم قد يشرعون بنادقهم على نوافذ غرفتي. ويطلقون النار علي . نمت ليلتئذ مع أمي في فراش واحد . كان هناك مخزن قريب من بيتنا تلتهمه النيران . كانوا يوقدون النار في كل شيء . خيل لي يومئذان العالم كله يحترق ... »

من اعترافات طفلة بنت اربع سنوات
ايام العنف الأسود في واتس ـ لوس انجلوس
١٩٦٥

« ... لقد استمرت الحرب الفيتنامية طويلا حتى لم يعد يوجد الآن فرد واحد فى فيتنام يملك اية فكرة عن كيف كانت الاحوال قبل الحرب . ان اطفالنا يجهلون معنى السلام ، واذا تخيلوه فانهم يتصورونه مكانا جميلا وأوقاتا مرحة خلوا من المشاكل والأزمات والمسؤولية ، نوعا من انواع الجنة على الارض ... »

« من رسالة لعالم نفسي فيتنامي موجهة الى الاستاذ موريس فريزر وقد نشرها فى صدر كتابه :

Children in Conflict, Penguin Books, 1974.

• • •

اللوح الثاني

السقوط النفسي

منذ اربعين عاما تقريبا كتب رئيس جامعة يل Yale الدكتور آنجل J. R. Angell يقول : ان مابين ١٠٪ — ١٥٪ من طلبتنا الجامعيين يعانون من امراض نفسية معاناة حقيقية تهدد بتدمير فاعليتهم وسعادتهم . وفى الاجتماع السنوى للجمعية الطبية الملكية البريطانية عام ١٩٦٠ أشارت التقارير الى ان ١٤٪ من طلبة الجامعات البريطانية يعانون من امراض نفسية على درجة غير يسيرة من الشدة . وفى المؤتمر العالمي الاول حول الصحة العقلية لطلبة الجامعات المنعقد فى جامعة برنستون فى نفس الوقت تقريبا اكدت البحوث المقدمة فى المؤتمر ماذهب اليه الرئيس آنجل عام ١٩٣٦ مع التنبيه الى زيادة النسبة وبروز ظاهرة الانتحار بين الطلبة (١) . فى سنة ١٩٦٦ **كتب نيكولاس موليسن** Nicholas Malleson يقول ان مايقارب ٢٠٪ من طلبة الجامعات البريطانية يعانون من اضطرابات نفسية معوقة لتقدمهم العلمى على درجات متباينة من القوة . (٢) وفى سنة ١٩٧٠ **نشر انتوني رايل** Anthony Ryle المأمور الطبى فى جامعة سسكس Sussex فى كتابه « **الضحايا الطلابية** » ان حوالى الثلث من طلبة الجامعات البريطانية معرضون للاصابة باضطرابات نفسية على درجات متباينة من الشدة . (٣) وفى سنة ١٩٧٦ نشر كل من **ميلر وميلر** ان فى جامعة صغيرة مثل جامعة سوانسي هناك مابين ٣٠٠٠ — ٤٥٠٠ طالبا وطالبة يعانون من امراض نفسية جدية ، وان مستشفيات الجامعة وعياداتها النفسية تواجه وضعا صعبا للغاية فى تلبية الحاجات العلاجية لهؤلاء الطلبة . ومن الدراسات التحليلية التى قام بها هذان

---

(١) Davy, B. W. ; **The Source and Prevention of mental ill health in University Students**, proceedings of the Royal Society of Medicine, England, April 22, 1960.

(٢) Malleson, N.B. ; **A Handbook of British Student Health Services**, London, Pitman, 1966.

(٣) Ryle, A. ; **Student Casualties**, Pelican Books, 1970.

الباحثان تبين ان ١٤ ٪ من الطلبة الجامعيين يشكون من التعاسة فى علاقاتهم الشخصية ، ١٠ ٪ يقاسون من احاسيس الكآبة و ٧ ٪ كانت مشاكلهم تنجم عن مصاعب دراسية . (٤)

فى المؤتمر الدولي السابع للمائدة المستديرة لتقدم الارشاد النفسي المنعقد بين الحادى عشر والخامس عشر من شهر ابريل ١٩٧٦ فى جامعة فيرزبورج فى المانيا الاتحادية وجه الاستاذ آرنولد W. Arnolp رئيس جامعة فيرزبورج السابق ورئيس قسم علم النفس فيها ، وجه الانتباه الى ما اسماه « الاخلاقيات النفسية الجديدة » New Psychological Ethics فى معرض التحذير منها . قال **الاستاذ ارنولد :**

« يجب التذكير بحالات مأسوية ومرضية فى المجتمع الحديث . فى جلسات الارشاد النفسي غالبا مايسمع الواحد منا عبارات تصدر عن الاطفال الصغار .. ان امي لم تكن ترغب فى مجيئى الى هذا العالم وهى حتى الآن تعبر عن ضيقها بوجودى معها .. »

ثم يعقب الاستاذ ارنولد على هذا بقوله :

« .. ان هذه الصرخة الانسانية تعلن عن قلق وجودى ، وهى دعوة للبحث عمن يمكن الوثوق به ، انها التماس للشفقة والحب ولامكانية الاعتماد على شخص ما . ان كل الاخلاقيات النفسية القديمة قد تلاشت من الوجود الاجتماعي تقريبا . كثيرون يشعرون بأنهم وحيدون ومهجورون . واذا كان الاطفال والشباب يحسبون انهم مرفوضون وغير مرغوب فيهم من قبل اولياء امورهم ومن امهاتهم على وجه التخصيص فانهم يقفون على ارض بوار ، فى حالة من القنوط الكامل من اى رجاء ... » (٥)

• • •

اللوح الثالث

الضحايا

بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٧١ كتب احد الاطباء العموميين فى مدينة « لندن برى » يقول معقبا على ضحايا الحرب **الاهلية** فى ايرلندا : ـ

« انى احب ان اناشد أولئك المشتغلين فى الاقناع السياسي والعاملين فى منطقتى كريكان وبوك سايد شيئا من الحلم والتبصر فى عواقب مايفعلون . خلال الاربع والعشرين ساعة الماضية

---

(٤) Miller, P. — Miller, T. ; **Student Problems, Remedies and Satisfactions,** British Psychiatry, Sep. 1973.

من المهم ان نلاحظ هنا ان الجامعات العربية لاتنشر ولا تملك معلومات مماثلة عن الاوضاع النفسية والعقلية لطلابها ، ولذا تبقى مشاكلهم النفسية ومعاناتهم مقصورة عليهم وغير محسوس بها فى العالم الخارجي .

(٥) Arnold, W. ; **Counselling Activities in Modern Society,** Proceedings of Seventh International Conference for the advancement of counselling, 11-15, April, 1976, Würzburg.

دعيت لمعالجة بعض ضحاياهم . احد هؤلاء الضحايا حاول الانتحار منذ ذلك الحين اكثر من مرة . واحدهم الاخر تطلب علاجا عاجلا في حالة القلق العنيف الذي سيطر عليه . ان عددا كبيرا من الناس الطيبين يسقطون يوميا فريسة الخوف مما يحمله الاقتتال اليهم وهم لهذا يعتمدون اعتمادا متماديا على المهدئات الطبية كي يستطيعوا مواصلة حياتهم اليومية . ان عواقب هذا الاتكال المكثف على هذه المهدئات الطبية هي أوخم مما ان يستطيع احد التنبؤ بها » (٦) .

في وقت قريب من هذا الوقت كتب باحث آخر في **آثار الحرب الاهلية في ايرلندا** على الاوضاع النفسية والعقلية للاطفال والشباب يقول ان التعرض لتجربة تفجير القنابل والاثارات النفسية والاستفزازات يوما بعد يوم صارت تضاعف حالات الكآبة والمعاناة العصابية ، حتى صار يمر علي كل يوم موكب طويل من المراجعين في العيادة يروون قصصا مخيفة عن معاناتهم من الخوف والمعاناة الممزقة لشخصياتهم ولهذا اجدني ملزما ان اصف لهم كميات كبيرة من المهدئات الطبية والمسكنات . ولاول مرة في حياتي المهنية اجدني مضطرا لاعطاء الحبوب المنومة بمقادير كبيرة نسبيا للأطفال لاساعدهم على النوم ، ولتمكينهم من مواصلة ادائهم لواجباتهم المدرسية . ولاول مرة في حياتي المهنية ايضا بدات اخاف على سكان مدينتي - ديري - من انهم لن يستطيعوا اجتياز مرحلة الاضطرابات العنيفة هذه من دون تعرض نظام حياتهم الاجتماعية للانهيار التام . (٧)

لقد ترتب على حياة العنف والقتل والدمار التي عاشتها بلفاست والمدن الايرلندية الاخرى منذ اندلاع الحرب الاهلية في سنة ١٩٦٩ ظهور نوعين من الامراض النفسية **بين سكان هذه المدن وخاصة الصغار منهم .**

اولا : كانت هناك الهزات النفسية الشديدة التي كان يبتلى بها الافراد الذين كانوا يتعرضون بصورة مباشرة الى المظاهرات والاشتباكات الدموية في الشوارع . وغالبا ما كان يمكن معالجة الآثار المترتبة على هذه التجارب ، وذلك بالمهدئات الطبية او دخول المريض الى مراكز العلاج النفسي والعصبي لفترات قصيرة .

ثانيا : زادت نسبة الابتلاء بالامراض النفسية ذات الطبيعة التعجيزية للمصابين بها ، والتي تتطلب علاجا اكثر تعقيدا ، كاحالة المرضى الى المعالجين النفسانيين ، او الزامهم بدخول مستشفيات الامراض العقلية لفترات طويلة . ومن الملفت للنظر ان هذا النوع الثاني من الامراض النفسية ظهر على نطاق اوسع في المناطق المجاورة لمناطق الصراع الدموي الفعلي . ان هذه الظاهرة تتفق مع الاستنتاجات العامة المستخلصة من ايام الحرب العالمية الثانية ، والتي اثبتت انه في **زمن الاضطرابات والحروب تزداد ظواهر الانهيار العصبي والامراض العقلية في المناطق التي « يتوقع » فيها الناس اشتعال الاضطرابات اكثر من تلك الاماكن التي تصبح مسرحا فعليا للصراع،** وهذا ما صار الاطباء النفسانيون يطلقون عليه اسم « عقدة الغزو » The Invasion Complex (٨)

(٦) **Belfast Telegraph**, Sept. 7, 1971.

(٧) Sinclair, F., **Belfast Telegraph**, Sept. 16, 1971.

(٨) Fraser, M., **Children in Conflict**, pp. 81-82, Penguin Books, 1974.

لقد خرج الاستاذ فريزر من دراساته التي اجراها على آثار النزاع الدموي الايرلندي على الاوضاع النفسية للاطفال ، خرج بنتيجة كبيرة وهي انه ليس هناك اي طفل ممن يعيشون في ظروف الاضطرابات وقد نجا من الوقوع في نوع من انواع القلق المبهض واضطراب النوم، والخوف من الاضطرار للانفصال عن ابويه وعائلته ، او من رفض المدرسة لقبوله فيها ، او من فقدان الشهية والاضطرابات المعوية والتغوطية والبولية ومن انواع الصداع .

لقد تجمعت لدى الدكتور فريزر اعداد كبيرة من عينات ضحايا الامراض النفسية الناجمة عن اهوال القتال اليومي في شوارع بلفاست وغيرها من مسارح القتال في المدن الايرلندية ، وكلها حالات مأسوية بالقياس الى صغر اعمار الضحايا وما سيترتب عليها بالنسبة لقابل حياتهم . **والحالتان التاليتان يمكن ان تكونا مثلين منبئين عن آثار هذا الخراب النفسي المبكر .**

● **مارجريت** ، طفلة في الثالثة عشرة راجعت الاطباء بسبب نوبات اغماء متكررة وامراض قلق شديد جراء ماشهدته من مناظر الاقتتال الدموي في شوارع بلفاست . اضطرت عائلتها الى تغيير سكنها بعد اندلاع الاضطرابات عام ١٩٦٩ وعندما احرقت جميع المنازل حول بيتها . وعلى الرغم من ان منزل العائلة لم يدمر تدميرا كاملا الا ان العائلة تعرضت للاستفزاز والابتزاز وتعرضت ممتلكاتها للنهب . وبعد فترة من الاستقرار في سكن مؤقت اشترت العائلة منزلا جديدا في مكان آمن سرعان ما اصبح هو الآخر واحدا من اسوأ نقاط الاضطرابات . انفجرت المظاهرات والاشتباكات بعد خمسة اسابيع من نزول العائلة في منزلها الجديد . ولعدة ليال اصبحت شوارع الحي الجديد ميدان معركة حربية حقيقية بين الفرقاء المتقاتلين من جهة ، وبينهم وبين رجال الجيش والامن من جهة اخرى، وكثيرا ما وقع الصدام في حديقة المنزل الجديد الذي نزلته عائلة مارجريت .

عندما وقع هذا للمرة الاولى ، راحت مارجريت تصرخ وتزعق وخرت مغشيا عليها وكان لابد من نقلها الى المستشفى حيث جاءت نتائج كل الفحوص البدنية سلبية . اخرجت مارجريت من المستشفى ولكنها – وعلى الرغم من تمتع منطقتها السكنية ، بعد ذلك بهدوء نسبي – ظلت تتعرض لنوبات الاغماء سواء في المدرسة ام في البيت ، واضطرب اكلها وبدأ وزنها في الهبوط .

كانت مارجريت ثاني طفل في عائلة مكونة من سبعة اطفال . كان ابوها عاطلا مزمنا ، وكان هو وامها يعانيان من توتر عصبي مزمن وسرعة انفجار عاطفي منذ ان بدأت الاضطرابات في بلفاست . لم يكن في تاريخ طفولة مارجريت مايثير الانتباه . كانت دائما خجولة مترددة ولكن مشاكلها مع اترابها بدأت بالازدياد منذ انفجار الاضطرابات السياسية في اغسطس ١٩٦٩ . منذ ذلك الوقت بدأت مارجريت تعاني من فقدان القدرة على النوم توهما ان دارها ستحرق وانها ستحترق معها . كذلك صار الخوف الشديد يعتريها من ظواهر اخرى ، مثل الضوضاء والضجيج والصراخ الجماهيري في الشوارع ، الامر الذي تحول الى خوف من الذهاب الى المدرسة، فأخذت تقصر في اداء واجباتها المدرسية، وهذا ادى بدوره الى انحطاط مستواها المدرسي.

ظلت ظاهرة الاغماء تتكرر عند مارجريت لأشهر عدة وبخاصة كلما شاهدت تجمعات من الناس حتى حين لم يكونوا في حالة تظاهر ، وكذلك عند سماع الاشارات العابرة الى حوادث الاشتباكات الدموية او اخبار الصراع السياسي من ابويها او من جيرانها . ولقد حاول الاطباء الذين تولوا علاجها في مستشفى الامراض العقلية ان يوضحوا لها العلاقة بين ظاهرة الاغماء المتكررة عندها وبين التجارب القاسية التي مرت بها ، وان الثانية هي سبب الاولى وان ليس هناك اي سبب تشريحي او عضوي او فسيولوجي للاغماء . وقد احرزت بعض التحسن بعد لاي ، الا ان مستواها العلمي استمر في الهبوط ، الامر الذي اوجب نقلها الى صفوف ضعاف المتعلمين .

●● **ماري** ، كانت في العاشرة من عمرها حين جيء بها الى العيادة لاول مرة بسبب تعرضها لنوبة صرع ناجمة عن حالة من القلق الشديد . وكانت ماري اصغر اربعة اطفال في عائلتها ، وكانت العائلة تعيش في واحدة من اسوأ مناطق بلفاست اضطرابا واكثرها اقتتالا .

اختفى ابو ماري دون ان يعثر له على اثر لمدة ثمانية اشهر قبل جلبها الى المستشفى ، والمعتقد انه كانت هناك اسباب سياسية وراء رحيله . وقد تعرضت والدتها لحالات من الكآبة الشديدة بسبب الحوادث الدموية الاخيرة في بلفاست . كانت ماري قد تعرضت لحالات صرع ثانوية قبل ١٩٦٩ ، غير انها كانت نوبات عابرة وقليلة صارت تتكرر بعدد اكبر وبدرجات اعلى من الحدة بعد انفجار الصراع السياسي . وقد قصت ماري بدايات انهيارها النفسي على طبيبها على الوجه التالي :

« في احد ايام اغسطس ١٩٦٩ جاءت مجموعة من رجال الشرطة الخاصة الى الشارع الذي نقطن فيه وبداوا يطلقون الرصاص على المتظاهرين اثر احراق معمل صغير يقع في الشارع الذي كنا نقيم فيه . وطلبت مني امي الصعود الى الطابق الاعلى من الدار ووضعتني في احدى حجر النوم وتركتني وحدي ولكنها نسيت ان تسحب ستائر الحجرة التي وضعتني فيها . وجلست عند حافة الشباك انظر الى مايجرى في الشارع كما لو كنت في حالة شلل كلي . لم اكن خائفة في تلك اللحظات وانما المنظر كان يبدو كما لو كان فيلما سينمائيا . بعد يومين من ذلك الحادث كنت ورفيقاتي في طريقنا الى المدرسة ، وكنا نركض لاننا كنا متاخرات وفجأة عاودتني صورة الناس يتراكضون في الشارع ومن ورائهم رجال الشرطة الخاصة ببنادقهم ورشاشاتهم . بغتة احسست ان ساقي يعتريها ضعف شديد ثم سقطت الى الارض ولم افق الا في المستشفى حيث اخبرني الشرطي اني تعرضت لحالة اغماء .

ذات مرة قالت لي امي أوقدي طباخ الغاز . وفجأة تذكرت قنابل الغاز التي كان رجال الشرطة يطلقونها على المتظاهرين فبدات اشهق شهيقا هستيريا ، واخذت يداي ترتعشان ثم تهاويت الى الارض ولم افق الا في المستشفى . في اليوم التالي . . في المدرسة . . كنا في درس اللغة وكان الموضوع الاصوات التي تخرجها الاشياء المختلفة . سألتنا المعلمة ماهي الآلة التي تخرج الصوت . . تكاليك . . تكاليك . . فتذكرت من دون اي شيء آخر صوت سيارة الاطفاء واحسست بيدي ترتجفان ، ولم افق الا وانا ساقطة على الارض في حالة اغماء اخرى . . . »

استمرت مارى معوقة بهذه النوبات التى كان يسبقها ارتفاع مفاجىء فى حدة التنفس . وكانت اشياء كثيرة تسبب تعرضها للاغماء ، مثل انين جرس المدرسة او رؤية الشرارات الكهربائية حتى رؤية الاطفال يركضون وهم يخرجون من المدارس .

اعيد ادخالها الى مستشفى الامراض النفسية ثم احيلت الى عيادة نفسية للاطفال وهناك وجد من الضرورى حجب الاخبار التلفزيونية عنها ، وحيل بينها وبين سماع الاحاديث عن القتال او المظاهرات نظرا لاتضاح العلاقة بين القلق وسرعة التنفس الذى اصبح النمط الذى يقود الى ظاهرة الاغماء لديها . لقد اوشكت ذات مرة ان تتعرض للاغماء بسبب رؤيتها لعبة عند احد اصدقائها على شكل دبابة نفاثة للهب فما كان من المسؤولين عن علاجها الا ان ابعدوا اللعبة عنها لانقاذها . (٩)

• • •

على ان ضحايا الطفولة والشباب لايقتنصهم رصاص الحروب العقائدية المشتجرة وحدها . فقد يكون فى الحرب الصامتة المعلنة عليهم من الاباء والامهات احيانا **ماهو اشد نكالا بهم واكثر تخريبا لاوضاعهم** النفسية والعقلية ، **وذلك بسبب مايسقطه هؤلاء الاباء والامهات احيانا من آثامهم الماضية على** اولادهم وبناتهم ، وبما يقتضونه من اولادهم **وبناتهم من تعويضات نفسية عن فشل قديم عانوه** ، او مرارة نفسية قاسوها فى طفولتهم وظل جرحها **يكبر معهم حتى اذا كبر اولادهم وبناتهم ورشدوا** ظنوهم المثابة التي توفى لهم فيها ديونهم القديمة **على آبائهم وامهاتهم . ولنجتزىء هنا بمثلين** اثنين .

● **المستر ميلر** مواطن من مدينة نيويورك وهو يعيل من الاطفال سبعة يضاف اليهم زوجه وامه وهكذا يستوى عدد افراد الاسرة عشرة . والمستر ميلر ليس من ذوى الدخول الواسعة ، وكبرى بناته هى دورولي فى المرحلة النهائية من الدراسة الثانوية . ودورولي ترغب ان تظهر من المظاهر باجملها ، وهى كأية شابة فى عمرها تستهويها مفاتن الشباب من عطر وحلي وملابس وحفلات وغير ذلك . وهي تدرك ان موارد العائلة المالية لا تكفي لنوالها ما تريد . وهى فى ذات الوقت حريصة على كرامتها واسم عائلتها . والمدارس فى الولايات المتحدة تدرك حاجات الشباب ، وتعى ان كثيرا من الاسر قد تعجز عن الوفاء لابنائها وبناتها بما يريدون . ولذلك فهي ـ اى المدارس ـ تضم الى اجهزتها الادارية اجهزة متخصصة بتشغيل الطلاب فى العطل الصيفية الطويلة فى المصانع او منتجعات الاصطياف والاستجمام وتضرب بذلك عصفورين بحجر واحد ، فهى اذ تريح الاسرة المعسرة او المضيق عليها فى الرزق من قدر من تكاليف المدرسة فانها في الوقت ذاته تنيل الاولاد والبنات فرصة الخبرة العملية ، وتعلم الاعتماد على النفس واحترام الكد من أجل العيش بكرامة ، ثم تعيد الاولاد والبنات فى آخر الصيف الى منازلهم بجيوب مملوءة بمقادير محترمة

(٩) Fraser . . . op.cit., p . 84-88.

من المال تضمن لهم ما يشتهون من متع الشباب. وكانت مدرسة دوروثي تقدم هذه الخدمات لطلابها شانها شان المدارس الاخرى . وتقدمت دوروثي الى مكتب تشغيل الطلاب تلتمس عملا خلال الصيف ، ووفرت لها المدرسة عملا مربحا في احد المصايف الجميلة . فلما اشعرت دوروثي اهلها بالترتيب الصيفي انفجر الاب مغضبا من اقدام ابنته على ذلك ثم راجع المدرسة ناقما ومعترضا ومحتجا . ويعجب اولو الامر في المدرسة من نقمة الرجل واعتراضه على حين كانوا يظنون انهم قد احسنوا اليه والى ابنته ، فيناقشونه في الامر ، ويتذرع الرجل في البداية بان الامر يتناول وحبه لابنته ، فهو لا يريد لها ان تتحمل متاعب العمل في هذه السن المبكرة . فاذا نوقش في ان البنت هي الراغبة في العمل وهي الساعية اليه قال ان كرامته تابى عليه ان يرسل ابنته للعمل في الفنادق . فاذا انبىء بان اسرا اكبر من اسرته دخلا وانبه في المجتمع ذكرا ترسل بناتها للعمل دون ان تجد في الامر حرجا قال انه يخشى على ابنته من ذئاب الرجال في تلك الاماكن ، الامر الذى يثير دهشة المسؤولين لان ايا من البنات اللواتي سبق لهن العمل في الماضي لم تتعرض لمكروه فما الذى خوف المستر ميلر من مثل هذه المحاذير ؟ هنا اجاب ميلر انه متاكد من ذلك .

— وكيف تاكدت من ذلك ؟

— ان هذا شاني الخاص ...

— ولكنه شان المدرسة ايضا ؟ فالمدرسة ليست اقل حرصا على شرف بناتها من اولياء امورهن ؟

— اني اعلم مالا تعلمون .

— واني لك هذا العلم الذى لاتعلم يا مستر ميلر ؟

— ان القضية بسيطة ... ياتى الرجل المصطاف الموسر الى هذه الاماكن هربا من زوجته او من عمله .. فتتصل به الفتاة عن طريق خدمته على المائدة ، فتستهويه فيشتهيها فيترك لها في اليوم نصف دولار على المائدة ، ثم يصير نصف الدولار دولارا في اليوم التالى .. ثم يتجاوز الامر الدولار الى دعوة لرقصة على ساحل البحيرة تحت ضوء القمر .. ثم الى هدية صغيرة ثم هدية اكبر .. وهكذا تبدا الفتاة تنجر الى الشرك المنصوب لها حتى تكتشف في نهاية الطريق انها دفعت الكثير لقاء ثمن بخس .

كان المستر ميلر يقول هذا بكل اخلاص للمسؤول عن تشغيل الطلبة ، ويتذرع به للحيلولة دون ارسال ابنته للعمل والمسؤول فاغر فاه عجبا ودهشة مما يقول هذا الاب الغيور . فلما اتم المستر ميلر حديثه قال له المسؤول :ـ

— انك ياسيدى لتثير عجبنا الى حد الخوف .. فهل لك ان تعطينا واقعة واحدة مصداقا لما تقول وعلى ما تلقيه من التهم ؟

فما كان من المستر الا ان يبلغ به الغضب مداه فينفجر صارخا في وجه المسؤول ...

ـ أية بينة تريد ... ؟ كل الرجال يفعلون هذا ... لقد كنت انا نفسي افعله ردحا طويلا من الزمن .

بعد ذلك تهاوى ميلر على مقعده كمن القى عن كاهله ثقلا كبيرا واستراح . ورفع الحجاب امام مسؤولي المدرسة . اذن كان المستر ميلر يصارع آثامه هو واخطاءه هو وضحاياه هو من خلال اعتراض على عمل ابنته . كانت الاثام والاخطاء والضحايا تثر في صدره ان الرجال كلهم على شاكلته ، وان ابنته لن تكون شيئا مختلفا عن اللواتي سقطن في شباك ابيها . واذن لم يكن هناك حب ابوى ولا كرامة شخصية يابيان على الرجل ارسال ابنته للعمل وانما كان هناك الخوف ... الخوف من ان تدفع ابنته ثمن حرمات بنات الآخرين التي استباحها في شبابه ... لان الاباء الذين يأكلون اعنابا لم تنضج تضرس اسنان ابنائهم ، كما يقول الانجيل .

●● **الان تيودور** شاب في التاسعة عشرة من عمره ، وهو مخفق في عمله الجامعي نتيجة احساس عميق بالعجز في المساهمة في رسم مستقبله وتخطيط حياته القابلة وهو يعاني من القلق وضآلة الشعور بالرضا عن نفسه وعن الحياة . لقد كان طفلا وحيدا لأبويه اللذين كانا يتمتعان بمركز اجتماعي محترم وقد حرصا منذ البداية على حمايته من حقائق الحياة المؤذية . وكان كلما سأل ابويه بعض الاسئلة اجيب من قبلهما « انتظر حتى تكبر » . وكلما حاول ان يقوم ببعض الاعمال على مسؤوليته الخاصة سأله اباه « أو تظنك قادرا على القيام بذلك ؟ » . وكلما حاول ان يناقش مستقبله المهني معهما قالا له « ان أمامك الكثير من الوقت لتفكر في ذلك ، اما في الوقت الحاضر فان واجبك الوحيد هو الالتحاق بالجامعة » . وكانت الهواية الوحيدة التي سمح له بممارستها هي لعبة « الجولف » وكانت تلك هي الهواية الوحيدة لأبيه ايضا . وعندما الحق بالجامعة سأل ابويه « ما الغرض من ذهابي الى الجامعة ؟ » وكان الجواب « اننا سنقرر ذلك فيما بعد بطبيعة الحال » . كان الأبوان يفكران في مستقبله المهني الا انهما جعلا ذلك سرا مكتوما ليتأكدا من طاعته المطلقة لتوجيهاتهما . اخيرا بدا الشاب يحس بالرهق من هذه الحياة التائهة التي كان يحياها . ثم جاء اليوم الذي كان لا بد ان يجيء في هذه الحالة وكل حالة اخرى مشابهة لها عند الاطفال المكبوتين وصرح الشاب قائلا « انني اشعر بانني مثبط . انني لا ادرى الى اين اسير ولا الى اين اذهب . انني لا احس بانني اساهم في تقرير مصيري . عندما اسأل سؤالا فانى لا احصل على جواب . حتى حينما ادخل على ابوى وهما منشغلان بحديث من الاحاديث فانهما يسكتان فجأة . انني لم اشعر بأية لذة من حياتي في السنتين او السنوات الثلاث الاخيرة . انى شديد القلق . انى اعتقد ان الأمور تعاكسني بشكل سيء تماما (١٠) » .

• • •

(١٠) English & Pearson, **Emotional Problems of Living**, pp. 273-307, Norton Company, New York, 1950.

اللوح الرابع

الرفض

الاستاذ ـ اريد أن أعرف الفلسفة وراءاطالة الشعر وارساله بهذه الصورة المبعثرة .

الطالب ـ هل يزعجك ذلك ؟

الاستاذ ـ كلا ... ولكنى من جيل متقدم على جيلك ولم يكن من الذوق العام فى زماننا ارسال شعور الرجال بالشكل الذى تفعلون انتم الآن .

الطالب ـ اعتقد انها قضية ذوق شخصي .

الاستاذ ـ ولكنها ظاهرة عامة والظواهر العامة لا يمكن ان تترجم عن اذواق شخصية . ولو كانت قضية ذوق شخصي لاختلف الشباب فيها . واذا كانت ظاهرة اجتماعية عامة ثابتة ـ وهى كذلك فعلا ـ فلا بد لها من فلسفة . ان الظواهر الجماعية فى السلوك الانسانى هى قوانين غير مدونة ولكنها فاعلة فى السلوك .

الطالب ـ لم اخبرك الحقيقة ... ولكن ماهو غرضك على وجه التحقيق ؟

الاستاذ ـ حب الاستطلاع ومحاولة فهم الدوافع الانسانية .. انا معنى بمشاكل الانسان ... وانا ادرك ان الظواهر السلوكية لا بد ان تكون رموزا لاشياء اعمق جذورا فى النفس البشرية ...

الطالب ـ صدقت ... ان الشعر الطويل المرسل المشوش والقذر احيانا هو رمز لشيء اعمق منه بكثير .

الاستاذ ـ هو رمز على ماذا ؟

الطالب ـ الرفض .

الاستاذ ـ ولكن رفض ماذا ؟

الطالب ـ قيم المجتمع ؟

الاستاذ ـ اى من قيم المجتمع ؟

الطالب ـ قيمه الاستهلاكية . قيمه الاستحواذية . ان روح الاقتناء والاستزادة والانفراد بالاشياء والتكثر منها والتنافس عليها بدات تدمر الاسس الانسانية للمجتمع . الناس يتنافسون على اقتناء البيوت الفخمة والاثاث الفخم وامتلاك اكثر من سيارة واحدة واكثر من جهاز للتلفزيون . حتى الكلاب والقطط اصبحت مما يتنافس فيها الناس . بهذا صرف النظر عن الانسان نفسه الذى يفترض أن يكون الغاية العليا من الحياة كلها ، من الوجود . لقد وضع الانسان فى خدمة الاشياء بدلا من ان تكون الاشياء فى خدمته . اليس ذلك شيئا ماسويا ؟ .

الاستاذ ـ نعم .. هو ماسوى بالفعل .. ولكن ما علاقة ذلك كله بالشعر الطويل المنثور . الانسان صاحب العقيدة يكافح من اجل افكاره بشعر ومن دون شعر . . وهل يعنى كون بعض الرؤوس صلعاء ان اصحابها ليسوا من اصحاب الافكار الانسانية العالية ؟

الطالب ـ انت الآن تمزح ...

الاستاذ ـ بل أنا جاد .

الطالب ـ حسنا اذن . لنبدأ من هذه النقطة . لو عدنا الى الوراء قرنين او ثلاثة قرون سنجد ان الشعر الطويل للرجال كان ظاهرة عامة . حتى الانبياء .. عيسى وموسى عليهما السلام مثلا ... تجدهما مصورين او منحوتين بجدائل طويلة مرسلة على اكتافهما وذوائب اطول مدلاة على جباههما . طف كنائس الدنيا كلها فلن تجد المسيح مصورا فى تمثال واحد من دون جدائله وذوائبه . هذا هو الاصل الثقافى للشعر الطويل المرسل عند الرجل . رجال الصحراء العرب الى اليوم يتزينون بشعور طويلة تحت كوفياتهم المفهفة فى الهواء . ان لهذا التعلق بالشعر الطويل سببا بطبيعة الحال . ان الشعر اكثر من اى شيء آخر يعطى الرجل شخصيته المتفردة المتميزة وعندما تجز فروة راسه يتغير شكله كليا وربما اضطربت أوضاعه النفسية .

الاستاذ ـ ولكن هل تحتمل هذه القضية كل هذه المضامين ؟ الا ترى انك تحمل الاشياء فوق طاقتها ؟

الطالب ـ عموما ... ليست هذه « هى » القضية ...

الاستاذ ـ ما « هى » القضية اذن ؟

الطالب ـ الانسان « هو » القضية .. ان حضارتكم الراهنة تمجد الابداع الانسانى ولكنها تدمر الكائن المبدع نفسه . هذا من صنع البورجوازيين .

• • •

اللوح الخامس

القنوط

الاستاذ ـ ولكن من اين جئت بفكرة تدمير « المبدع » ؟

الطالب ـ **ان الاعتداء على الانسان يبدا مبكرا . منذ الطفولة المبكرة . انهم يحاولون صبك فى قوالبهم الموروثة ، يجب ان تكون صورة اخرى مكررة عن ملايين صور الرجال الجوف .** الم تسمع بكتاب « انقربه جيد » ، أيتها العائلات .. انى اكرهك » ؟

الاستاذ ـ بلى سمعت به .

الطالب ــ لقد كان جثيرا ضد معاملة الاطفال على انهم راشدون صغار . لقد كرر سارتر الشكوى ذاتها والاحتجاج ذاته فى كتابه « الكلمات » (١٩٦٣) وقد حاول سارتر فى هذا الكتاب التنبيه الى ان خير طريقة لتفادى جعل الناس نوربين هي توفير تربية ديموقراطية اصيلة لهم .

الاستاذ ــ ولكن البورجوازيين الذين هاجمتهم قبل قليل لم يبنوا مجدهم ونفوذهم على هذه التربية الديموقراطية الاصيلة ؟

الطالب ــ ان البورجوازى يفسر وجوده على هذه الارض بانه نوع من انواع الحق الالهى . اما البروليتارى فلا يملك مثل هذا اليقين ، لانه لايتمتع بنفس الضمانات التى يتمتع بها الطرف الآخر .

الاستاذ ــ ما الذى يمنعه من ذلك ؟

الطالب ــ لان الصناعة كما يقول « اندريه مالرو » دمرت صورة الله فى الضمير الانسانى وبهذا محت من امام الانسان كل مايعترض طريقه، وعندما وصل نهاية اتعابه لم يجد الا الموت كما وجده **رانسى** امام جسد حبيبته . (١١)

الاستاذ ــ ولكن الا ترى انك تتخذ موقفا مفرقا فى التشاؤم من العالم ؟

الطالب ــ ابدا .. انه عالم عبثى قائم على الخديعة .

الاستاذ ــ الخديعة ؟

الطالب ــ نعم الخديعة .. انها فى المركز من المأساة الانسانية المعاصرة .. او لم تسمع بمحنة « هنرى مارتان » التى هى رمز لازمات كل الشباب المخدوع فى هذا العالم ؟

الاستاذ ــ بلى سمعت به أليس هو صاحب « سارتر » الذى ...

الطالب ــ بلى انه هو . لقد انضم مارتان الى المقاومة الشعبية الفرنسية سنة ١٩٤٥ وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وابلى بلاءا حسنا ، ثم نقل الى البحرية الفرنسية بعد الحرب ، وارسل الى الهند الصينية حيث اوحى اليه انه ارسل للمشاركة فى تحرير شعوب المنطقة من الاحتلال اليابانى . غير انه سرعان ما اكتشف انه كان متوقعا منه ان يسهم فى ابقاء تلك الشعوب تحت السيطرة الفرنسية الاستعمارية ، فأحس بالخيانة وحاول ثلاث مرات شراء حريته من الجندية واخفق فيها كلها فما كان منه عام ١٩٤٩ الا ان قام بتوزيع منشورات مناهضة للحرب فى قاعدة طولون العسكرية انتهت به الى السجن خمس سنوات .

الاستاذ ــ هل كان فى مقدوره ان يغير العالم وحده ؟

الطالب ــ كلا .. وتلك كانت خطيئته المهلكة .. انه اراد ان يعلن حربا على النظام العالمى الفاسد ، وان يقودها ويخوضها وحده ، على حين ان المخدوعين فى العالم كثير كثير ، افرادا كانوا ام جماعات .

---

(١١) رانسى مصلح دينى فرنسى عاش بين ١٦٢٦ ــ ١٧٠٠ ــ وانتهى عاشقا مات بين يدى عشيقته . لقد طرح مالرو افكاره هذه فى رواية « الفاتحون ١٩٢٨ » و « الامل ١٩٢٧ » .

الاستاذ ـ وكيف تخدع الجماعات ؟

الطالب ـ ان خديعة الجماعات لا تختلف عن خديعة الافراد الا بالدرجة فقط . الم تقرأ ما كتبه « توينبي » عن خديعة الرجل الاسود في الولايات المتحدة .

الاستاذ ـ وماذا قال توينبي ؟

الطالب ـ قال توينبي ان « الزنجي الامريكي » وعد اولا بأن تحريره من الرق ، ومن ثم توحده مع الرجل الابيض سيضمان حدا لضعة مركزه الاجتماعي ومستواه المعاشي . ولكن في كل مرة كانت آمال الزنوج تخيب . وكان من نتيجة ذلك وتبعا له ان اصبح الزنجي حائرا ضائعا شاكا تأكل المرارة قلبه ، وقد دفع ذلك فيما دفعه اليه الى ان تتجه قطاعات من المجتمع الزنجي الامريكي الى الايمان بحياة جديدة قائمة على الانفصال الكلي عن الرجل الابيض ، انفصال قائم هذه المرة على اختيار السود ومن صنعهم يجري تحقيقه بوسائل العنف (١٢) .

الاستاذ ـ اذا كان العالم يبدو لكم مزاجا عجيبا من العبثية والخديعة والافتراءات ، فانتم لا تبقون على باب من ابواب الرجاء مفتوحا امام مسؤوليات المستقبل .

الطالب ـ نعم هو ذلك . القنوط من الامل هو العقلانية الوحيدة التي تجعل العالم محتملا ، وهي التي تحيل هذه التجربة المبهضة ـ الحياة ـ الى حالة من حالات الوعي . لقد تنبأ صاموئيل بيكيت Samuel Beckett (١٣) لذلك منذ ١٩٣٨ في شخصية مورفي .

الاستاذ ـ وما هي رؤيا بيكيت عن العالم من خلال مورفي ؟

الطالب ـ محض عبث لا مبرر له ولا طائل تحته . فانت تعرف ان مورفي مواطن من مواطني دبلن يعيش في لندن على الصدقات ، وهو وحداني ذاتي سيء العشرة يؤمن بان عقله عبارة عن « مجال شحل كبير مغلق انغلاقا تاما بالنسبة للعالم الخارجي . وهو يريد ان يوصد بوابات عقله من دون العالم الذي تبهضه عبثيته وبطلانه وفوضاه ، وهي امور لا تترك له فرصة التوافق مع هذا العالم ، ولذا فهو يرى ان المتكف الوحيد في العالم هو « عقله » الذي هو المكان الاوحد حيث يستطيع ان يجد السلام الداخلي فيه ، وحيث لا يكون الا « هبوة » في ظلام الحرية المطلقة . الطريق التي يسلكها مورفي الى الرحيل الى اعماقه الداخلية هي ان يربط نفسه عاريا الى كرسي هزاز لم يهتز ويهتز حتى « يحبي عقله » .

ان رحيله بعيدا عن زعزعات العالم الخارجي « عالم الامتداد » وتقدمه الى « كهف النفس » ذلك الكهف الباطني المظلم يتعقد بحبه لامرأة اسمها سيليا وهي « مخلوق شهواني » تبحث

(١٢) Toynbee, A., **Experiences**, p. 248, Oxford University Press, 1969, London.

(١٣) صاموئيل بيكيت كاتب مسرحي ايرلندي ولد عام ١٩٠٦ واختار باريس منذ صغر شبابه مستقرا له حيث نشر اكثر مسرحياته باللغة الفرنسية وبنى مجده الادبي هناك وهو يعد الآن بالاضافة الى برخت ويونسكو اقطاب الحركة المسرحية العالمية في الاربعين سنة الاخيرة . ومن اهم اعماله « مورفي ١٩٣٨ » و « في انتظار جودو ١٩٥٢ » و « نهاية اللعبة ١٩٥٧ » و « كيف الحال ١٩٦١ » .

من مركز اجتماعي محترم باقترانها بمورق وحملها اياه على البحث عن عمل . غير ان العمل الذى يحصل عليه مورق يكون فى مصحة للامراض العقلية . فى هذا المكان يجد مورق « ملاذه من الدنيا » ويحس بنوع غريب من السعادة بين المختالين عقليا ، لانهم ولجوا المنطقة التى يحاول هو الوصول اليها عن طريق كرسيه الهزاز . على ان سعادة مورق لا تدوم طويلا لانه يحترق ذات يوم هو وكرسيه الهزاز .

يترك مورق وراءه وصيته يوصي فيها ان تحرق رفاته وان توضع بقاياها فى كيس من الورق وان تحمل الى مسرح « آبى » الذى انقضت فيه اسعد ساعات هذه البقايا ، وان تنثر فى مجارى مياه ذلك المسرح دون احتفال او اظهار للحزن . ولكن حتى هذه الامنية الاخيرة كانت غير ممكنة التحقيق ، ذلك ان الصديق الذى حمل رماد رفات مورق — وقبل ان ينفذ الوصية — يدخل فى شجار مع عامل البار فى المسرح فيقذفه بكيس الرماد فى لحظة غضب ويتناثر الرماد على الجدران وارضية البار ويصبح فى التو موضع الدهس والنخس بنعال السكارى ، وهكذا يغدو جسم مورق وعقله ونفسه مبعثرة على ارض البار . وقبل ان يبزغ فجر اليوم التالى تكون الارض قد كنست من « الرمل والبيرة واعقاب السكاير والزجاج والكبريت والبصاق والقيء » المختلطة ببقايا رفات مورق .

الاستاذ — لا امل اذن امام الانسان فى شيء من الخير او الرجاء فيه !

الطالب — لا بل هنالك امل .. هو اقرب الى البطلان منه الى الحقيقة .. هو الامل فى الامل ..

الاستاذ — لا افهم !

الطالب — انه وجود المرتقب الذى يرينا بيكيت كيف ان كل الناس تتوقعه ، ولكنه لا يجيء .. ومع هذا فهم يحلمون بمجيئه وهم لا يريدون ان يخسروا هذا الحلم لانه هو الشيء الوحيد المتبقى لهم . (١٤)

• • •

---

(١٤) فى مفتتح مسرحية « فى انتظار جودو » نسمع هذا الحوار بين صعلوكين ينتظران جودو على قارعة طريق وقد عضهما الجوع :

استراجون — هل انت متأكد ان هذا هو المكان الذى علينا ان ننتظره فيه ؟
فيلاديمير — لقد قال بجوار الشجرة . ماذا تريد ان تقول ؟ اننا فى المكان الخطأ ؟
استراجون — كان يجب ان يكون هنا .
فيلاديمير — انه لم يؤكد انه سيأتي
استراجون — واذا لم يأت ؟
فيلاديمير — سوف نأتي غدا
استراجون — ثم بعد غد
فيلاديمير — يحتمل
استراجون — المسألة هي ....
فيلاديمير — الى ان يأتي .....

اللوح السادس

الضياع

الاستاذ ـ الا ترى ان بيكيت وامثاله ليسوا ممثلين للعالم ، وان الوضع الانساني ليس بالسوء الذي يصورونه به ؟

الطالب ـ ولكن الكتاب من طبقته هم ضمير العالم .

الاستاذ ـ اليست هناك معايير هادية في هذه الدنيا غير رؤى هؤلاء الكتاب ، وغير الصراع السياسي والكفاح الدموى ؟

الطالب ـ مثل ماذا ؟

الاستاذ ـ خذ القيم مثلا .. الم تكن حتى الآن دليلا هاديا للبشرية ؟ الم تكن مصدرا من مصادر الاستقرار النفسي للانسان العادى ؟

الطالب ـ الانسان العادى الذى لا يفكر بطبيعة الحال ... ذلك هو الذى تريد .. أليس كذلك ؟

الاستاذ ـ ابدا .. الانسان المفكر هو الذى يعرف القيم ويميزها ويسترشد بها .

الطالب ـ قد يكون الامر كذلك ولكن المشكلة هي انه ليست هناك قيم متفق عليها اصلا ، ولذا فاننا لسنا في وضع افضل من وضع مورفى في انفصاله عن العالم .

الاستاذ ـ وكيف ذلك ؟

الطالب ـ القيمة شيء نسبي ، والنسبي قابل للتعليل والتأويل .. وما كان كذلك لايمكن الاعتداد بـه .

الاستاذ ـ ومن اين جاءت نسبية القيم ؟

الطالب ـ جاءت من غياب الاجماع عليها . فهناك من يرى ان القيمة شيء ذاتي ، وانها لا توجد الا كعواطف او احاسيس بالرغبة اوالنفور ، بالحب او الكره ، بالاحترام او الازدراء نحو شيء معين او نحو شخص معين . فالأكل والشرب والاستمتاع بالموسيقى او تأمل غروب الشمس كلها قيم لانها تثير فينا احساسا لذيذا ،وتقديرا ، وتوهجا في المشاعر . انها تعطينا تجارب شخصية في طبيعة الاحساسات التي نلذها . وهذا لا تكون القيمة الا اهتماما او متعة يعطي الاشياء معنى في نظرنا عندما نرغب فيها او نحس بالحاجة اليها . حتى عندما تكون القيمة في الشيء فعلا فان الشيء نفسه لا يكتسب من الاهمية الا بمقدار رغبة الانسان فيه او حاجته اليه ، وكما يقول بيرى R. B. Perry فان « اى شيء ـ مهما كان ـ يكتسب قيمة » عندما يحظى

باهتمام الانسان به ايا كانت درجة الاهتمام ،بالضبط كهدف الرامى الذى لا يصبح هدفا الا عندما يقع التصويب عليه من قبل رام معين » . (١٥)

ويوضح **باركر** هذه الحقيقة بشكل ادق فى قوله « ان القيم تنتسب الى العالم الداخلي ، عالم العقل . ان اشباع الرغبة هو القيمة الحقيقية ، اما ما يساعد على تحقيق الرغبة او اشباعها فهو مجرد اداة . القيمة هى دائما خبرة ، وليست شيئا . الاشياء يمكن ان تكون قيمة ولكنها لا يمكن ان تكون قيما على الاطلاق . اننا نعكس القيمة الداخلية على العالم الخارجي ونسبغها على الاشياء التي تحقق الرغبة أو تساعد على تحقيقها .. » (١٦)

الاستاذ ـ اراك تغلو غلوا شديدا فى نفي واقعية القيم الانسانية ، وتنفي عنها صفة الموضوعية والحقيقة ، على حين اني أعلم ان قيم الاشياء فيها وليست فى الانسان . وفى تخميني انه لو لم تكن الاشياء قيمة بذاتها لما قيمها الانسان . الانسان يكتشف قيمة الاشياء فقط . ولا ريب ان هنالك ميزة او خاصية او نظاما للخصائص والمزايا فى « الشيء » تجعل الحكم عليه ضروريا ومعقولا فى وقت معا لانها تشير فى استجابة تقييمية Appreciative Response . بعبارة اخرى .. ان فيها شيئا مستقلا عن العين او الاذن او الحاسة الخلقية او الملكة الجمالية فى الانسان . وعلى هذا فان الانسان لا يهتم الا بتلك الاشياء التي تبدو له ذات قيمة اصلا .

الطالب ـ قد يكون هذا حقا ... ولكن اكتشاف قيمة الشيء لا يتحقق الا من خلال التجربة الفردية ، اى الانفعال بالاشياء ، وهذه قضية ذاتية صرف .

الاستاذ ـ هذا حق ولذا فانتا يجب ان نميز بين امرين مهمين ، بين التجربة النفسية المصاحبة للحكم على الشيء من جهة ، وبين « الشيء Object » او « الوضع Situation » الذى نحكم عليه .

الطالب ـ كيف تفصل الانفعال عن موضوعه ؟ الا يبدو ذلك صعبا ان لم يكن مستحيلا ؟

الاستاذ ـ لا استحالة فى الامر . خذ مثلا احكام الناس على الجو من حيث هو حار او بارد . اننا هنا لا نقول ان احكامهم نفسها حارة او باردة لانها احكام موضوعية من جهة ، ولأن ما هو حار او بارد انما هو موجود خارج الانسان . وفى هذه الحالة نستطيع ان نختبر دقة احكامهم بمقاييس الحرارة وسيكون صوابها اوخطأها ـ اى الاحكام ـ مرهونا بمدى توافقها مع ما يشير اليه ميزان الحرارة حتى فى الحديث عن الجمال ... اننا لا نقول عن شيء انه جميل ما لم يكن فيه ما يبرر هذا الحكم كالوانه مثلا او تناسق ابعاده اوهيئته . قيم الاشياء هي فى الأشياء ذاتها غير ان

---

(١٥) Perry, R. B. ; **General Theory of Value**, pp. 115-116, Longman's Green and Company, New York, 1926.

(١٦) Parker, D.H., **Human Values**, pp. 20-21, Harper & Brothers, New York, 1931.

اكتشافها ليس ميسرا للجميع لانه رهين بالخبرة والملكة ، فالانسان الذواقة هو الذى يميز الطيب من الخبيث وعندما يعجز الناس عن اكتشاف قيم الاشياء فانهم يبرهنون على عجزهم ليس غير .

الطالب ـ انك لم تزد الامر وضوحا .. كأنما فعلت انك خلطت « الشيء » بـ « التجربة » او « الموضوع » بـ « الانفعال » وجعلتهما شيئا واحدا .

الاستاذ ـ تلك هى بالضبط طبيعة الاشياء .لان القيمة ـ فى التحليل الاخير للاشياء ـ هى ذات طبيعة علائقية ، بمعنى ان كلا من العوامل الذاتية والموضوعية ضرورية لخلق القيمة ، ذلك ان عملية خلق القيمة او ايجادها او احداثها هى علاقة خاصة او معرفة بعلاقة خاصة تتكشف لاشخاص حساسين او قادرين على التفهم .ان القيمة هى حصيلة تفاعل متغيرين او اكثر فى حالة معينة . وهناك خصائص او حالات بيئية تثير فى الاجهزة الحسية تلك الاستجابات الفريدة التى تسميها احكاما اخلاقية . فى مثل هذه الحالات لا يمكن الجواب على السؤال .. « هل الجمال موضوعي ام ذاتي بكلمة نعم اولا .الجواب الصحيح هو ان الجمال صفة او خاصية فى شيء معين تتكون من قدرة ذلك الشيء على احداث اللذة فى ذات متاملة . ان السؤال .. هل الجمال موضوعي ام ذاتي ؟ مشابه منطقا للسؤال .. هل حالة التسمم موضوعية ام ذاتية ؟ ان تجربة اللذة مثل الموت .. انها ليست طاقة ولا قدرة ... انما هى حدث بعض الاشياء قادر على التسبب به فى بعض الناس على حين ان الجمال ـ من الناحية الاخرى ـ هو مثل التسمم ليس حدثا ولا خاصية وانما هو طاقة او قدرة تملكها بعض الاشياء ... لاحداث اللذة فى بعض متامليها ... » (١٧)

الطالب ـ لقد اعطيت للقضية عمقا عقلانيا جدليا وعزلتها عن ملابساتها الحياتية . ان جيلنا ينظر الى القضايا الاخلاقية على انها مشاكل عملية محمولة فى الرحم الاجتماعي ولا يمكن التماسها فى الجدليات الميتافيزيقية . الفقر والعوز والبطالة واستغلال الانسان للانسان والعبودية الفكرية .. هذه كلها ليست امورا جدلية محضة .. انها من افرازات التركيبة الاجتماعية التي تحتوى الانسان ولا سبيل الى تبديلها الا بتبديل التركيبة الاجتماعية ذاتها . عندما طرحنا قضية القيمة طرحناها على انها اداة استهداء فى الحياة العملية ،اداة للبحث عن الخلاص الانساني .

الاستاذ ـ ومن قال ان مسالة القيمة معزولة او قابلة للعزل عن مشاكل الحياة الانسانية وعن معاناة الانسان ؟ الاخلاق عموما ليست نظاما فى بناء القيم الضابطة للسلوك الانساني فرديا كان ام جماعيا . وهكذا فان الحديث فى القيم انهو الا المدخل الطبيعي الى مناقشة النظام الاخلاقى الموجه للفعاليات الانسانية والجماعية منها على وجه التخصيص .

الطالب ـ هذا حق .. لولا انك اضفيت على المعالجة درجة عالية من الضبابية اللغوية التي اضاعت المعالم الاساسية للمعضلة الانسانية.. معضلة الاهداف وعبثية الوجود وسقوط

---

(١٧) Ducasse, C. J., Art, **The Critics And You**, pp. 90-91, Oscar Priest, New York, 1944.

الانسان فى محاولة ابتداع النظم الاجتماعية التي تعطي الوجود الانساني على الارض معنى ، وتعينه على ملء فراغ الزمن الضائع في انتظار جودو الذي يعرف الجميع انه لن يجيء .

الاستاذ ــ القضية هنا تصبح قضية اختيار ، اختيار التفسير الاتى بالنبوءة والمالىء لفراغ الزمن ، وهذه مسالة اخلاقية صرف .

الطالب ــ ولكن المسالة الاخلاقية ليست اقل ضبابية ولاغبشية من مسالة القيمة ، والسقوط فى غياهب الاختيار الاخلاقى ليس اصعب من ضياع الطريق امام الباحثين فى معنى القيمة .

الاستاذ ــ ومع هذا فلابد من الاختيار . تريد الحق .. أن المسلكية الاخلاقية للانسان تبدا بالاختيار اصلا . لقد كان المتدينون الاوائل والميتافيزيقيون اخلاقيين من الطبقة الاولى رغم ان اخلاقياتهم قد لا تقدم حلا لمعضلات عصرنا .

الطالب ــ هل كان فى غيبياتهم حل حتى لأزمات عصرهم وعبودياتهم هم انفسهم ؟

الاستاذ ــ ربما لم يكن .. ولكن الرؤية كانت واضحة عندهم وهذا ما منحهم السلام العقلي على الاقل .

الطالب ــ ولكنه كان سلاما مكذوبا .. كان تسليما ولم يكن سلاما .

الاستاذ ــ كانت الطريق امامهم منورة . كانت عقيدتهم هي مجموعة الحدود التي قضت بها القوة العليا ، ارادة الله . ومع تطور المفهوم الديني اصبح وجود الإنسان كله رهينا بطاعة هذه التعاليم ، كما صارت هذه الطاعة المبرر الوحيد لوجود الانسان على الارض والسبيل الى مثوبته فى الحياة الاخرى ، وقد اكسبه ذلك درجة عالية من النبل .

الطالب ــ الطريقة هذه لم تكن عقلانية ، ولهذا حاول الانسان عقلنتها .

الاستاذ ــ قاده هذا الى المثالية الاخلاقية . ابتدات هذه المثالية بافلاطون وانتهت بـ « كانط Kant » الذى كان واحدا من ابرع الفلاسفة الميتافيزيقيين ومبلور الاخلاقية الميتافيزيقية فى كتابيه (**ميتافيزيقيه الاخلاق** Methaphisics of Morals) **ونقد العقل العملى** Critique of Practical Reason . لقد اطلق كانط على فلسفته الاخلاقية اسم « الاخلاقية الصورية Ethical Formalism » هل قرات كانط ؟

الطالب ــ اجل قراته واعرف قوانينه الاخلاقية العامة ، واعرف شروطه لاخلاقية الفعل الانساني وهي ثلاثة (اولها) مبدا الكونية بمعنى ان الفعل الاخلاقى ينبغى أن ينبثق ليس من الرغبة او الميل ولكن من مبادىء يمكن تعميمها على كل الظروف والاحوال وان تصدق فى كل تلك الظروف والاحوال ايضا . و (**ثانيهـا**) **مبدا** الانسانية كغاية فى ذاتها ، بمعنى ان الانسان هو غاية الحياة العليا على هذه الارض ، ولا يجوز استعماله اداة لأية غاية اخرى كما فى الرق او البغاء او الاستغلال الاقتصادى . **والمبدا الثالث** هو مبدا الاستقلال ، بمعنى ان المبادىء الاخلاقية

التي يطيعها الانسان لا ينبغي ان تفرض عليه من الخارج ، بل ينبغي ان يفرضها هو على نفسه ، اى ان يختارها بارادته الحرة ، وهو يملك الوسيلة لذلك متمثلة في العقل والاحساس الفطري بالواجب المنبعثين من الداخل ، داخل الانسان ، واللذين هما برهان ذاته العليا .

الاستاذ ـ الست ترى في هذه المجموعة من القوانين نظاما متكاملا للسلوك السوي وطريقا الى الرفعة الانسانية ؟

الطالب ـ بلى ، لولا ان مثالية كانط اغفلت حرب المصالح الاقتصادية بين الطبقات ورمت نفسها بالعقم . حتى قبل ظهور ماركس والماركسية ظهر الاخلاقيون النفعيون مثل **جيرمي بنثام** J. Bentham (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢) **وجون ستيورات ميل** J. S. Mill اللذين بنيا نظريتهما في الاخلاق على القول بان اخلاقية الفعل الانساني مرهونة بنتيجته ، فان كانت النتيجة جيدة او ممتعة كان الفعل اخلاقيا ، والا فانه غير اخلاقي ، وان يكن ميل قد حاول التقليل من خطر هذه النزعة الفردية بربطه مبدأ « النفع » لا بالفرد وانما بالجماعة او « بمدى صلاحيته في تحقيق السعادة العظمى » ، اى سعادة المجتمع . لقد قال ميل في هذا الصدد « . . . ان سعادة الغالبية من الناس هي المعيار الاخلاقي الوحيد لالتماس الخطأ والصواب في السلوك الانساني ، وما دمنا نعيش في مجتمع غير عادل فان البعض منا يجب ان يضحي بنفسه او مصالحه في سبيل الاخرين ، وهذا هو جوهر الاخلاق . . . » .

الاستاذ ـ هل لك من ماخذ على التفسير النفعي للاخلاق ؟

الطالب ـ اكثر من ماخذ واحد . **اولا** ان ميل اعترف اننا نعيش في مجتمع غير عادل ولكنه ربط صلاح هذا المجتمع او اصلاحه بالنزعة الغيرية ، التضحية بالذات في سبيل سعادة الاخرين ، وهو يعلم جيدا ان هذه دعوة غير مستجابة في المجتمع التجاري الذي كان يعيش فيه والذي كان يقوم على الربح وعلى الازدياد منه . **ثانيا** ان المجتمعات لا تصلح بالصدقات . لا بد لك من نظام ثابت في تقرير الحقوق والضمانات للانسان ، ولا بد من وضوح العلاقة وثباتها بين الجهد والمكافاة . ان شر ما يهدد المجتمعات ان تظهر فيها طبقات طفيلية غير منتجة تعيش على جهود الناس المنتجين .

الاستاذ ـ لقد حاول **ديوى** وغيره من « الاخلاقيين التحليليين » ان يطرحوا بديلا عقلانيا عن كل المذاهب المتقدمة . وكان ديوى John Dewey (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢) في كل حياته مثلا للمفكر العلمي الذي يسترشد بالتجربه ويعتمد نتائجها معيارا لتحليل الاوضاع الانسانيه والنظم الاخلاقية . وقد ربط في كتابه « **الطبيعة الانسانية والسلوك الانساني** » **Human Nature and Conduct** (١٩٢١) ، ربط الاخلاق الى علم النفس الاجتماعي رافضا بذلك التسليم القديم بوجود « قيم خالدة » تقرر مسبقا ما هو خطأ وما هو صواب ، ومؤمنا بان القيم الاخلاقية الحقيقية يجب ان تمر باستمرار بعمليات تحوير واعادة بناء من خلال التفكير الناقد وعلى ضوء التبدلات في الوضع الاجتماعي الانساني وتعاظم المعرفة الانسانية . لقد رفض ديوى التسليم بصواب تلك

الاشياء التي يمكن البرهنة نظريا على انها نافعةومرضية في جميع الاحتمالات المتوقعة ولجميع الاطراف المعنية . ورغم تقدير ديوى للتاكيدالذىوضعه النفعيون علىنتائج الفعل كمعيارلاخلاقيته الا انه لم يوافقهم على ربط المعايير الاخلاقيةباللذة المستخلصة من فعل من الافعال وذلك لانه اعتبر الدوافع والشخصية والذاتجزءا لا يتجزا من السلوك ولا يمكن اهماله . وعلى هذا الاساس رفض التسليمبوجود فضائل محددةومتفق عليها لان هذه الفضائل غالبا ما ترتبط بالعادة والعرف السائدين في وضع اجتماعيمعين ،وهما عرضة للتبدل بتبدل ذلك الوضع . (١٨)

الطالب ـ لقد كان ديوى محللا مختبريـــاللمشاكل الاجتماعية فاضطر الى اغفال دور نظام توزيع القوة الاقتصادية في صياغة الاهدافالاخلاقية للمجتمع ، وكان عليه ان يولى قوانين الحركية الاجتماعية الواقعية مكانا اكبر من اطارهالنظرى للاخلاق .

• • •

اللوحالسابع

التعليل

خارج اطار العبثية الوجودية وسقوط النظمالاجتماعية في بلوغ الوضع الانساني الامثل .. **كيف نفسر ازمات الشباب في المجتمع المعاصر** ؟لا اتمالیته العقلانية او الدينية !

حاول هربرت ماركوزه في كتابه « الانساننو البعد الواحد » (١٩٦٤) تفسير ذلك بخواء الحياة الانسانية الداخليه الحديثة من تلــكالتجارب المنورة باطنيا للوجــود الانساني ، تلك التجارب التي كانت تعطي انسان ما قبلالثورة الصناعية ازدهارا باطنيا من خلال الاتحاد مع الله ، او التوحد مع النظام الطبيعي للكون . فرضية ماركوزة (١٩) الاساسية في هذا الكتاب هي « ان التقدم التفنى حين ينسحب على نظامكامل للسيطرة والتنسيق يخلق انماطا منالحياة

---

(١٨) للتوسع في هذا الجدل الاخلاقي ، راجع كتـاب

A History of Modern Philosophy by: Wm. K. Wright, pp. 546-549, Macmillan Book Company, N.Y. 1965.

كذلك راجع كتاب « فلسفة التربية واثرها في تفكير معلميالمستقبل » للدكتور محمد جواد رضا٬ص ١٢٣ ـ ص ١٢٩ ، نشر جامعة الكويت ١٩٧٢ .

(١٩) ولد هربرت ماركوزه في برلين سنة ١٨٩٨ وتلقىدراسته الجامعية في جامعتي برلين وفرايبورغ حيث نال في الاخيرة دكتوراه الفلسفة وكان موضوع رسالته « نظرية هيجل Hegel في طبيعة الوجـود وعلاقتها بفلسفة التاريخ » . عندما استولى النازيون على السلطة هرب الى سويسرا ،ومنها الى الولايات المتحدة واستقر في جامعة كولومبيا حيث نقل اليها بالاشتراك مع ماكس هورخايمر « معهد الابحاثالاجتماعية » من مدينة فرانكفورت . بين ١٩٥٤ ـ ١٩٦٧ عمل في التدريس في جامعة برانديس ، ومنذ ١٩٦٧ وهويدرس في جامعة كاليفورنيا.من اهم كتبه «ايروس والحضارة» « الانسان ذو البعد الواحد » « العقل والثورة » (الماركسيةالسوفييتية) .

والسلطة التي تمتص قوى المعارضة للنظام القائم ، او تفند اى احتجاج ضده باسم التطلعات التاريخية للتحرر من الكدح والسيطرة . حتى الفكر يتم اخضاعه بحيث لا يعود مصدرا لنقد الحياة الاجتماعية » .

ان ظروف العمل في المجتمع الصناعي الرعوي تميل الى جعل العامل سلبيا . ذلك أن انسياب الانتاج في مصنع شبه اوتوماتيكي ودرجة المهارة العالية لدى العامل وزيادة نسبة المستخدمين كل ذلك من شأنه ان يقضي على اى شعور بمعارضة نظام العمل ، وهكذا تهيمن مؤسسات دولة الخدمات Welfare State على حياة الذين ينعمون بنعمها ومزاياها وذلك من خلال سيطرتها على مستوى معيشتهم ، لان زيادة الاستهلاك كفيلة كما يقول ماركوزه باضعاف حوافز تقرير المصير حرصا على التمسك بما هو متوفر لها من نعم الحياة الباطلة ولكن الخلابة .

الى تفسير قريب من هذا التفسير ذهب **ارنولد توينبي** في تفسير ثورة الشباب وازمانه بأن التقدم الصناعي تسبب في « انعدام الذاتية الفردية وانسحاق الفرد في آلية الحياة الميكانيكية من جهة ، وفي آلية الحياة الاجتماعية من جهة اخرى . ذلك ان الفردية التنافسية المميزة للمجتمع الراسمالي . . وتعاونية النمل او النحل الشيوعية والقومية ذات الطبقية القبلية . . . كل واحدة منها تمثل الاخرى وكلها تمثل التكنولوجيا في . . لا شخصيتها impersonality وان تنظيما اجتماعيا ذا طبيعة لا شخصية يناقض جوهر الطبيعة الانسانية ، ولهذا فهو تنظيم مقدر على الطبيعة الانسانية ان تثور ضده . وعندما يستجاب احتجاج الطبيعة الانسانية المبرر تماما سواء بشكل صوري موروث او بالصمت الخالص فان الكائن البشري سيجد نفسه مسوقا الى استنتاج انه لا يحمل غير العنف المادي سيكون قادرا على جلب الانتباه له كانسان وسط العلاقات اللاشخصية التي يجد نفسه فيها » . (٢٠)

على ان ماركوزه H. Marcuse يضع تأكيدا خاصا على اثر النزعة الاستهلاكية الجديدة في مطامنة السلوك العقلاني للانسان الحديث . والفرضية الاساسيه هنا هي ان تكنولوجيا المجتمعات الصناعية الراقية قد جعلت في مستطاع هذه المجتمعات ازالة التناقضات الخارجية وذلك من خلال امتصاص جميع اولئك الذين كانوا في ظل النظم الاجتماعية السابقة يشكلون اصواتا او قوى رافضة ومنشقة . والتكنولوجيا تفعل ذلك جزئيا من خلال خلق الكفاية والوفرة المادية وهكذا يتحول التحرر من الحاجة المادية التي اعتبرها ماركس شرطا مسبقا للحريات الاخرى مدخلا لتوليد عبوديات جديدة ، فمن خلال تلبية احتياجات الافراد المادية تزول اسباب الانشقاق والاحتجاج وينقلبون الى ادوات سلبيه بيد النظام الاقتصادي القائم .

ولكن الا يبدو هذا تناقضا ؟ ينفي ماركوزه التناقض باشارانه الى انه عندما يتم اشباع حاجات الفرد الى السلع الماديه على حساب احتياجه واحتياج الآخرين الى الحرية وغيرها

(٢٠) Toynbee . . . . op. cit., pp. 325-26.

من القيم يفقد الانسان حرية اختيار مصيره . ويطلق ماركوزه على النوع الاول اسم الاحتياجات الباطلة ، وهو يضمن حكمههذا ان الناس العاديين ليسوا هم الذين يقررون – في المدى البعيد – حاجاتهم الحقيقية . بمعنى ان الانماط الحياتيةترسم لهم من قبل الآخرين لانهم ليسوا احرارا في التفريق بين الباطل والحقيقي من الحاجات . وهكذا يكون للانماط الاستهلاكية في مجتمع الوفرة تأثير مزدوج طبقا لتفسير ماركوزه . فهي اذ تلبي احتياجات الانسان الماديه التي قد يقوده الحرمان منها الى الاحتجاج والثورة فانها تحملهمن الناحية الاخرى على التكيف لفرائض الوضع القائم والتسليم بها . ذلك انه « اذا كان العامل ورئيسه يتمتعان بنفس البرامج التلفزيونية ويزوران نفس دور اللهو . واذا كانت الموظفةالضاربة على الآلة الطابعة تستطيع ان تتزين بنفس المستوى الذى تتزين به ابنة صاحب العمل الذى تعمل عنده . واذا كان الزنجي يستطيع امتلاك سيارة كاديلاك ، واذا كان هؤلاء جميعا يقراون نفس الصحف ، اذا كان ذلك كله كذلك فانه لا يعني بالضرورة زوال الطبقات ، بل هو يدل على بعد المدى الذى يذهب اليه المجردون من اسباب الهيمنة الاجتماعية جراء ركضهم وراء الحاجات الباطلة التي تخدم هدفا واحدا هو الحفاظ على الوضع الاجتماعي والاقتصادى القائم . ان تكيف المجردين من اسباب القوة الاجتماعية لقوالب الاستهلاك هذه يعزز وسائل الانتاج واسع النطاق mass production ولكنه لا يخلقه » .

لقد بنى ماركوزه نظريته في عبودية الانسان الجديد للحاجة المادية على ترضية ابعد عمقا في الحضارة المعاصرة ، اذ هو يرى ان هذه الحضارة قد فصلت فصلا يكاد يكون مأسويا بين العالمين الداخلي والخارجي للانسان . في هذه الحضارةظاهرتان مركزيتان ، الاولى هي انتقالها من فترة اليقين والتوثق بصواب اخلاقياتها ابان ازدهار العهد البورجوازى الى فترة لاحقة اساسها الارتياب والرفض . ففي فترة اليقين نشأ تمييزجلي بين العالم العقلي والروحي من جهة ، والعالم المادى من جهة اخرى . العالم العقلي والروحي يفرض على الفرد متطلبات تتجاوز تلك التي يفرضها العالم المادى . ويفترض في الفرد في الاطار الاول ان يطور نفسه داخليا وفق تلك المتطلبات ، ومثل هذا التطوير ممكن من دون حاجة الى اجراء تغيير في العالم المادى المحيط بالفرد .

هذا التصدع المتعالى يعتبر جزءا من طابع الثقافة البورجوازيه . وكلما ازداد التصدع تعاظمت الحاجة للتعبير عن الذات بمفاهيم العالم الداخلي . وهنا يصبح مفهوم السعادة في صورتها الرومانتيكية مفهوم ذلك الجزء من الشخصية الذى يكافح لتحقيق رغباته التي خلقتها الضرورة من دون تعبير ولا انجاز . اما القطاعات غير الروحية فهي قطاعات الحياة المادية . ان الروح تنشد جمالا مثاليا وسعادة مثالية غير ممكنة التحقيق . وعندما لايتمكن البورجوازى من شيء غير الحفاظ على نظامه الاجتماعي والاقتصادى من خلال « تسييس » هذا النظام شيئا فشيئا واخضاع الفرد لمطالب هذا النظام ، عندئذ يكون حتما مهاجمة « العالم الداخلي » للفرد ؛ ذلك العالم الذى يستطيع فيه الفرد ان يحتفظ بقدر ضئيل من الحرية الخاصة المتحررة من المطالب

الخارجية للعالم البورجوازى . ولكن اذا كانت متطلبات العالم المادى الخارجى تقود بالضرورة الى الاعتداء على العالم الداخلى ، فان القيد الموضوع على الحريه يعنى نقضا للسعادة ، وهذه هى الظاهرة الثانية التى يفترضها ماركوزه سبباق أزمات الانسان المعاصر . **ان الحرية والسعادة ـ عند ماركوزه ـ ترتبطان ببعضهما ارتباطاشديدا ، والسعادة بوصفها « تحقيقا لجميع الطاقات الكامنة فى الفرد تفترض الحرية فى وجودها ، بل انها هى الحرية ذاتها »** . ولما كان الفلاسفة الاخلاقيون سواء منهم من عاش فى العالم القديم او فى العصر البورجوازى قد وعوا عجز الانسان امام محيطه الخارجى ، فقد رفضوا اى احتمال لقبول اية سعادة معتمدة على ظروف المحيط الخارجى ان تكون هدف الانسان . (٢١)

لقد قادت فكرة الحرية المحدودة فى العصر البورجوازى وفى الأطر الثقافية البورجوازية الى فكرة اشد ترمتا ومحدودية عن السعادة ، ومن هنا غدت فكرة المتعة فى المجتمع البورجوازى مرتبطة بحرية الفرد المقيدة بضرورات العمل ومقتضيات السوق الاستهلاكية . المتعة هنا تتقيد بفكرة الفراغ وهذا سبب تدنى قيمتها نسبيا ، وهذا التدنى يصدق على حرية الجنس بصورة خاصة . فقد كتب « **سبينوزا** » يقول عن المتع الحسية « اننا نستطيع ان ننغمس فى الملذات على ان يكون ذلك الى الحد الضرورى للحفاظ على صحتنا » . وكتب « **فيشته** » فى اتجاه مماثل يقول « انه لأمر مغاير للترف والانسانية الاصيلة ان تحول طاقة الانسان عن انجاب النسل او وسيلة للمتعة الحسية » (٢٢) . لقد كان الجنس من جهة نظر سبينوزا وفيشته موضوعا فى خدمة حاجات المجتمع البورجوازى النامى يومئذ . وعلى الرغم من ان الفصل بين المتعة وانجاب الاطفال امر واضح فان الانجاب المتزايد يقدم للدولة البورجوازية ماتحتاج اليه من العمال والجنود فى وقت معا . او على الاقل هذا مايذهب اليه علماء الاجتماع الاشتراكيون مثل **الاستاذ الكساندر سيزالاى** الذى ينظر الى هذه الازدواجية او الانشطارية على انها نتيجة طبيعية للازدواج فى الاسس الاقتصادية للمجتمع البورجوازى ، اى فى ملكية وسائل الانتاج بين اولئك الذين يعملون ولايملكون .. واولئك الذين يملكون ولا يعملون . يقول **سيزالاى** مدللا على رايه « ... خذ مثلا على ذلك الازدواج الخلقى للمجتمع البورجوازى الذى يسهم كثيرا فى زيادة التوترات الخطيرة ذات الثمن الباهظ وفى زيادة الحساسية الفردية والخوف وحالات المرض العقلى . فمن السهل جدا تحت هذه الظروف ان يكون الشخص رب عائلة طيبا ، او ان يكون عدوا من اعداء تعذيب الحيوان ، ولكنه فى الوقت نفسه يستسيغ استغلال عماله بلا خجل او ان يهدم

---

(٢١) للتوسع فى نظرية ماركوزة عن انماط السيطرة الجديدة راجع كتابه
One dimensional Man, Sphere Books, London, 1972.
خصوصا ص ١٦ ـ ص ٢٨ .

(٢٢) Russell, B., **History of Western Philosophy**, p. 557, Unwin University Book 1969.

حياة عوائل الاخرين من منافسيه او ان يقوم بترويج الدعاية للحرب . الازدواج الخلقي هو التفسير . ان عبارات مثل .. « التجارة تجارة » .. او .. « حسنا تلك قضية سياسية » .. هذه العبارات وامثالها لكشف عن وجهة نظر مخيبة وداعية للقنوط . ان التهديم القاسي لحياة الناس ، السلوك الذى لا يرتضيه الانسان الشهم ممكن الوقوع جدا في الدوائر التجارية وفي الحياة السياسية . الازدواج الخلقي مرة اخرى . هل هذه حقا قضية اخلاقية محض ؟ على العكس تماما ففي المجتمع الذى تنقسم فيه العملية الانتاجية بين العاملين والمالكين ، ويميز فيه بين العمل والعامل لا يستغرب ابدا ان يكون الازدواج الخلقي انعكاسا للازدواج في الاوضاع المادية » (٢٢)

• • •

اللوح الثامن

المخرج

القول بانفصال الشباب عن العالم لا ينبغي ان يؤخذ على اطلاقه . لان العالم الذى انفصل عنه الشباب ليس عالم الانسان نفسه وانما هو عالم القيم الباطلة التي تحدرت **الى هذا الجيل تركة « ثقيلة » وميراثا قبيحا** من رواسب **الماضي البشرى المثقل** بالظلم **والاستغلال والازدواجيات الاخلاقية التي افرزتها عصور** التخلف والاعتبارات **الطبقية الاستغلالية** التي زينها **في عيون المتقدمين على هذا الجيل الجهل** والحرمان والاسر الاجتماعي . **فهو اذن** لم يكن **انفصالا بقدر ما كان رفضا**، وقد وعى هذه الحقيقة اكثر الباحثين في ازمات هذه الاجيال الرافضة واعتبروا مسؤوليتهم الاخلاقية نحوها هي في التعمق في تحليل هذه الازمات وتشخيص مسببات الرفض، وعدوا ذلك وفاء منهم ببعض ما لهذه الاجيال عليهم .. ، هذه الاجيال التي **استطاعت لاول مرة** ــ ربما ــ في تاريخ الانسان ان تمتلك الوعي والذكاء والشجاعة لكى تختار حياتها الخاصة وقد كان **جان بول سارتر** اول من حاول تنبيه المجتمع الانساني المعاصر الى ما في حركة الرفض الشابة من اخلاقيات صميمية تستحق لا الدراسة والفهم وحسب وانما هي تستحق الاحترام كذلك . ففي مقابلة صحفية اجرتها معه مجلة « نوفيل او بزرفاتور » في ١٩٦٨/١١/٤ واذاعتها اذاعة اللوكسمبورج **قال سارتر معقبا على ثورة الطلبة الفرنسيين :** ــ

« .. ان العنف هو الوسيلة الوحيدة الباقية امام الطلاب الذين لم يتحولوا بعد الى شريحة من النظام الاجتماعي الذى اقامه آباؤهم للاحتجاج على هذا النظام . ففي مجتمعاتنا الغربية المترهلة صار الطلاب قوة النضال اليسارية الوحيدة . وما العنف اليسارى نفسه الا ردا على العنف الدائم الذى يمارسه المجتمع الراسمالي ضد كل افراده . واذا ما حكمنا ــ بناء على اكثر التقارير الصحفية حيادا ــ نجد ان شرطة القمع الفرنسية تصرفت بشكل غريب من الوحشية عند محاولة احتواء ثورة الطلبة في مايو ١٩٦٨ . ولم يكن ذلك العنف الا نموذجا لما يمكن ان تكون عليه الحرب الطبقية في فرنسا من عنف وفظاعة ... » .

---

(٢٢) Cantril, H., Editor, **Tensions that cause wars**, p. 35, University of Illinois press, Chicago 1950.

وفي نفس الوقت تقريبا نشر **ماركوزه** دراسته عما اسماه بـ « التسامح القمعي » في المجتمعات الغربية ، وفي تلك الدراسة كشف عن اعجابه بالطابع الجمالي للحركات الطلابية التي اسماها « لغة الروح » ووجد فيها « موقفا جديدا معقولا مفترقا عن مفهوم وثقافة السوق » .

والى نتيجة مشابهة توصل الاستاذ **لويس فيور** Lewis Feuer في كتابه الموسوم « **صراع الاجيال** Conflict of Generations » عام ١٩٦٦ . فقد تبين للاستاذ فيور من خلال سلسلة الدراسات التي نظمها حول تمرد الطلبة « ان هناك ميلا ثابتا في سلوك الشباب الى الرغبة في تحطيم هيمنة الآباء على الابناء والتحرر منها ، وذلك من خلال الثورة على القيم الثقافية القائمة على التسليم بهذه الهيمنة اخلاقيا وفعليا . وهم حينما يقومون بالثورة على الوضع الاجتماعي القائم ، وعندما يحاولون تحطيم قيمه ومؤسساته فكأنهم يقولون لانفسهم ... حسنا . هذه كلها من صنع آبائنا واجدادنا وهي قيودهم التي يمسكوننا بها ويفرضون ارادتهم من خلالها علينا .. ونحن لا نستطيع ان نتحداهم او نثور عليهم مباشرة ، ولا ان نفلت من قبضتهم فلا اقل من ان نحطم ما بنوه من قيم ومؤسسات، ونسفه ما التزموا به من مثل وانماط في العيش وبهذا لن نبقى لهم شيئا يسيطرون به علينا .. »(٢٤)

حتى الجامعات العريقة في تقاليد التحرر العقلي لم تجد في حركات الرفض الطلابية « نذيرا بمرحلة انهيار جامعي في العالم . وانما وجدت فيها شيئا يستحق الدرس والفهم . بمعنى آخر هي وجدت في هذه الحركات بابا من ابواب الحقيقة . الجامعة التي لا تبخل بالاموال وطاقات العلماء توفرها لدراسة الاميبا او الدودة الصغيرة ليست اكثر مسؤولية نحو دراسة الانسان وفهم مشاكله . لقد جاءت ثورة الطلاب مقترنة بفراغ الجامعة من الظفر بالاعتراف لها بحقها المطلق في طلب الحقيقة المادية مع بقاء الحقيقة الاجتماعية معلقة غير محسوسة . واذا كان للبشرية اجوبة حاسمة حول اسباب مرض السل وعلاجه مثلا فهي لا تملك مثل هذا الجواب عن قضايا الظلم والعدل ، والحرب والسلام الفقر والغنى ، الانتاج والتوزيع ، التمييز والمساواة . ان هذا كله جزء من الحقيقة التي التزمت الجامعة بالبحث عنها وفيها ، ولن يقلل من قيمته ان الطلاب هم الذين يثيرونه . ولن يقلل من قيمته ان الطلاب قد يخطئون الوسيلة الى اثارته . ان اخطاءهم لا تهون ولا تستطيع أن تهون من حقيقة ان الحرب على الحرب في فيتنام بدأت في حرم الجامعات الامريكية ، وان الزكاة لها كان الدم المطلوب في كلية ولاية كنت Kent State College . لقد كان اول من اخترق الجدار المضروب بين الشعبين الصيني والامريكي فرق من طلبة الجامعات الامريكية من لاعبي كرة المنضدة . كما ان اقوى الاصوات المرتفعة ضد التمييز العنصري في الغرب هو صوت الطلاب سودا كانوا أم بيضا . وعلى الرغم مما اتهمت به الحركة الطلابية العالمية من طغيان النزعة اللاعقلية Anti Intellectualism عليها فان سلوك الطلاب عموما يتميز باهتمامات اخلاقية من نوع معين ، اهتمامات اخلاقية تقوم على رفض التاريخ الذي لم تجد فيه دليلا امينا

(٢٤) Feuer, L., Conflict of Generations, pp. 82-83, Basic Books N.Y. 1971.

الى حل المشاكل التي ترتطم بها ، بل ولعلها تعتبره مسؤولا عنها . ان الاهتمامات الاخلاقية عند الشباب الجامعى المعاصر هى من دون ادنى ريب خير مطلق . وعلى الرغم مما يراه منتقصو هذه الحركات الطلابية فان هذا الانشغال الاخلاقي بقضايا الحرب والسلام ، التمييز والمساواة ، الفقر والغنى ، الحرمان والبذخ ، الجهل والتعليم هو خير من اللا مبالاة بها التي ربما كانت البديل المحتمل لهذا الانشغال الاخلاقي . كما ان انشغال الشباب الجامعيين بخفايا الاوضاع السياسية يفضل – يقينا – استغراقهم بالازياء والالعاب الرياضية واللذائذ الاخرى . وعلى الرغم مما تتهم به الحركة الطلابية المعاصرة من تميز بشعور عظيم بالمباشر immediacy ، المباشرة الزمانية على وجه التحديد وان اهتمامهم لا يتجاوز الحاضر المباشر ، ولذا فان التاريخ لا يحمل لهم حكمة معينة تمكنهم من رؤية الحاضر في اطار واسع من العلاقات ذات المعنى بالنسبة لهذا الحاضر ، على الرغم من هذا فان الحركة الطلابية لم تغفل العوامل التاريخية التي قادت الى قيام الحاضر المرفوض . حتى لو كانت هذه التهمة صحيحة – وهي قد تصح – فان المؤسسات التعليمية التى تولت تربية هؤلاء تحمل مسؤولية هذا التقصير ، فلو كانت قد عمقت من رؤيتهم في حركة التاريخ لما ابتلوا بهذه المباشرة في الرؤية الاجتماعية (٢٥) .

ان الاشارة الى تقصير المؤسسات التربوية في تعميق الرؤية الاجتماعية عند الشباب تقود بالضرورة الى الدور السلبي الذى لعبته هذه المؤسسات في تربية الناشئة اجتماعيا . ذلك ان المدرسة كانت في الغالب اداة بيد المهيمنين اجتماعيا يستعملونها لتثبيت الاوضاع التي تعوز مصالحهم وامتيازاتهم ، ولذا فان ثورة الطلبة تعني في بعض ما تعنيه الثورة على المؤسسة التربوية نفسها التي احسوا – حين صدمهم الواقع – وكأنها قد خدعتهم عن انفسهم وعن هذا الواقع في وقت معا . لقد اكتشف الفرنسيون مثلا ان سببا رئيسيا من اسباب هزيمتهم في الحرب العالمية كان وضع التربية الفرنسية في اهداف الطبقة الاجتماعية الفرنسية و« ان الهزيمة والظلم ما كانا ليحلا بالامة الفرنسية لولا ضعف الايمان واخطاء وخيانة الفئات المسيطرة في البحر والجيش .. في السياسة والاقتصاد .. وفي الصناعة والتجارة .. اولئك الذين كانت دعواهم انهم خريجو احسن معاهدنا العلمية وقمة نظامنا التربوي .. اولئك الذين كان جبنهم فاضحا جدا .. » (٢٦)

واذا كان « **تقرير الجزائر** » اشار اشارة عابرة « الى دور التربية الفرنسية في الهزيمة القومية فان « تقرير لجنة لانجفان Langevin » (١٩٤٧) كان اكثر صراحة في تحميل التربية الفرنسية كفلا كبيرا من مسؤولية الهزيمة القومية لانها وضعت نفسها في خدمات الاحتياجات الثقافية للطبقة البورجوازية واهدافها وقيمها الفكرية على حساب احتياجات الاكثرية المطلقة من الشعب الفرنسي ، فانطبعت بالاحتكارية من جهة ، وبالتخلف الفكري والتقني من جهة اخرى ، حتى اذا جاءت الحرب لم تكن جماهير الشعب معبأة تعبئة كافية لمواجهة الغزو النازي . وليست التربية الفرنسية في ظروف ما قبل الحرب الكونية الثانية وما اخفاقها الا مثلا نموذجيا للتربية

---

(٢٥) من محاضرة الدكتور محمد جواد رضا بعنوان « الجامعة في مركز الاعصار » القيت في جامعة الكويت مساء ١٩٧١/١٢/٥ .

(٢٦) تقرير الجزائر ، الصادر عن « اللجنة التربوية لاصلاح التعليم » ١٩٤٤ .

عندما لا تكون فى خدمة الاكثرية الصامتة من ابناء الشعوب . من هنا جاء انفصال الشباب عن العالم ، الذى صنعته لهم وفرضته عليهم النظم الاجتماعية المحتضرة وادواتها التربوية . ومن ههنا ايضا جاء رحيلهم الى الاعماق .. اعماقهم .. ضمائرهم وعوالمهم الداخلية التي تنبهوا الى وجوب حمايتها من العدوان الخارجى عليها كما صوره ماركوزه . واذا كان الانفصال عن العالم يعنى رفض نظام قيمى عقيم ، فان الرحيل الى الاعماق لم يكن هو الآخر محض هرب من قيم مرفوضة وحسب ، وانما كان جهدا ايجابيا موظفا فى البحث عن نظام قيمى بديل ملائم لوعى الانسان الجديد ، لنفسه وقيمته المكتشفة ، على انه راس المال الحقيقى فى هذا الكون ، او انه هو القيمة الواقعية العليا على هذه الارض .

• • •

اللـوح التاسـع

التربية العربية المعاصرة وتطلعات الشباب العربى

لا تختلف تطلعات الشباب العربى فى هذه المرحلة من تاريخ الامة العربية من تطلعات اترابهم وازماتهم فى انحاء العالم الاخرى ، اللهم الا فى اهمال ابلاء هذه التطلعات والازمات ما هي اهل له من عناية السلوكيين العرب ، وهم ـ اى الشباب ـ ما يزالون قارة عذراء لم ينزل على شواطئها مستكشف حتى الآن ، واقيانوس لم يحاول احد سبر اغواره ولا دراسة عواصفه واعاصيره الا نادرا ، (٢٧) ولهذا فان احتمالات اتهامه بالمروق من العرف او الدين او التقاليد هي اسهل ما تجابه تطلعاته به وهى اغلب ما تقابل معاناته به ايضا . من يدرى ؟ فربما كان الاحساس الطبقى لدى بعض الاكاديميين العرب ازاء الشبيبة العربية مسؤولا من هذه الفرقة الضاربة بينهم وبين من يفترض انهم يتحملون مسؤولية تربيتهم وقيادتهم الروحية والاخلاقية .

يضاعف من تعقيد هذا الموقف المعقد ان المؤسسات التربوية العربية ـ مدرسة كانت ام جامعة ـ ما تزال اداة مطواعا فى يد القوى المهيمنة فى المجتمعات العربية ، وهي فى الغالب قوى محافظة على قدر ما تكون المحافظة درعا ودريئة لامتيازاتها الاجتماعية ، وهى مهياة لقبول التقدم والتطور اذا ما اطمانت الى ان التقدم والتطور لن يضيرا تلك الامتيازات بشيء ، وهى تستعمل المؤسسة التربوية لخدمة هذا الوضع استعمالا واقعيا وذكيا ولكن من دون ان تحسب حسابا لافرازاته المستقبلية غير القابلة للتنبؤ .

لقد فرض هذا الوضع على المؤسسة التربوية العربية المعاصرة واجبا ازدواجيا على درجة عالية من التناقض والتعقيد . ففي الوقت الذى يطالب فيه المجتمع مؤسساته التربوية ان تحفظ له مواريثه الثقافية وقيمه المنحدرة اليه من ماضيه والتي يعتبرها هويته الخاصة ، والاجوبة الجيدة والصحيحة على كل المشاكل التي تواجهه ، فى هذا الوقت بالذات هو يطالب

(٢٧) راجع كتاب (فلسفة التربية واثرها فى تفكير معلمى المستقبل ـ دراسة تجريبية) جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .

هذه المؤسسات التربوية ان تيسر له سبل التقدم من مواقعه التاريخية الموروثه ، وان تعينه على قبول العصر الذى يعيش فيه ومن تقبل روحه العلمانية على وجه التخصيص . **بعبارة اخرى انه يريد من مؤسساته التربويه ان تكون ادوات محافظة وتبديل فى وقت واحد ، وهذا مالا تستطيع مؤسسه اجتماعيه الوفاء به ما لم تكن مؤسسة منافقة استرضائية .**

لقد كتب هذا الدور الازدواجي على التربية العربية المعاصرة ان تسقط فى حلقة مفرغة ينظر فيها الى الطلاب على انهم ـ مادة ـ تربوية من حق النظم التعليمية ان تصوغهم على هواها وحسب اجتهادها ، ومن واجبهم ان يتكيفوا ـ القوالب المعدة لصبهم فيها . فيما وراء المنهج والكتاب كان الطلاب كما مهملا . لقد ضرب هذا الموقف المقلى بين الطلاب وبين نظمهم التعليمية اكثر من سد ، ودفعهم الى التماس التعبير عن انفسهم فى الحركات الاجتماعية خارج معاهد العلم، ولم تعد المدارس ولا الجامعات عندهم الا اماكن تلتمس فيها الشهادة . ولقد كان لهذا معنى واحد هو ان مؤسساتنا التربوية فقدت القدرة على القيادة الاخلاقية لروادها ... (٢٨) .

لقد حمل هذا التنازل معه المبرر الاخلاقي للشباب العربي لأخذ مهمة صناعة مستقبلية فى يديه ، والبحث عن او الكفاح من اجل دور متميز له فى هذه المرحلة الحرجة من تاريخ امته مع كل ما يصاحب ذلك او يستتبعه من تهم المروق اوالزندقة الاجتماعية .

لقد كان من واجب الاكاديميين العرب ، والسلوكيين منهم بوجه خاص ، ان يوجهوا فكرهم وبحثهم العلمى الى دراسة هذا القدر الجديد الذى كتب على الشباب العربي ، غير ان شيئا جوهريا لم يحدث فى هذا الصدد ، وظلت ادبيات الحركة الطلابية العربية مهملة اهمالا تاما رغم مافيها من صدق العفوية وسطوع البراءة ووضوح الالتزام الوطني والقومي . اننا نشك كثيرا ان تكون هذه الادبيات قد حظيت بشيء من القراءة الناقدة اصلا .

احب ان اقف هنا عند نماذج مختارة من ادبيات الحركة الطلابية العربية ، وان احاول النفاذ من خلالها الى بعض تطلعات شبابنا ، وان اوجه عناية السلوكيين والاجتماعيين وعلماء السياسة والاقتصاد العرب الى ما فيها من محتوى انساني وقومي غني من جهة ، والى ضرورة تكريس اهتمام حقيقي بهذه الظاهرة الاجتماعية العربية الجديدة التى لن ينفعنا فى شيء ان ندير لها ظهورنا ونكتفي بالنظر اليها من عل على انها لون من المحاولات الطلابية القاصرة ، فقد نكتشف فى وقت متاخر جدا ان القصور كان حيث كنا نظن الكمال ونفترضه .

١ ـ جاء فى نشرة معنونة « دراسـات » صادرة عن المكتب الطلابي القومي فى بغداد ما يلي :

« ان الفكر البورجوازى الذى تسيره الدوائر الامبريالية لتحقيق مصالحها يؤكد على مفهوم العلم للعلم ويدفع بالكثير من العلماء لان يعتبروا الوصول الى انجاز اختراعاتهم هدفا بحد ذاته . ان مهمة الانجاز العلمي هى هدف العالم ، اما استعمال هذا الانجاز فى اى مجال فهو من

(٢٨) الرجع السابق ـ ص ١ .

اختصاصات السلطة البورجوازية وحدها . وهكذا تصبح غاية الفني والمهندس والعالم وسيلة للنظام ، وبالطريقة نفسها يخدر الفكر البورجوازي ضمير العالم بالتفسيرات الذاتية والشروح الفردية . فعندما تصبح الحرية الفردية لا حدود لها على شرط ان لا تصطدم بالمصالح البورجوازية ، وعندما يسمح المجتمع البورجوازي للافراد ان يتحركوا ضمن اختصاصاتهم الفردية على شرط ان يتركوا امر استعمال انجازاتهم في يد السلطة يحدث دائما ان يستعمل العلم وانجازاته في كثير من الاحيان كسلاح لتهديد الانسانية ... » .

٢ ـ جاء في كلمة « الاتحاد الوطني العام لطلبة اليمن » التي القيت في « الندوة الطلابية العالمية المنعقدة في جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية من ٢٣ ـ ٢٧ مارس ١٩٧٤ ما يلي :

اننا كاتحاد وطني عام لطلبة اليمن ، كحركة طلابية يمنية ديموقراطية وتقدمية نؤمن بان نضالات الطلبة من اجل ديموقراطية التعليم يجب ان ترتبط بنضالات اوسع الجماهير الشعبية والكادحة في بلادهم من اجل التحولات الاجتماعية والاقتصادية التقدمية ، من اجل التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي لتحقيق غد الاشتراكية الخالي من استغلال الانسان لاخيه الانسان . وما لم ترتبط نضالات الطلاب من اجل تعليم ديموقراطي بنضالات اوسع الجماهير الشعبية الكادحة من اجل صنع غدها الانساني المتطور والمزدهر فان الفشل الذريع سيكون حليفها دوما وابدا ، وستصطدم في النهاية بصخرة الواقع التي لا ترحم .. ولن تستطيع الاحلام والاماني ان تتجاوز تعقيدات الواقع وتكييفها ... » .

٣ ـ جاء في التقرير العام الذي قدمه « الاتحاد الوطني العام لطلبة اليمن » عن الاوضاع التربوية في اليمن في الندوة المذكورة ما يلي :

« تحتل المناهج اهمية خاصة فائقة في العملية التعليمية . فمن خلالها يتحدد محتوى التعليم العام . ان التطور التعليمي في اي بلد كان لا يقاس بتوسعة الكمي فحسب ، ذلك ان الهدف ليس عدد من يتخرجون من مؤسسات التعليم وانما المسالة المركزية هي نوعية هؤلاء . لقد عانت بلادنا من المناهج الدراسية الاستعمارية التي كانت تهدف الى خلق جيل يمني مغترب عن وطنه . لذا فقد احتلت مسالة تغيير المناهج الدراسية اهتمام الثورة في بلادنا منذ الايام الاولى لاستلام السلطة . وكانت اولى المحاولات لتغييرها هي استبدال المناهج القديمة الاستعمارية بالمناهج المصرية والعراقية وبعض مناهج الدول العربية الوطنية الاخرى . كما بذلت محاولات في ١٩٦٩ من وزارة التربية والتعليم لايجاد منهج وطني . الا ان تلك المحاولة لم تكن لتخرج عن اطار الباس اثواب يمنية على مناهج الدول العربية الشقيقة » .

بعد ذلك يحاول الاتحاد ان يطرح تصوره عن المساق الذي يجب ان تسير فيه التربية اليمنية الديموقراطية الشعبية فيرسم لها الاهداف التالية :

١ ـ ان تحقق المناهج ربطا بين العلوم الانسانية والطبيعية وافكار الطبقة العاملة ، اي استخدام المنهج الجدلي في تفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية .

٢ ـ ان تحقق المناهج بناء جيل يمنى متزود بمعارف عن تطور وطنه وشمولية تاريخه ، فعلى المناهج الجديدة ان تركز على ما يتعلق بالوطن اليمني سواء فى تاريخه او جغرافيته او ثرواته الطبيعية ، وكذا علاقة تلك بالدول المختلفة فى العالم .

٣ ـ على ان يرتكز محتوى المناهج عند معالجتها للدراسات اليمنيـــة على الجـوانب التقدمية . ففي التاريخ مثلا ينبغي التاكيد على دور الشعب فى صنع التاريـخ مغايرة لمناهجنا القديمة المرتكزة على اساس دور الافراد فى صنع التاريخ . وفى دراسة الجغرافيا ينبغى التركيز على قدرة الشعب بفضل نظامـه التقدمي على استغلال الثروات الوطنيـة . وفى جانب الادب اليمنى ينبغي التركيز على الجانب التقدمي فى تطور الادب اليمني .

٤ ـ تحقيقا لمبدا ربط المدرسة بالمجتمع والنظرية بالتطبيق فان المناهج الجديدة ستحوى منهاجا للبوليتيكنيك .. » .

هذه نماذج قليلة من ادبيات الحركة الطلابية العربية الشابة . وهى ولا ريب تنضح بالمثالية والقطعية والنهائية فى الاحكام مما قد لا يتفق حتى مع المنطق الجدلى فى تفسير حركة التاريخ . وهى قد تكون بصورة من الصور ممثلة لمجمل هذه الحركة . وليس هناك من يدعو الى تقبل مقولاتها تقبلا عفويا ولا الى شرائها من باعتها المتحمسين . فى تقديرنا ان هذا ربما اضر بالحركة اصلا . ولكن الشيء الخطير هو ان تترك هذه الحركة من دون حقول بها ، ومن دون دراستها دراسة منهجية ، ومن دون تحليل متواصل لتطلعاتها ومقولاتها . وهناك خطر اكبر فى اشعارها بانها لا تعنى شيئا للحلقات الاكاديمية العربية ، وايسر ما سينجم عن هذا الاغفال او التغافل هو جهل الحركة والاغتراب عن مفاهيمها الاســاسيــة . **ومن هنا تاتى القيمـة التى لا تحتمل المبالغـة لتكريس اهتمام فعلى بافرازات هذه الحركة فكريا وسلوكيا وجرها الى دائرة الجذب الاكاديمية الملتزمة بمنطق البحث العلمى وتقويمها تقـويما موضـوعيا** . فلقد يتاح لنا آنئذ ان ندعى اننا قد وفينا لورثتنا فى الغد القريب او البعيد بعض ما كان لهم فى ذمتنا من دين ، واننا استطعنا أن نزيد من وضوح الرؤية امامهم ، وان نقلل من احتمالات سقوطهم فى الاجتهادات البتراء .

* * *

مراجع البحث

اولا ـ فى اللغة العربية

١ ـ محمد جواد رضا ـ فلسفة التربية واثرها فى تفكيرمعلمي المستقبل ، جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .

٢ ـ محمد جواد رضا ـ الجامعة فى مركز الاعصار ،محاضرة القيت فى جامعة الكويت بتاريخ ١٩٧١/١٢/٥

٣ ـ اللجنة التربوية الفرنسية لاصلاح التعليم ـتقرير الجزائر ـ ١٩٤٤ .

ثانيا ـ فى اللغة الانجليزية

1. Arnold, W., **Counselling Activities in Modern Society**, Proceedings, IRT Conferenec, Würsburg, 1976.

2. Beckett, S., **Murphy**, 1938.

3. Cantril, H., **Tensions that Cause Wars**, University of Illinois Press, Chicago, 1950.

4. Davy, B. W., **The Source and Prevention of Mental Ill Health in University Students.** Proceedings of the Royal Society of Medicine, England, April 22, 1960.

5. Ducasse, C. J., **Art, The Critics and you**, Oscar Priest, New York, 1944.

6. English Pearson, **Emotional Problems of Living**, Norton Company, 1960.

7. Feuer, L., **Conflict of Generations**, Basic Books, New York, 1971.

8. Fraser, M., **Children in Conflict**, Penguin Books, London, 1974.

9. Malleson, N. B., **A Handbook of British Student Health Services**, London, Pitman, 1966.

10. Marcuse, H., **One Dimensional Man**, Sphere Books, London, 1972.

11. Miller & Miller, **Student Problems, Remedies and Satisfactions**, British Psychiatry, September 1973.

12. Parker, D. H., **Human Values**, Harper & Brothers, New York, 1944.

13. Perry, R. B., **General Theory of Value**, Longman's Green and Company, New York, 1926.

14. Ryle, A., **Student Casualties**, Pelican Books, 1970, London.

15. Rusell, B., **History of Western Philosophy**, Unwin University Press, 1969.

16. Sinclair, F., **Belfast Telegraph**. Sept. 16, 1971.

17. Toynbee A., **Experiences**, Oxford University Press, 1969.

18. Wright, Wm. K., **History of Modern Philosophy**, Macmillan Book Company, New York, 1965.

عبد الرحمن عيسوي *

النمو الروحي والخلقي والتنشئة الاجتماعية في مرحلتي الطفولة والمراهقة

فى بحثنا فى النمو الروحى وعملية التنشئةالاجتماعية فى مرحلة الطفولة ينبغى ان نؤكد ان الدين لا تقتصر آثاره ووظائفه على مرحلة واحدةمن مراحل العمر ، وانما يشمل اثره كافة مراحل النمو الانسانى ، وان كان هذا التاثير يختلف من مرحلة الى اخرى .

وعلى الرغم من ان القيم الدينية والسلوك الدينى يؤثران بصورة او باخرى فى كل جوانب حياة الفرد الا ان تاثيرهما اكبر فى حياة الفرد الانفعالية The Individual's Emotional Life وللدين اهمية كبرى فى مرحلتى الطفولة والمراهقة حيث يمر الطفل بمرحلة تكوين الشخصية وصقلها وحيث تلعب العوامل الانفعالية دورا هاما فى حياته .

(*) استاذ علم النفس المساعد بجامعة الاسكندرية وجامعة بيروت العربية .

والمعروف ان مرحلة المراهقة ، كما يزعم بعض علماء النفس ، مرحلة شك ونبذ rejection للقيم والمعايير الدينية التى سبق ان تلقاها الطفل من الكبار ، وقبلها عن طيب خاطر .

وعندما يصل الطفل الى درجة من النضج العقلى تسمح له باعادة النظر فى هذه القيم والمعايير فانه يتناولها بالنقد والفحص والتمحيص ، وتنتهى عملية النقد هذه اما بقبول هذه القيم او رفضها او تعديلها .

ومن الاهمية بمكان ان تجرى الدراسات والبحوث التى تكشف عن الآثار التى يتركها قبول الدين او نبذه على صحة الطفل النفسية وثباته الانفعالى ، بعبارة اخرى هل يضيف الدين الى التكيف او الى سوء التكيف النفسى ، هل يسهم الدين فى تحقيق الصحة النفسية والثبات الانفعالى ام يؤدى الى مزيد من الشعور بالذنب والى تنمية ضمير حاد وخاز يؤنب صاحبه ويلومه على كل كبيرة وصغيرة ؟

تفسير ظاهرة التدين فى الطفولة والمراهقة

وفى تفسيرنا لظاهرة التدين نستعرض آراء كل من ف . مرى و ر . **مرى** F. Merry and R. Merry حيث يفترضان ان ظاهرة التدين ظاهرة غريزية بمعنى وجود غريزة دينية لدى الفرد (*) a religious instinct . **فتبعا لهذه النظرية يعتبر الطفل طبيعيا متدينا ، واذا اعطى الفرص المناسبة فانه يكون المفاهيم الدينية اللازمة ذات المعنى والدلالة** . ويعتقدان ان الطفل منذ سن مبكرة يعي بطريقة غريزية وجود قوة عليا يلجأ اليها للحماية ، ولديه تجاهها اتجاه غريزى فطرى نحو الاحترام والعبادة (١) .

ويتعارض هذا الراى مع راى آخر يزعم ان الطفل شرير بطبعه او بالفطرة ، لانه ورث الخطيئة الاصلية التى ارتكبها آدم فى جنة عدن . ولذا كان لابد من ان تستخدم اكثر الاساليب صرامة فى تاديب الطفل وقمع هذه الطبيعة الشريرة وجذبه الى حظيرة الدين والصواب . ولكن كثيرا من علماء الدين المحدثين يرفضون الزعم بان طبيعة الطفل طبيعة شريرة بالوراثة ويعتقدون ان الاطفال يولدون وهم لا طيبون ولا اشرار ، ولكن يولدون باستعدادات او امكانيات عامة هي التى يوجهها المجتمع فيما بعد اما الى القنوات الصالحة او الشريرة .

ويؤيد **سكنر** C. Skinner هذا الراى بالقول بان الكائن البشرى يولد بحالة حيادية حيال الدين ، فالرضيع مثلا ليس متدينا ولا هو ضد الدين بل انه يمتلك الاستعدادات Potentialities للتكيف ، والتى تجعل النمو ممكنا نحو التدين او نحو معارضة الدين .

(*) لم يعد يستخدم اصطلاح الغريزة فى علم النفس واصبحت هناك اصطلاحات اخرى كالدافع والباعث والحافز وكلها تجريدات لفظية عقلية للدلالة على بعض انماط السلوك علما بان السلوك وحده هو الذى نلاحظه .

(١) Merry, F. and Merry, R., The First two decades of life, Harpers and Brothers, N.Y. 1950. P. 482.

متى يبدأ الشعور الديني لدى الطفل ؟

واذا ما تساءلنا عن السن التي يبدأ فيها الطفل في الشعور بالخبرة الدينية فاننا لا نجد(٢) اتفاقا كاملا بين الباحثين حول هذه السن، فمنهم من يرى بعض المظاهر الدينية في سلوك الأطفال الصغار ، ومنهم من يرى ان الطفل لا يقوى على ادراك المفاهيم الدينية الا بعد الوصول الى مرحلة متقدمة من النضج العقلي .

فطبقا لراى **الج** F. Ilg يستطيع الطفل التمييز بين الصواب والخطأ ، وبين الردئ، والحسن في سن السابعة ، اما فيما قبل سن الرابعة فهو غير قادر على فهم الآراء الدينية ، وعندما يبلغ الطفل سن الأربع سنوات يبدأ في توجيه مثل هذه الاسئلة ذات الطابع الديني والفلسفي :

١ ــ من الذي صنعك ؟

٢ ــ من الذي صنع هذه الاشجار ؟

٣ ــ من هو الله ؟

٤ ــ ما الذي يشبهه ؟

٥ ــ هل الله رجل طيب ظريف ؟

٦ ــ هل هو يحب الحلوى ؟

٧ ــ هل يشبه الله ابي ؟

٨ ــ اين يقيم الله ؟

٩ ــ وهل يرانا الآن ؟

١٠ ــ هل يرتدي جلبابا فضفاضا ؟

ولذلك فلا عجب ان نجد طفلة صغيرة (سن اربع سنوات) كانت تسير في يوم مطير وكانت تمشي مع امها فنظرت الى اعلى السماء وقالت :(شكرا لك يا الهي لجعل الطريق جافا في بعض الاماكن انك ترى انني ارتدي حذائي الجديد)(٣)

وخلافا لهذا الراي يذهب **فالنتين** Valentine الى القول ان الطفل لايستطيع ان يدرك معاني المصطلحات The abstract terms كمعنى الشفقة والله والعدالة والاحسان ... الخ ، قبل سن الثالثة او الرابعة عشرة . (٤)

(٢) Skinner, C., Child Psychology, the Macmillan Co. N.Y. 1949, P. 276.

(٣) Ilg, F., **Child Behaviour**, Hamish Hamilton, London, 1955, P. 292-303.

(٤) Valentine, C., **The Normal child and some of his abnormalities**, A Pelican Book, 1962 P. 271—275.

ومهما يكن فان الاطفال ولاشك لديهم بعض الافكار الدينية التي توصف بانها افكار مشخصة ومجسدة وشخصية وحسية .

ومنذ وقت مبكر (١٨٨٠) طلب ستانلي هول G. Stanelly Hall من مجموعة من الاطفال الصغار ان يصفوا تصوراتهم عن الله ، وفيما يلي بعضا من استجاباتهم ؟

(الله رجل كبير ربما لونه ازرق يرى غالبا جدا في السماء او في السحب او في الكنيسة بل حتى في الشارع . انه يصبع اللعبات والاطفال والكلاب والاشجار والنقود .. الخ ، ويعمل الملائكة لحسابه ... الخ .

وعندما يموت الناس انهم فقط يذهبون او يوضعون في جحر او في صندوق او في عربة نقل سوداء ، ويذهبون الى الجنة او يصعدون الى السماء او يغرقون او يعلقون في السماء حيث يمسك الله بهم ... وعندما يذهب الاطفال الى الجنة تقدم لهم الحلوى والبنادق واللعب وكل ما يوجد في محلات لعب الاطفال ، والكتب المصورة واوراق اللعب ، وتقدم لهم الملابس الانيقة والساعات الذهبية والمثلجات ، ولا توجد هناك مدارس ويلعبون البلي والورق) .

وفي دراسة اخرى على مجموعة من اطفال المدرسة الابتدائية اظهروا خلطا بين مفهوم الله ومفهوم « السيد المسيح » وعبروا عن مفاهيم وصفات مشخصة عن الذات الالهية ، وغيرها من المفاهيم الدينية ، فهم يصفون الجنة بانها تشبه الدخان او الماء او الهواء ، ويعتبرون السيد المسيح كحامي حمى الناس ، فهو يأخذك الى الجنة اذا كنت طيبا ، ويشفيك اذا كنت مريضا . ويدرك طفل في سن ٦ سنوات وظيفة الله بالقول بان « الله شخص ما في السماء او في الجنة يعتني بكل شيء ويرعاه ويعالج كل شيء حتى لا يعتري الناس اي مشاعر رديئة او تسود بينهم » ، ولكن اطفال هذا السن يعانون من خلط ازاء فكرة (ان الله خلق كل شيء من لا شيء) ويرجع سوء الفهم هذا الى نزعة الاطفال لارجاع كل الافكار المعنوية الى معان مشخصة مجسمة تقع في اطار خبراتهم .

ولقد عبر عدد كبير من الاطفال الصغار (٤٦٤٠ طفلا) من اطفال الصف الرابع الابتدائي في المجتمع الامريكي عن فكرة يوم الحساب The Judgment Day حيث وافقت نسبة ٣١٪ من مجموعهم على القضية الاتية :

يحتفظ الله بسجل كبير يسجل فيه افعالنا السيئة .

بينما اقر ٤٢ ٪ منهم انه تعالى لا يفعل ذلك و ٢١ ٪ كانوا في حالة شك وتردد ، بينما وافق نحو ٥٠ ٪ منهم « باننا اذا صلينا بجدية كافية من اجل سطوع الشمس او هطول الامطار فان الله سوف يغير الطقس من اجلنا » (٥)

• • •

(٥) Sully, J. Studies of childhood, Longmans — Green and Co. 1896, p. 279.

خصائص الفكر والشعور الدينى فى الطفولةوالمراهقة

يعبر الاطفال فى الغالب عن خيال حر وغير تقليدىفى افكارهم عن الدين. ولقد حلل هارمس Harms سنة ١٩٤٤ بضعةآلاف من رسومالاطفالالصغار من (٣ ـ ٦ سنوات) التى تمثل افكارهم عن الله ، ووجد ان معظم الصور المرسومة تعبرعن الله كنوع من شخصية الاساطير ، يرتدى الملابس الفضفاضة (٦) ولقد افترض هارمسثلاثةمراحل للنمو الدينى فى الطفولة هى :

١ ـ مرحلة الصورة الاسطورية The Fairy Tail tage حيثتسود الافكار والمعتقدات الخيالية او الوهمية .

٢ ـ المرحلة الواقعية realistic stage وفيها يرفض الاطفال خيالاتهم السابقة ، ويعتنقون التأويلات القائمة على اساس الظواهرالطبيعية .

٣ ـ المرحلة الفردية The individualistic stage وفيها يبدأ الطفل فى اختيار العناصر التى ترضى حاجاته وبواعثه من الدين ،اى ينتقى العناصر الدينية التى تشبع حاجاته الفردية . (٧)

وعلى الرغم من اختلاف تصورات او مفاهيم الاطفال عن الله وعن النار وعن الجنة ، وما اشبه ذلك من المفاهيم الثيولوجية التقليدية ، الا انذلكلا يعنى ان الاطفال لايشعرون بالرهبة والتقديس والاحترام نحو الذات الالهية ، وان كان كثير منهذه الآثار يتوقف على الطريقة التى يتعلم بها الاطفال المبادىء الدينية .

يقول مرى ومرى « وهناك ادلة كثيرة علىان التعاليم الدينية المبكرة من قبل المنزلوالكنيسة هي العامل الاساسى فى تحديد الاتجاهات الدينيةاللاحقة . ان المنهج المستخدم فى تقديم المفاهيم الدينية للاطفال له اهمية عظيمة » . (٨)

ولا شك ان مفاهيم الطفل عن الدين تختلفاختلافا كبيرا عن افكار الكبار وعن خبراتهم ومشاعرهم ، ولذلك فالجوانب الدينية فى حياةالطفل اقل خضوعا لفهمنا عن جوانب شخصيته الاخرى ، فالنضج العقلى Mental maturity يساعد الطفل على ان يستبدل مفاهيم الطفولة الساذجة والمشخصة بمفاهيم اكثر عمومية واكثرتجريدا ، فكلما تقدم الطفل فى السن اصبحت علاقته بالله اكثر شمولا واقل تشخيصا ،وتصبحاتجاهات الطفل الدينية اقل تمركزا حول ذاته self-centered واقل انانية ، ويصبح اقلاهتماما بالحياة الاخرى . ومعنى هذا ان الدين لا يصبح له دور فعال فى حياة الطفل الا اذا تناولتصورات ومفاهيم تدورحول حياة الطفلالدنيوية .

---

(٦) Argyle, N., (cited in) the religious behaviour, Routledge and Kegan Paul, London, 1958.

(٧) Cole, L. and Hall, I., **Psychology of Adolescene**, Holt, Rinehart and Winston, N.Y. 1960

(٨) Merry F. and Merry, R., op. cit. P. 490.

المباشرة ولم يقتصر على الحياة الاخرى ، واذا ماتساءلنا عما يحدث فى فكر الطفل الدينى عندما يصل الى مرحلة المراهقة لوجدنا ان هناك عملية انتقال او تحول من تلك الاستجابات التى تثيرها الضرورة الخارجية الى تلك الاستجابات التى تثيرها الضرورة الداخلية، أى من الدوافع الانانية الى الدوافع غير الانانية ، ولكن هذا لا يعنى ان نستنتج ان الشعور الشخصى بالواجب وبالمسئولية والاحساس بالمثل العليا والسلوك الغيرى ليس معروفة قبل هذه السن ، وانها تظهر فجأة عند البلوغ Puberty ، وهناك كثير من الادلة التجريبية التى تؤكد حدوث النمو التدريجى وليس النمو او الانتقال الفجائى من مرحلة الى اخرى .

وتبدو القدرة على التجريد بتقدم الطفل فى السن ، **ولقد وجدت نسبة مئوية كبيرة من** الاطفال الصغار الذين وافقوا على القضية الآتية« ان الله عبارة عن شخص ما يراقبك ليرى انك تتصرف تصرفا حسنا وهو الذى يعاقبك اذا لم تكن طيبا » . **بينما كانت هناك نسبة اكبر من** الاطفال المتقدمين فى السن (١٨ سنة) الذين ابدوا موافقاتهم للقضية الآتية : « ان الله قوة غريبة تعمل من اجل الخير اكثر من كونه شخصا » .

وبالتقدم فى السن تبدو نزعة التسامح نحو اربابي الديانات الاخرى لدى المراهقين . (٩)

ولقد وجد ان الاطفال الكبار فى السن اكثر استعدادا للموافقة على القضايا مثل : « ان الكاثوليك واليهود والبروتستانت متساوون فى الطيبة » او ليس من الضرورى ان تذهب الى الكنيسة لتكون مسيحيا » والمراهقون المتقدمون فى السن (١٨ سنة) كانوا اقل اصرارا على ان « الناس الطيبون يؤدون الصلاة بانتظام » .

وفى احدى الدراسات التى تناولت عينة من الشباب من (١٦ الى ٢٤ سنة) تبين ان ارتياد الكنيسة تنخفض بالتقدم فى السن .

اما فكرة الطفل عن الدين فانها فكرة محسوسة ملموسة وينطبق هذا على صورة الملائكة والشياطين ، اما العبادات كالصلاة فانها وسيلة الطفل الصغير فى الحصول على مطالبه . ولكن بتقدم الطفل فى العمر يدرك ان دعواته لا تجاب كلها ، فلابد ان يؤمن بقيمة العمل حتى تجاب مطالبه .

اما المفاهيم الدينية فان الطفل الصغير لا يفهم معناها لان قدرته العقلية لا تقوى على ادراك المعنويات المجردة كالخير والشر والصلاح والتقوى ، ولكنه يدرك فقط الامور الحسية الملموسة التى يستطيع ان يشاهدها ، وان يحس بوجودها. وعندما يصل الطفل الى مرحلة الطفولة المتاخرة يستطيع ان يناقش الامور الدينية . ويأخذ الطفل فى الاتيان ببعض الاسئلة التى تدور حول الخلق والموت والحياة والبعث واصل العالم . . وهكذا . وفى اول الامر يقبل ما يلقى عليه من اجابات ثم بتقدمه فى العمر يعيد النظر فيه .

---

(٩) Kahlen, R., **The Psychology of Adoles cence,** Harpers and Brothers, N.T. 1952, P. 439

وفي بداية مرحلة المراهقة يميل المراهق الى الشك فى القيم الدينية التى تعلمها فى مرحلة الطفولة، ويعجز عن فهم المعانى الدينية والفلسفية العميقة ، ويظل يشك فى هذه القيم حتى اواخر مرحلة المراهقة . وعندما يبلغ المراهق حوالى سن السادسة عشرة فانه يتحول نحو الدين مرة اخرى ، ولذلك تعرف هذه الفترة بفترة اليقظة الدينية .

تدل مناقشات المراهق وجدله العنيف على وجود اليقظة الدينية ، حيث يميل الى مناقشة امور مثل الثواب والعقاب ، او الجنة والنار والبعث والخلود والقضاء والقدر والجبر والاختيار . وقد تزداد وطأة الشك الدينى عندما يموت احد آبائه او اصدقاء المراهق المقربين . وعندما يقترب الفرد من مرحلة الرشد يتحول من الشك الى اليقين ، فيفكر تفكيرا هادئا فى الأمور الدينية ، ويظهر عندئذ الشعور بالتسامح نحو اصحاب الديانات الاخرى (١٠)

وبالرغم من ان كثيرا من علماء النفس يزعمون ان فترة المراهقة تمر بحالة ارتباك خلقى وتطرف سياسى ، وتغير فى القيم ، وقبول القيم الدينية او رفضها ، ولكن هذا لا يحدث الا بالنسبة لقلة بسيطة من المراهقين ، اما الاغلبية الساحقة فانها تظل محتفظة بالاتجاهات الدينية التى يعتنقها الوالدان ، ويعتنقون مبادىء تشبه مبادىء الوالدين فى الفلسفات السياسية والاخلاق والجنس وما اشبه ذلك .

ففى احدى الدراسات وجد ان ٨٤ ٪ من المراهقين اعضاء فى الكنيسة ، وان ٥٠ ٪ يترددون الكنيسة بانتظام ، وان ١٠ ٪ لم يذهبوا للكنيسة . وان ٧٥ ٪ يعتقدون اعتقادا راسخا فى وجود الله . (١١)

وبتقدم الطفل فى العمر ينمو عنده الشعور بالتسامح الدينى ، وبالحرية الدينية religious liberalization ويحدث التحرر الدينى فيما بين سن ١٢ و ١٥ سنة وعلى ذلك تزداد نسبة عدد المراهقين فى هذه السن الذين يوافقون على عبارات مثل :

(١) ليس من الضرورى أن تذهب للكنيسة لكي تبقى مسيحيا .

(٢) الكاثوليك والبروتستانت واليهود كلهم متساوون فى الطيبة . بينما تقل نسبة الموافقة على عبارات مثل :

١ ـ كل لفظة فى الانجيل صادقة .

٢ ـ الله يراقبنا ويعاقب فاعل الشر .

• • •

---

(١٠) د. فؤاد البهي السيد ، الاسس النفسية للنمو من الطفولة الى الشيخوخة دار الفكر العربى سنة ١٩٦٨ .

(١١) Mussen, P.H., The psychological development of the child, Prentice-Hall, U.S.A. 1963.

اثر الخبرة الدينية فى عملية التطبع الاجتماعى او التنشئة الاجتماعية :

هناك عوامل متعددة تلعب دورا هاما فى عملية التطبع الاجتماعى او التنشئة الاجتماعية Socialization * من ذلك جماعة الانداد او الزملاء والاسرة والمدرسة والراديو والتلفزيون والصحف والمجلات والاندية والمعسكرات والمؤسسات الدينية وثقافة المجتمع ككل .

منذ اهتمام استانلى هول وتلميذه دانيليز Daniels (١٨٩٣) واستاربوك Starbuck (١٨٩٩) الذين كانوا يعتقدون ان التحول الدينى جزء هام من خبرة المراهق منذ ذلك التاريخ ، اهتم علماء النفس باثر الدين على النمو . حقيقة لا نعرف الا القليل عن التاثير المباشر للدين على السلوك لان وضع محكات تعتبر مسالة صعبة . فكيف يمكن فصل الشخص المتدين عن غير المتدين لتحديد انهما يختلفان فى السلوك والقيم ؟

من بين المعايير المستخدمة عبارات الفرد نفسه ، هل يزعم هو انتمائه الدينى او عدم انتمائه ؟

ولقد اسفرت الدراسات التى تناولت مشات الجانحين انهم يقررون فى المقابلات وعلى الاختبارات النفسية ان لديهم بعض الارتباطات الدينية ، ولكن استخدام مزيد من الاسئلة يوضح ان معظم هؤلاء الجانحين لا يدخلون الكنيسة ولو مرة واحدة فى السنة . وهكذا فان انتمائهم الدينى Their religious affiliation هو « انتماء لفظى وليس سلوكيا » وعلى ذلك فيلزم محك آخر غير محك الانتماء . بل ان ارتياد الكنيسة Church attendence كما استعمل فى كثير من الدراسات لا يصلح كمؤشر حقيقى لتدين الفرد الاصيل ، فهناك بعض الاشخاص الذين يرتادون الكنيسة لاسباب غير دينية كالذهاب نتيجة لضغوط الاباء او لمجرد العادة ، او حبا فى الظهور او الطموح الاجتماعى ، او للشعور بالسمو او التمتع بالصحبة الاجتماعية ، او لمجرد قضاء وقت الفراغ او التخلص من الشعور بالوحدة والعزلة . وهناك دراسات استخدمت اختبارات لقياس المعرفة الدينية كما فعل ماالديول ، ولكن حتى هذا المنهج لا يكشف عن الاعتقاد الدينى الحقيقى ، وعلى ذلك فان النتائج التى نحصل عليها من هذه الابحاث يجب ان تؤخذ بكثير من التحفظ ، فمعظم المعطيات تعطى معلومات عن بعض الجوانب « الصورية » من الدين او الرسمية ومن السلوك كالعلاقة بين ارتياد الكنيسة والسلوك ، ولا تعطى صورة عن الرابطة بين الانغماس العميق فى الدين وفى السلوك . اننا نتوقع ان الخبرة الدينية تؤدى الى تغيير كل الاتجاهات الاجتماعية العريضة كالاعتقاد فى الاخاء بين بنى الانسان ، وتغير السلوك النوعى المحدد كما يقاس على الاختبار للغش مثلا . (١٢)

(*) تشير هذه العملية الى امتصاص الطفل لقيم المجتمع ومعاييره واكتساب انماط السلوك المقبولة .

(١٢) Ibid, P. 488.

اليقظة الدينية فى مرحلة المراهقة :

ومن الظواهر الدينية البارزة فى مرحلة المراهقة ظاهرة التحول الدينى The religious conversion ولقد افترض استاربوك Starbuck منذ وقت مبكر (١٨٩٩) أن هناك علاقة وثيقة بين بداية المراهقة وبين التحول الدينى (١٣) ولكن الدراسات الحديثة لا تؤيد وجود يقظة دينية فجائية فى المراهقة، وتؤكد مثل هذه الدراسات ان نمو الافكار الدينية عملية تدريجية مستمرة تحدث بدون طفرة تصاحب سن البلوغ ، او تدفق او انفجار فجائى يصاحب مرحلة البلوغ . ويتأثر الاتجاه الدينى فى المراهقة بما تلقاه الطفل فى المراحل السابقة من تعاليم دينية ، فكلما كانت هذه التعاليم اكثر ضيقا او اكثر رسمية او صورية كان المراهق اكثر ميلا للابتعاد عن حظيرة الدين .

وليس هناك ادلة لتأييد الفرض القائل بان التغييرات البيولوجية فى البلوغ تؤدى الى حدوث ازمة انفعالية تؤدى بدورها الى اليقظة الدينية religious awakening .

وتكشف الدراسات المبكرة التى اجريت فى حوالى سنة ١٩٠٠م كدراسة استاربوك ان التحول الدينى يحدث فى السن ما بين خمسة عشر وعشرين عاما ، الا ان الدراسات المتأخرة نسبيا (١٤) كدراسة كلارك E.T. Clark سنة ١٩٢٨م حول سيكولوجية اليقظة الدينية اوضحت ان متوسط سن حدوث هذه اليقظة هو ١٢ سنة، وهى سن مبكرة قليلا عن بداية البلوغ ، والاكثر احتمالا ان حدوث اى تكثيف intensification فى الميول الدينية او الخبرة الدينية يرجع الى النضج العقلى intellectual maturation اكثر من البلوغ فى حد ذاته . فلقد وجد هولنجوورث L.S. Hollingworth سنة ١٩٣٢ ان تكثيف الميول الدينية يحدث فى الاطفال الموهوبين عقليا فى سن الثمانى سنوات لاولئك الذين يصل عمرهم العقلى الى اثنى عشر عاما .

ان استعراض التراث السيكولوجى يعكس وجهات نظر متباينة حيال مسألة زيادة او نقص الشعور الدينى فى مرحلة المراهقة ، فتبعا لوجهة نظر جارسون K. Garrison يؤدى نمو دائرة معرفة المراهق ، ونمو عادات افضل فى التفكير الى تساؤل المراهق وتشككه فى كثير من الاشياء او الافكار التى قبلها سابقا دون نقد او تمحيص.

ان شك المراهق يثار عن طريق بعض المبادىء والمعلومات العلمية ، وعن طريق رغبته (١٥) فى اكتشاف نفسه بنفسه ومحاولته ربط العالم مع خطة الحياة العامة وذلك بتفكيره الخاص . ويؤيد جيرسيلد هذه الفكرة بالقول بأن الاطفال يصبحون قادرين على التفكير فى الافكار المجردة عندما يصلون الى المراهقة . انهم يكتسبون فهما اكثر عمقا عن معنى دينهم ، وسوف تزداد قدرة المراهق

---

(١٣) Carmichael, L., Manual of child psychology, J. Wiley, N.Y. 1954, P. 699.

(١٤) Ausubel, D. Theory and Problems of adolescent development Grune and Stratton, N.Y., 1954, P. 270.

(١٥) Garrison, K., Psychology of adolescene, Prentice-Hall, 1955 P. 162.

على اختيـار وفحـص معاني الافكار والعقـائدوالمبادىء والقيم التى سبق له ان قبلها عن طيب خاطر بلا نقد أو تمحيص ، قبلها من الاباء اوالكبار أو المعلمين .

وخلافا لهذا الراى يقول **كول** Cole (سنة١٩٦٤) ان الطفل يبدأ فى التشكك فى كل مظاهر السلطة ورموزهـا authority figures عند بلوغه مرحلة المراهقة وربما يبتعد عن دور العبادة ، ويثور على سلطات الأسرة والمدرسة ،وان كان هناك عدد كبير من المراهقين مايزال يعتبر الدين مصدرا ممكنـا للرضـا والاثارة النفسـية**والانفعالية والعقلية ❋ ، ففى نظره ياخذ كثير من الاطفال بعد** سن الخامسة عشرة فى التفكيرالنقدى فى المسائل الدينية ، وعند وصول مرحلة الرشد يستقر بهم الحال الى وضع غير مبال نسبيا ،وان كان اتجاههم (١٦) هو اتجاه تسامح نحو الديانات الاخرى وارباها (١٧) . اما **اوزابل** B. Ausubel فيرى ان التناقض الدينى تثيره الاكتشافات العلمية فى ذهن المراهق ، وهو تناقض سطحى ، ولايؤثر فى جوهر الايمان الدينى religious faith

ولقـد درس **فورسـتر** J. F. Forrester الاتجاهات الدينية لدى مجموعة من المراهقين تتراوح اعمارهم من ١٣ الى ١٧ سنة ، ووجـدانهم يرغبون فى ان يصبح الدين عمليا ، وانه من الافضل ان تسلك سلوكا صحيحا من امتـلاك العقـائد الدينيـة **الصـحيحة ، وان الخدمات الاجتماعية اكثر اهمية من العبادة ، ووجد ان العناصر** الصوفية فى الدين mystical elements ليس لها الا جاذبية قليلة بالنسبة للمراهقين .

ويمر النمو الدينى فى الفرد بمراحل مختلفة تختلف باختلاف عمر الفرد ، لان فكرة الطفل عن الدين تختلف عن فكرة الراشد الكبير . ففكرة الطفل الصغير عن الله فكـرة مادية مجسـمة مشخصة . وعندما سئل عدد من الاطفال الصغار عن فكرتهم عن الله قالوا : « **انه رجل عجـوز له** لحية بيضاء ، ويلبس ملابس بيضـاء فضفاضة » . اما التفكير الدينى فى مرحلة المراهقة فيمتاز بانه تفكير نقدى ، حيث يلجأ المراهق الى نقد الافكار التى تلقاها من الاباء والمدرسين والكبار فى مرحلة الطفولة ، وكان قد قبلها عن طيب خاطر . وللدين اهمية خاصة فى مرحلة المراهقة ، حيث يلجـأ المراهق للدين لكي يجد فيه مخرجا من مشكلاته ، ولكي يجد فيه السند الذى يحقق له الشـعور بالأمن الذى فقده بسبب الصراعات التى تدور فى نفسـه .

ويفترض بعض علمـاء النفس ان مرحـلة المراهقة مرحلة كفر والحاد ، ولكن يبدو ان التفكير النقدى هو الذى يدفع المراهق لاعادة النظر فى العقائد التى سبق له ان تلقاها ، ويساعده على ذلك زيادة نضجه العقلى وتحرره الفكرى . ولقداجرى جليلاند Gilliland بحثا على الشباب فى سن المراهقة ، وتناول بالاسئلة موضوعات مثل **وجود الله والخلود والمعجزات التى قام بها الانبياء** والحياة الاخرى ، والاعتقاد فى وجود الجنة والنار وفى **وجود الشياطين ، وتبين له ان غالبية الشباب**

---

(١٦) Cole, L. and Holl, IK, Op. Cit. P. 477.

(١٧) Ausubel D., OP. Cit. P. 270.

(❋) يعتبر الدين بالنسبة لكثير من الكتاب والعلماء والفنانين مثيرا عظيما لعبقرياتهم وابداعهم ونبوغهم الفنى .

يعتقدون (١٨) فى صحة هذه المبادىء الدينية ، ولكن هناك نسبة قليلة لا تعتقد ، ونسبة اكثر منها فى حالة تردد وعدم يقين .

وهناك من المفكرين من يعتقد ان فترة المراهقة ليست فترة اضطراب خلقى او دينى . « وعلى النقيض من الفكرة التى كانت تشيع سابقا نجد المراهقين لا يمرون بفترة من ثورة الاضطراب الاخلاقى والدينى ، ولكن المراهقين بالطبع على درجة كافية من الفهم والحكمة بحيث انهم يرون ذلك التناقض الذى يقوم بين المعتقدات المتزمتة من ناحية ، والجانب العقلى من ناحية اخرى ، وهم يتلمسون للحياة معنى وقيمة . وقد تمتلىء نفوسهم فى بعض الأحيان تحمسا وشوقا زائدين الى اعادة تنظيم الكون . ولكن هذه المثل العليا لا تتعارض او تتصارع مع الواقع تصارعا يؤدى الى الارتداد عن الدين او الاضطراب الخلقى . ان النزعات الخلقية والدينية اذا ارسيت قواعدها فى الطفولة تستمر الى المراهقة ثم فى مرحلة الرشد عند غالبية الشبان (١٩)

• • •

النمو الخلقى فى مرحلتى الطفولة والمراهقة

مفهوم الاخلاق :

يتبقى تحديد المقصود باصطلاح «الاخلاق» Morality فهل الاخلاق هى ما يقرره المجتمع حتى ولو كان خطأ ؟ ام ان الاخلاق هى ما يعتبره الفرد عدلا Justice وشفقة Kindness وايثارا Alturism وما الى ذلك من القيم الخلقية المطلقة ؟

لا شك ان مفهوم الاخلاق كمفهوم نابع عن المجتمع هو مفهوم دينامى فى طبيعته ، بمعنى انه يتغير من جيل الى جيل ، ومن مجتمع الى آخر ، وينمو ويتطور او يتعدل .

ويعرف **هادفيلد** J. Hadfield الاخلاق بالقول :

« هناك معنيان عريضان لمصطلح «الاخلاق» احدهما بمعنى الامتثال Conformity لمعايير **المجتمع** norms or mores **وعاداته ، والمعنى الآخر هو اتباع الغايات والأهداف الصحيحة » (٢٠)**

النوع الاول : يجعلنا آليا نتبع العادات ونمتثل السلوك الجماعى ، ونرعى التقاليد

(١٨) Gilliland, A.R., „ Changes in religious beliefs of college students " in J. Soci. psycli,P. 37.

(١٩) جلن مايرزبلر ، ستيوارت جونز ترجمة د. احمد عبد العزيز سلامه ، د. ضياء الدين ابو الحب ، سيكلوجية المراهقة للمربين ، دار النهضة العربية ـ القاهرة .

(٢٠) Hadfield, J., Child hood and adolescene, Penguin Books, 1964 P. 141.

الاجتماعية . وطبقا للمعنى الثانى فان الغايات الصحيحة كالكرم والولاء والامانة تعدخيرة فى ذاتها وينبغى اتباعها بصرف النظر عن عادات المجتمع ومعاييره . (٢١)

والأخلاق بمعنى الامتثال لقيم المجتمع وانماط سلوكه تختلف من مجتمع الى آخر .

ويستخدم احيانا اصطلاح الخلق character ليعنى السلوك الخلقى moral behaviour ولكن اصطلاح الخلق يشير الى درجة التنظيم الخلقى الفعال لكل قوى الفرد . ويشير الى الاستعداد « النفسيفيزيقى » الدائم الذى يقمع البواعث تبعا لمبدأ تنظيمى معين . ومعنى هذا الاشارة الى الاخلاق morality كخلق داخلى يكمن فى داخل الفرد نفسه . وهكذا نرى أن اصطلاح الخلق يشير الى سمات الشخصية اكثر من اشارته الى الأخلاق التى تتضمن قوة ارادية كافية لتوجيه السلوك نحو نوع ما من القيم . وتهتم الاخلاق بنوع خاص بقوى الفرد الارادية واهداف كفاحه واتجاهاته . (٢٢)

ويقصد بكلمة الاخلاق Morality من الناحية السلوكية العادات والتقاليد والآداب والمثل المرعية فى مجتمع ما ، وعلى ذلك فالقيم الخلقية تختلف من مجتمع الى آخر ، كما تختلف فى نفس المجتمع من عصر الى آخر ، وتختلف فى نفس المجتمع وفى نفس العصر باختلاف الطبقات الاجتماعية . فالمبادىء التى تصلح للمجتمع الاشتراكى لا تصلح للمجتمع الراسمالى ، كذلك اخلاقيات المجتمع الديموقراطى تختلف عن اخلاقيات المجتمع الديكتاتورى ، فالفرد الذى يعيش متكيفا فى مجتمع راسمالى يصبح غير متكيف اذا ما نقل الى مجتمع شيوعى مثلا . وطبقا لوجهة النظر « الامتثالية » ما على الفرد الا ان يقبل قيم الجماعة التى ينتمى اليها حتى يعيش فى سلام ووئام معها ، ولكن رغم وجود هذه الفروق الثقافية فى مفهوم الأخلاق الا ان هناك بعض المبادىء الخلقية « المطلقة » العامة التى تصدق فى كل مكان وزمان ، ومنها الصدق والامانة والولاء . . . الخ .

ويعرف الخلق بانه تكامل العادات والاتجاهات والعواطف والمثل العليا بصورة تميل الى الاستقرار والثبات ، وتصلح للتنبؤ بالسلوك المقبل . (٢٣) فالنمو الخلقى لدى الطفل يسير من مجرد الرغبة فى تحقيق اللذة والسعادة الى التقيد بالمبادىء الخلقية والاجتماعية السائدة فى المجتمع الذى يعيش فيه الطفل .

ويتقدم الطفل فى العمر تتحول القوى الرادعة من كونها قوى خارجية اى صادرة من الخارج ، من الآباء والأمهات والمدرسين ، الى ان تصبح قوى ذاتية داخلية هى ضمير الطفل ، ويتكون هذا الضمير عن طريق امتصاص قيم الآباء واكتسابها ، وبذلك تصبح معايير الطفل نفسه .

---

(٢١) راجع كتاب « علم النفس ومشكلات الفرد » للكاتب ، منشاة المعارف بالاسكندرية ، لمعرفة الاتجاهات المختلفة فى تحديد السواء والانحراف .

(٢٢) يختلف معنى الاخلاق بالمعنى السلوكى كعادات فردية وجماعية عن الاخلاق بالمعنى الفلسفى ethrics او كعلم الاخلاق .

(٢٣) دكتور فؤاد البهى السيد ، الاسس النفسية للنمو من الطفولة الى الشيخوخة ، دار الفكر العربى بالقاهرة / ١٩٦٨ .

ويقودنا هذا الموضوع الى التساؤل ايهما تصبح له القيمة العليا والمطلقة : الفرد أم المجتمع؟

فى ضوء الخبرات المستمدة من المجتمعات الديموقراطية والدكتاتورية يتضح ان الأمل الوحيد فى الاصلاح والتقدم يكمن فى النشاط الحر لاعضاء المجتمع . وليس هناك ضرورة لاتخاذ موقف دون آخر فى ايهما تكون له السيادة : الفرد ام المجتمع، اذ الواقع انهما يعتمدان على بعضهما البعض ، وهناك علاقة تفاعل قوية بين الفرد والمجتمع . فصلاح المجتمع من صلاح افراده وصلاح الأفراد يؤدى الى صلاح المجتمع برمته .

ومن الناحية السيكولوجية فان مفتاح الاخلاق هو شعور الفرد بالواجبات والالزام فى كل من الفكر والعمل .

وعلى ذلك فان السلوك الذى يقوم به الفرد خوفا من عقاب المجتمع ليس خلقيا بالمعنى السيكولوجى ، ويصبح خلقيا عندما يصدر عن شعور الفرد بالواجب او بالولاء او العطف او الشفقة او الرحمة او الحب او الشرف وغيرها من الانفعالات المشابهة . ولكن هذه الانفعالات ليس من الضرورى ان تكون صحيحة اجتماعيا ، ذلك لأنها قد تنشأ أصلا من الاخطاء التى يرتكبها المجتمع ضد افراده .

ولا يمكن قبول الافتراض أن الانسان خير محض او شر محض ، انما تسود آراء الكثرة من العلماء بأن فى الانسان الشر والخير معا ، وتفتح هذه الفكرة الآفاق واسعة امام المجتمع ومنظماته التربوية لتنمية الجوانب الخيرة فى الانسان وسيطرتها على جوانب الشر فيه . وتلعب الاساليب التربوية دورا هاما فى توضيح مفاهيم الخطأ والصواب ، وخاصة لدى أولئك الذين يعتريهم الخلط وعدم القدرة على التمييز بينهما . فكثير من الناس ، وخاصة الشباب ، يقفون موقف الحيرة ازاء الوعظ والارشاد من قبل الكبار من ناحية وسلوكهم الفعلى العملى من ناحية اخرى. على ان مجرد المعرفة النظرية بالخير أو الشر لا تتضمن بالضرورة عمل الخير . المهم هو الارادة التى تفعل الخير وتتجنب الشر الى جانب ضرورة توافر الامكانيات البيئية والانفعالية والجسمية لممارسة الخير . فلقد وجد ان قوة الارادة تتأثر بتعاطى الفرد بعض العقاقير . (٢٤)

الانماط الخلقية :

يصنف الناس احيانا الى انماط خلقية مختلفة تبعا لنوع الأخلاق الذى يتبعونه :

١ ــ النمط النفعى The expedient type وفيه يسلك الفرد فقط سلوكا خلقيا للحصول على اغراضه الذاتية .

٢ ــ النمط الامتثالى conforming type وهو النمط الذى يفعل صاحبه مايفعله الآخرون، وما يقولون انه ينبغى عليه ان يعمله .

---

(٢٤) Johnes, V., Character development in children : an objective approach, in Manual of child psychology, ed. by, Carmichael, L., P. 821.

٣ ــ النمط العقلى او النمط ذو الضمير الحى The rational or conscientious type وله معاييره الخاصة الداخلية فى الصواب والخطأ

وتبعا لهذه المعايير يحكم على تصرفاته . وهو نمط ايثارى altriustic ويمثل على مستويات الاخلاق . وله مجموعة من المبادىء الخلقية الثابتة المستقرة والتى توجهه . انه عقلانى وواقعى Realistic فى تقويمه لما هو خير له ولغيره من الناس (٢٥) وهو غير مضطر لعمل كثير من التفسيرات أو التأويلات الخلقية لانه يتبع «حرفية» القانون الخلقى ، اما الشخص النسبى فى مذهبه الخلقى relativist فانه يأخذ فى الحسبان النوايا والدوافع والاصرار او التعمد والنتائج العملية لعمله ، وكما يقول **فروم** E. Fromm **فى ضوء الاخلاق السلطوية تضع السلطة * ما هو** خير للانسان ، وتضع القوانين والمعايير للسلوك ؛ اما فى الاخلاق الانسانية فالانسان نفسه هو موضوع المعايير وهو الذى يضع هذه المعايير ؛ انه مصدر المعايير والمسئول والمنظم ، وهو ايضا الموضوع الذى تنطبق عليه هذه المعايير . (٢٦)

خصائص الفكر والسلوك الخلقى فى الطفولة والمراهقة :

يضاف الى المشاكل السابقة مشكلة عمومية المبادىء الخلقية او خصوصيتها ، بمعنى هل يكون الطفل الأمين فى البيت امينا فى المدرسة وفى النادى وفى العمل وفى الامتحان وفى اللعب وفى جميع المواقف والاماكن ام ان الامانة تتوقف على الموقف الذى يوجد فيه الفرد ومقدار حاجاته الى «الغش» مثلا ؟ وعلى دوافع الفرد وحاجاته ؟ لقد دلت دراسة هارتشون وماى (١٩٢٨) Hartshorne and May على عدم وجود ارتباط ذى دلالة بين الغش فى المدرسة والغش فى المنزل Cheating at home and at school ، ولكننا اذا اخذنا الاخلاق بمعنى الشعور بالذنب لتجنبنا الصعاب الناتجة من الاتجاه الامتثالى السلوكى ، اذ من الممكن ان يخضع الفرد للاغراء Temptation **ومع ذلك يشعر بالذنب نتيجة لامتلاكه معيارا داخليا .**

يسير الطفل فى بدء حياته بمنطق « اللذة » اى انه يميل الى تكرار السلوك الذى يجلب له **اللذة المباشرة ويجنبه الألم . ويتكون ضمير الطفل** عن طريق مجموعة الأوامر والنواهى التى يتلقاها من الوالدين اللذين يقومان بوظيفة الضمير فى بدء حياة الطفل . فالطفل الصغير لا يسرق لأن «ماما» تقول لا تسرق ، ولأن السرقة تغضب « ماما » .

---

(٢٥) Jersild, A., The Psychology of adolescene, P. 368.

(٢٦) Fromm, E., Man for himself : an inquiry for the psychology of ethries, Rinehart, N.Y 1947.

(*) راجع انواع القيادة واثر كل منها على السلوك والشخصية فى كتاب المؤلف « علم النفس الاجتماعى » دار النهضة العربية ــ بيروت .

وهنا ينبغي ان نتساءل عن العوامل التي تؤثر في مجرى النمو الخلقي في حياة الطفل ؟

العوامل المؤثرة في النمو الخلقي :

لقد تساءل كثير من الكتاب : هل يرجع السلوك الخلقي الى الوراثة ام الى البيئة والاكتساب؟ يحتوى التراث السيكولوجي على كلا الاتجاهين اى الاتجاه الوراثي والاتجاه الاكتسابي . ومن بين الدراسات العديدة التي تؤيد العوامل الفطرية في الأخلاق The innate factors دراسة الأسر التي انتشر الجنوح والاجرام بين اعضائها بكثرة كبيرة عبر الأجيال المتعاقبة (٢٧) . ولقد افترض قديما بعض العلماء وجود حس خلقي داخل الانسان، ولكن اذا كان للاخلاق حس مستقل فأين يقع هذا الحس من الجسم ؟ وفي غضون القرن الثامن عشر سادت حركة طبية تفترض انه نتيجة لاصابة الفرد بمرض ما فانه يفقد حسه الخلقي ، بينما تبقى قواه العقلية سليمة ، واطلق على هذه الحالة المرضية اصطلاح الجنون الخلقي moral insanity (٢٨) ويفترض **هنرى مودسلاى** Henry Maydsley أن معظم المجرمين الصغار ضعاف اخلاقيا في القوة الخاصة بتكوين الحدس الخلقي ، وكان يعتقد أن الطفل قد يكون ماهرا عقليا ولكنه اعمى خلقيا ، وان هذا الضعف الخلقي الموروث يبدو انه ينتشر في اسر معينة عبر الاجيال المتعاقبة . ومن ناحية بناء الشخصية وجد أن كثيرا من الاعراض السيكوباتية والعصابية ترتبط بالجنوح (٢٩) وكان **لمبوردزو** Cesare Lombroso يعتقد بوراثية الاجرام . ويعتقد بعض الناس بأن الطفل يولد مزودا بضمير معين يساعده على التمييز بين الصواب والخطأ ، بل يزعم البعض أن الطفل يرث بعض السمات الخلقية المحددة كالأمانة والصدق ، ولكن هذه الفكرة تخلص الآباء والمعلمين من مسئولياتهم ازاء تربية الطفل تربية خلقية سليمة حيث لا يعزون السلوك غير المرغوب الى فشلهم وانما الى نقص وراثي او فطرى لا يمكنهم التغلب عليه .

ولكن الضمير في واقع الامر يتكون خلال الشعور بالالتزام او بالواجبات الاجتماعية ، تلك العمليات التي تحول الضبط الخارجي الى ضبط داخلي (٣٠) . **يقول وليم مكدوجل** McDougall مؤيدا الاتجاه الوراثي للعقل البشرى : ان هناك نزعات فطرية او موروثة هي المنابع الاساسية او القوى الدافعة لكل من الفكر والسلوك ، وهي الاساس الذى تنمو عليه خلق وارادة الافراد والأمم بالتدريج تحت توجيه الملكات العقلية (٣١) .

(٢٧) Kanner, L., Child Psychology, Charles C., Thoms, U.S.A. 1957, P. 679.

(٢٨) Burt, C., The Young delinquent, univ. of London, Press, 1957 P. 34—40.

(٢٩) Ibid.

(٣٠) Hawkes, G.R., Behaviour and development from 5-12 Harpers and Brothers, N.Y. 1962, PP. 122.

(٣١) لم تعد فكرة الملكات مقبولة في الفكر السيكولوجي الحديث واصبح ينظر للعقل البشرى على انه وحدة .

اما **فرويد** Freud فيرى ان غريزتي الجنس والمحافظة على الذات هما العنصران الاساسيان في الدافعية الانسانية human motivation وتتضمن غريزة المحافظة على الذات ، من بين ما تتضمن حماية معايير الفرد الخلقية والاجتماعية ويفترض آدلر Adler وجود نزعتين مسئولتين عن ارتباط الانسان بأخيه الانسان ، وهما :

١ ـ الرغبة في القوة الشخصية والسمو .

٢ ـ الشعور الاجتماعي .

ولكن مثل هذه الاتجاهات التي تختزل الدافعية الانسانية في شكل عامل أو عاملين تبالغ في تبسيط التنظيم الدافعي في الانسان .

وتدلنا الدراسات الانثروبولوجية التي تناولت بعض المجتمعات البدائية على ان القيم الخلقية ليست عالمية ، ومن ثم ليست موروثة ، وعلى سبيل المثال فان مجتمع الارابيش Arapash ليس في حاجة الى كثير من الوسائل التربوية التي تروضه على ممارسة السلوك الخلقي ، وانما يظهر هذا المجتمع كثيرا من مظاهر الايثار والتضحية(٣٢) تلقائيا .

وفي مجال تأييد وجهة النظر الوراثية في نمو القيم الخلقية ربما تشير الى الفروق الملاحظة بين **الذكور والاناث في الاخلاق** . فلقد وجد ان الاناث اكثر تأثرا بالنداء الانفعالي في الحياة الدينية ، بينما الذكور اكثر جذبا بالشرف والعقاب الخلقي والنشاط الاجتماعي . وبالنسبة للعدوان فلقد اعطى **بايز وماريكارد** Bize and Maricard (١٩٣٧) حقنا من الهورمون المنشط للذكور لعدد من الصبيان الصغار ووجد زيادة واضحة في العدوانية في كل العلاقات الاجتماعية . كذلك اعطى كلارك وبرش Clark & Birch هرمونات ذكورة وانوثة لفرد ذكر ، ووجد ان الهرمون الذكرى يؤدي الى زيادة السيطرة الاجتماعية عند الحيوان ، وان الهرمون الانثوي يؤدي الى خضوع الحيوان ، ويؤكد هذا فكرة زيادة النزعات العدوانية في الذكور عنها في الاناث . وفي مجال الفروق الجنسية في الأخلاق ايضا هناك ما كشفت عنه دراسة تيودور ـ هات Tudor-Hart حيث وجد ان الاناث يلقين اكثر من الذكور كثيرا من الأكاذيب التقليدية مثل : امي ليست في المنزل (٣٣)

أنا سعيدة لرؤيتك .

لقد قضيت وقتا ممتعا في حفلتكم !

مثل هذه الاكاذيب اعتبرتها نسبة اكبر من البنات عن البنين «ضرورية» كذلك اعتبرت نسبة اكبر من البنات الاكاذيب الاجتماعية « ضرورية» (نسبة ٣٢ ٪ في مقابل ١٨ ٪ من الذكور) ومن

---

(٣١) Mead, M., **Sex and temparament in three primitive societies,** Routledge and Kegan Paul, 1948, P. 137.

(٣٢) Jones, V., OP. cit.

امثلة الاكاذيب الاجتماعية « الكذب للاحتفاظ بالاسرار » و « الكذب حماية من الغرامة » وما الى ذلك . وفى دراسة شيلى Sheelly (١٩٣٨) التى تناولت ٨٠٠ طفل تتراوح اعمارهم من ٩ الى ١٦ سنة وجد الذكور اكثر عدوانا وسيطرة واقل خوفا واكثر تفاخرا عن الاناث اللائى كن اكثر شكا وخيالا ، واكثر خضوعا وطاعة للضوابط الاجتماعية ، ولقد وجدت نسبة الذكور الى الاناث فى الاحداث الجانحين الامريكيين تساوى ٦ ــ ١ .

ولكننا يجب ان نلاحظ ان هناك فروقا كبيرة فى نوع الجرائم التى يرتكبها افراد كل جنس ، كذلك هناك فرق فى المستويات الخلقية التى يضعها المجتمع على افراد كل جنس . فالمعروف ان الاسرة اكثر تسامحا فى قبول المخالفات التى يرتكبها الولد الذكر . كذلك فانه يفترض ان الاب ــ اكثر من الأم ــ هو الذى يمثل السلطة الخلقية الرئيسية فى الأسرة ، وانه ايضا الموضوع الخلقى الذى يتقمصه الولد والبنت على حد سواء . ان الاب اكثر تمثيلا للمعايير الاجتماعية ، وهو اكثر قدرة على القيام بعملية الضبط والربط فى الاسرة .

وفى هذا الصدد افترض فرويد ان الذات العليا او الضمير فى النساء اضعف منها فى الرجال . ويرجع السبب فى ذلك الى بقاء البنات مدة اطول من البنين فى مرحلة جمود عقدة الكترا Electra *.

وخلافا لوجهة نظر فرويد هذه يعتبر تيرمان وتيلور ان البنات يمتثلن اكثر من البنين لقواعد الاباء والسلطة . كذلك تعانى البنات من مشاكل مدرسية ومنزلية اقل من البنين ، وان نسبة جنوح الاحداث بينهن اقل من مثيلتها عند البنين . وفى دراسة ثرستون وكيف Thurstone and Chave عن الاتجاه نحو الكنيسة وجد ان النساء اكثر استعدادا للذهاب للكنيسة من الرجال . (٢٤)

ويرى فرويد Freud ان الاحساس بالعدل وغيره من القيم الخلقية اقل فى النساء منه فى الرجال ، ويرجع ذلك فى نظره الى طرق تكوين الذات العليا عندهن ويقول فرويد : « ان السمات الخلقية التى اثارها النقاد فى كل الازمنة ضد النساء ــ اى ان احساسهن بالعدل اقل من احساس الرجال ، وانهن اقل استعدادا للخضوع لضرورات الحياة الهامة ، وانهن اكثر تأثيرا فى احكامهن بمشاعر الحب والعداوة ــ كل هذا يفسر بالرجوع الى التعديلات التى تحدث فى تكوين ذواتهن العليا » .

ويبدو ان تعاطف الاناث ينتج من جوانب شخصية اكثر من المبادىء والقيم المجردة . وفى هذا الصدد يقال ان النساء يتاثرن فى الاحكام الخلقية والجمالية بالأسلوب وبالشعور اكثر من التاثر بالعقل .

---

(٢٤) Thrustone, L. and Chave. E., The measurement of attidutes. The University of Chicago Press, 1951.

(*) تشير هذه الحالة الى ارتباط الفتاة بابيها مع كراهية الام والشعور بالغيرة نحوها ، وتقابل عقدة اوديب فى الطفل الذكر التى تشير الى ارتباط الطفل جنسيا بامه والغيرة من الاب وما يصحب ذلك من شعور بالذنب والصراع الانفعالى لدى الطفل .

ولقد وجهت انتقادات عديدة لفكرة وراثية الاخلاق ، فعلى سبيل المثال ، وجد هارتشسون وماى ان الامانة تختلف باختلاف المواقف . فالطفل قد يكون امينا فى المدرسة خائنا فى المنزل . ويؤكد الاتجاه البيئى فى نمو الاخلاق دور الاسرة والمدرسة والمسجد والكنيسة او الجماعات البشرية ، كجماعة الاصدقاء والزملاء والحركة الاجتماعية ووسائل الاعلام والاتصال الجماهيرى كالراديو والتلفزيون والسينما والمسرح والصحف والمجلات **مما يؤكد اثر المنزل على الاخلاق** ، ما وجد فى احدى الدراسات من ان ٨٧٪ من الاناث الجانحات اتين من بيوت محطمة ، حيث يقل تاثير المنزل ، وتقل فرص تدريب الطفل على السلوك الخلقى .

وفى دراسة اخرى وجد ان ضعف التدريب والتاديب كان سببا فى ٩٠ ٪ من الانحرافات السلوكية . ولا شك ان الطفل يبنى مفهومه عن الصواب والخطأ من الأمثلة التى يتلقاها من الكبار الراشدين . ولقد وجدت معاملات (*) ارتباط كبيرة نسبيا بين فكرة الاطفال عن الصواب والخطأ وبين افكار الكبار المحيطين بهم وكانت معاملات الارتباط كما يلى :

	معامل الارتباط
الاطفال والاباء	٥٥ر٠
الاطفال والاصدقاء	٣٥ر٠
الاطفال ومعلمو الاندية	١٤ر٠
الاطفال والمدرسون	٠٦ر٠
الاطفال ومعلمو مدارس الاحاد	٠٠٢ر٠

ويبدو ان الاباء لهم اكبر قدر من التاثير فى تكوين مفهوم الطفل عن الخطا والصواب . ولقد تبين انه كلما زاد اتصال الطفل التصاقا بالكبار زاد تاثيرهم عليه وعلى سلوكه ، وتلعب علاقات الحب والعطف والحنان والدفء دوراهاما فى تنمية الضمير القوى فى الأطفال .

فاسلوب التربية القائم على اساس الحب هو الذى يؤدى الى تنمية الضمير . اما الحماية الزائدة او الخضوع لرغبات الطفل المبالغ فيها فانهما يؤديان الى زيادة نزعات الطفل نحو العصيان والطغيان والمبالغة فى المطالب . اما الاطفال الذين خضعوا لسيطرة الأمهات والتحكم الزائد والتانيب المبالغ فيه والذين كانوا يمنحون المكافأة لخضوعهم التام ، اصبحوا منسحبين وخجولين . (٣٥)

ويعتبر المنزل من اقوى المؤسسات الاجتماعية فى نقل ثقافة المجتمع الطفل ، انه يكمل وظائف المؤسسات الاجتماعية الاخرى كالحكومة والمدرسة والمسجد . بل انه يبدأ فى « عمله هذا » قبل ان يبدأ الطفل فى الاحساس بدور هذه المؤسسات . كذلك تلعب المدرسة دورا هاما فى

---

(٣٥) Mussen, P.H., Op. Cit ; P. 356.

(*) يعرف معامل الارتباط بانه تحديد احصائى لكم وكيف العلاقة بين متغيرين او اكثر .

نمو السلوك والقيم الخلقية في الطفل ، فلقد لوحظ ان السلوك الخلقي للاطفال يتدهور عندما تضعف الادارة المدرسية .

ولكي يمارس الطفل السلوك الصواب لابد من معرفة الصواب والخطأ والتمييز بينهما ، وليس هذا التمييز امرا سهلا ، اذ يختلف الافراد في تقدير الصواب والخطأ . ففي احدى الدراسات قررت ٩٠ ٪ من مجموعة من الاطفال الصغار أن ٩ مواقف من مجموع ٦٤ موقفا مدرسيا هي **مواقف صحيحة أو صواب** ، وعندما **حكم المدرسون** على هذه المواقف قرروا ان ١٢ موقفا صحيحا فقط ، وقرر هذه النتيجة ٩٠ ٪ من المدرسين ، وعلى الرغم من ان المعرفة النظرية بالصواب والخطأ لا تضمن بحد ذاتها ممارسة الصواب وتجنب الخطأ الا ان المعرفة مهمة ، لأن الفرد لا يختار الصواب في موقف لا يعرفه ، اللهم بمحض الصدفة البحتة . (٣٦)

ومن العوامل المؤثرة في السلوك الخلقي ارتياد اماكن العبادة ، فلقد وجد ان الخبرة الدينية اثرا كبيرا على النمط القيمي للاطفال والشباب . ولقد وجد « هارتشون وماي » ان مقدار الغش يقل بارتياد الكنيسة . كذلك وجد ان الاطفال الذين يرتادون الكنيسة يحصلون على درجات اعلى في اختيار « مساعدة الشيء » او النزعة نحو مساعدة الاخرين .

وبالنسبة **لاثر المجتمع** او الحياة الاجتماعية ككل يقول عالم الاجتماع الفرنسي **دوركايم Durkheim** « ان الحركة الاجتماعية العظيمة هي التي تخلق الجريمة . ففي الماضي كان الناس يرتبطون بروابط وثيقة باسرهم التي كانت توحد وتضبط سلوكهم . » (٣٧)

ولقد ادى **النمو الاجتماعي** الى النزوح للمدن الكبرى وتحطيم الروابط الاسرية القديمة ، واصبحت الوظيفة او المهنة تمارس بعيدا عن دائرة الاسرة ، ولقد تحللت القيم القديمة دون ان يبتكر غيرها ، فاصبح هناك فراغ قيمي يحتوي الفرد المعاصر . لقد اصبح ابناء المجتمع الحديث **اكثر عزلة وانسحابا ومن ثم ضعف التاثير الاجتماعي** عليهم .

كذلك تؤثر **الطبقة الاجتماعية** على نوعية الأخلاق التي تنمو في الطفل ، فلقد وجد ان اطفال الطبقات الاجتماعية والاقتصادية الدنيا اكثر تسلطا في اتجاهاتهم ، فقد طالبوا بانزال العقاب ، كعلاج لعمل الخطأ اكثر من اطفال الطبقات العليا . ولقد وجد ان اطفال الطبقات الدنيا ينظرون للسلوك **في ضوء الصح والخطأ** ، بينما يحكم اطفال الطبقات العليا على السلوك طبقا لنتائجه العملية . كذلك وجد ان اطفال الطبقات الاجتماعية الدنيا كانوا اكثر قبولا وتسامحا ازاء الافعال الخاطئة ، وذلك بالمقارنة باطفال الطبقات العليا ، وعلى سبيل المثال عندما سئلوا عما اذا كان « السكر » خطأ ، كانت هناك النسب المئوية الاتية التي اقرت ان السكر خطأ :

اطفال الاحياء الشعبية القذرة ٥ ٪

---

(٣٦) Ibid

(٣٧) Ibid

اطفال مناطق نصف قذرة	١١٪
اطفال الطبقة الاجتماعية المتوسطة	٢٠٪
اطفال الطبقة الاجتماعية العليا	٣٤٪

ولقد فسر هذا بان ابناء المناطق الشعبية المتدنية المستوى اكثر الفة مع السكر من زملائهم من ابناء الطبقات العليا .

ويقترح **بريكنردج** Breckenridge العوامل الآتية كأساس للنمو الأخلاقي الجيد :

١ ـ صحة جسمية جيدة لمقاومة الاغراء ، وللتحرر من الشعور بالمرارة او النقص ، ومن وجود دوافع الانتقام .

٢ ـ الأمان الانفعالي لامكان الشعور بالحب تجاه الآخرين .

٣ ـ توفر وظيفة مناسبة ومنافذ للتعبير او التعريف .

٤ ـ تدريب مستمر في التحكم والضبط الذاتي للمساعدة في التخلص من البواعث الطفلية .

٥ ـ وجود افق اجتماعي مستمر الاتساع لتنمية القدرة على اكتساب المعارف ، وعلى التسامح وعلى التعاطف ، وعلى الفهم وتنمية الرغبة الاصيلة لتقدير حقوق وواجبات الناس الآخرين .

٦ ـ **الطموح** نحو الرغبة القوية في عمل الصواب ، بحيث يجد الفرد الشعور بالرضا والسعادة نتيجة لعمل الصواب . وفي الغالب ما ينمو هذا الطموح نتيجة للتعاليم الدينية. (٣٨)

ولايمكن تخيل حدوث النمو الخلقي بمحض الصدفة ، بل انه يحتاج الى جهود واساليب مدروسة ، ويتطلب تخطيطا دقيقا للمواقف التي تضمن التعاون والضبط الذاتي ، وتمو روح الجماعة . كذلك ينبغي لتشجيع الطفل على تعميم المبادىء الخلقية ، ويمكن اشراك التلاميذ في مشروعات خدمة البيئة لتنمية الشعور بتحمل المسئولية وتقدير الصالح العام وحمايته . والى جانب المؤثرات الخارجية ففي مرحلة المراهقة توجد دوافع داخلية نحو التعاون ونحو تقدير العدالة ونمو الشعور **بالولاء للجماعة ولقواعدهم** وغير ذلك من المبادىء السلوكية المثالية . ففي المراهقة تنمو النزعات المثالية والنزعة نحو اصلاح العالم ونحو البذل والتضحية الذاتية ، وينبغي توجيه هذه المثالية نحو السلوك الخارجي الحقيقي كما ينبغي اشعار المراهقين بانهم مرغوبون ومطلوبون كما ينبغي ان يجدوا المنافذ الايجابية البناءة لتصريف طاقاتهم الزائدة . واخيرا فاننا في معرض الجدال بين تأثير البيئة والوراثة ، ينبغي ان نؤكد بان **الانسان يتأثر بكل من البيئة والوراثة معا** ؛

---

(٣٨) Breckenridge, M. and Vincent, E. Child development, W.B. Senders Co., 1949, PP. 488

وان العلاقة بين البيئة والوراثة هي علاقة تفاعل،اى تاثير متبادل قوى ، ولكننا ينبغى ان نضع مزيدا من الاهمية للعوامل البيئية، لان ذلك سوف يوسع من مقدرتنا على مساعدة الاطفال نحو النمو الجيد ، والايمان بامكان اصلاح الاعوجاج . ان ارجاع السلوك الانساني الى العوامل الوراثية وحدها يضيق من امكانية تعديل السلوك المنحرف وتوجيهه نحو الصواب . ولاشك ان ما يولد به الطفل من استعدادات وامكانيات يمكن صقلها وتشكيلها وتوجيهها وحسن استغلالها عن طريق الخبرات التى يمر بها الطفل ، والفرص التى تتاح له ، والاشراف الذى يلقاه .

المثال والقدوة :

كيف يختار الطفل الصغير مثاله الأعلى الذى يقتدى به ؟

نتيجة لالتصاق الاطفال الصغار بآبائهم فانهم يختارون منهم مثالهم الاعلى . وفى احدى الدراسات وجهت للأطفال الاسئلة الآتية :

١ ـ من هو الشخص الذى تعجب به اشد الاعجاب ؟

٢ ـ من هو الشخص الذى ترغب ان تشبهه من هؤلاء الناس الذين تعرفهم او سمعت او قرات عنهم ؟

ولقد اختار الاطفال الصغار (سن ٦ ـ ٧ سنوات) مثالهم الاعلى من بين افراد الدائرة الضيقة لمعارفهم كالآباء والأمهات . وعلى حد قول النبى : « بازدياد السن تتسع خبرات الطفل، وبذلك يصبح الاشخاص الذين يختارهم الطفل مثالا اعلى من بين الاشخاص الذين قرأ عنهم فى التاريخ او فى الادب او فى الانجيل ، او من بين الشخصيات العامة الشهيرة . (٣٩)

على كل حال وجد انه بعد سن الثالثة عشرة يعود الطفل للاختيار من دائرة المعارف المقربين . ومن المعروف انه بالتقدم فى السن ينمو اتجاه التسامح نحو المذاهب الدينية المختلفة وارباها ، كما تنمو نزعات الشك والنقد تجاه العقائد الدينية التى تعلمها الطفل من قبل .

ولقد وجد معامل ارتباط سالب بين عامل العمر الزمنى وبين قبول المعتقدات الدينية .

كذلك كلما تقدم المراهق فى السن زاد قدرة على التفكير فى الامور المجردة ، وكلما قلت نزعته نحو « الاخلاق الموضوعية » او الواقعية او المطلقة حلت محلها الاخلاق النسبية ونمت نزعات التحرر والمرونة فى وجهات النظر .

• • •

(٣٩) Valentine, C., The Normal child and some of his abnormalities, Penguin Books, P. 201

مراحل النمو الخلقي :

على الرغم من اننا نستطيع ان نحدد مراحل معينة للنمو الخلقي ، الا ان النمو الخلقي ، كغيره من مظاهر النمو الاخرى ، يحدث تدريجيا لا فجائيا ، وليس هناك انتقال فجائي او طفرى من مرحلة الى اخرى ، فالطفل لا يتحول من الطفولة الى المراهقة بين عشية وضحاها ، بل انه من الممكن ان يحدث نوع من النكوص regression **او الارتداد من مراحل متقدمة الى مراحل سابقة** عندما يتعرض الفرد لصعوبات نفسية حادة ، فالنمو لا يسير باستمرار في خطوط مضطردة . كذلك هناك فروق فردية واسعة individual differences في الوصول الى اى من هذه المراحل ، ولاتوجد فواصل حاسمة فاصلة وقاطعة بين هذه المراحل، ولكنها تتداخل فيما بينهما(٤٠) ففي المراهقة تظل هناك رواسب من الماضي الطفولي وفي الشباب تبقى بعض سمات المراهقة . ويصف **جيرسيلد** Jersild حركة الانتقال من مراحل اقل نضوجا الى المراحل الاكثر نضوجا في النمو الخلقي بما يلي :

١ ـ المفهوم العام لما هو صواب ولما هو خطأ يحل محل القواعد النوعية المحددة .

٢ ـ المعايير الداخلية تحل تدريجيا محل الطاعة للاوامر والنواهي الخارجية .

٣ ـ زيادة فهم (قواعد المباراة) نتيجة الاحترام المتبادل والموافقة اكثر من كونه نتيجة لطاعة الاوامر التعسفية .

٤ ـ نمو قدرة متزايدة واستعداد اكبر لاخذ الظروف المحيطة بالسلوك الخاطيء في الاعتبار بدلا من الحكم الآلي على العمل الخلقي .

وبالنسبة للسلوك الانساني ككل يمكن النظر اليه على انه يسير تبعا لمستويات اربع يمكن أن تتخذ دليلا على النمو الخلقي للطفل ، هذه المستويات هي :

١ ـ السلوك غير المتعلم او السلوك الغريزي يتعدل بالنتائج الطبيعية للسلوك ، ومن امثلة ذلك تعلم الطفل تلقائيا الا يصدم راسه ضد الاشياء الحادة او الساخنة .

٢ ـ الثواب والعقاب كما يمارسهما الآباء والمعلمون وغيرهم من الكبار ، اى الضوابط الخارجية .

٣ ـ القبول وعدم القبول الاجتماعي وخاصة من قبل الجماعة التى ينتمي اليها الطفل .

٤ ـ الايثار حيث تحرك الفرد وتسيره الرغبة في عمل الخير العام ، ويمثل هذا اعلى المستويات الخلقية .

---

(٤٠) د. عبد الرحمن عيسوى ، معالم علم النفس ، دار المطبوعات الجامعية ـ الاسكندرية .

وفى الطفولة المبكرة يكون سلوك الطفل ليس خلقيا أو لا اخلاقيا . ان حاجات الطفل الرضيع تشبه حاجات الحيوان ، بمعنى انها فيزيقية حسية ومباشرة، فيحاول ان يحصل على الاشباع المباشر لحاجاته وان يتجنب الالم . وفى محاولاته لاشباع حاجاته يكون الطفل الصغير انانيا متسلطا ومن خلال شعوره بالدفء والبرد والامتلاء والفراغ يحصل الطفل الصغير على الشعور بالخبرات الجيدة والخبرات (٤) الرديئة .

ولقد ميز **بياجيه** Piaget بين نوعين من الأخلاق :

١ – النوع الاول الذى يظهر مبكرا ، او هوما اطلق عليه اصطلاح (الاخلاق الموضوعية) objective morality وهنا تكمن الصحة والخطأ فى بعض مظاهر السلوك ، ويمكن ادراكهما موضوعيا ، **وهما بينان او واضحان بذاتهما ، فالطفل الصغير يعتقد ان اى شخص يستطيع ان** يدرك خطأ اخذ اى شيء يخص الغير او يخص شخصا آخرا ، وتبعا لراى بياجيه فان الاطفال فى سن الثمانى سنوات يحكمون على اى سلوك تبعا لنتائجه بصرف النظر عن الدوافع او النوايا التى تكمن وراء السلوك . وعلى ذلك فالطفل الذى كسر عرضا او مصادفة او قضاء وقدرا ،عشرة اطباق هو اكثر « شقاوة » او خطأ او مشاغبة من ذلك الطفل الذى كسر عامدا متعمدا كوبا واحدا . وبمرور الزمن يصبح الطفل قادرا على استيعاب الافكار المجردة حول الخير والشر بوجه عام .

ويعتقد بياجيه ان هناك انتقالا من الضبط الخارجى ومن الواقعية الخلقية الى النسبية الخلقية .

حيث يصبح حكم الطفل الخلقى نسبيا وليس حرفيا . يبدا الطفل فى تكوين فكرته عن الصواب والخطأ عن طريق اكتشافه ان اشباع حاجته فى الحب والدفء **لا يتاتى الا عن طريق** ارضاء امه ، وعن طريق الحصول على موافقتها ،وهنا يضع الأسس الاولى نحو التعامل مع الناس، فموافقة او رفض الآباء تمثل الجذور الاولى للمعايير الخلقية . وفى دراسة هارتشون وماى وجد ان الاطفال من سن تسع سنوات يعملون طبقا للخير العام **ويتعاونون فيما بينهم** وتثيرهم دوافع الاحسان .

ويقرر **الج** Ilg ان الطفل عند سن ثمانى سنوات يستطيع أن يميز بين الخطأ والصواب والخير والشر ، وفى الفترة ما بين ٥ ، ٧ سنوات تحدث زيادة فى السلوك التعاونى وفى ادراك حقوق الآخرين .

وعلى الرغم من ان الجنوح يزداد انتشاره فى مرحلة المراهقة ، الا ان جذوره الاولى ترجع الى الطفولة المبكرة ، ولاشك ان النمو الداخلى الخلقى عامل اساسى محدد فى ازالة السلوك

(٤) Ingleby, A., Towards maturity, Robert Hale, Ltd., London, P. 37, 1966.

الجانح. فى الطفولةالمبكرة لايدركالطفل الصراع(*)بين الامانة والولاء للاصدقاء . وكلما تقدم الطفل فى السن كان اكثر وعيا وادراكا لهذا الصراع ،وكلما تقدم الطفل فى السن ايضا كان اكثر قدرة على ادراك المطالب الثقافية والتوقعات الاجتماعية .

اما عن تطور الحكم الخلقى عند الطفل ،ففى مرحلة الطفولة المبكرة يسير الطفل حسب ما اسماه بياجيه « الخلقية الموضوعية » ومعنىذلك ان العالم عبارة عما نشاهده فقط ، وليس هناك وجهات نظر متعددة ، وليس هناك نسبية؛ فالاشياء اما بيضاء او سوداء ، صواب او خطأ ، فعلى قدر فهم الطفل فان الآباء فى نظره يعرفون كل شىء ، فاذا قالوا ان هذا خطأ فانه خطأ ،فكل ما يقوله الآباء او يفكرون فيه فهو صواب .

فالاطفال يحكمون على الاشياء حكماموضوعيا ، اى دون اخذ الدوافع فى الاعتبار ، تلك الدوافع التى دفعت الطفل نحو هذا السلوكودون اعتبار للظروف المحيطة والملابسات ، بل يتبعون « حرفية النص الخلقى » او حرفيةالقاعدة فى العابهم . فالعقاب يتناسب مع حجم الخسارة المادية التى احدثها الطفل ، وليس وفقالدوافع الطفل او نواياه او « سبق الاصرار والترصد » .

وعلى كل حال طبقا لمنطق بياجيه فان الطفلبالتدريج يتعلم ان القواعد الاخلاقية التى يضعها الكبار ليست مطلقة ، وبذلك يمكن تعديلها لكى تناسب الظروف المحيطة بموقف معين .

فى المراحل المتقدمة تظهر المرونة فى الاحكام الخلقية ، وعندئذ يدرك الطفل ان القاعدة الخلقية يجب ان تتعدل طبقا للظروف ، بحيث تحقق الصالح العام والخير الاكثر ، فالطفل الذى تأمره الاسرة بالعودة فورا بعد الخروج من المدرسةوالذى ينفذ ذلك فى حالة تعطل المواصلات العامة « بالشعبطة » فى احدى سيارات النقل ، وبذلكيعرض حياته لخطر الموت فى سبيل تنفيذ تعليمات الاسرة يلقى عقابا غير مفهوم بالنسبة له ، ففىهذه المراحل المتأخرة يدرك الطفل ان الحكمة فى طاعة القوانين والقواعد الخلقية تكمن فى تنفيذروح القانون اكثر من حرفية القانون . (٤٢)

علاقة الذكاء بالأخلاق :

فى بعض الدراسات وجد ان نسبة ذكاءمجموعة من الاطفال الاحداث الجانحين هى ٩٢ر٥ بينما كانت نسبة ذكاء مجموعة مماثلة من غيرالاحداث الجانحين ١٠١ر٨ ، الا ان انخفاض الذكاء ليس عاملا اساسيا فى حدوث معظم حالاتالأحداث (٤٣) الجانحين .

(*) يشير الصراع لحالة نفسية فيها تتجاذب الفرد بين هدفين او مثيرين قد يكون احدهما مثيراجيدا، والآخر ضارا ، او كلاهما ضار او كلاهما خير كصراع الفرد بينالرغبة فى الثراء والخوف من العقاب او تأنيب الضمير . وهناك صراع الاقبال ـ الاحجام ، وصراع الاقبال ـ الاقبال ،وصراع الاحجام ـ الاحجام .

(٤٢) Breckenridge, M.E. and Vincent, E.E. Child development physical and Psychological growth through the school years, W.B. Sounders Co., London, 1949.

(٤٣) Brooks, A., Child psychology, Methuen and Co., London, 1951, P. 409.

لقد أجرى عدد كبير من الدراسات لتحديدكم وكيف العلاقة بين الذكاء والاخلاق . وفي مثل هذه الدراسات يقارن الاطفال أصحاب الذكاءالمرتفع بالاطفال متوسطي او ضعيفي الذكاء ، يقارنون في مستوياتهم الخلقية . ففي احدى الدراسات التي أجراها **تيرمان** Terman على٥٣٢ طفلا ذكيا تزيد نسبة ذكائهم عن ١٣٠ وجد انهم يتفوقون في السلوك الخلقي على المجموعةالضابطة من الاطفال من ارباب الذكاء المتوسط . ولقداستنتج تيرمان انالاطفال المتفوقين عقليا يتفوقون من الاطفال متوسطي الذكاء على اختباراتالامانةوالصدق والسمات الخلقية المشابهة . وهنا يجب ان نتحفظ في تفسير هذه الفروق وارجاعهاالى الذكاء وحده ، ذلك لان احدا لايستطيع ان ينكر تاثير البيئة المنزلية وغيرها من العواملالاجتماعية على الانحراف وعلى النمو الخلقي . لقد درس تاثير الذكاء على المستوى الخلقي عنطريق مقارنة نسبة الاطفال ضعاف العقول بين جماعات الاحداث الجانحين . وعلى سبيل المثالوجد بيرت Burt ٨ ٪ فقط من الاطفال ضعاف العقول بين الاحداث الجانحين (نسبة ذكاء أقلمن ٧٠ ٭) ولقد وجد كل من هيلى وبرونر في دراساتهما عن الاحداث في شيكاغو وبستون ١٣ ٪ من ضعاف العقول ، اما هذه النسبة في المجتمع العام فلا تتجاوز ١½ ٪ . (٤٤)

وفي نفس الوقت وجدت نسبة الجنوح الىالصحبة السيئة عند ٦٢٪ من الحالات . كذلك وجد هارتشون وماى معامل ارتباط قدره (٥٠ر٠) بين الذكاءوالغش،بمعنى انه كلما زاد الذكاء قل الغش ، وكلما قل الذكاء زاد الغش . ويبدو ان تاثير الذكاء على الاخلاق نوعيا اكثر من كونه تاثيرا عاما ، فالاطفال الاكثر ذكاء كانوا أكثر تعاونامن الاطفال الاغبياء والمتوسطين ، ولكن العلاقة بين الكرم والذكاء كانت ضعيفة ، أما العلاقة بينالامانة والذكاء فكانت عالية (٤٥) .

وفي أحدى الدراسات وجد ان طفلالتسع سنوات الموهوب عقليا يصل الى مستوى نمو خلقي يعادل طفل الرابعة عشرة من الاطفالغير المنتقين .ولكن الذكاء يساعد في سرعة حدوث النمو مهما كان الاتجاه الذي يتخذه هذا النمو ،تماما : اخلاق حسنة أو « جرائم خطرة » . كذلك فلقد وجد ان الاطفال الاكثر ذكاء أقل غشا في امتحاناتهم ، ولكن ليس ذلك بالضرورة لانهم اكثر خلقا ؛ بل ربما لأنهم اكثر قدرة على حلاسئلة الامتحان بدون اللجوء الى الغش . ويبدو منطقيا أن نقول ان الطفل الذكي والطفل الغبييختلفان في قدراتهما على التنبؤ بنتائج أعمالهما ، كما يختلفان في قدراتهما على الرؤية البعيدةللمزايا البعيدة في الاهداف المرتقبة ، وتفضيل ذلك على الاشباع المباشر لحاجاتهم الراهنة .

٭ من المعروف ان نسب الذكاء ١٠٠ تشير الىالطفل متوسط الذكاء وهو الطفل الذي يساوي عمره العقلي عمره الزمني .

(٤٤) Jones, V., Op. Cit. P. 793.

(٤٥) راجع كتاب المؤلف « القياس والتجريب فيعلم النفس والتربية » دار النهضة العربية ـ بيروت لتحديد معنى الارتباط والعلية والفرق بينهما .

وكلما زاد ذكاء الفرد كان اقدر على اختيار العناصر الصالحة من بيئته وعلى تشكيلها وتسخيرها بما يخدم اغراضه . كذلك لا يتعلم الذكى والغبى بالتساوى حتى من نفس الموقف، او من نفس البيئة ، والمفروض ان يساعد الذكاء الفرد على الاستفادة من بيئته الى اقصى حد ، وعلى تعديلها اذا كانت غير موائية ، وعلى تكييف نفسه للمواقف الجديدة . ولقد دلت دراسة تيرمان ان الاطفال الموهوبين يتفوقون على الاطفال المتوسطين في السمات والقيم الموجهة نحو النجاح الذاتى اكثر من السمات والقيم الموجهة نحو المسئوليات والخدمات الاجتماعية، فالملاحظ ايضا ان الاذكياء يرتفع عندهم مستوى الطموح، وتفوقت المجموعة الموهوبة على المجموعة المتوسطة تفوقا اكثر دلالة فى الارادة والمثابرة ، وتفوقت اقل فى المشاركة الوجدانية والرقة ، كذلك وجد هارتشون وماى معامل ارتباط قدره ١٦و. بين الذكاء ومساعدة الآخرين ، ومعامل ارتباط قدره ٠٩ر. بين الذكاء وروح التعاون .

ولكن لا ينبغى الاعتقاد بأن الضعف العقلى او الغباء يؤديان بحد ذاتهما الى الجنوح ، هنالك دائما عوامل متوسطة كثيرة ، فانخفاض الذكاء مثلا قد يقود الى الفشل والاحباط ، كما يقود الى كثير من الصعوبات في التحصيل المدرسي . كذلك فان مستوى طموح الفرد ينخفض في حالة الضعف العقلى .

كيف ينمو ضمير الطفل :

يظهر الضمير او الذات العليا فى اصطلاحات التحليل النفسى في سلوك الطفل تدريجيا . ففى بداية حياة الطفل يرغب فى الاشباع المباشر لدوافعه او لحاجاته بصرف النظر عن الاعتبارات الخلقية او العملية ، فهو يطلب الطعام ويطلبه الآن وفى هذا المكان .

وبالتقدم في العمر يتعدى السلوك الاندفاعى خلال الخبرة ، فيتعلم الطفل ان بعض استجاباته سوف يثاب عليها ، وان بعضها الاخر سوف يجلب له العقاب ، وان بعض مطالبه لا يمكن تلبيتها فى الحال ، وان بعضها الاخر لا يمكن تحقيقه مطلقا . وبمرور الوقت يصبح تجنب بعض مظاهر السلوك الذى كان يحدث نتيجة لقوة خارجية يحدث الآن نتيجة « للسلطة الداخلية » فيكف الطفل عن الاتيان بالسلوك الخاطىء حتى فى غياب الكبار ممثلى السلطة الخارجية فى الطفل . وهنا يشعر الفرد بالذنب عندما يفشل فى مقاومة الاغراء .

وتبعا لنظرية فرويد هناك فى كل شخص منطقة من الدوافع غير المستأنسة تشبه الحيوان فى طبيعتها ، وعند الميلاد تحتوى هذه المنطقة على مجموعة من البواعث العامة « الغريزية » ، وهى ما اطلق عليه اسم **الذات الدنيا** Id فى هذا الدافع توجد قوتان مختلفتان هما :

١ ـ الدافع نحو الحياة ونحو الخلق والحب ، وهو الذى يسميه فرويد رغبة الحياة او غريزة الحياة .

٢ ـ والدافع العدواني الهدام وهو ما اطلق عليه رغبة الموت او غريزة الموت . وتبعا لوجهة نظر فرويد فان الطفل تحكم « الانا الدنيا » حياته . فهو بلا قيود او شعور بالاسف يسعى لتحقيق لذاته ، ويعبر عن دوافعه « الهدامة » نحو موضوعات العالم الخارجي .

وتشير الانا الدنيا في اصطلاحات فرويد الى الطبيعة البدائية وغير المفكرة واللامعقولة ، والتي تستهدف اشباع الغرائز مباشرة اشباعا كليا وعلنيا . ولكن بمرور الوقت ينمو تحكم الطفل ، ففي البداية يكون الطفل غير خلقي وغير اجتماعي ولا يتوقف عن السلوك غير المقبول الا في حضور الكبار اصحاب السلطة في العقاب .

اما **العنصر الثاني** في الشخصية الانسانية في الفكر الفرويدي فهي الذات الوسطى Ego وهي عبارة عن القدرة على التعامل عقليا بمعقولية مع الواقع ، وتنمو الذات الوسطى من الذات الدنيا ، وتتمشى مع مبدا الواقع ، وتمثل العالم الخارجي وقيوده وتكاليفه وفروضه ومستلزماته . وهي القوة التي تدرك الحدود او الفواصل الواقعية التي تمنع من حدوث الاشباع المباشر لدوافع « الذات الدنيا » فتبعا لمنطق الذات الوسطى هذه فان تاجيل الاشباع يضمن لنا اشباعا اكثر كمالا في المستقبل. وتحتوى الذات الوسطى على اجزاء شعورية واخرى لا شعورية . وهي التي تتصل دائما بالعالم الخارجي ، وتهتم بما يجرى في بيئة الفرد ، وعليها ان تفي بمطالب الواقع ، ومن لم فانها تنادي الطفل الصغير قائلة : الا ينبغي ان تطيع امك ، لانها سوف تصفعك ان لم تفعل ذلك .

وعليها ان تشبع المطالب الداخلية للذات العليا وتقاوم ضغوط الذات الدنيا التي تدعو للانطلاق . وعلى ذلك فللذات الوسطى ثلاثة اسياد هي :ـ

١ ـ البيئة او الحياة الخارجية او المجتمع.

٢ ـ الضمير

٣ ـ الذات الدنيا

وعلى ذلك فكلما نجحت الذات الوسطى في التعامل مع هذا المثلث تعاملا حسنا تحسن توازن الشخصية او اتزانها النفسي .

اما **العنصر الثالث** في تكوين الشخصية فهو تبعا لنظرية فرويد الضمير او الذات العليا ، وهنا نتساءل كيف يتكون او ينمو ضمير الطفل الصغير ؟

كلما نما الطفل نمت المعايير الداخلية ، تلك المعايير التي نسميها صوت الضمير الذي يرشد الفرد في سلوكه وفي احكامه الخلقية .

ويمثل الضمير معايير الفرد وقيمه ومبادله ومثله العليا . انه السلطة الضابطة العليا في الانسان ، فاذا لم يستجب الفرد لنداله فانه سوف يعاقب عن طريق قوة داخليه من خلال الشعور بالذنب وكراهية الذات ونبذها . ويعطى فرويد اهمية كبرى لنمو الضمير في نضج الفرد ،

فالفرد يظل غير ناضج حتى يعطى الاحترام الملائم لقوانين المجتمع الذى يعيش فيه ، وحتى يصبح لديه ذوق جيد ، ويطيع القانون ، يحترم حقوق الاخرين ، ويشعر بالواجب .

ويلعب الضمير دور الاب ، او الآمر او المراقب او الملاحظ او الشرطي على كل حال من الذات الدنيا والذات الوسطى . انه يعمل كقاض للاخلاق يحكم تبعا للمبادىء « المثالية » اكثر من المبادىء الواقعية ، انه يعمل من اجل الوصول بتصرفاتنا نحو الكمال المثالى . ويقال انه يحدد السلوك ، يقمعه او يمنعه ، ويتحكم فى ضبطه ، وعلى الرغم من طبيعة الضمير الخلقية الا انه اذا اصبح حادا او قاسيا اكثر من اللازم فانه يظل يخز ويؤنب صاحبه على كل كبيرة وصغيرة ، بل حتى على مجرد الافكار السيئة ، حتى تلك الافكار التى ينجح الفرد فى اخفائها من الناس لا تنجو من عقاب الضمير عليها . وتؤدى حدة الضمير الى تكوين شخصية هيابة مترددة . فاذا زادت سيطرة الضمير فى الشخصية يصبح الفرد عبدا لمجموعة من العادات والتقاليد ، وعبدا لمشاعر الذنب والتانيب القاسية . يقول فرويد ان الحياة الشخصية تشبه جبل الثلج العائم iceberg يغوص معظمه تحت سطح الماء . وعلى ذلك فالصراعات التى تحدث بين الذات الوسطى والذات العليا هى على المستوى اللاشعورى غير المرئى . وللمحافظة على توازن الفرد ينبغي ان تكون العلاقة بين الذات الدنيا والوسطى والعليا علاقة وئام وانسجام وتوازن . ولا ينبغى ان يكون الضمير قاسيا او حادا جدا ، لان ضعفه اكثر من اللازم يؤدى الى نشأة الانحراف السيكوباتي .

واخيرا فاننا ينبغى ان نشير الى انه رغم تقسيم فرويد العقل الانسانى الى هذه العناصر الثلاثة الا ان العقل الانسانى فى الواقع وحدة دينامية متكاملة متفاعلة ، بل ان الانسان نفسه وحدة جسمية نفسية واجتماعية متكاملة متفاعلة ، وان هذه العناصر ليست الا تجريدات عقلية لوصف انماط معينة من السلوك ، وليس العقل البشرى مقسما الى موجودات مستقل بعضها عن البعض (٤٦) فلا ينبغى ان نتصور ان الذات الدنيا والوسطى والعليا كائنات صغيرة تكمن داخل الانسان ، وانما هى مجرد تجريدات يضعها الباحث الملاحظ لوصف انماط معينة من السلوك .

ولا شك ان فهم الضمير عملية اساسية فى فهم سلوك الانسان كله ، وهنا نتساءل عن العوامل المؤثرة فى نمو الضمير ، وعلى الفور تبرز امامنا ثلاثة عناصر اساسية هى :

١ ـ **قيم الثقافة** او معاييرها التى تكون جزءا اساسيا من الشرعية التى تنتقل للطفل عبر الآباء والامهات ، وتختلف تلك القيم من ثقافة الى اخرى ، فعلى حين نجد ان العدوان سلوك غير مرغوب فيه فى اطار بعض الثقافات نجد ان توكيد الذات تؤكده وتشجعه ثقافة اخرى ، بينما تشجع ثقافة ثالثة الاعتراف الشخصى .

(٤٦) Burt, C., An Outline of Human relationships, William Heinemann, Ltd., London, 1959, P. 94.

٢ ـ **نمو الطفل العقلي** ، فالطفل الاكبر سنا والاكثر نضوجا من الناحية العقلية اكثر قدرة على ادراك وفهم ما نتوقعه منه ، انه يستطيع ان يفهم اسباب بعض القيود والمعايير ، كما انه يستطيع ان يعمم بعض المبادىء ، وان يطبقها على العديد من المواقف . كذلك فانه يستطيع اكثر من زميله الصغير ان يدرك المفاهيم المجردة التي تكمن وراء المسائل الاجتماعية مثل الايثار او المساواة او العدل او الحق او الخير او الصدق او الشفقة .

٣ ـ **علاقة الطفل بابويه** . هنالك بحوث كثيرة استهدفت معرفة التأثير الوالدي على نمو ضمير الطفل . ففي دراسات « التنميط » التي اجراها كل من سيرز وماكوبي وليفين Sears, Maccoby and Livin, 1957. طلب من امهات الاطفال ان يحددن علامات نمو الضمير في سلوك اطفالهن . واتخذ لذلك معيارين هما :

ا ـ نزعة الطفل لكي يمثل الدور الابوي ؛ اي بمحاولاته تعليم اخوانه واخوته واصدقائه معايير الآباء .

ب ـ سلوك الطفل الذي يعقب عمل الخطأ ، اي محاولاته الاعتراف بهذا الخطأ او الاعتذار عنه أو باصلاح ما افسده . وحدد مقدار نمو ضمير الطفل على هذا المقياس المكون من خمس نقاط هي :

١ ـ لا دليل على النمو اطلاقا : حيث ينكر الطفل ، ولا يبدو عليه عدم السعادة عندما يكون « شقيا » .

٢ ـ ادلة بسيطة على وجود الضمير .

٣ ـ نمو متوسط للضمير : بما لا يعترف بالخطأ مباشرة ، ولكنه يبدو خجولا او جبانا ونادرا ما ينكر اخطاءه .

٤ ـ ضمير لا يستهان بـه ونام بدرجة كبيرة .

٥ ـ ضمير قوي : حيث يشعر الطفل بالتعاسة عندما يكون « شقيا » ودائما يعترف ولا ينكر ابدا ، ولديه حاجة قوية للعفو او الحصول على تسامح الآخرين .

وتتم عملية امتصاص الطفل لمعايير الكبار عن طريق عملية التقمص او التوحد . فالتقمص القوي لشخصية الآباء يساعد على نمو ضمير الطفل . فلقد وجد (تبعا لدراسات ميسون ودستلر ١٩٦٠) Mussen and Distler أن صبيان سن الحضانة الذين كانوا اكثر ذكورة ، وربما بسبب تقمصهم لشخصية آبائهم كانوا ايضا متقدمين في نمو الضمير . كذلك وجد (في دراسة ستين) بعض الادلة التجريبية ان الاطفال في مواقف الاغراء يقلدون النموذج الذي يخضع للاغراء ، ويوحي هذا ان الآباء يعملون كنموذج لابنائهم فيما يختص بالسلوك الخلقي ، فقد اهتم البحث العلمي بعاملين اساسيين فيما يتعلق بنمو الضمير .

ا ـ نوع التاديب الابوى .

ب ـ دفء علاقة الاب ـ الطفل ، فيمايتعلق بالنشاط التاديبى فى المنزل . كشفت دراسة التنميط ان الاسلوب السيكولوجى اى**الاتجاه الموجه بالحب ، ذلك الذى يتمثل بالمدح والغزل** ، وسحب الحب ، ساعد فى **نمو الضمير**اكثر من الاسلوب المادى الفيزيقى المتمثل فى المكافاةالمحسوسة والحرمان والعقاب الفيزيقى.

وفي دراسة **مالا كونون** Mackinonon على طلاب الجامعة وجد ان الذين تجاوزوا الممنوعات كانوا اولئك الاطفال الذين كان آباؤهم يتبعون نظاما فيزيقيا فى التاديب اكثر منه نظاما سيكلوجيا .

ولكن هناك دراسة حديثة نسبيا (١٩٦١)اجراها كل من **بارتون وماكوبى واليتسميث** Burton, Maccoby and Alinsmith على اطفال سن الاربع سنوات عن مقاومة الاغراء فى الغش **لم تؤيده هذه النتائج** ، ففى هذه الدراسة الاخيرة كان العقاب البدنى مرتبطا بمقاومة الاغراء اكثر من العقاب السيكولوجي او استخدام العقل. ويبدوان الاسلوب الفيزيقى **والمباشر يؤثر فى الطفل** الصغير ، ولكن **تحل محله الاساليب** السيكولوجية **التى تشجع التقمص** مع الآباء بتقدم الطفل فى السن وبحصول مزيد من النمو المعرفى cognitive development ويشبه التميز بين مناهج التاديب الفيزيقية والنفسية التميز بين اسلوب الاستقراء واسلوب الاحساس induction and sensitizaion

وقد قام بهذه المحاولة ارنو فريد سنة ١٩٦١ Arnofreed . من بين الاساليب الاستقرائية استخدام الاستدلال **مع الطفل او اهماله او تبدو**او استخدام الشرح والتفسير ، وتثير مثل هذه الاساليب في الطفل ردود فعله لتجاوزاته ، وربماتصبح ردود الفعل هذه مستقلة عن المصادر الاصلية للعقاب . وعلى سبيل المثال فان**الاستدلال مع الطفل الصغير يشرح النتائج** والمترتبات لفعل ما ، سوف تشجعه على فحص واختيار تصرفات ، وعلى قبول المسئولية عن هذه الافعال .

وعلاوة على ذلك فان هذا المنهج ينمى قدرة الطفل على التعاطف او وضع نفسه فى مكان الغير والاندماج ذهنيا فى موقف الشخص الاخرعن طريق تحديد الاثار الضارة لسلوكه بالنسبة لوالديه وللاخرين .

اما اسلوب الاحساس او الحساسية فيتقمص **العقاب البدنى والزجر والتعنيف والتوبيخ . هذا الاسلوب يجعل الطفل شديد**التاثر للخوف من العقاب الخارجى الذى يعقب تجاوزاته او اخطائه ، كما يعطى اهمية كبرى لمطالب الآخرين وتوقعاتهم . ومن طريق استخدام منهج « استكمال القصص » مع اطفال الصف السادس فى احدى المدارس الامريكية وجدت علاقة بين نوع الاستجابة الخلقية لطفل واسلوب امه في التاديب ، فالاطفال الذين استخدمت اماتهم الاساليب الاستقرائية كانوا اكثر ميلا لاستخدام افكارعن الاصلاح او الترضية

وفكرة القبول في قصصهم ، بينما الاطفال الذين استخدمت امهاتهم الاسلوب الحسي عبروا عن نتائج خارجية لتجاوزاتهم في قصصهم .

ويصدد اسلوب الآباء التاديبي ايضا ميز « هوفمان » Hoffman (١٩٦٣) بين التاديب التوكيدي القوي والتاديب غير التوكيدي وغير القوي ، النوع التوكيدي ، يتضمن العقاب البدني والحرمان المادي ويؤدي هذا الاسلوب الى توجيه خلقي خارجي قائم على اساس الخوف من العقاب من الاكتشاف .

اما النوع الثاني فيتضمن سحب الحب ، وانماطا من التاديب الاستقرائي ، ويؤدي الى تكوين اتجاه خلقي داخلي يتميز بشعور قوي بالذنب . ولقد وجد « هوفمان » تأييدا لفكرته بان المنهج الاستقرائي يؤدي الى ضمير اكثر قوة من منهج سحب الحب نظرا لفشل هذا الاسلوب الاخير في توجيه تفكير الطفل الى الالام التي يشعر بها الاخرون نتيجة لاخطائه . ان الادراك او الوعي بمشاعر الاخرين والتحقق من ان الطفل هو المتسبب في عدم راحة الاخرين ينبغي ان يعمل على تنمية ضوابط داخلية قوية(٤٧) .

ولقد وجد ان الاساليب الموجهة بالحب تنتشر بين امهات الطبقة الاجتماعية الوسطى ، اما الانماط الفيزيقية من التاديب فمنتشرة بين امهات الطبقات الاجتماعية الدنيا . وفي دراسة « آرنو فريد » اختارت امهات الطبقة الوسطى « الاستقراء » ، بينما اختارت « الاحساس » امهات الطبقة الدنيا . ان الاسلوب الفيزيقي المنتشر في بيوت الطبقة الدنيا لا يشجع التقمص ولا يؤدي الى تقوية الضوابط الداخلية The inner controls ولم تسفر الجهود التي بذلت لربط الضمير بممارسات محددة نوعية لتربية الطفل من نتائج واضحة ، ربما لان الجو السيكلوجي العام في المنزل هو الاكثر اهمية عن اي اسلوب نوعي محدد في تربية الطفل .

فلقد وجد ان التهديد بانسحاب الحب ، وهو منهج سيكولوجي ، ليس له تاثير كبير اذا كانت الام « باردة نفسيا » او كانت نابذة لطفلها اصلا .

وعلى العكس من ذلك فان هذا المنهج اثبت فاعلية كبيرة عندما كانت علاقة الطفل بامه علاقة قبول ودفء . ان الطفل غير المقبول ليس لديه ما يخسره بممارسة العمل غير المقبول .

لقد وجد ١٨٪ فقط من الاطفال المنبوذين هم الذين حكم عليهم بان لديهم ضمير قوي بالمقارنة مع ٣١٪ من المجموعة المقبولة .

كذلك وجد ان الاطفال الذين يقبلهم آباؤهم كان لديهم ضمير اقوى من الاطفال الذين ينبذهم الآباء .

---

(٤٧) I — Ibid.

ولقد وجد ان هناك سمتين فى الاسرة ترتبطان بنمو الضمير او الذات العليا فى الاطفال، اى بوجود ضمير فعال يوجه السلوك ويرشده ،وهاتان الصفتان هما :

١ ـ الثبات او الديمومة consistency

٢ ـ اتحاد بين الثقة المتبادلة والقبول .

فالنمط الثابت للضبط الابوى وللتوقعات يعطى مواقف واضحة جلية لنمو السلوك الايجابى ، وعلاوة على ذلك فان جو الثقة المتبادلة يساعد الطفل لامتصاص قيم الآباء ومعاييرهم فيقبلها الطفل على انها معاييره هو .

ان نمو الضمير ينبغى ان يفهم لكى يفهم نمو الشخصية برمتها ، ذلك لان الطريقة التى يحل بها الفرد صراعاته الخلقية هى جانب ثابت من جوانب شخصيته .

وليس هناك اقوى من توفير جو من الحب والدفء والحنان فى العلاقة بين الآباء والاطفال فى نمو الضمير وامتلاك الضوابط الداخلية وتبنى قيم الآباء ومبادئهم ، تلك التى تعكس بدورها قيم المجتمع ومعاييره .

وفى بداية المراهقة تلعب الثقة المتبادلة والقبول والثبات المتحد مع الدفء ، تلعب دورا هاما فى نمو الضمير القوى(٨)) .

والآن لنتناول عملية التنشئة الاجتماعية بالعرض والتحليل لبيان الصلة الوثيقة بين النمو الخلقى والروحى فى هذه العملية .

• • •

تعريف عملية التطبع الاجتماعى واهميتها :

ان تحديد النمو الاجتماعى مسالة صعبة ،وذلك نظرا لتعدد الدراسات التى تناولت موضوعات يمكن ان تندرج تحت هذا العنوان ، لدراسة الانفعالات والطموح والقيم والعادات السلوكية والعلاقات الاجتماعية واللغة ، ودراسة موضوعات مثل الغضب والعدوان والغيرة والامان والسعادة والضحك والتعاطف والسلوك الجنسى كلها تتصل بالنمو الاجتماعى ، كذلك هناك دراسات متعددة تتناول موضوعات النمو الاجتماعى دون ان تحمل هذا العنوان ، ومن امثلة ذلك دراسة جنوح الاحداث ونمو الاخلاق .

اما السلوك الاجتماعى فيقصد به السلوك الذى يتاثر بوجود الآخرين وبسلوكهم ، او ذلك السلوك الذى ينظمه المجتمع ، او السلوك الذى يقصد به التاثير فى الآخرين كالقيادة * مثلا فهو

---

(٨) Ibid P. 592.

* للمزيد عن موضوع القيادة راجع كتاب المؤلف « علم النفس الاجتماعى » دار النهضة العربية ـ بيروت.

سلوك يقصد به التأثير في اتجاهات الآخرين وفي سلوكهم . اما النمو الاجتماعي Social growth فيقصد به نمو الفرد في السمات التي تسهل التفاعل الاجتماعي Social interaction اي الاخذ والعطاء والتأثير والتأثر بالجماعة .

اما التطبيع الاجتماعي او التنشئة الاجتماعية socialization فيقصد بها العملية التي يكتسب الطفل بموجبها الحساسية للمثيرات الاجتماعية ، كالضغوط الناتجة من حياة الجماعة والتزاماتها ، وتعلم الطفل كيفية التعامل والتفاهم مع الآخرين ، وأن يسلك مثلهم ، فهي العملية التي يصبح الطفل بموجبها كائنا اجتماعيا ، وتتضمن هذه العملية تعليم العادات الاجتماعية والاستجابة للمثيرات الرمزية ، كما تعرف بأنها العملية التي تساعد الفرد على التكيف والتلاؤم مع بيئته الاجتماعية ، ويتم اعتراف الجماعة به ويصبح متعاونا معها وعضوا كفؤا فيها .

اما التوافق الاجتماعي فيقصد به تلاؤم الفرد وسلوكه لظروف المجتمع ومتطلباته ، وبذلك يصبح التكيف الاجتماعي social adjustment حالة تلاؤم للمجتمع الذي يعيش فيه او البيئة الاجتماعية والوفاء بظروفه وشروطه ومتطلباته .

التأثير الاجتماعي social influence ويتضمن نوعية الاشخاص الذين يعرفهم آباء الطفل والذين يتبادلون واياهم الزيارة — ويقدر الطفل آباءه ، وخاصة طفل الطبقة الاجتماعية الوسطى ، لمن يعرفونهم من اشخاص ، ولما يبدونه من حكمة ومعرفة . يقول الطفل : بابا ليس ضخما او قوى الجسم ، ولكنه يعرف الكثير والناس المهمون يدعونه لبيوتهم ، ويحضر اسبوعيا مبلغا ضخما من المال (٤٩) .

وربما يرجع لهذا السبب خضوع اطفال الطبقات الوسطى للضبط الابوي ، ويبدو ان التعليم الاجتماعي عموما يتقدم اسرع عندما تفوق نسبة التعزيزات الايجابية ، اي المكافآت ، نسبة العقاب .

كذلك وجد ان الثبات والديمومة في المعاملة تساعد في تعلم الطفل ، حيث يتعرف على تعديل سلوكه بحيث يحصل على ما يريد ويتحاشى مايرغب في تحاشيه .

اهمية عملية التطبيع الاجتماعي :

لاشك ان عملية التطبيع الاجتماعي هي اكبر انجازات الفرد ، حيث يؤدي الفشل فيها الى ان يعيش الناس حياة بائسة تعسة ، ويعانون من سوء التكيف Maladjustment كما يخلقون البؤس لغيرهم من الناس . بل ان الحروب ليست الا نتيجة للفشل الذريع لعملية التنشئة الاجتماعية في الجماعات ، وتحدث الصعوبات والامراض الآتية نتيجة للفشل في عملية التنشئة الاجتماعية :

١ — الذهان العقلي اي المرض العقلي او الجنون Psychosis

---

(٤٩) McCandless, B.R., Children behaviour and Development, send. Ed. Holt, Rinehart and Winston, N.Y. 1967.

٢ ـ الجنوح او الانحراف السلوكى	Deilnquency
٣ ـ ادمان الكحول	Alcohol addiction
٤ ـ السيكوباتيه والجريمة .	Psychopathy
٥ ـ الجنسية المثلية	Homosexuality
٦ ـ بعض انواع الضعف العقلى	Mental deficiency
٧ ـ العصاب النفسى او المرض النفسى ،	Neurosis

ولسوء الحظ فان اكثر المجتمعات تقدمامن ناحية العلوم الطبيعية والانتاج التكنولوجى مازال يفتقر الى علم صحيح للتنشئة الاجتماعية ، كما يحدث فى المجتمع الامريكى الذى تنتشر فيه مثل هذه الاضطرابات والجرائم اكثر من غيره على الرغم مما حققه من تقدم علمى وتقنى . اننا فى حاجة الى علم يحدد معالم عملية التنشئة الاجتماعية ، ولذلك نجد من يقول ان كل علم النفس « هو عبارة عن علم نفس اجتماعى » . ومن اكبر الفروض التى ينبغى اعتناقها ان عملية التطبع الاجتماعى عملية تعلم في المحل الاول ، فليس الخير او الشر فطريا فى الانسان ، ويحدث هذا التعلم نتيجة لتوجيهات الآباء ، ونتيجة للخبرة الشخصية للطفل ونتيجة للنضج الجسمى والعقلى والنفسى والاجتماعى . ويحدث التعلم على المستويين الشعورى واللاشعورى .

ومن المبادىء الهامة فى عملية التطبع أن هناك فروقا فردية واسعة فى مدى تطبع الافراد او خضوعهم لعملية التطبع . ولقد سقطت فكرة « البذرة السيئة » التى كانت توحى بالانتقال الوراثى لسمات الشخصية الاجرامية والسيكوباتية . بل اننا لم نحصل على صلات واضحة بين الحالة الوراثية ومعظم الامراض العقلية والنفسية بل حتى الضعف العقلى . ولكن هناك تفاعل قوى وفعال بين الجبلة او الاستعدادية وبين البيئة الاجتماعية والمادية . هذا التفاعل قد يجعل من السهل او الصعب على طفل ما أن ينمو راشدا سويا منضبطا عاقلا .

ولقد لاحظ بعض الباحثين تأثير حالة الحمل والولادة على شخصية الطفل . فقد لاحظ سونتاج (٥٠) (١٩٤١) ان الاطفال الذين مروا بحمل صعب كانوا اكثر نشاطا او اندفاعا وتهيجا، كذلك كشفت الدراسات الطولية للنمو longitudinal studies ان التفاعل بين البيئة المادية والاجتماعية من ناحية والتكوين الجسمى physique وكذلك وقت الوصول الى النضج الجسمى ومستوى النشاط يؤدى الى تأثيرات مختلفة على الشخصية .

وتلعب العوامل الآتية دورا هاما في عملية التطبع الاجتماعى :

١ ـ مركز الطفل او ترتيبه فى وسط اخوته ، فالطفل الوحيد غير الطفل الاخير غير الوسيط ،

---

(٥٠) راجع « بحث حقلى للمؤلف عن « سيكولوجية المرأة العربية الحامل » ، الهيئة العامة للكتاب . مصر (تحت الطبع)

والطفل المرغوب فيه غير المنبوذ ، والوحيد على عدد من البنات غير الموجود مع عدد كاف من البنات غير الموجود مع عدد كاف من الذكور ... الخ .

٢ ــ سن الآباء ، فطفل الآباء المتقدمين فى السن غير طفل الآباء الشباب .

٣ ــ البيئة المادية والاجتماعية المحيطة بالطفل .

٤ ــ الذكاء ، فالطفل ضعيف الذكاء اقل حساسية للمؤثرات التى تؤثر فى التنشئة الاجتماعية .

٥ ــ التكوين الجسمى للطفل ، فالطفل القوى البنية غير الطفل الضعيف .

٦ ــ العلاقة بين الآباء والاطفال ونمط معاملة الطفل .

٧ ــ المستوى الاجتماعى والاقتصادى للاسرة .

٨ ــ انتماء الاسرة الى جماعات الاكثرية او الاقلية فى المجتمع .

تنبع الدوافع الاجتماعية من المواقف التى يمتص منها الفرد المؤثرات الاجتماعية . هذه المؤثرات تكون فى أول الامر خارجية بالنسبة للفرد . ان عملية نمو وتعلم التفاعل الاجتماعى والتى ينتج عنها ان يمتص الفرد Intrnalization المؤثرات الاجتماعية وبذلك تصبح مثيراته هو شخصيا ، وذوقه ورغباته ، هو هذه العملية هى عملية التطبيع الاجتماعى (٥١).

ان النتيجة النهائية لتنشئة الفرد الاجتماعية تظهر فى اتجاهاته الاجتماعية social attitudes وافعاله واقواله في التعبير عن هذه الاتجاهات .كما تظهر فى تعامله اليومى مع غيره من الناس وتفاعله مع الجماعات الاخرى ، ومع نواتج ثقافته ، ويؤدى مثل هذا الاحتكاك الى نشأة اتجاهات محددة نحو هذه الاشياء . فالانسان لا يولد راسماليا او شيوعيا او جمهوريا او ديموقراطيا ... الخ وانما هو يتعلم ان يكون أيا من هؤلاء بالخبرة والتجربة . (٥٢)

مراحل النمو الاجتماعى :

يذهب **أيركسون** Erikson (١٩٥٦) الى القول بان عملية التطبيع الاجتماعى تمر بثمانى مراحل او اطوار ، وهو في ذلك متأثر بعمق باتجاهات فرويد فى هذه المراحل ، ولقد افترض هذه المراحل ، ليس بناء على اعمال تجريبية ، ولكن من خلال عمله المطول بالعلاج النفسى ، وخاصة مع الاطفال والمراهقين ، من أبناء الطبقات الاجتماعية الدنيا والوسطى والعليا . وهذه المراحل مرتبطة اقل بالنظام العضوى عنها عند فرويد ، ولكنها اكثر ارتباطا بالتعلم الذى يحدث فى المراحل المختلفة . ويعتبر ايركسون ان كل مرحلة عبارة عن **ازمة نفسية** تتطلب الحل قبل الوصول الى

(٥١) Sherif, M. and Sherif, G. An outline of social psychology Harper and Row, N.Y. 1956.

(٥٢) راجع باب الاتجاهات فى كتاب المؤلف « علم النفس الاجتماعى » دار النهضة العربية ــ بيروت

المرحلة اللاحقة . ويعتبر هذه المراحل كالطوابق المعمارية: فالتعليم المرضي وحل كل مشكلة ضروري اذا كان للطفل ان يمر بالمراحل اللاحقة بنجاح ، بالمثل فان اساس المنزل يعد ضروريا بالنسبة للطابق الاول منه ، الذي ينبغي أن يكون قويا بدوره لتعضيد الطابق الثاني ... وهكذا .

وهذه المراحل الثماني هي : ـ

١ ـ تعلم الثقة في مقابل عدم الثقة mistrust-trust

وتقابل هذه المراحل مرحلة الرضاعة ، وتشمل العام الاول او الثاني اذا تناولنا الطفل تناولا حسنا وتمت تغذيته وحبه ، فانه ينمي في نفسه الشعور بالثقة وبالامان ، والشعور الاساسي بالتفاؤل . واذا عومل معاملة سيئة فانه يفقد الثقة والامان . وجدير بالذكر ان فرويد اطلق **على هذه المرحلة اسم المرحلة الفمية :**

٢ ـ تعلم الذاتية او الاستقلالية في مقابل الشعور بالعار . ويعتقد اريكسون ان الازمة النفسية الثانية تحدث في الطفولة المبكرة (من ٢ ـ ٤ سنوات) وتقابل المرحلة الشرجية عند فرويد ، وهي المرحلة التي يحدث فيها اكثر مظاهر التعليم وضوحا وضبطا ، وتعني **التدريب على عادات** الاخراج ، ويخرج الطفل الذي يلقى معاملة والديه حسنة من هذه المرحلة متأكدا من ذاته ، سعيدا مبتسما بتمكنه من الضبط الجديد القوي ، ويشعر بالفخر اكثر من شعوره بالعار .

٣ ـ تعلم المبادأة learning intitiative في مقابل الشعور بالذنب .

ويعتقد اريكسون ان هذه الازمة تحدث في سن اللعب او سنوات ما قبل المدرسة ، وتبدأ تقريبا من سن ١/٢ ٣ سنة ، وفي اثنائها يتعلم الطفل ، الذي ينمو نموا صحيا ، ان يتخيل وان يوسع مهاراته من خلال اللعب النشط من كل الانواع بما في ذلك اللعب الخيالي ، كما يتعلم التعاون مع الغير وان يقود غيره بالمثل كما يتبع او ينقاد للغير . اما اذا اعاقه الشعور بالذنب فانه يصبح خائفا يقف دائما على هامش الجماعات ، ويستمر في الاعتماد على الكبار بدون حاجة فعلية الى ذلك ويعاق نموه في مهارات اللعب play skills **وفي الخيال . وتقابل هذه المرحلة تقريبا** المرحلة القضيبية وعقدة اوديب في الفكر الفرويدي A Phellic and Oedipal Stages *.

٤ ـ تعلم الاجتهاد industry في **مقابل الشعور بالنقص** inferiority .

وتحدث في سنوات المدرسة الابتدائية وقد تمتد لتشمل **بعض سنوات المدرسة الاعدادية** ، وهنا يتعلم الطفل اتقان المهارات الاكثر رسمية اللازمة للحياة ، كالتعامل مع الجماعة تبعا **للقواعد والتقدم من الالعاب الحرة الى اللعب** المنظم عمدا او المشكل طبقا للقواعد ، وقد يتطلب فريق للعب ، وكذلك اتقان الدراسات الاجتماعية والقراءة والحساب . وهنا يشعر الطفل ان عمل

*** لمعرفة المزيد من مراحل فرويد في النمو راجع كتاب المؤلف « معالم علم النفس »**

الواجبات المنزلية اصبح ضروريا ، وان التأدب الذاتى يزداد تدريجيا . وهنا يصبح الطفل ، **الذى فقد الثقة ،شكاكا فى المستقبل ،والطفل الذى** يشعر بالذنب من المراحل السابقة يشعر الآن بالهزيمة والنقص .

وتقابل هذه المرحلة مرحلة الكمون عندفرويد .

٥ ـ تعلم الهوية identity **في مقابل اضطرابات الهوية** ، وتحدث هذه الازمة النفسية **فى نظره فى سن المراهقة ، من حوالى ١٣ ـ ٢٠** سنة . فقد اصبح الطفل الآن مراهقا ، يستطيع ان يجيب اجابة مرضية سعيدة للتساؤل : من اكون انا ؟

ولكن احسن المراهقين تكيفا يعانون من بعض الاضطراب فى الهوية identity diffusion وخاصة الذكور ، حيث يعانون من جنوح بسيط يظهر فى شكل عصيان او تمرد rebellion والخجل **والشك الذاتى ، وهنا تنمو نظرة المراهق للزمن ـ ويكتسب اليقين الذاتى فى مقابل الشك** الذاتى والحساسية الذاتية . فيقوم بادوار ايجابية فى الغالب بدلا من اعتناق الهوية السلبية (كالجنوح) فيحاول المراهق الناجح ان يحصل على بعض الانجازات بدلا من الشلل من جراء مشاعر النقص . وفي المراهقة المتاخرة يكتسب **المراهق الرجولة** وتكتسب **المراهقة الانثى صفة النسائية ، واحيانا يسعى** للقيادة وبالتدريج يتبنى نمطا من المثل المرغوبة ، **وفي الغالب ما يلعب المراهق عدة ادوار حتى يجد** اكثرها ملاءمة له .

٦ ـ تعلم الصداقة الحميمة intimacy فى مقابل العزلة ، لاول مرة **يشعر المراهق الناجح بالصداقة الحميمة والحقة** . . التى يمكن ان يقوم على اساسها الزواج الناجح او الصداقة المستديمة .

٧ ـ تعلم الانتاجية generativity فى مقابل الاستغراق فى الذات **self-absorption فى** مرحلة الشباب المبكرة يتطلب النمو النفسى تعلم الانتاج سواء فى الزواج او الابوة وفى العمل وفي الابداع او الابتكار .

٨ ـ تعلم التكامل integrity فى مقابل اليأس despair **اذا مرت الازمات السبع الماضية** بنجاح فان الشباب الناضج **يصل الى قمة التكيف اى التكامل .**

فهو الآن يثق فى نفسه ويشعر **بالاستقلال ،ويعمل بجدية** ، ويجد لنفسه دورا محددا فى الحياة وينمى فى نفسه مفهوما عن الذات self-concept ويكون سعيدا بهذا المفهوم . يصبح ودودا دون توتر او ذنب او اسف او بعد عن الواقعية ،ويصبح فخورا بما يبتكر او ينتج من اولاد وبعمله او هواياته . اما اذا فشل فى حل اى من الازمات السابقة فانه يشعر باليأس والاشمئزاز .

هذه المراحل ليست الا وصفا لفظيا لكيفية نمو الشخصية . ذلك لان المهم هو تحديد الظروف البيئية التى تساعد **الطفل على نمو هذه الصفات** الايجابية وغيرها .

ان التطبع الاجتماعى هو عملية تعلم تحيل الكائن البشرى من حالة الطفولة او الرضاعة ومن حالة الضعف والانانية الى حالة الراشد المثالى الذى يدين بالامتثال المعقول sensible conformity مع وجود سمات الاستقلال والابتكار (٥٣) والخلق والابداع .

• • •

التنشئة الاجتماعية فى الطفولة المبكرة :

تستخدم المجتمعات طرقا مختلفة في العناية بالطفل ، بل انه فى داخل المجتمع الواحد تختلف هذه الطرق من طبقة اجتماعية الى اخرى . ان المؤثرات الثقافية تبدا فى التأثير فى شخصية الطفل فى اليوم الاول من ميلاده ... وتؤثر الام فى الطفل عن طريق اسلوب معاملتها اياه في التغذية وطرق اطعامه . والمعروف ان الام تسعى لتحقيق هدفين من وراء تغذيته هما :

ا ـ تغذيته

ب ـ تدريبه على تناول الطعام بطريقة صحيحة .

التغذية مسالة فسيولوجية وان كان هناك بعض الثقافات التى تفضل الاطفال السمان ، بينما هناك ثقافات اخرى تفضل الاطفال النحاف . وتستهدف « ام » الطبقة المتوسطة ان يتدرب طفلها على تناول طعامه بدون شوشاء او احداث اصوات ، وبدون ان يسكبه على نفسه ، وان ياكل كل الطعام من طبقه ، وان يستخدم ملعقة وشوكة وسكينا بطريقة سليمة. بل ان نظام تغذية الاطفال يتغير داخل المجتمع الواحد بمرور الوقت ، فقد تغيرت هذه العادات فى المجتمع الامريكي منذ عام ١٩٢٠ حتى يومنا هذا عدة مرات على القليل فيما يختص بعدد الوجبات وموعد كل وجبة . ففي العشرينات كان اطباء الاطفال يوصون باتباع نظام منتظم فى تغذية الاطفال مكون من ٣ وجبات يوميا . اما المستشفيات فكانت تتبع نظام تقديم اربع وجبات يوميا هي كالاتي :

١ ـ الساعة ٦ صباحا

٢ ـ الساعة ١٠ صباحا

٣ ـ الساعة ٢ بعد الظهر

٤ ـ الساعة ٦ مساء

٥ ـ الساعة ١٠ مساء

٦ ـ الساعة ٢ صباحا .

---

(٥٣) Erikson, E.H. ; The problem of ego identity, J Amer Psychoanal Assn 1956, 4, 56-121

اما الآباء فكانوا يرغبون فى اتباع نظام يشبه نظام الكبار في الطعام ، ولذلك حذفوا وجبة الساعة الثانية صباحا ، ولكن الثقافة لا ينبغى ان تجمد نمو الطفل عن طريق وضع انظمة صارمة فى تغذيته ، وبالطبع لم يكن نظام الاربع وجبات هذا ملائما لكل الاطفال وكان على الآباء ان يتحملوا بعضا من صراخ الطفل قبل الوجبات .

وفى الاربعينات بدأ يتحول الاتجاه نحو نظام الطلب الذاتي Self-demand schedule وبموجب هذا النظام يقدم الطعام للطفل كلمابكى طلبا له . والتقيد الوحيد الذى وضع فى احدى الدراسات كان ضرورة انقضاء ساعة كاملة بين اى وجبة والاستجابة لطلب الطفل للطعام . ولقد تبين ان معظم الاطفال كانوا يطلبون الطعام بعد ثلاث ساعات ، ونادرا ما كانت تصل هذه المدة الى اربع ساعات وخاصة فى الاسبوع الاول من الميلاد . وكانت هذه المدة اطول اثناء الليل عنها اثناء النهار (٣ر٦ فى مقابل ٢ر٩ ساعة) وبالطبع يتغير النظام المرغوب بتقدم الرضيع في السن . واستمر هذا الاتجاه فى التزايد حتى اصبح هناك حاجة الى الاستفادة من نظام الانتظام فى الوجبات . ومزايا الطلب الذاتي اى الايمان بنظام معين دون ان تكون عبيدا لهذا النظام ، مع مراعاة فردية كل طفل . والمقصود من خضوع الطفل لنظام الوجبات الثلاث او الاربع ، هو خضوعه للمعايير الحضارية فيما بعد ، ويؤثر الغذاء تأثيرا اكثر عمقا فى شخصية الطفل اذا لاقى صعوبات فيما يختص بالغذاء حيث يشعر بعدم الامان ولا يحتاج الطفل فقط لتفريغ زجاجات الطعام فى جوفه بطريقة آلية بل انه فى حاجة الى المص . ولقد وجد الطفل فى حاجة الى الامتصاص لمدة ساعتين يوميا والا اضطر الى مص اصابعه او ملابسه او لعبه او اشياء اخرى . كذلك لعملية الفطام اثر نفسي قوى اذا تمت بطريقة فجائية او قاسية تؤدى الى صعوبات انفعالية يعانى منها الطفل . (٥٤)

• • •

المؤسسات التي تسهم فى عملية التطبيع الاجتماعي:

نتساءل عن المؤسسات التي تسهم فى عملية التطبيع الاجتماعى هذه ، ومن اول هذه المؤسسات التى تؤثر فى نمو الطفل الاسرة ؟

دور الآباء :

ان عملية التطبيع الاجتماعي لا تعتمد على الطفل وحسب بل على الآباء ايضا ، لانها على القليل بمفهوم الضبط الاجتماعي ، لا تحدث الا اذا كان الآباء يعززون سلوك الطفل او يكافئونه عليه ، فاذا لم يقم الآباء بدور تقديم التعزيرات والمكافآت للطفل فان عملية التطبيع الاجتماعي سوف تتأخر او تعاق . ويتحقق تعزيز سلوك الطفل عن طريق عناية الآباء بجسمه ودقته ومأكله ومشربه ، على شرط ان يتم ذلك كله بطريقة رقيقة فى اثناء تغذيته وتنظيفه

(٥٤) Hilgard, E R. introduction to psychology Rubert Hart-Davis London, 1962

واستحمامه وتغيير ملابسه ووضعه فى الفراش على شرط الا يتم ذلك ببرود او بطريقة آلية ميكانيكية ، وانما يصاحبه تقبيل الطفل « الدندنه » او التودد اليه والتربيت عليه ولمس جسمه وتدليكه والغناء له حتى ينام .

ولقد وجد رينجولد (١٩٥٦) Rheingold أن حاجات الطفل المصحوب بالمثيرات الاجتماعية بما فى ذلك الاتصال الجسمي به ، يؤدى الى خلق طفل أكثر استجابة من الناحية الاجتماعية عن قضاء مثل هذه الحاجات بطريقة فاترة باردة وبكفاءة ولكن دون علاقات شخصية ولكن مثل هؤلاء الاطفال يسرعون فى النمو الاجتماعي عندما يتغير نمط معاملة الآباء معهم ، ويشعرونهم بالرعاية والرقة والحب ، كذلك وجد أن الرضيع يصبح قادرا على الاستجابة الاجتماعية وتزداد عنده عندما يستجيب الكبار بطريقة اجتماعية لاستجابات الطفل الصوتية المعبرة Vocal responses وينبغي تدريب الطفل على الاستجابة الاجتماعية او توجيهها الى القنوات الصحيحة عندما يبدأ فى اظهار مثل هذه الاستجابات ، وذلك حتى تصبح مقبولة لدى الآباء والاخوان والاخوات ، ثم المجتمع ككل ، بحيث يظهر الطفل الاستجابات الملائمة فى السن الملائم ، فاستجابات الغناء واشارات « باى باى » مناسبة لسن عام واحد ، ولكنها غير ملائمة لسن مدرسة الحضانة ، كذلك تبليل الفراش مقبول فى سن عام واحد ، ولكنه غير مقبول فى سن الاربع سنوات . وبالمثل البكاء من اجل الطعام مناسب فى سن ٩ شهور ، ولكنه غير ملائم فى سن ٩ سنوات مثلا . فهناك حاجة الى مزيد من الضبط والتوجيه لسلوك الطفل منذ الوقت الذى يبدأ فيه فى عمل الاستجابات الاجتماعية حتى يصبح مدنيا او متحضرا خاضعا للقانون ، ونسبيا راشدا كبيرا ، وغيريا او غير انانى .

وتبدأ عملية الضبط الاجتماعى والتكيف او التلاؤم مع تفاعل الطفل مع الآباء ثم مع اسرته ، ثم تستمر مع زملاء اللعب والاقارب والمدرسين ، وينبغي على اى مؤسسة تعمل لتحقيق التطبع الاجتماعي ان تقدم نمطا من الآتي :

١ ـ المكافآت

٢ ـ القبول

٣ ـ السماح

٤ ـ العقاب

بحيث يكسب الطفل الاتجاه نحو طاعة القانون واللياقة الاجتماعية فى سن الرشد ، وبحيث يصبح سعيدا وهادئا قادرا على القيام بدور الذكر او الانثى المطلوب ممن هم فى مثل سنه ، وقادرا مهنيا على كسب عيشه .

نمط الآباء في التعزيز :

لا شك انه ، للمرور فى مراحل النمو المبكرة ، هناك حاجة ماسة الى توجيه الطفل ومن البديهى ان يكون المنزل هو المصدر الاول لتقديم مثل هذا التوجيه ، ويمكن تمييز منهجين فى مثل هذا التوجيه هما : ـ

١ ـ اتجاه سيكولوجي قائم على الحب والمكافآت غير المادية . هنا يسحب الحب أو يهدد بسحبه ، كما لاتعطى للطفل زجاجة الطعام في نفس اللحظة التي يطلبها فيها . واذا اصبح « شقيا » ينعزل عن الآباء وهو يشتاق الى النشاط واللعب، ولكن ينبغي ان يبقى لبعض الوقت داخل عربته أو حجرته . يرى الطفل مثل هذه النماذج من الحرمان كتهديد بانسحاب الحب ، ولذلك فانه يعمل ، فيما بعد ، على تعديل سلوكه لكي لايفقد هذا الحب. وهناك اشكال اكثر تعقيدا من التهديد بسحب الحب كالحرمان من الملاطفة او العناق أو التربيت او الابتسامة او كلمة المديح التي يتوق اليها الطفل .

٢ ـ يعتمد المنهج الثاني على الاشياء المادية، ويتراوح ما بين انزال العقاب البدني الى حرمان الطفل من الطعام لتحويله الى السلوك الطيب . في حالة منهج الحب تعمل على توضيح ان المعنويات تلفت انظار الآخرين وانتباههم ، لها اهمية خاصة. **ويعلمه الآباء الضبط الذاتي خوفا من فقدان الحب .**

اما المنهج السيء فانه يعلم الطفل الخوف من الأشياء المحسوسة المادية ، وهنا يقول الطفل لنفسه لابد ان تكون حسن السلوك حتى لاينكشف امرك وتنال العقاب ، فالضبط هنا من خلال الشعور بالعار . اما في منهج الحب فالضبط من خلال الشعور بالذنب ، ولكن اذا كان الشعور بالذنب قاسيا جدا فانه يشل حركة الطفل ونشاطه . اما الشعور بالعار فيعتمد على توقع رجل الشرطة في كل مكان يترصد الطفل لاصطياده .

ولقد اتضح ان منهج الحب اكثر فاعلية من الناحية الاجتماعية بحيث **يتجنب الطفل الخطأ** في غيبة الكبار او ممثلي السلطة ، ويمكن لنميز نوعين من التعزيز في **معاملة الآباء للطفل :**

١ ـ تعزيز ايجابي reinforcement ويتمثل في عبارة الام « ماما تحبك لانك عملت كذا وكذا .. او ماما سوف تعطيك كذا وكذا اذا عملت كذا ... »

٢ ـ تعزيز سلبي ، ويتمثل في قول الام لطفلها « ماما لن تحبك اذا عملت كذا وكذا .. او ماما سوف تصفعك اذا عملت كذا وكذا .... »

وواضح ان التعزيز الايجابي يمنح المكافآت، اما السلبي فيعطي العقاب ، وهنا نتساءل ، ايهما اكثر فاعلية في تعليم الطفل الثواب ام العقاب ؟ **هناك ادلة تجريبية مؤداها ان الطفل يتعلم** اسرع اذا تلقى كلا من الثواب والعقاب في التعزيز ، **فالتعزيز الايجابي لتعليمه ما ينبغي ان يعمله ، والتعزيز السلبي يعلمه مالا ينبغي عمله . وعلى ذلك فاذا تلقى الطفل تعزيزات من النوعين فانه يحاط علما بصورة اكثر شمولا عما لو تلقى تعزيزات من نوع واحد .**

وتتضح هذه الفكرة من ابحاث كل من هارتوب ومور وسيجار Martup, Moore and Sager الذين وجدوا (١٩٦٣) **ان الاطفال الذكور الصغار** يتعلمون الادوار الجنسية الملائمة اذا منحت لهم **المكافآت على السلوك بطريقة فيها ذكورة** ، ويبحثون عن اللعب الذكرية ، ويعاقبون عندما يعملون أعمالا بناتية او انثوية او يبحثون عن لعب ودمى البنات ، وبالنسبة للاناث ، على

العكس من ذلك ، فكانت تعطى لهن المكافآت عندمايبحثن من الاشياء « البنائية » بما فى ذلك اللعب، وكن يهملن عندما يتصرفن بطريقة « صبيانية » اويسعين للحصول على لعب الصبيان ، بل ان فاعلية التعزيزات تتوقف على الطريقة او الاسلوب الذى يمنح به التعزيز . فلقد وجد ان التعزيز ، سواء كان ايجابيا ام سلبيا ، عندما يمنح مباشرة وبثبات او ديمومة واستمرارية وبسخاء او بكرم فان التعلم يتم بسرعة اكثر منه عندما يكون مؤجلا ؛ او بدون ثبات او ضعيف او هزيل او قليل ، ولكن هذا الفرض يحتاج الى كثير من الدراسات ، لان كمية التعزيزات تبعا لهذا الفرض ، تغير كمية التغيير فى السلوك ، ومعنى هذا أننا اذا اردنا ان نضاعف من السلوك الحسن فى سلوك طفل ما فاننا نضاعف من مقدار ما نعطيه له من مكافآت . كذلك فان التعزيز الجزئى يجعل الطفل تواقا الى المزيد من التعزيز ، فيواصل العمل الجيد ، اما اذا حصل على كل التعزيز فانه يفقد الاهتمام بمزيد من تحسين السلوك .

اثر وجود الاب فى الاسرة :

ما هو التاثير الذى يتركه وجود الاب فى الاسرة على شخصية الطفل؟ لقد اجريت دراسات كثيرة منها دراسة سيرز Sears (١٩٥١) ووجدان الصبيان الذين نشأوا فى بيوت مع الآباء كانوا اكثر عدوانا على القليل فى خيالاتهم عن زملائهم الذين غاب الاب عن منزلهم .

كما كانوا اكثر ثقة ، وكانوا اكثر استعدادا لتأجيل الحصول على مكافأة صغيرة فى سبيل الحصول على مكافأة اكبر ولكنها مؤجلة . كذلك وجد ان الاطفال الاكبر سنا والاكثر ذكاء كانوا اكثر استعدادا لتأجيل الاشباع المباشر . كذلك وجد مولتون Moulton (١٩٦٦) ان الاباء الاكثر قوة وحبا هم اكثر قدرة على انتاج اطفال يضبطون انفسهم بواسطة ضمائرهم ، وان الاطفال الذكور الذين يمتاز آباؤهم بالقوة والحب كانوا اكثر ذكورة منهم عندما تكون الام هى الشخصية القوية والمحبة . كذلك وجد جروسيك Gruseo (١٩٦٦) ان الكبار الذين يكافئون كثيرا يجعلون الطفل اكثر استعدادا لنقد نفسه (اكثر عما يلوم الآخرين مثلا) وذلك بالمقارنة بالاباء الذين لايكافئون اطفالهم سواء كانت المكافأة بالعطاء او العقاب .

• • •

مصادر القوة فى عملية التنشئة الاجتماعية :

يحدد ولوتز Wolowtz (١٩٦٥) مصادر القوة التى يتم خلالها تقديم التعزيزات بأنها : ـ

١ ــ القوة الفيزيقية ، ويدركها الطفل مبكرا ، ويعتقد أن والده يمتلكها اكثر من والدته .

٢ ــ القوة الجنسية ، ولا يدركها الطفل الا متأخرا نسبيا حيث يدرك أن والديه يمثلان قوة جنسية ، واذا كانت العلاقات الجنسية مجرد علاقات شهوانية او بهيمية بحتة فان فكرة الطفل عن الجنس تنمو سيئة .

٣ ــ الحكمة ، وللاسف فان الحكمة فى المجتمع الحاضر لاتبدو محترمة كما ينبغى .

٤ ـ التأثير الاجتماعي ، ويتضمن نوعية الاشخاص الذين يعرفهم آباء الطفل والذين يتبادلون واياهم الزيارة ، ويقدر الطفل آباءه وخاصة طفل الطبقة الاجتماعية الوسطى ، لمن يعرفهم من اشخاص ، ولما يبدونه من حكمة ومعرفة ، يقول الطفل .. « بابا ليس ضخما او قوى الجسم ، ولكنه يعرف الكثير ، والناس المهمون يعزمونه لبيوتهم ، ويحضر للبيت اسبوعيا مبلغا ضخما من المال (٥٥) » .

وربما يرجع لهذا السبب خضوع اطفال الطبقات الوسطى للضبط ، ويبدو ان التعليم الاجتماعي عموما يتقدم اسرع عندما تفوق نسبة التعزيزات الايجابية اى المكافآت نسبة العقاب .

كذلك وجد ان الثبات او الديمومة في المعاملة تساعد في تعلم الطفل ، حيث يتعرف على تعديل سلوكه بحيث يحصل على ما يريد ويتحاشى ما يرغب في تحاشيه .

تفسير عملية التطبيع الاجتماعي :

هناك نظريات كثيرة لتفسير عملية التطبيع الاجتماعي . ان نمو الفرد يتوقف على مدى رؤيته وردة فعله لقوى التطبيع الاجتماعي التي يستخدمها المجتمع معه . يضع المجتمع الصورة التي يرغب أن يكون عليها نساؤه ورجاله . ويضع عدة قواعد لارشاد الآباء والمعلمين في ذلك ، ولكن كيف يرى الطفل هذه العملية ؟ وما هي المفاهيم والقوى التي تكمن في داخل الطفل والتي تحدد نوع استجابته لهذه المؤثرات الاجتماعية ؟

هناك اتجاهان نظريان في عملية التطبيع الاجتماعي هما :

اولا : نظرية التحليل النفسي ونظرية التعلم الاجتماعي ، فكلاهما يرى ان الراشد الكبير هو المحصلة النهائية لعملية تعلم الاسرة والبيئة كما يراها الطفل ، وكما تؤثر فيه ، اى تعاليم الاسرة والبيئة . فاذا كانت هذه القوى معتدلة كان الطفل سعيدا ، واذا كانت مؤذية او ضارة كان الطفل تعسا . فالكائن الحي تصقله وتشكله خبراته ، فيصبح جيدا او سيئا تبعا لجودة او سوء مثل هذه الخبرات .

تضع النظرية التحليلية توكيدا اكثر من نظرية التعلم الاجتماعي ، على بعض مراحل النمو التي تؤثر فيها الخبرات اكثر من غيرها من المراحل . وهذه السن تبدأ من الميلاد حتى سن السابعة . اما نظرية التعلم الاجتماعي فترى ان الطفل كائن قابل للتعديل والتغيير في اى سن كانت .

ثانيا : الاتجاه الثاني يذهب الى الزعم بان قوى النمو في داخل الكائن البشري هي في الاساس خلاقة ، فاذا كان الطفل مقبولا ، واذا لم توصد الابواب امام اشباع حاجاته ، فانه ينمو شخصا سعيدا خلقيا واجتماعيا . مثل هذه النظرية لا تقلل من اثر التعلم . وانما هي فقط تدعي انه اذا اعطي الطفل ظروفا بناءة فانه سوف يوجه نفسه نحو القنوات البناءة . وينحو

(٥٥) McCandless, B.R. op. cit.

التعلم النشط دورا اقل في هذه النظرية عنه عند فرويد وفي نظرية التعلم الاجتماعي. والعنصر الاساسي في بيئة الطفل هو القبول ، وكان جان‌جاك روسو هو اول من قال بمثل هذه النظرية في كتابه « اميل » وما زال يعتنقها كثير من علماء النفس من امثال كارل روجرز وماسلو Maslow Rogers وجيزل Gesell وان كانوا يختلفون عنه في بعض التفاصيل .

ويمكن تشبيه هاتين النظريتين بحالات من مجال البستنة فالنظرية الاولى ينطبق عليها المبدأ القائل : كما يثنى الجذع تنمو الشجرة على غراره .

وعلى ذلك يوصى بتوفير البيئة الجيدة ذات التربة الصالحة والضوء والماء والتخصيب الضروري ، ولكن التعليم او التشذيب الفعال والتشكيل والتطعيم والتسميد لابد من ممارستها. والنظرية الثانية ايضا تطالب ببيئة ذات تربة ملائمة وضوء وماء وربما ايضا سماد ، ولكنها تميل الى الاعتقاد بأن الطبيعة لديها افضل معرفة عن كيف تنمو الشجرة .

فالتقليم والتطعيم والتشكيل والتسميد والتلقيح التهجيني تترك كلها للمجرى الطبيعي للاحداث وللطبيعة الفطرية للكائن. النظرية الاولى تنادي بمزيد من التعلم النشط كعمل مرغوب ، والثانية تنادي بقليل من هذا التعلم . وطبقا للنظرية الاولى فان الطفل سوف يصبح اجتماعيا وغيريا وايثاريا وواثقا من نفسه الحد الذي يلزمه لكي يكيف نفسه مع الآخرين ولكن يشبع حاجاته . وتتوقف سهولة هذه العملية على مدى كفاءة المعلم ومهاراته ، وعلى مدى ملائمة وكفاءة وفاعلية عملية التدريس . وطبقا للنظرية الثانية فان بذور عملية التنشئة الاجتماعية تكمن في الناس ، وسوف تصل الى اقصى درجات النضج في بيئة تمتاز بالقبول واللطف ، ولكنها بيئة سالبة . وربما يضع جيزل كثيرا من الاهمية للاستعدادية الموروثة للوراثة اكثر من كارل روجرز ، فجيزل لا يقبل القول بان اعطاء الفرد البيئة المناسبة سوف يؤدي الى نموه النمو الملائم .

والواقع اننا لا نعرف الصحيح من هاتين النظريتين ؛ بل ربما لا نعرف اذا كان كلاهما صحيح ام خطأ ، فكلاهما يضع وزنا كبيرا على جوانب البيئة في التنشئة الاجتماعية . فالنظرية الاولى يمكن وصفها بانها نظرية تعليمية ، بينما النظرية الثانية ارتقائية . ويمكن اعتبار فرويد ممثلا للنظرية الاولى وجيزل ممثلا للثانية . النظرية الفرويدية تؤكد دائما النزعة الاجتماعية الفطرية في الانسان ، بمعنى ان الطفل الصغير الاناني يجب ان يتحول الى شخص راشد كبير ايثاري قادر على تأجيل لذاته .

ونظرية التعلم الاجتماعي لا تضع افتراضات ازاء هذه المسألة ، ولكنها تفترض ان الايثار وتأجيل اشباع اللذات يتم تعلمهما اكثر من كونهما فطريتين ، ويضع جيزل كما يضع فرويد تأكيدا كبيرا على توابع ونواتج النمو ، ولكن فرويد لا يضع كل الاهمية ـ كما يفعل جيزل ـ للوراثة كعامل محدد للفروق الفردية بين الناس .

الشيخوخة في المجتمع الانساني المتغير *

أحمد أبو زيد

حين أصدر عالم الاجتماع البريطاني المعاصر بيتر تاونسند Peter Tounsend كتابه الممتع عن « الحياة العائلية لدى كبار السن The Family Life of Old People (١) اعتبر ذلك ايذانا ببدء الاهتمام بميدان جديد من ميادين البحث الاجتماعي ، كان مهملا الى حد كبير حتى ذلك الوقت ، واخذ اهتمام السوسيولوجيين والانثربولوجيين يزداد

(*) سبق ان أصدرت المجلة عددا خاصا بالشيخوخة ، ونظرا لاهمية الموضوع توالي المجلة نشر بعض الدراسات الاخرى من حين لآخر ـ التحرير .

(١) اعتمد تاونسند في تأليف كتابه على دراسة ميدانية اجراها في المدة بين ١٩٥٤ ، ١٩٥٧ في حي Bethnal Green في لندن ودرس اثناءها مائتي حالة لشيوخ متقاعدين عن العمل . وكان السبب الرئيسي وراء هذه الدراسة هو ازدياد الشعور بالقلق في بريطانيا على المسنين الذين كانوا يتزايدون في العدد بسرعة عالية والذين كانوا يعانون من الوحدة والعزلة والانقباض نتيجة لشعورهم بالاهمال من اولادهم واقاربهم ومن الدولة على السواء . وليس ادل على ذلك من أن ١٤٪ من سكان المنطقة كانوا محالين على المعاش ومتقاعدين عام ١٩٥١ ، وهي نسبة عالية ، وكان هناك احساس بأن هذه النسبة في ارتفاع مستمر . وقد تضمنت الدراسة حالات من الجنسين وكانت كل مقابلة تستغرق حوالي ساعتين كانت تستخدم فيها الاستمارة والمقابلة المفتوحة ، وكثيرا ما كانت زيارة المؤلف تتكرر لنفس الاشخاص مرتين وثلاث مرات واحيانا اربع مرات لاستكمال المعلومات ، ولكن الباحث كان يعتمد بالاضافة الى ذلك على بعض المصادر الاخرى التي تلقي مزيدا من الضوء على وضع الشيوخ والمسنين بصفة عامة .

بدراسة الشيخوخة كظاهرة اجتماعية ، وبحياة كبار السن والشيوخ فى المجتمع العربى المتقدم ، والعلاقات الاجتماعية التى تقوم بين مختلف الاجيال ، والدور الذى يلعبه الشيوخ فى حياة المجتمع المعاصر والمشكلات التى يعانون منها ، ونظرة المجتمع والدولة اليهم والخدمات التى تقدم لهم ، ويقارنون هذا كله بما يحدث فى المجتمعات التقليدية والمتخلفة او النامية والجماعات « البدائية » التى لم تصل بعد الى مرحلة التصنيع ، والتى لايزال نظامها الاقتصادى يعتمد على اشكال اكثر بساطة ، مثل الجمع والالتقاط او صيد السمك او قنص الحيوان او الرعي او الزراعة البسيطة .

وليس معنى هذا أن دراسة تاونسند كانت اول دراسة على الاطلاق يطبق فيها المنهج العلمى وتتم بطريقة علمية منظمة ودقيقة . بل الواقع انه هو نفسه كان قد تأثر بعدد من الدراسات التى ظهرت من قبل، والتى عالجت مشكلة الشيخوخة فى بعض المجتمعات المحلية فى بريطانيا ، كما انه يبدو أن عددا من الدراسات حول الموضوع ذاته كانت قد أجريت فى بعض الدول الأوروبية ، وبخاصة فى فرنسا ، حيث تجد بالذات سلسلة طويلة من مشروعات البحوث الكبرى عن سيكولوجية الشيخوخة تتم تحت اشراف سوزان بيكو Suzanne Becaud التى كانت تهتم فى المحل الأول بتغيرات السن واثرها فى الذاكرة ، وفى الوظائف العقلية والسيكوحركية ، وكذلك تأثير التعليم على تراجع هذه الوظائف عند المسنين . كذلك كانت هناك دراسات كثيرة تعالج الشيخوخة من الناحيتين البيولوجية والطبية ، خاصة وان علماء البيولوجيا فى دراساتهم للكائنات العضوية الدنيا ذات دورة الحياة القصيرة كانوا يعتبرون الشيخوخة خاصة اساسية فى دورة الحياة باكملها ، وكانوا بالتالى يميلون الى فهمها على انها جزء له مغزاه فى عملية الحياة ، بينما كان الاطباء يهتمون بالشيوخ نظرا لما يلعبه الطب فى علاج امراض الشيخوخة ومحاولة اطالة الحياة عن طريق التغلب على المرض والعجز (٢) . وكان قد سبق ذلك كله مرحلة كان الاهتمام فيها بدراسة الشيخوخة يعتمد على التأمل النظرى البحت فى الأغلب ، وان كانت هناك الى جانب ذلك بعض المحاولات الجادة للقيام بالبحوث الامبيريقية او حتى التجريبية التى لاداعى للخوض فيها هنا . ولكن على الرغم من هذا كله فان دراسة تاونسند تعتبر احد المعالم الرئيسية فى البحوث الاجتماعية العلمية الدقيقة، بحيث يمكن القول انها ارست قواعد الدراسة السوسيولوجية فى هذا المجال الهام ، وبحيث نجد عددا من تلاميذ تاونسند يكرسون جهودهم لدراسة الشيخوخة من زواياها المختلفة ، ويصدرون فى ذلك عددا من الكتابات والدراسات التى شجعت على القيام بدراسات مماثلة خارج بريطانيا ، مما ادى فى آخر الأمر الى ان اصبح علم الشيخوخة علما اجتماعيا بقدر ماهو علم بيولوجى ، بل لقد اخذ علماء الاجتماع والانثربولوجيا فى السنوات الأخيرة يسيطرون سيطرة كبيرة على دراسات الشيخوخة ، ويسلطون كثيرا من الاضواء على النواحى والمظاهر الاجتماعية لمشكلة الشيخوخة ، وهى المظاهر التى لا يعطيها الأطباء وعلماء البيولوجيا ما تستحقه من عناية وذلك بحكم تخصصهم الدقيق . ولكن المهم هنا هو ان الاهتمام بدراسة الشيخوخة من الناحية الاجتماعية اهتمام حديث نسبيا رغم ما احرزه من نجاح وتقدم . وان معظم المحاولات التى بأيدينا تدرس المشكلة فى جماعات وفئات معينة بالذات ، أو فى مجتمعات محلية محددة

(٢) انظر فى ذلك John E. Anderson, « Research on Ageing " in Burgess, E. W. (ed.) ; Ageing in Western Societies, A comparative Survey, Chicago University Press, 1960, 1969.

لتحقيق اكبر قدر ممكن من الدقة العلمية ، ولامكان التعمق فى التحليل . وعلى الرغم من تزايد الدراسات والبحوث الاجتماعية والانثربولوجية والسيكولوجية فى هذا المجال، فان هذه الدراسات والبحوث لاتزال قليلة اذا هى قورنت بما حققه الاطباء وعلماء البيولوجيا الذين كان لهم بغير شك فضل السبق فى دراسة ظاهرة الشيخوخة عند الانسان .

وعلى اية حال فان علماء الاجتماع والانثربولوجيا فى دراساتهم الشيخوخة يأخذونها على انها اكثر من مجرد تغيرات بيولوجية وفسيولوجية وفيزيقية تطرأ على الجسم البشرى نتيجة للتقدم فى السن ، ويعتبرونها ظاهرة اجتماعية تتمثل فى موقف معين يقفه المجتمع من الفرد ويفرض عليه بمقتضاه قيودا وحدودا وقواعد سلوكية يلتزم بها ، كما تتمثل من الناحية الاخرى فى موقف معين ايضا يقفه الفرد نفسه من نفسه ومن الآخرين ، ويتمثل فى التزامه بتلك القواعد والقيود والمبادىء التى يفرضها له المجتمع ، كما يمتنع عن كثير من الامور التي كان يبيحها لنفسه قبل ان يصل الى تلك السن . ويقول آخر ان علماء الاجتماع والانثربولوجيا يعتبرون الشيخوخة احدى المراحل التى يمر بها الفرد خلال دورة الحياة وتلابسها مظاهر سلوكية وقيم اجتماعية معينة ، كما انها فى الوقت ذاته منزلة اجتماعية يحتلها الفرد بحكم السن التى وصل اليها ، ودور اجتماعى يلتزم بالقيام به وادائه ... وربما كان هذا اوضح فى المجتمع البدائى والتقليدى منه فى المجتمع الصناعى الحديث .

(١)

لقد اهتم علماء الانثربولوجيا بالذات بدراسة هذا الموضوع وتتبع ظاهرة الشيخوخة فى الأساطير والتراث القديم وفى المجتمعات القبلية « البدائية » ولدينا ذخيرة هائلة من المعلومات المتعلقة بالشيوخ والشيخوخة فى هذه المجتمعات الأخيرة بوجه خاص . والواقع ان كثيرا من النظم الاجتماعية لدى القبائل الافريقية والاسترالية وقبائل الهنود الحمر وغيرها يصعب فهمها ان لم يؤخذ فى الاعتبار موقف تلك المجتمعات من الشيوخ والمكانة الاجتماعية التي يتمتعون بها هناك ، والادوار التي يقومون بها ، والوظائف التى يؤدونها فى تماسك الجماعة .

فالمجتمعات القبلية التي توصف عادة فى الكتابات الانثربولوجية بانها مجتمعات بدائية او « متخلفة » تختلف فى نظرتها الى الشيوخ والشيخوخة اختلافا كبيرا عن المجتمعات الحديثة المتقدمة ، وبخاصة المجتمعات الصناعية . وربما كان السبب الرئيسي فى تلك الاختلافات هو ان الظروف والاحوال العامة فى المجتمع « البدائي » او البسيط او المتخلف لا تسمح الا لنسبة ضئيلة جدا من السكان بان تعيش حتى مرحلة الشيخوخة المتقدمة ، وذلك نظرا لانخفاض مستوى العناية الطبية والتربية الصحية او التثقيف الصحي هناك ، وتفشي الامراض والأوبئة والمجاعات التي تقضي على نسبة كبيرة من السكان فى مرحلة الطفولة او الشباب . ولذا فان الشيخوخة كعملية بيولوجية تكاد لا تكون مفهومة تماما عند هؤلاء « البدائيين » حيث يموت الناس فى العادة فى سن صغيرة نسبيا وهم لا يزالون قادرين على العمل وعلى المشاركة فى الحياة . ومن هنا فان عدد الاشخاص الذين يحتاجون فعلا الى الاعالة فى الجماعات القبلية قليل نسبيا ويكاد لا يعتبر عبئا على الجماعة الا فى الحالات التي يتعرض فيها المجتمع ككل الى المجاعات الشديدة . وعلى ذلك فان الشيخوخة من حيث هي مشكلة تحتاج الى حل ليست قائمة هناك بنفس المعنى الذى نجده فى المجتمع الصناعى الحديث الذى تؤلف فيه الشيخوخة مشكلة ضخمة تحتاج الى تكوين مؤسسات تتولى امر

الشيوخ والعناية بهم ، ووضع القوانين والقواعد والتنظيمات التى تنظم حياة هؤلاء الشيوخ وتهتم بتوفير مستوى اقتصادى واجتماعى معين لهم بعد أن استغنى المجتمع عن خدماتهم . وليس ثمة شك فى ان التكافل الاجتماعى القائم على اساس الروابط القرابية فى المجتمعات البسيطة والتقليدية ، والذى يقضى على اعضاء الجماعة القرابية الاهتمام والعناية بامر افراد الجماعة من الشيوخ والمتقدمين فى السن ، يساعد مساعدة فعالة على حل مشكلات الشيخوخة فى تلك المجتمعات . ومما يخفف من وطأة الشيخوخة على الشيوخ انفسهم وعلى بقية افراد الجماعة فى وقت واحد ان تلك المجتمعات البسيطة وبخاصة « البدائية » منها تحاول بقدر الامكان الافادة من هؤلاء الشيوخ ومن خبراتهم العميقة فى شئون الحياة ، ومن هنا فانها تحدد لهم مركزا معينا ودورا يتعين عليهم اداؤه ، وانواعا محددة من النشاط الاجتماعى – او حتى الاقتصادى – تتناسب مع ضعفهم الفيزيقى النسبى بحيث لا يشعر المجتمع بانه يتحمل نحوهم مسئوليات ثقيلة او انهم يشكلون عبئا يصعب حمله ماداموا يؤدون لهذا المجتمع وظيفة لها اهميتها بالنسبة اليه على ما ذكرنا من قبل .

والواقع ان الشيخوخة فى المجتمع «البدائي» والتقليدي تعتبر فى حد ذاتها انجازا له اهميته ومكانة متميزة ، وتجلب لصاحبها الاحترام الذى يتناسب مع المركز الاجتماعى السامى الذى يحتله فى الحياة الاجتماعية . فاهمية الفرد فى المجتمع البدائي لا ترتبط بالضرورة بقدرته على الانتاج الاقتصادى ، أو على الاصح بالمجهود الفيزيقى الذى يبذل فى عملية الانتاج. اذ ليس من شك فى ان العمل الشاق الذى يتطلب لياقة بدنية عالية وقدرة فيزيقية كبيرة انما يضطلع به الشبان . ولكن هذا لا يعنى اطلاقا عدم مشاركة الشيوخ فى النشاط الاقتصادى ، اذ انهم يضطلعون بدور حيوى له اهميته فى عملية الانتاج ، ونعنى به الشعائر والطقوس السحرية والدينية التى تعتبر عنصرا اساسيا لضمان نجاح اية عملية انتاجية، ويستوى فى ذلك صيد السمك أو قنص الحيوان او تفليح الارض او بذر او حصد المحصول او غير ذلك . فهذه كلها انواع من النشاط الاقتصادى لا يمكن البدء فيها ان لم تسبقها شعائر وطقوس معينة يقوم بها الشيوخ، وتعتبر ممهدة لذلك النشاط ومتممة له . ومن هنا فان علماء الانثربولوجيا الذين اتيحت لهم فرصة دراسة الدور الذى تلعبه هذه الممارسات السحرية والدينية فى الحياة الاقتصادية يعتبرونها بالفعل جزءا من عملية الانتاج ، مما يعنى بالتالي ان الشيوخ يسهمون بالفعل ايضا فى الانتاج ، وان كان المجهود الفيزيقي الذى يبذلونه فى ذلك عديم الاثر ، او على الاقل غير واضح تماما .

والامثلة كثيرة على ذلك :

فبعض علماء الانثربولوجيا من امثال مالينوفسكى Malinowski وايفانز بريتشارد Evans-Pritchard وفيرث Firth يميزون بين « انواع » السحر المختلفة حسب وظائفها، ويذكرون ضمن هذه الأنواع السحر الانتاجى Productive الذى يهدف الى تحسين الانتاج ووسائله وتنظيم العمل ، والتحكم فى عوامل الطبيعة التي تساعد على ذلك مثل المطر . ومالينوفسكى بالذات يعطى لهذا السحر جانبا كبيرا من اهتمامه ، وهو يدرس عناصر الانتاج فى المجتمع البدائي وبخاصة مجتمع التروبرياند Trobriand الذى درسه ، ويشير بوجه خاص الى ما يسميه **بسحر الحدائق** Garden Magic ، وهو السحر الذى يمارسه الناس هناك بقصد تحقيق محصول وافر من نبات اليام Yam الذى يعتبر الغذاء الرئيسى عندهم ، وبدون ممارسة هذا السحر لن تفلح

الزراعة ولن تحقق محصولا وفيرا . ويقوم الشيوخ باداء تلك الممارسات والطقوس ، ويعتبر ذلك هو الاسهام الذى يسهمون به فى النشاط الاقتصادى ، على الاقل فى ميدان الزراعة (٢) كذلك نجد عند كثير من القبائل الافريقية تدخل العناصر الغيبية المتعلقة بالآلهة والارواح والطواطم فى النشاط الاقتصادى ، وهى عناصر يشرف عليها الشيوخ وكبار السن فى تلك الجماعات . فالشعوب النيلية مثلا تعرف ما يسمى بنظام **« شيخ الارض »** ، وهو من الرؤساء الدينيين الذين يتمتعون بقوة روحية خارقة ، وبمكانة دينية عالية ، ويشرف على توزيع الارض فى كل موسم زراعى بين العائلات المختلفة التى يحق لها زراعة تلك الارض ، كما انه يقوم بالصلوات والادعية والطقوس قبل الشروع فى زراعة الارض حتى يضمن نجاح المحصول وابعاد الآفات عن الزراعة . وتعتقد هذه الشعوب أن زراعة الارض بدون الرجوع الى هذا « الشيخ » وبدون القيام بهذه المراسم والطقوس ، سوف يودى بالزرع والمحصول . وهذا نفسه يصدق على بعض الزعماء الروحيين والدينيين فى تلك المجتمعات القبلية ذاتها ، وفى بعض المجتمعات النيلية الحامية فى شرق افريقيا والذين يعرفون على العموم باسم « صانعى المطر » . ومهمة « صانع المطر rain-maker » هى القيام بالصلوات والادعية الخاصة بالاستسقاء واستنزال المطر فى سنوات الجدب ، ولذا كانت وظيفته من اهم الوظائف المكملة للحياة الاقتصادية فى تلك الشعوب . (٤)

ومن التسليم بان افرادا قلائلا فقط هم الذين يمارسون هذه المراسيم والطقوس فى تلك المجتمعات نتيجة لخبرتهم ودرايتهم بفنون السحر ، فان القيام بهذه الممارسات يعتبر وقفا على الشيوخ والمتقدمين فى السن ممن يحذقون هذه الفنون ، بل انه ليس من المفروض ان يقوم باداء دور « شيخ الارض » او « صانع المطر » او ان يمارس سحر الحدائق وغيره من انواع السحر الانتاجى الأخرى الا من يكون قد بلغ مرحلة معينة من العمر هى مرحلة الشيخوخة ، اى ان هذه الادوار تعتبر بالضرورة من ادوار الشيخوخة ومن اوجه النشاط التى ترتبط بالضرورة بتلك المرحلة . وربما كان هذا أوضح فى المجتمعات القبلية التى يقوم تنظيمها الاجتماعى على مايعرف باسم نظام او نسق طبقات العمر age-set system.

•••

(٢) انظر بوجه خاص كتاب مالينوفسكى عن حدائق المرجان وسحر الحدائق وهو بعنوان :
Malinowski, B., Coral Gardens and Their Magic.

كذلك راجع ما ذكرناه فى ذلك الصدد فى الجزء الثانى من كتابنا : البناء الاجتماعى (الانساق) ، صفحة ١٢٨ حاشية ٢ حيث نقول ان الاستاذ مالينوفسكى يذكر فى كتابه Argonauts of the Western Pacific كثيرا من الطقوس التى يمارسها سكان جزر التروبرياند قبل الخروج الى رحلات التبادل المعروفة باسم الكولا ، وانهم يمارسون سحر الحدائق او « سحر الزراعة » حتى يضمنوا ليس فقط نجاح المحصول ، بل ولكى يحصلوا ايضا على ثمرات كبيرة من نبات اليام الذى يهتمون بزراعته . « فسكان هذه الجزر يتنافسون فيما بينهم على الحصول على درنات كبيرة الحجم يتخذون منها مصدرا للتفاخر فيما بينهم . ولكنهم يصلون الى ذلك ليس فقط بفضل الجهود الكبيرة التى يبذلونها فعلا فى الزراعة والعناية بالحقول ، بل وايضا عن طريق ممارسة نوعين من السحر ، احدهما يهدف الى نجاح زراعة الشخص وكبر حجم الدرنات التى تنبت فى ارضه ، والاخر يهدف الى افساد زراعة غيره من الزراع الذين يتنافسون معه . وكان من نتيجة ذلك ظهور نوع ثالث من السحر يحاول كل منهم ان يبطل به مفعول السحر الذى يوجهه خصومه الى زراعته وهكذا » . وليس من شك فى ان الشيوخ وكبار السن هم الذين يقومون بهذه الممارسات السحرية التى تؤثر تأثيرا مباشرا فى الحياة الاقتصادية .

(٤) Seligman, C. G. and Brenda Z., Pagan Tribes of the Nilotic Sudan, Routledge 1932, pp. 195-200 ; 326-34 and 398-404.

ويظهر نظام « طبقات العمر » في عدد من المجتمعات « البدائية » التي يقوم التفاضل الاجتماعي فيها على اساس السن او العمر وليس على اساس الثروة مثلا كما هو الحال بالنسبة للغالبية العظمى من المجتمعات . وليس المقصود من (العمر) هنا السن الفسيولوجية أو المراحل العمرية التي يمر بها الفرد في حياته من الطفولة الى المراهقة والشباب الى الرجولة الكاملة ، انما المقصود هو تقسيم اعضاء المجتمع ـ وبخاصة الذكور منهم ـ الى جماعات وفئات طبقية بحيث تشمل كل جماعة منها جميع الافراد الذين ينتمون الى سن معينة ، مما يؤدي في آخر الامر الى ترتيب السكان جميعا في طبقات تعلو احداها الاخرى ، ويقف كل منها موقفا معينا من بقية الطبقات التي تعلوها او تأتي دونها في السلم الاجتماعي ، كما تعمل الطبقة الواحدة وتتصرف في كل شئون الحياة الاجتماعية ككل أو كوحدة متماسكة .(٥) **فكان طبقة العمر هي جماعة محددة منظمة تضم جميع الاشخاص الذين ينتمون الى سن واحدة ، وغالبا ما تتألف من الذكور وحدهم.** وتتكون طبقة العمر في العادة من الاشخاص الذين يكرسون معا في وقت واحد . وبمجرد التحاق الشخص بطبقة عمر معينة نتيجة تكريسه فيها فانه يظل معتبرا عضوا في تلك الطبقة طيلة حياته . ويطلق على كل طبقة عمر في كثير من الاحيان اسم واحد يعرف به افراد الطبقة جميعا ويشتركون في حمله ، كما انهم يشغلون جميعا نفس المركز الاجتماعي ويتبعون نفس انماط سلوكه في معاملتهم بعضهم بعضا ، ويتخذون موقفا واحدا ازاء غيرهم من الناس ممن ينتسبون الى طبقة العمر التي تعلو طبقتهم او التي تكون ادنى منها في المنزلة . وعلى هذا الاساس فان (طبقة العمر) تختلف تماما عن (مرحلة العمر) التي تطلق عادة على تلك الاقسام المعروفة التي تنقسم اليها **حياة الفرد من حيث هو فرد** من الطفولة الى الشيخوخة ، وذلك بعكس الحال بالنسبة لطبقة العمر التي لها معنى اجتماعي وجماعي، ولا ينظر للفرد فيها الا باعتباره عضوا في تلك الجماعة او (الطبقة العمرية) .

فكانه يمكن حصر الفوارق الاساسية بين هذين النوعين من التقسيم ، اي طبقات العمر ومراحله ، في نقطتين : الاولى هي ان الرجل الفرد لا يستطيع بحال ان يغير طبقة العمر التي ينتمي اليها . فولادة الفرد أو تكريسه في طبقة عمر معينة يعني انتماءه الى تلك الطبقة طيلة حياته . بينما هو ينتقل بالطبع وبحسب نموه من مرحلة عمر معينة الى المراحل التالية بمرور الزمن وبفعل تقدمه في السن . والنقطة الثانية هي ان فكرة التماسك والتمايز التي تعتبر ركنا جوهريا في (طبقة العمر) لا تظهر على الاطلاق في (مرحلة العمر) . فطبقة العمر هي جماعة من الناس تتميز باتحادها وتضامنها في اداء واجبات واعمال معينة مرسومة ، كما تتمتع كوحدة بحقوق وامتيازات محددة ، وتؤدي ـ كوحدة ايضا ـ وظائف معينة في الحياة الاجتماعية بشكل لا يتوفر في مرحلة العمر . وهذا هو ماسبق ان ألمحنا اليه حين ذكرنا ان طبقة العمر لها معنى اجتماعي بينما يصطبغ مفهوم مرحلة العمر بصبغة فسيولوجية غالبة . **ومع ذلك ، فهناك علاقة وثيقة بين الاثنين** ، اذ لايمكن فهم نظام طبقات العمر الا بدراسة هذه الطبقات في ضوء علاقتها بالمراحل العمرية التي يمر بها الانسان في حياته ، وذلك على اساس ان احتلال الطبقة

---

(٥) يوجد هذا النمط من التمايز الاجتماعي في مجتمعات معينة بالذات في افريقيا وامريكا وبعض جزر المحيط الهندي وبعض قبائل استراليا ، ولكنه لا يتمثل بوضوح وقوة في اي منها كما يتمثل في شرق افريقيا عند مجموعة الشعوب المعروفة باسم الشعوب نصف الحامية Half-Hamistes وبخاصة عند القبائل النيلية الحامية او النيلو حامية Nilo-Hamites وهي كلها مجتمعات تتفرد بنسق سياسي معين .

مركزا اجتماعيا معينا ، وانتقالها من مستوى اجتماعى الى مستوى آخر اعلى منه يرتبط بالانتقال التدريجى بين مراحل العمر المختلفة، كما ان الطبقات التي ينقسم اليها سكان المجتمع تتوزع في العادة بين مختلف المراحل العمرية (انظر في ذلك مقالنا عن : « نظام طبقات العمر ـ دراسة في الانثربولوجيا المقارنة » ـ مجلة الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٢) .

وليس هنا مجال تفصيل القول في الشعائر التي تمارس لتكوين طبقة جديدة او لالحاق الشبان المراهقين بهذه الطبقة الجديدة ، وهى الشعائر التى تعرف عادة باسم شعائر التكريس initiation ceremonies ويكفى ان نقول ان هذه الشعائر هى التى تحدد تكوين الطبقة والاشخاص الذين ينتمون الى الطبقة الواحدة ، وانها قد تستغرق مدة سنوات حتى يسمح لعدد كبير من الشبان بالدخول فيها لتكوين طبقة واحدة قوية ومتماسكة ومتعاونة، وذلك قبل ان يغلق موسم التكريس وتمر سنوات اخرى طويلة تتراوح بين سبع سنوات وخمس عشرة سنة قبل ان يبدا موسم جديد للتكريس لتكوين طبقة جديدة وهكذا .

وتعرف الطبقة الجديدة دائما باسم طبقة الابطال المحاربين لانهم يتولون الوظيفةالحربية، اى الدفاع عن أرض القبيلة او الهجوم على القبائل الاخرى المعادية . وتظل هذه الطبقات تمارس هذه الوظيفة حتى يتم تكوين طبقة عمرية اخرى تزيح طبقة المحاربين من وظيفتها وتحتل مكانها ، بينما ينتقل المحاربون القدامى الى مرتبة اجتماعية أعلى هى مرتبة شيوخ العشيرة ، وهذا يؤدى بالضرورة الى زحزحة جميع الطبقات الاخرى الموجودة بالفعل ونقلها الى مراكز اعلى من تلك التى كانت تشغلها قبل تكوين الطبقة الجديدة ، اى ان الطبقة الناشئة لاتمارس حقها في القيام بوظيفة المحاربين الا بعد تقاعد الطبقة التى تقوم بالفعل بهذه الوظيفة وتنازلها عن السلطات المخولة لها لتلك الطبقة الجديدة الناشئة .

ويتم هذا في معظم المجتمعات التى تعرف هذا النظام كل خمس عشرة سنة ، وبمقتضى ذلك تحدث نقلة الى اعلى في كل مكونات البناء الاجتماعى مع احتفاظ البناء ذاته بشكله وبالنسب القائمة بين تلك المكونات . اى ان الطبقات كلها تنتقل من مرتبة الى اخرى اعلى منها في ترتيب تصاعدى كلما تكونت طبقة جديدة ، ولكن العلاقات النسبية بين الطبقات التى تشغل مختلف المراتب تظل كما هى بدون تغيير . واختلاف الطبقات يستتبع بالضرورة اختلاف المرتبة والمركز . والطبقة تعتبر في ادنى مستويات التمايز الطبقى بعد تكوينها مباشرة وتصل الى اعلى تلك المستويات حين تقترب نهايتها ، اى حين يموت معظم افرادها بفعل السن وتكاد تختفى من الوجود .

ويختلف عدد المراتب الاجتماعية التى تمر بها طبقة العمر الواحدة من مجتمع لاخر وان كان ثمة ميل عام الى التمييز بين ثلاث مراتب اساسية هى البطولة والرجولة الكاملة والشيخوخة . وقليل من هذه المجتمعات يعتبر الطفولة مرتبة تشغلها الطبقة لفترة معلومة من الزمن . ولكل مرتبة من هذه المراتب وظيفة خاصة بها . **فالبطولة وظيفتها الحرب** كما سبق ان ذكرنا ولكن هذه الوظيفة تتضمن بالضرورة وظيفة أخرى هامة هى الوظيفة الاقتصادية ، لان الحرب في كثير من الاحيان يكون الغرض منها شن الاغارات على معسكرات الاعداء لسرقة الماشية (الابقار) التى تلعب دورا هاما جدا في الحياة الاجتماعية كلها علاوة على قيمتها الاقتصادية ، وذلك على اعتبار ان الماشية هى اداة دفع المهر ودفع الدية وتقديم القرابين والاضحيات الى الآلهة في تلك المجتمعات الوثنية وهكذا . **وترتبط مرتبة الرجولة الكاملة بالاشتغال بامور الحياة المدنية**

والاقتصادية والسياسية ، وافراد الطبقة التى تشغل هذه المرتبة يدخلون فى تاليف مجالس الوحدات الاقليمية والقبلية التى تنظر فى المنازعات الداخلية بين افراد القبيلة وتحاول انهاء الصراع ، اى أن وظيفتهم فى الاغلب وظيفة سياسية . **واما مرتبة الشيخوخة فانها ترتبط بوجه خاص بالوظيفة الدينية . فطبقات الشيوخ هى التى تشرف على امور الدين وعلى الطقوس والشعائر باعتبارهم اكبر الأحياء سنا فى المجتمع واقربهم بذلك الى الموت والى العالم الاخر وادناهم بالتالى الى الآلهة ، ولذا يلجا الناس اليهم فى الملمات والازمات ، كما يطلبون اليهم التحكيم فيما قد ينشب بينهم من خلافات ويقبلون آراءهم ويخضعون لمشورتهم ونصحهم نظرا لمكانتهم الدينية الممتازة .**

ولسنا هنا بصدد الحديث عن نظام طبقات العمر فى ذاته وانما الذى يهمنا هو تبيين دور الشيوخ فى بعض المجتمعات (البدائية) والوظيفة التى يقومون بها فى تلك المجتمعات وهى وظيفة اساسية وهامة ، تم تحديدها لهم حسب نظام محكم دقيق فى جملته ، وياخذ فى الاعتبار القدرات الجسمية والكفاءة الذهنية وما يكتسبونه من خبرة وتجربة نتيجة لتقدمهم فى السن . ومما له دلالته هنا ان تكوين الطبقة الجديدة التى سوف تحتل مرتبة البطولة لايتم الا بموافقة الشيوخ او اعلى طبقة من طبقات الشيوخ فى حالة تعدد هذه الطبقات فى المجتمع ، وأن الفتيان انفسهم هم الذين يلجاون الى شيوخ العشيرة طالبين اليهم الاذن بالتكريس . ويخضع الفتيان اثناء شعائر التكريس ذاتها وفى خلال المدة التى تستغرقها تلك الشعائر والتى قد تمتد الى عدد من السنين لنوع من الاشراف من طبقة الشيوخ ، كما انهم يتلقون كثيرا من التعاليم والتوجيهات والدروس التى تتعلق بنوع السلوك المنتظر منهم بعد التكريس ، وتتعاون طبقات الشيوخ كلها فى هذه المهمة التربوية الحيوية بالنسبة للمجتمع وللمحافظة على كيانه واستمرار تقاليده وقيمه الاجتماعية والثقافية . بل ان الحرب الهجومية ذاتها او الاغارات التى هي وظيفة طبقة الأبطال المحاربين لايمكن ان تبدأ الا بعد استئذان شيوخ العشيرة وتلقى بركاتهم ودعواتهم التى تعتبر عنصرا اساسيا هاما لنجاح الاغارة او الحملة . والواقع ان الانتصار فى الحرب ونجاح الحملة او فشلها هو مسئولية الرؤساء الشعائريين او السحرة ورجال الدين قبل كل شيء ، لانهم هم الذين يعينون الوقت الملائم للحرب الناجحة ، وهم الذين يضمنون بذلك نجاح الحملة وانتصارها .

فواضح اذن من هذا كله ان الشيوخ فى هذه المجتمعات يتعدون فى وظائفهم المجال الاقتصادى البحت ، ويلعبون دورا اكبر واوسع واشمل بحيث يتغلغلون فى كثير من نواحى الحياة الاجتماعية بطريق مباشر او غير مباشر ، ويؤثرون فى كل مجالات الحياة . وهذا معناه فى آخر الامر ان لهم فى تلك المجتمعات التى يطلق عليها اسم المجتمعات البدائية دورا ايجابيا واضحا يساعد على تشكيل الحياة الاجتماعية واستمرارها . وقد تختلف تفاصيل هذا الدور من مجتمع لاخر وانما المهم هو ان الشيوخ فى كل هذه المجتمعات يشاركون مشاركة فعلية وفعالة فى حياة المجتمع ، وانهم يشعرون بذلك ، كما أن المجتمع ذاته يشعرهم طيلة الوقت بحاجته اليهم . وهذه كلها مواقف تكاد لانجد لها مثيلا فى المجتمعات الصناعية المتقدمة والمجتمع الحديث على العموم .

(٢)

هذا الوضع يعتبر فى حقيقة الامر هو الوضع المنطقى فى كل المجتمعات الانسانية التى تلعب الروابط العائلية والقرابية فيها دورا هاما فى الحياة اليومية، وبالذات فى الحياة الاقتصادية، بحيث نجد ان اعضاء الجماعة القرابية يعتبرون

الشيوخ والمسنين عاملا من عوامل قوة الجماعة واستمرار وجودها وبقائها . ويصل الامر في بعض الاحيان وفي بعض المجتمعات الى حد ان نجد الشخص يبيع المرتبة الاجتماعية التى يحتلها بحكم السن ، الى من هم أصغر منه سنا لكى يشترى مرتبة اجتماعية اعلى ترتبط بدرجة اعلى من الشيخوخة . وهذا هو ماكنا نقصده حين ذكرنا ان الشيخوخة تعتبر في ذاتها نوعا من الانجاز في مثل تلك المجتمعات . وليس ادل على ذلك من ان المجتمعات البسيطة تترجم تنظيماتها الاجتماعية المختلفة في حدود والفاظ وعلاقات قرابية وعائلية على اعتبار ان هذه العلاقات هى الاساس القوى الذى يمكن ان تقوم عليه حياة المجتمع وتماسكه وتضامنه واستمراره . ونظام طبقات العمر ذاته الذى اشرنا اليه في الفقرة السابقة لايخرج عن ذلك في آخر الامر . ذلك ان الانتماء الى اى طبقة عمرية انما يتم بعد ممارسة شعائر التكريس التى بمقتضاها يصبح جميع افراد الطبقة اخوة واخوات على ماذكرنا . (٦) وهذه اخوة اجتماعية او اخوة متخيلة او متوهمة fictitious كما يحب بعض علماء الانثربولوجيا ان يصفوها ، وليست اخوة بيولوجية او حقيقية ، ولكنها تخضع مع ذلك لجميع القواعد والالتزامات والحقوق والواجبات والمسئوليات التى تخضع لها الاخوة الحقيقية . ويتمثل ذلك في التعاون والتماسك بين افراد الطبقة وفي الامتناع عن التزاوج فيما بينهم او من بين اولاد بعضهم بعضا على اعتبار ان العلاقات الجنسية بين الاخوة والاخوات وذريتهم علاقة محرمة . بل ان طبقة العمر الواحدةتنظر الى الطبقات التى تعلوها على انها طبقات آباء واجداد اجتماعيين تقع عليهم كل المسئوليات التى يجب ان يضطلع بها الآباء والاجداد الحقيقيون ، كما انها تنتظر من الطبقات التى تصغرها ان تلتزم ازاءها بنفس الالتزامات التي يلتزم بها الابناء الحقيقيون . فكان نظام طبقات العمر ـ بشكل ما ومن زاوية معينة ـ نوع من التنظيم القرابى الاجتماعى او التخيل الذى يلجا اليه المجتمع القبلى لكى يحافظ به على كيانه واستمراره وعلى تماسكه ، على اعتبار ان اقوى اشكال التماسك في المجتمع البسيط هو ذلك الذى يقوم على اساس القرابة .

والمجتمعات البسيطة اساليبها الخاصة في تشكيل نظمها الاجتماعية بحيث تتخذ في آخر الامر شكل التنظيم القرابى او على الاقل تقوم على اساس العلاقات القرابية والعائلية الحقيقية او الاجتماعية (المتخيلة) وبذلك يرتكز التكافل الاجتماعى في هذه المجتمعات على قاعدة قرابية وليس على مجرد المصالح الاقتصادية او السياسية . وليس ادل على ذلك من النظام المعروف باسم النظام الطوطمي Totemism الذى يشيع في كثير من

(٦) تكتسب طبقة العمر وجودها المتمايز وكيانهاالتماسك بعد ان يتم بالفعل تكريس كل الافراد الذين تتالف منهم ، اى انها لا تظهر كوحدة وظيفية الا بعد التكريس .وتقام معظم حفلات التكريس على المستوى الجماعى ، ويعتبر الختان اهم عنصر فيها ، كما يتعرض الفتيان اثناءها لكثيرمن التعذيب والمتاعب التى تختلف في الشدة والقسوة من مجتمع لآخر ، مثل خلع بعض الاسنان ، او تشليخ الجبهةوالراس ، او الوخز بالاشواك والشجيرات ، او الجلد بالسياط ، وهذه كلها عمليات تهدف الى اختبار قوة احتمال الشبان على ملاقاة الصعاب كما انها تعدهم للقيام بدور الابطال المحاربين على ما ذكرنا . وليس من شك في ان الانتماء الى طبقة واحدة والمرور بفترة التكريس والخضوع لتلك الشعائر القاسية المتعبة التى قد تتضمن احيانا عزلة افراد الطبقةلفترة معينة عن بقية المجتمع تخلق بينهم نوعا من (الاخوة) الاجتماعية التي لا تعتمد على روابط الدم ، وذلك على اساس ان افراد الطبقة ينتسبون في العادة الى عشائر مختلفة داخل القبيلة الواحدة ، ويساعد على خلق علاقة (الاخوة)الاجتماعية نفس عملية الختان او التشليخ الجماعية حيث يمارسها على جميع افراد الطبقة شخص واحد في وقتواحد ، مستخدما في ذلك سلاحا واحدا لا يهتم بتنظيفه بعد كل عملية فتختلط الدماء فيما لذلك مما يوجد نوعا من الرابطةبينهم ـ انظر في ذلك كتابنا : « البناء الاجتماعى » ، الجزء الثاني ـ الانساق . صفحة ٢٠٠ .

المجتمعات الافريقية القبلية وفى استراليا وغيرها ، والذى يؤدى فى آخر الامر الى ايجاد روابط قرابية اجتماعية بين اشخاص لا يرتبطون فى حقيقية الامر باية روابط قرابية فيزيقية او دموية . فأعضاء الجماعة الطوطمية يعتبرون انفسهم متحدرين من سلالة ذلك الطوطم (وهو حيوان او نبات أو قوة طبيعية تلعب دورا هاما فى حياة الجماعة) ويحملون اسمه ، وبذلك يعتبرون انفسهم اخوة واخوات، ويحرم عليهم بالتالى الزواج فيما بينهم . ومع أن افراد الجماعة الطوطمية قد يكونون مبعثرين كل التبعثر وتكاد لا توجد بينهم روابط قرابية حقيقية فان هذا لا يقلل بحال من قوة الروابط القرابية الاجتماعية . والذى يهمنا هنا بصفة خاصة هو المسئوليات التي تلقى على اعضاء الجماعة الطوطمية ، بصرف النظر عن وجود أو عدم وجود علاقات قرابية حقيقية ، وهذه المسئوليات والالتزامات لها الى جانب مغزاها القرابى دلالات اجتماعية واقتصادية تتمثل فى التعاون المتبادل الذى يمتد الى رعاية الشيوخ والمسنين من اعضاء الجماعة .

وهكذا نرى ان المجتمعات البسيطة او « البدائية » تستطيع باساليبها واجراءاتها الخاصة فى خلق روابط قرابية اجتماعية أو متخيلة حتى بين الأغراب انما لتهيىء لنفسها نوعا من (الضمان الاجتماعى) ضد الأزمات التى تمر بها من ناحية ، بحيث يصلح هذا الضمان الاجتماعى لتامين حياة اعضاء الجماعة تحت الظروف القاسية التي تسود فى تلك المجتمعات . ويمتد هذا الضمان الاجتماعى بحيث يشمل بطبيعة الحال الشيوخ وكبار السن باعتبارهم اعضاء فى الجماعة (القرابية) او باعتبارهم اقارب وعلى اساس ان الوحدة القرابية هى بالضرورة وحدة متعاونة ومتماسكة . وبهذه الطريقة يتمكن المجتمع البسيط او البدائي ان يقضى على المشاكل التي تعانى منها المجتمعات الأخرى نتيجة لشيخوخة بعض اعضائها وتقدمهم فى السن .

•••

ويمكن ان نجد مثيلا لذلك فى المجتمعات التقليدية التي لا يزال يغلب عليها طابع الحياة الريفية ، بل وايضا فى المناطق الريفية فى الدول المتقدمة . وليس من شك فى ان الثورة الصناعية وما ترتب عليها من آثار فى بناء العائلة هي المسئول الأول عن ظهور مشكلة الشيخوخة بالحجم الذى نراها عليه فى المجتمع الحديث ، وهذه مسالة سوف نعرض لها بالتفصيل فيما بعد ، ولكن الذى يهمنا الآن هو انه قبل هذه الثورة الصناعية فى أوروبا كان الشيوخ وكبار السن يجدون اشباعاتهم فى التعائلم العائلى ، حيث كان النمط السائد للعائلة هو العائلة الممتدة extended family التي يجد فيها الفرد ـ بصرف النظر عن سنه ـ الأمان والاطمئنان والاستجابة والاعتراف بالكيان ، وحيث كان الشيوخ يؤدون وظيفة وظيفة اجتماعية حيوية تتمثل ـ فى ابسط صورها ـ فى تقديم خبرتهم ونصحهم وارشادهم لاولادهم الكبار البالغين على ما يقول بيرجس Burgess (٧) .

والمعروف ان العائلة الممتدة ترتكز اساسا على مبدأ استمرار الأجيال المنحدرة من صلب رجل واحد فى المعيشة معا بحيث يؤلفون وحدة اجتماعية واقتصادية متعاونة ، بمعنى ان الرجل لا ينفصل حين يكبر ويتزوج عن (بيت) العائلة بل يظل محتفظا بعضويته وانتمائه اليه ، وبذلك فقد تضم العائلة الممتدة افرادا ينتمون الى ثلاثة اجيال او اربعة ،

(٧) Burgess, E. W. ; " Family Structure and Relationships " in Burgess (ed) op. cit., p. 271.

يتعاونون معا فى الحياة اليومية ، ويقوم بينهم نوع من التكافل الاجتماعى الذى ينبع من شعور كل فرد بالمسئولية نحو الآخرين اجتماعيا واقتصاديا . ونظرا لان هذه العائلة تستمد قوتها الى حد كبير من الأجيال السابقة ومن كبار السن والشيوخ الذين يوجهون كل شئونها ويتحكمون الى حد كبير فى تصرفات الأعضاء الاصغر منهم سنا فانهم يحظون لذلك بكثير من المهابة والاحترام . ولقد كان هذا النمط من التنظيم العائلي يسود كثيرا من المناطق الريفية حتى فى اوروبا ذاتها ، كما انه كان يوجد لطبيعة الحال فى المجتمعات الاكثر بساطة والمجتمعات التاريخية ذات الحضارات القديمة ، ولا يزال هو النظام السائد فى المجتمعات الشرقية على ما ذكرنا . واستمرار هذا النمط من التنظيم العائلي يدل على تماسك الاجيال والتمسك بالتقاليد كنتيجة حتمية لاستمرار بقاء الأبناء وزوجاتهم واولادهم داخل نطاق العائلة ، وذلك فضلا عن ارتباط العائلات المختلفة ببعض عن طريق الزواج والمصاهرة فالعائلة المتدة هى التى تحدد فى الأغلب لاعضائها العائلات التى يمكن لهم الزواج منها آخذة فى الاعتبار المركز الاجتماعى لتلك العائلات بصرف النظر عن الميول الشخصية . ولا تزال بقايا هذا النظام موجودة للآن فى بعض مناطق الريف الاوروبى . وكل هذا من شانه توفير قدر من الطمانينة والاستقرار والاحترام للاجيال السابقة وكبار السن الذين يتدخلون فى معظم الامور التى تعتبرها امورا خاصة وشخصية مثل مسالة اختيار الزوجة .

وهذه كلها امور مالوفة لدينا ، ونحن نعرفها من خبراتنا ومن حياتنا اليومية حيث انها تسود فى المجتمعات الريفية الشرقية ، ولكن هناك كثيرا من الشواهد التى تشير الى ان هذا هو الوضع فى بعض المجتمعات الريفية فى اوروبا وامريكا ، حيث لا تزال الروابط العائلية تتميز بدرجة عالية من القوة والتماسك، وحيث لا تزال انماط العلاقات القرابية تكشف عن مدى الاحترام الذى يتمتع به الشيوخ الذين يلعبون دورا فعالا فى حياة العائلة . (٨) وقد يحسن بنا ان نشير هنا الى بعض ما يسجله علماء الانثربولوجيا والاجتماع بهذا الصدد فى المجتمع الريفى فى الغرب ونكتفى بمثال واحد

(٨) الواقع ان بعض علماء الاجتماع البريطانيين الذين درسوا التجمعات العمالية فى بعض المناطق المتخلفة فى المدن الصناعية بانجلترا وبالذات فى لندن قد سجلوا وجود بعض بقايا العائلة الممتدة فى الاحياء الصناعية التى يسكنها العمال والتى يعملون فيها فى الوقت ذاته ، اى الاحياء التى تعتبر مناطق عمل وسكنى واقامة معا وبذلك تكون مناطق مغلقة الى حد كبير اذ تتم كل انواع النشاط الاجتماعى التى يقوم بها السكان داخل حدود تلك المناطق ، كما ان الرجل حين يتزوج فانه يميل الى الاقامة بجوار اسرته وبخاصة اسرة امه ان كانت تعيش فى المنطقة ذاتها . ومن هنا فان شكل العائلة الممتدة هو الشكل الاموى ، وان نواة هذه العائلة الاموية الممتدة تتالف من الجدة (ام الام) وبناتها وحفيداتها وهذه مسالة قد تبدو غريبة لمن لم يدرس هذا الموضوع ، كما انها تختلف اختلافا كبيرا عن الاعتقاد السائد من ان نواة الحياة العائلية فى المجتمعات الغربية الصناعية هى الروابط العائلية الابوية التى تعتمد على الذكور لا الاناث . وقد اشار الى هذه الظاهرة كل من تاونسند ، الذى سبقت الاشارة اليه ، ويونج ويلموت Young and Willmott اللذين اشتركا معا فى دراسة بعض الاحياء المتخلفة فى لندن ، واللذين تعتبر دراستهما تمهيدا للدراسات التى قام بها تاونسند فيما بعد . ومن الطريف ان نجد ان هؤلاء العلماء الثلاثة يجمعون على ان النساء فى تلك المناطق الصناعية المتخلفة اكثر ارتباطا بامهاتهن واخواتهن ، وغير هؤلاء الاقارب النساء من ارتباط الرجل باقاربه من كلا الجنسين حيث يفضل الرجل فى العادة ان يقيم علاقاته الاجتماعية مع اصدقاء وليس مع اقارب . وقد اشارت اليزابث بوت Elizabeth Bott الى ذلك فى دراستها القيمة عن Family and Social Network حين ذكرت ان احد الرجال الذين كانت تعتمد عليهم فى بحثها قال لها ان « الرجال لهم اصدقاء ، اما النساء فان لهن قريبات وانه ليس للنساء صديقات وانما لهن امهات فقط » . ويبدو ذلك واضحا بشكل قوى من التعاون المتبادل بين القريبات وقت الحاجة والشدة . وهذه كلها مظاهر سائدة فى المجتمعات البسيطة والتقليدية المتخلفة .

لذلك ، مستمد من الدراسة القيمة التى قام بها اثنان من العلماء هما آرنسبرج وكيمبول على المجتمع الريفي في ايرلندا ، وعن المنزلة الاجتماعية العالية التي يتمتع بها الشيوخ هناك ، والدور الاجتماعي الذى يقومون به فى حياة المجتمع كنتيجة طبيعية لقوة الروابط العائلية وتماسك الوحدات القرابية هناك .

ولقد لاحظ الباحثان ان الفلاح الايرلندى يعيش فى العادة الى سن متقدمة ، ومع انه من الصعب رد طول العمر في المجتمع الريفى الايرلندى الى اسباب معينة بالذات مثل الطعام والمناخ او العوامل السلالية او العناية الطبية التى يحظى بها الرجل الاوروبى عموما ، الا انه ليس ثمة شك فى ان الفلاحين الايرلنديين ـ كما يقول الباحثان ـ يعيشون طويلا ويتغلبون على الأمراض ، لان لديهم ما يعيشون من اجله ، وهو كثير . ذلك انهم فى مجال حياتهم الخاصة يحظون بكثير من الاحترام ويتمتعون بكثير من القوة والسلطة والنفوذ . وسلوك الفلاح العادى هناك وعواطفه ومواقفه واتجاهاته وحديثه فى الحياة اليومية تشير كلها الى ذلك الاحترام الذى يتمتع به الشيوخ والمسنون فى المجتمع ، وان هذا الاحترام وتلك المراعاة للسن وللشيخوخة يعتبران جزءا من اخلاق المجتمع الريفي وقيمه ، وان الطفل يتعلم منذ صغره كيف ينبغي عليه ان يسلك ويتصرف مع الذين يكبرونه فى السن ، وبخاصة الشيوخ ، ليس فقط داخل عائلته وانما فى نطاق المجتمع ككل ، وهذا فى حد ذاته يساعد مساعدة فعالة واكيدة على تحديد المراكز الاجتماعية والمراتب التي يحتلها افراد المجتمع بحسب تقدمهم في السن ، كما يحدد انماط السلوك التي يجب اتباعها ، لدرجة ان المجتمع يفرض الجزاءات والعقوبات على كل من يخرج على قواعد السلوك التى يجب مراعاتها نحو الشيوخ ، وهى جزاءات تتراوح بين اللوم والتوبيخ والمقاطعة والنبذ وغير ذلك . ولا يعنى هذا اطلاقا ان الشباب لا يختلفون مع الشيوخ ، او انهم يقبلون دائما وجهة نظرهم وآراءهم ومواقفهم ، اذ كثيرا ما يعبرون عن معارضتهم للشيوخ وانتقادهم لآرائهم وأفكارهم التقليدية القديمة ، ولكن هذا يتم فى حدود معينة مرسومة ، وان كان الشبان فيما بينهم كثيرا ما يسخرون منهم دون ان ينسوا مع ذلك نسق القيم الذى يمثل الشيوخ فيه الحلقة الرئيسية التي تربط افراد العائلة بعضهم ببعض ، والذى يتمتعون فيه باكبر قدر من الاحترام والمهابة والتبجيل . ومع ان الشباب يريدون دائما بطبيعة الحال ان يكون لهم كيانهم المستقل المتمايز عن الشيوخ فانهم لا يجراون فى كثير من الاحيان على الافصاح عما يدور فى اذهانهم . وينعكس احترام المجتمع لكبار السن والشيوخ فى كثير جدا من التصرفات العادية فى الحياة اليومية ، وهى تصرفات قد تبدو عديمة الاهمية لاول وهلة ولكن لها دلالتها العميقة . فالشيوخ يجلسون دائما فى صدر المكان على المقاعد المجاورة للنار للتدفئة ، بينما يجلس صغار السن فى مؤخرة الحجرة . والشيوخ هم الذين يتكلمون بينما ينصت صغار السن والشبان ، وحتى حين يكون الكلام موجها الى احد هؤلاء الشبان فكثيرا ما يجيب كبار السن عنه ، بل وقد يصل الحال بالشاب بان يتحرز من الكلام الا حين يؤذن له بذلك . ومن الطريف ما يلاحظه المؤلفان من ان « افضل فنجان شاى ، واكبر قطعة خبز ، والبيضتان بدلا من البيضة الواحدة ، وما الى ذلك تقدم كلها للشيوخ » دليلا على الاحترام والاعزاز والرعاية ، وهما يريان انه بدون هذه اللفتات الصغيرة تفقد حياة الجماعة الريفية طعمها ومعناها ، كما يصعب على الباحث ان يفهم العلاقات الاجتماعية بل وبناء المجتمع كله ان لم يأخذ هذه الامور فى الاعتبار . (٩)

(٩) Arensberg, C. M. and Kimball, S.T., Family and Community in Ireland, Cambridge, Mass., Harvard University Press, 1948, pp. 173-78.

وهذه كلها كما ذكرنا من قبل امور مألوفة وشائعة فى مجتمعاتنا العربية التي يقوم تنظيمها الاجتماعى على اساس روابط القرابة والدم والمصاهرة ، وحيث لا تزال العائلة الممتدة هي النمط الغالب ليس فقط فى المناطق الريفية بل وايضا فى المراكز الحضرية والمدن . **والمهم هنا هو ان هذه الروابط القرابية القوية هي التي تساعد الشيوخ على الاستمرار فى اداء الدور الذى يتلاءم مع سنهم ، كما تساعد المجتمع على الاعتراف بهذا الدور وتقبله ، وبالتالي على تقبل الشيوخ واحاطتهم بالرعاية والاحساس طيلة الوقت بالحاجة الى وجودهم الذى يعتبر (بركة) فى اغلب الاحيان . ومن هنا تعتبر الشيخوخة ليس مجرد انجاز كما قلنا ، بل انها تعتبر قيمة يحافظ المجتمع عليها ويسترشد بتعاليمها .**

(٢)

هذا الالتزام بمساعدة المتقدمين فى السن والشيوخ والذى يرتبط بالعائلة الممتدة وبالروابط القرابية القوية لم يلبث ان طرا عليه كثير من الضعف والوهن بتقدم المجتمع الانسانى ، وتحول الكثير من المجتمعات من الحياة الزراعية البسيطة الى التنظيم الصناعي الاكثر تعقدا ، والذى ادى الى ظهور انماط جديدة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والقيم الاخلاقية التي لم تكن معروفة من قبل. ذلك انه قبل الثورة الصناعية التي بدات بوادرها الأولى فى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم وضحت معالمها فى القرن التاسع عشر ، كان النمط العام للحياة الاجتماعية فى المجتمعات الغربية هو نفس النمط الريفي الذى لا يزال يسود فى المجتمعات التقليدية البسيطة ، والذى كانت الروابط العائلية والقرابية تلعب فيه دورا اساسيا فعالا فى كل مجالات الحياة، والتي كان الشيوخ يؤدون دورهم الواضح الحيوى فيها طالما كانوا قادرين على الحركة وعلى ابداء الراى فى شئون الجماعة التى ينتمون اليها . ولقد تغير هذا كله تغيرا جذريا بدخول التصنيع الى المجتمع وظهور مراكز صناعية متقدمة كانت تعتبر – ولا تزال – مراكز جذب للسكان وللايدى العاملة ؛ نظرا لما تتيحه من فرص جديدة للكسب والعمل لا تتوفر فى المجتمع الريفي الذى يعتمد على الزراعة وغيرها من اشكال النشاط الاقتصادى الاكثر بساطة . ولقد ترتب على ذلك الحراك السكانى من أجل الالتحاق بالمصانع كثير من التغيرات الهامة التي تتمثل فى انفصال الافراد عن عائلاتهم الكبيرة الممتدة ؛ وتكوينهم عائلات صغيرة أو عائلات نووية – حسب التعبير الشائع فى الكتابات السوسيولوجية والانثربولوجية – تتألف من جيلين اثنين (جيل الوالدين وجيل الاولاد) بدلا من الاجيال الثلاثة او الاربعة التى تتكون منها العائلة الممتدة ، وضعف الروابط العائلية والعلاقات القرابية نتيجة لذلك ؛ والفصل بين مناطق السكنى والاقامة ومناطق العمل ؛ بعد ان اصبح الشخص يعمل فى المصانع الكبيرة التي تقام فى اماكن معينة بعيدة عن المساكن ، بعد ان كان يعمل مع اعضاء عائلته فى نفس موطن اقامته الاصلى ، وازدياد الاتجاه الى الفردية نتيجة لاستقلال الفرد اقتصاديا عن عائلته الممتدة ؛ وتبعثر اعضاء العائلة الواحدة بين مختلف مناطق العمل والصناعة ، والتحاقهم باعمال مختلفة بحيث ان الزوجين كثيرا ما يعملان فى مهن واماكن مختلفة ومتباعدة بعد ان كانت وحدة العمل والنشاط الاقتصادى تجمع بينهما ، بل وبين كل اعضاء الوحدة القرابية ، وظهور التخصص الدقيق وبخاصة فى مجال الصناعة مما ادى الى تباعد اعضاء العائلة الواحدة فى عمليات الانتاج الاقتصادى بعد ان كانت وحدة الانتاج قبل الثورة

الصناعية هي الوحدة القرابية الممتدة على ما سبق ان ذكرنا (١٠) . ولقد كانت النتيجة الحتمية لهذا كله هي ان اصبح الشيوخ يمثلون عبئا على العائلة . **فالعائلة الصغيرة او النواة لم تعد ـ بحكم تكوينها وبحكم الظروف التي تعيش فيها ـ تحتمل او تستطيع اعالة الشيوخ او استيعابهم او العناية بامرهم . بل ان الشيوخ لم يعودوا يؤلفون جزءا في تكوين هذا النمط من العائلة نظرا لان الرجل ينفصل عن عائلته بمجرد ان يكبر ويتزوج ان لم ينفصل عنها قبل ذلك ويرحل للعمل في مكان بعيد .** (١١) ومن ناحية اخرى فان التغيرات التي طرات على طبيعة العمل وطبيعة العملية الانتاجية ادت الى ان تصبح الوحدة الانتاجية تقوم على اساس المصالح الاقتصادية بعد ان كانت تقوم على اساس روابط الدم والقرابة . فالعمال الذين يعملون في اي صناعة من الصناعات وفي اي مصنع من المصانع لا تربطهم ببعض ولا بصاحب العمل سوى روابط المصلحة المشتركة . فصاحب العمل يحتفظ بالعمال طالما كانوا على درجة معينة من الكفاءة والمهارة واللياقة البدنية التي تؤهلهم للقيام بالعمل الذي يوكل اليهم على الوجه الاكمل ، والا استغنى عنهم بحجة عدم حاجة العمل اليهم او عدم امكانهم تحقيق المستويات المطلوبة في الانتاج . ويتضح ذلك باجلى صورة في استغناء العمل عن العاملين حين يصلون الى سن معينة تقل عندها قدراتهم وكفاءاتهم ومهارتهم . وهي امور غير مألوفة في المجتمعات التقليدية البسيطة او اساليب الانتاج الاقتصادي التقليدي . ومن هنا كان الراي الذي يذهب اليه الكثيرون من علماء الاجتماع والانثربولوجيا من ان مشكلة الشيخوخة والاحساس بها كمشكلة اجتماعية تحتاج الى حل ، انما هي وليدة الثورة الصناعية وما ادخلته من تغيرات على اساليب العمل والانتاج ، وما ترتب على ذلك من تغيرات

---

(١٠) ترتبط فكرة التخصص وتقسيم العمل بالمعنى الدقيق للكلمة بالمجتمعات الاكثر تطورا ، وبخاصة المجتمعات الصناعية ، لدرجة ان اصبح نظاما لازما للصناعة الحديثة وترتبط بها ارتباطا قويا في الاذهان ، وبحيث نجد ان الكثيرين من الكتاب ينكرون على الشعوب (البدائية) والبسيطة اية معرفة بالتخصص . والمقصود بالتخصص وما يرتبط به من تقسيم للعمل هو توزيع الادوار المختلفة على اشخاص مختلفين بطريقة تكفل في آخر الامر تحقيق هدف واحد متكامل ومحدد بحيث يقوم الافراد باداء ادوار معينة وانجازها . والنسق الصناعي بالذات يعتمد اكثر من غيره من الانساق الاجتماعية والاقتصادية على الدقة المتناهية في التخصص وفي تقسيم العمل والتمييز بين الادوار المختلفة التي تؤلف كلها في الوقت ذاته وحدة متماسكة متكاملة . وذهب الكثير من الكتاب ايضا الى ان التدقيق في التخصص يؤدي في آخر الامر الى كفاءة المصنع وكفاءة العملية الانتاجية وتبسيط العمل ، وذلك نظرا لان العمال يصبحون اكثر كفاءة ومهارة في انجاز اعمالهم . والاتجاه العام على اي حال في الانتاج الصناعي يميل الى المبالغة في التخصص وتقسيم العمل بحيث اصبحت الناحية الفنية التي يتضمنها الدور الذي يقوم به اي عامل من العمال مجهولة تماما للعمال الآخرين الذين يشتغلون في نفس الصناعة الواحدة ، ولكنهم يؤدون فيها ادوارا مختلفة ، وان بعض هذه الادوار يكاد لا يعرف معناها او اهميتها الا الذين يمارسونها بالفعل . والاكثر من ذلك انه في بعض الاحيان قد يجهل العامل نفسه اهمية العمل الجزئي الذي يقوم به بالنسبة للعملية الانتاجية ككل . ويذكر عالم الاجتماع الامريكي ماكيفر Mac Iver في هذا الصدد ان اكبر مساوىء التخصص وتقسيم العمل هي انهما يجعلان الناس بمثابة اجزاء في الة واحدة كبيرة . فبعضهم يصبح بمثابة (الكباس) وهكذا ، وبذلك يصبح العامل وعمله مجرد اجزاء صغيرة لا قيمة لها في ذاتها وبذاتها ، انظر في ذلك :

Mac Iver, R. M. ; Community : A Sociological Study, Macmillan, London 1936, Pp. 359-62.

(١١) Clark Tibbitts, " Retirement Problems in American Society ", in Eisenstadt (ed.)

Comparative Social Problems, Free Press, N. Y. 1964, p. 195.

فى العلاقات داخل الوحدة الانتاجية وبين المشتركين فى العمل الواحد . (١٢) واحد المظاهر الهامة لهذه الشيخوخة وما يترتب عليها من تغير العلاقات داخل العمل هو ظاهرة التقاعد عن العمل او الاحالة الى المعاش حين يبلغ العامل سنا معينة يفترض عندها انه لم يعد قادرا على العمل والانتاج حسب المستويات المطلوبة على ما اشرنا اليه .

ويعتبر التقاعد عن العمل - من حيث هو نظام اجتماعى له قواعده المحددة - ظاهرة حديثة نسبيا حتى فى المجتمع الأوروبى والامريكى ، كما انه يشكل نوعا من التحدى لنمط جديد من الحياة يختلف كل الاختلاف عن النمط المألوف الذى اعتاده المرء اثناء حياته العاملة النشطة . ففى المجتمعات الريفية وقبل الصناعية ، او المجتمعات التقليدية والبسيطة عموما وكذلك فى العصور السابقة على الثورة الصناعية نجد ان نسبة ضئيلة جدا من السكان هى التى كانت تعيش حتى سن متقدمة وتصل الى مرحلة الشيخوخة الفيزيقية ، اى ان عدد الشيوخ فى هذه المجتمعات قليل نسبيا بحيث لا يؤلفون مشكلة اجتماعية خاصة ، وان العائلة الممتدة كانت تتحمل مسئولية العناية بهم وبذل الرعاية الضرورية لهم ، فضلا عن ان الشيوخ انفسهم كانوا يسهمون فى مختلف اوجه النشاط الاجتماعى والاقتصادى بما يتناسب مع حالتهم الفيزيقية والذهنية . الا ان تقدم الخدمات والرعاية الصحية وتقدم الطب وما ترتب عليه من اطالة فترة الحياة وبالتالى ازدياد عدد الشيوخ فى المجتمعات الاكثر تقدما ، وكذلك الانجازات العلمية والتكنولوجية التى امكن تحقيقها وما ترتب عليها من ظهور اختراعات كثيرة ، واستخدام القوى الميكانيكية والآلية فى الانتاج بدلا من القوى العضلية ، مما ادى الى زيادة انتاج العامل وتضاعفه من ناحية ، وعدم حاجة الصناعة فى كثير من الاحيان الى كل الايدى العاملة المتاحة ، واحلال الآلة محل الانسان وبخاصة حين تتقدم السن بهؤلاء العمال ، كل ذلك ساعد على تضخم مشكلة الشيخوخة بحيث اصبحت تحتاج الى تضافر كثير من القوى لدراستها وايجاد الحلول المناسبة لها وذلك بعد ان فقدت العائلة الممتدة وظيفتها ومبررات وجودها .

ولقد شغلت الاذهان مشكلة السن التى يمكن عندها ان يتقاعد المرء عن اداء عمله المألوف المعتاد ، او التى ينبغى على المجتمع ان يجبره عندها على التخلى عن عمله والكف عن ممارسته ، وان كان يبدو ان معظم الدول فى الوقت الحالى ترى ان السن المناسبة لذلك هى الفترة بين سن الستين والسبعين ، وان كان هذا التحديد لايخلو من التعسف . ذلك ان مثل هذا التحديد ، وان كان يرتكز بغير شك على كثير من الاعتبارات الاجتماعية والعملية يغفل الفوارق والاختلافات الفردية ، مثل القدرة الفيزيقية الفعلية على العمل والاداء ، والحالة الصحية عند مختلف الافراد ، والوضع المالى للفرد وحاجته الى العمل والى المحافظة على مركزه الاجتماعى ومكانته فى العائلة والمجتمع ، وقدرته على الاحتفاظ بعمله وممارسته على مستوى معقول ومقبول . وثمة شواهد وادلة كثيرة تشير الى ان معظم الذين يحالون الى المعاش لبلوغهم سن التقاعد التى ترتبط بمرحلة الشيخوخة من وجهة نظر المجتمع انما يميلون الى الاستمرار فى اداء عملهم ، او على الاقل القيام بعمل مايستطيعون ان يكسبوا منه بعض الدخل من ناحية ، وان يرتبطوا عن طريقه من ناحية اخرى بالحياة الاجتماعية وبالمجتمع مما يشعرهم بأنهم لايزالون قادرين على ان يؤدوا اعمالا يحتاج

---

(١٢) Bromley, D. B., The Psychology of Human Ageing, Pelican, London 1966, pp. 270-72.

اليها غيرهم من الناس ، وان لهم بالتالي وظيفة يقومون بها في المجتمع الذي ينتمون اليه . ولكن الوضع يختلف بطبيعة الحال بالنسبة لصاحب العمل الذي يرى ان العنصر الاساسي الحاسم في ذلك هو مدى كفاءة العامل او الموظف وقدرته على الانتاج ، فضلا عن الرغبة المشروعة في استخدام فئات اصغر سنا لقدرتهم ليس فقط على العمل بل وايضا على التكيف مع الاوضاع الجديدة المتغيرة وعلى استيعاب التجديدات ، بل والقدرة على الابتكار وعلى الخلق والتجديد . (١٣)

واذا كان التقاعد يعني بداية مرحلة جديدة بالنسبة للشيوخ فانها مرحلة لاتخلو من متاعب ومشكلات وصعوبات ، وربما كان اصعب هذه المشكلات التي تواجه الانسان بعد تقاعده هي مشكلة التكيف مع الاوضاع الجديدة التي يجد نفسه فيها . وقد اجريت بعض الدراسات في الخارج حول هذا الموضوع لمعرفة مدى قدرة الاشخاص الذين ينتمون الى مهن واعمال وطبقات اجتماعية ومستويات ثقافية مختلفة على التكيف مع هذه الاوضاع الجديدة التي تحيط بهم ، ويبدو من تلك الدراسات ان المشكلات الرئيسية التي يحس هؤلاء الشيوخ المتقاعدون بضرورة ايجاد حل لها هي مشكلة ضمان توفير دخل يكفي لاشباع حاجاتهم ومتطلباتهم ، بحيث يتوفر لهم مستوى معين من الحياة الكريمة الصحية التي لا تخلو من ممارسة بعض النشاط والمشاركة في حياة المجتمع ، ثم ايجاد فرص كافية للاتصال بالآخرين وخلق علاقات اجتماعية وصداقات جديدة ، ثم الرغبة الشديدة في الاحساس بالمحبة والعطف ، اعني حب الآخرين وعطفهم وحنوهم ورعايتهم لهم . ومع ان معظم هذه الدراسات تبين ان غالبية الشيوخ المتقاعدين يتكيفون بشكل او بآخر مع ظروفهم الجديدة، فثمة اعداد كبيرة منهم تشعر بالضياع والحيرة وانعدام الهدف وخلو الحياة من معنى ، وان كان ذلك لايمنعهم من أن يبذلوا الجهد للتشبث بادوارهم القديمة التي كانوا يقومون بادائها ، او بالبحث عن دور جديد مفيد وفعال ، وتوفير درجة معقولة من الأمن والطمانينة . ومع ذلك فان ثمة اتفاقات في كل هذه الدراسات والبحوث على ان الشيوخ المتقاعدين في المجتمعات الصناعية الحديثة يعانون من انخفاض واضح في مستويات الحياة سواء في السكن او في نوع الطعام او في الحالة الصحية ، وذلك فضلا من الانسحاب الجزئي او الكامل من الحياة الاجتماعية ، او على الاقل القدرة على المشاركة بطريقة فعالة في المناشط الاجتماعية المنظمة . ولكن لعل اشد مايثير في نفوسهم الالم هو الشعور بانهم يمثلون عبئا على اولادهم . ويزيد من حدة هذا الشعور انصراف الاجيال الشابة عن اعطاء هؤلاء الشيوخ ما يحتاجون اليه من رعاية وعطف وعناية نتيجة لانشغالهم هم انفسهم باعباء الحياة المتزايدة في القسوة (١٤) .

وكان لابد لهؤلاء الشيوخ من أن يعثروا على بديل يعوضهم عن المصادر السابقة التي يستمدون منها العطف والمحبة والاعزاز ، والتي تزودهم بشبكة العلاقات الاجتماعية التي كانوا يدخلون طرفا فيها . فاستقلال الابناء اقتصاديا وانتقالهم من موطن الاقامة

---

(١٣) Tibbitts, op. cit., p. 196.

(١٤) من الدراسات الهامة التي عرضت لهذه المشكلات :

Susan H. Kubie and Gertrude Landau, Group Work with the aged, International Universities Press, N.Y. 1953 ; Retirement Policies and the Railroad Retirement System, Washington D.C. : Government Printing Office, 1953 ; Heron, A., Preparation for Retirement ; Solving New Problems, National Council of Social Service, London 1963.

الاصلي وتبعثرهم للبحث عن عمل يعتبر بغير شك خسارة عاطفية هائلة للآباء الشيوخ يصعب عليهم تعويضها ، كما انه يفرض على هؤلاء الشيوخ حياة الوحدة والحرمان من العلاقات القرابية والعائلية التي كانت تؤلف جزءا كبيرا من نشاطهم واهتماماتهم اليومية . ويزيد ذلك الشعور بالوحدة والعزلة عن حياة المجتمع حين يفقد المرء زوجه او اصدقاءه مما يضع كثيرا من القيود والتحديدات على عالمه الاجتماعي وعلى نطاق علاقاته الشخصية بافراد المجتمع الذي يعيش فيه . وهذا الانسحاب من المجتمع والحياة الاجتماعية يتم تدريجيا بحيث لايكاد المجتمع او حتى الفرد نفسه يشعر به في أول الامر الى ان يسلم الفرد في النهاية الى نوع من العزلة تكاد تكون تامة ، وبحيث يقع الفرد نفسه في ظل النسيان ممن يعيشون حوله كما بينت دراسة تاونسند ، وان كان الكثيرون من الشيوخ ، وبخاصة الذين قاموا بادوار هامة اثناء حياتهم العاملة والنشيطة ، كثيرا ما يقاومون هذا الميل الى التراجع والانسحاب من الحياة العامة ، ويحاولون الاستمرار بقدر الامكان في ممارسة نشاطهم بشكل او بآخر ، لانهم يجدون من الصعب عليهم النزول عن المكانة التي كانوا يتمتعون بها او التفريط في حقوقهم وسلطتهم . ولكن النتيجة النهائية على اي حال والطابع العام السائد الذي يطبع حياة الشيوخ هو ازدياد الشعور بالوحدة والانعزال والانحصار داخل دائرة من العلاقات الاجتماعية التي تضيق بالتدريج (١٥) .

وهذا كله من شانه ان يلقي مسئولية رعاية هؤلاء الشيوخ والمسنين على عاتق المجتمع ككل ، او على عاتق الدولة التي يتعين عليها ازاء هذه التغيرات العميقة في العلاقات القرابية والعائلية التقليدية ان تحل محل العائلة الممتدة وتقوم بوظائفها فيما يتعلق بالعناية بهؤلاء الشيوخ ، وذلك رغم الفجوة الواسعة الهائلة التي تفصل بين الحكومة والفرد . والملاحظ انه على الرغم من تزايد عدد الشيوخ والمسنين في كل المجتمعات الانسانية بدون استثناء ، نتيجة لتقدم الرعاية الصحية والخدمات الطبية بالذات ، ان الشيوخ لايؤلفون قوة ضاغطة على الحكومات في اي من تلك المجتمعات ، حتى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، بحيث يضطرونها الى الاستجابة لمطالبهم . اي ان الشيوخ – من حيث هم فئة متميزة من بقية فئات المجتمع – يفتقرون الى التنظيم القوي الفعال المؤثر ، وان كانت النقابات والاتحادات العمالية والمهنية المختلفة قد استطاعت ان تحقق الكثير من المزايا لاعضائها الذين يصلون الى سن التقاعد ، بحيث توفر لهم في شيخوختهم درجة معينة من الحياة الكريمة المريحة . ولكن الشيوخ – كشيوخ ، او كفئة بصرف النظر عن اعمالهم او مهنهم او تخصصاتهم الاصلية وغير ذلك من عوامل التفاوت والتفاضل – ينقصهم ذلك التنظيم الذي يمكن ان يضمهم جميعا ويتكلم باسمهم كفئة ، ويطالب بحقوقهم كما هو الحال مثلا في تنظيمات الشباب . وليس من شك في ان الحكومات تعطي في الوقت الحالي اهتماما متزايدا لمشكلات الشيوخ والشيخوخة وتضع القوانين والتشريعات التي تكفل ضمان حقوقهم . ولكن مهما يكن من امر هذه الجهود فان الحكومات بكل تنظيماتها ومؤسساتها واجهزتها التي تسخرها للسهر على رعاية الشيوخ لا يمكن ان تكون بديلا حقيقيا يحل محل العائلة الممتدة القديمة رغم قصور الامكانيات المادية للعائلة . فكل هذه المؤسسات والاجهزة لا تستطيع ان تعطي الشيوخ ما يحتاجون اليه حقا من دفء الصداقة والرفقة الحقيقية التي يشعر بها المرء بين افراد عائلته وبخاصة حين

(١٥) Bromley, op.cit ; p. 85.

تتقدم به السن . ولذا فانه رغم كل الجهود التي قد تبذلها بعض الحكومات والهيئات لتهيئة واعداد بيوت للشيوخ والعجائز وتزويدها بمختلف وسائل التسلية والتثقيف ، ومحاولة شغل اوقات هؤلاء الشيوخ فان الشعور والانعزال والتمركز حول الذات يظل مسيطرا عليهم . ويكشف هذا الشعور عن نفسه في كثرة الشكوى والتذمر التي تميز حياة الشيوخ ، وهي شكوى تمتد في كثير من الاحيان الى كل الاوضاع العامة السائدة في المجتمع ، وتتخذ شكل المقارنة بما كان يحدث في العهود السابقة ، وان كانت هذه الشكوى تصل الى ذروتها فيما يتعلق بانصراف الابناء والاقارب عن الاهتمام بهم واعطائهم ما يستحقونه من رعاية ، وما هم بحاجة اليه من عطف .

وعلى اية حال فالملاحظ هو ان الحكومات في محاولتها رسم سياساتها الخاصة برعاية الشيخوخة تتخذ بوجه عام احد اتجاهين متعارضين تماما .

فاما الاتجاه الاول فانه يقوم اساسا على الايمان باستقلال الفرد في اتخاذ قراراته ورسم حياته بنفسه دون تدخل من السلطات ، وان ذلك يجب ان يكون الحال فيما يتعلق بالشيوخ . ولذا يرسم اصحاب هذا الاتجاه سياستهم على اساس ضمان تحقيق استقلال هؤلاء الشيوخ والمسنين والعجزة وتوفير حرية الحركة والعمل لهم بحيث يستطيع كل منهم ان يأخذ زمام المبادرة بنفسه مثلما كان يفعل خلال مراحل حياته السابقة قبل ان يصل الى مرحلة الشيخوخة . وهذا معناه ان رعاية الدولة للشيوخ يجب ان تأخذ في الاعتبار امكان توفير الظروف التي تساعد الفرد على أن يختار بنفسه اسلوب حياته اثناء الشيخوخة ، وهذا الاتجاه يسخر من الاعتقاد السائد عن كثير من الناس من ان المرء يفقد استقلاله وقدرته على اتخاذ القرارات حين تتقدم به السن ويصل الى الشيخوخة الفيزيقية . ولذا فان المهم عند اصحاب هذا الاتجاه هو الكشف عن مصادر القوة الكامنة في الفرد ، وعن المقومات الاساسية في شخصيته وتكوينه التي تساعده على الاحتفاظ باستقلاله وكيانه المتميز ، وانه لا بد للمرء من ان يتنبه في مرحلة مبكرة من حياته الى مرحلة الشيخوخة التي سوف يصل اليها في وقت من الاوقات ، ان طالت به الحياة وطال به العمر ، وان يستعد لهذه المرحلة ليس فقط بتوفير ما قد يحتاج اليه حينئذ من مال او ممتلكات ، بل وايضا عن طريق تنمية اهتمامات جديدة يمكن ان تملأ عليه حياة الوحدة والوحشة والفراغ . وهذا كله كفيل في آخر الامر بان يجذب الشخص المسن الى حياة المجتمع من جديد ، بحيث يشارك في حياته وحياة الجماعة ويقوم بدور إيجابي فعال في حياة ذلك المجتمع .

واما الاتجاه الثاني فانه على العكس من ذلك تماما يأخذ في الاعتبار **سلبية الفرد وبخاصة** حين يصل الى مرحلة الشيخوخة . فالشيوخ بحكم واقعهم وضعفهم وتدهور قواهم الفيزيقية والذهنية لا يستطيعون ان يهتموا بانفسهم او ان يعطوها ما تستحقه من عناية ورعاية . كما ان الفرد بطبيعته قلما ينتبه اثناء شبابه الى ما سوف يؤول اليه امره بمضى السنين . وبذلك فانه قلما يأخذ عدته للمستقبل ، وان يعمل مقدما على توفير ما سوف يحتاج اليه حين يصل الى الشيخوخة . ولقد وصلت الحياة الحديثة الى درجة من التعقيد يعجز معها الشيوخ عن ان يواجهوها وحدهم وبدون عون من الدولة ذاتها ، ومن هنا كان اصحاب ذلك الاتجاه يرون ان من اهم ما يجب على الدولة ان تضطلع به هو ان توفر للشيوخ والمسنين والعجائز من اعضاء المجتمع الضمانات المادية والاجتماعية التي تسمح لهم بان يمضوا الفترة الباقية من حياتهم دون ان يشغلوا انفسهم بامور العيش

أو الخوف من المرض . ويقول آخر فان ما يحتاج اليه الفرد حين تتقدم به السن ويصل الى مرحلة الشيخوخة هو مختلف الخدمات الاجتماعية والصحية والترفيهية دون أن يحمل هو نفسه ما لا يطيق من اجل البحث عنها ، أو من اجل ان يثبت لنفسه وللآخرين انه لايزال قادرا على المشاركة في حياة المجتمع والقيام بدور ايجابي يعود بالخير على الآخرين . (١٦)

•••

وايا مايكون موقف الحكومات والمؤسسات من الشيخوخة والشيوخ فالشيء الواضح الآن هو ان الشيخوخة تعتبر من اهم المشكلات الرئيسية التي تواجه المجتمعات الحديثة والتي تشغل بال الكثيرين من العلماء من مختلف التخصصات . ولقد كان معظم اهتمام العلماء في الماضي موجها الى النواحي الطبية والبيولوجية كما ذكرنا ، وفي هذين المجالين بالذات تتمثل اهم الاسهامات في بحوث الشيخوخة ، ولا تزال هذه النواحي تحظى حتى الآن بكثير من العناية ، بينما قليل جدا من البحوث تعرضت للجوانب الانسانية والاجتماعية للمشكلة رغم انها تتصل في المحل الأول بالفرد من حيث هو انسان وعضو في مجتمع . ولقد جاءت هذه الاسهامات متأخرة نسبيا ولكنها حققت كثيرا من النجاح وكشفت عن ميادين كثيرة غنية وعميقة ، وان تكن هناك ميادين اخرى اوسع وارحب واعمق لاتزال مجهولة وتحتاج الى كثير من البحوث والدراسات الميدانية الجادة في مختلف المجتمعات والثقافات . ومما يؤسف له اننا هنا لم نكد ننتبه الى هذا الموضوع الحيوى ، ولم تقم حتى الآن اية دراسات جدية حول المشكلات الاجتماعية الواقعية التي يواجهها الشيوخ والعجائز في المجتمع العربي المعاصر ، كما ان الجامعات العربية لم تول هذا الموضوع ما يستحقه من عناية واهتمام ، على الرغم من أن العالم العربي مقبل الآن على تغيرات سريعة وعميقة نتيجة للاتجاه نحو التصنيع والتحديث ، وما سوف يترتب عليهما من تغييرات في البناء الاجتماعي والنظم الاجتماعية وانساق القيم والثقافة التقليدية والعلاقات بين الناس وبخاصة داخل نطاق العائلة . واذا كان الشيوخ في مجتمعاتنا لايزالون يجدون الكثير من الرعاية والاحترام والمراعاة ، ولا يزالون يلعبون دورا في الحياة الاجتماعية ، وان كان يختلف من مجتمع لآخر ، فان ذلك يرجع في المحل الاول الى روح التكافل الاجتماعي الذى يرتكز كما رأينا من قبل على الروابط القرابية والعائلية التي تستمد قوتها من القيم التقليدية المتوارثة ، وهذا كله سوف يتعرض للتغير بغير شك نتيجة للاتجاه نحو الحياة الحديثة ، وبذلك فان مكانة الشيوخ والنظرة اليهم والى الشيخوخة سوف تتغير بدورها . وقبل ان تظهر المشكلة بنفس الحجم الذى نجده في المجتمعات الاوروبية الحديثة قد يكون من الخير ان نعد لها العدة من الآن عن طريق الدراسة والبحث ، ليس لكى نمنع وقوع المشكلات والصعوبات المتعلقة بالشيخوخة ولكن لكى نخفف من وقعها ومن آثارها بقدر الامكان . وسوف يتطلب ذلك بالضرورة اتخاذ خطوات ايجابية مدروسة لتحديد موقف المجتمع من الشيوخ واعدادهم لمواجهة الظروف الجديدة التي سوف يجدون انفسهم حيالها .

والذى يبدو للمرء من دراسة الاوضاع في المجتمعات الصناعية الحديثة هو انه مع التسليم بكل ما فعلته المدنية الغربية الحديثة في مجال اطالة فترة الحياة بالنسبة للغالبية

---

(١٦) Havighurst, R. J. : " Life Beyond Family and Work ", in Burgess, op.cit., pp. 303-4.

العظمى من السكان فى تلك المجتمعات نتيجة لتقدم الطب بالذات فان هذه المدنية الحديثة ذاتها اساءت اساءة بالغة لكثير من الاساليب القديمة التي كان الشيوخ يعتمدون عليها فى تكيفهم مع واقع الحياة ومع الظروف الجديدة التى يواجهونها بحكم شيخوختهم . بل انه يمكن القول ان اساليب المدنية الحديثة فى حل مشكلات الشيخوخة تكشف عن كثير من نواحى النقص والقصور اذا هى قورنت بالاساليب والاوضاع التقليدية القديمة التى كانت تسهم اسهاما كبيرا فى ان يمضى الشيوخ الفترة الاخيرة من حياتهم وهم يتمتعون بغير قليل من الطمأنينة والسعادة وراحة البال ، وهى العناصر التى تؤلف ما يحب بعض الكتاب ان يسموه « الشيخوخة الناجحة » ، ايا كان المقصود من هذه التسمية . وربما كان الدرس الذى يمكن استخلاصه من كل البحوث والدراسات التى اجريت حتى الآن عن الشيخوخة فى مختلف الشعوب والمجتمعات هو ـ كما يقول سيمونز Simmons (١٧) ـ ان المقومات الاساسية للشيخوخة الناجحة ـ بالاضافة الى الراحة النفسية التى اشرنا اليها ـ ترتكز بعد كل شيء على قدرة الافراد انفسهم على التلاؤم بنجاح مع الاطار الاجتماعى السائد فى العصر الذى يعيش فيه هؤلاء الافراد ، وقدرتهم على توكيد حقوقهم فى اطالة فترة اسهامهم فى الحياة الاجتماعية ، واجبار المجتمع على الاعتراف بهم لأطول فترة ممكنة ، ثم قدرتهم على ان يدركوا متى ينبغي عليهم ان يتوقفوا عن ذلك كله .

ولعل مما يلفت النظر حقا فى موضوع الشيخوخة اننا نجد انه فى الوقت الذى اهتم فيه العلماء والباحثون من مختلف التخصصات بدراسة المراهقة كمرحلة فريدة فى تجربة الحياة ، وتميزه تماما عن مرحلة النضج والرجولة الكاملة فان الباحثين عموما يميلون الى ان يعتبروا الشيخوخة مجرد امتداد بائس وتعيس لمرحلة النضج والرجولة ، وانها بذلك تمثل نوعا من التراجع والتدهور والاضمحلال والهبوط عن المستويات والمعايير التي يحققها الانسان الناضج المكتمل الرجولة حين يبلغ اواسط العمر ، وذلك بدلا من ان ينظروا الى الشيخوخة على انها تمثل نوعا من التحدى لنمط من الحياة له آفاق مختلفة وجديدة تماما فى تجربة الحياة . والواقع أن هناك من الاسباب والمبررات ما يدعو لان ننظر الى الانتقال لمرحلة الشيخوخة وما يصاحبه من تغيرات هامة وحيوية فى شخصية ونفسية وعلاقات الشخص بالمجتمع بنفس النظرة التى ننظر بها الى الانتقال من المراهقة الى النضوج ، والى ان تعطى لمرحلة الشيخوخة نفس العناية التى حظيت بها مرحلة المراهقة . بل ان مجالات البحث فى مرحلة الشيخوخة باعتبارها تجربة فريدة ومتميزة فى حياة الانسان ، وما قد يمر به المرء من تجارب ويتعرض له من اساليب وانماط سلوكية جديدة قد تجعل البحث فى الشيخوخة اكثر اثارة من البحوث التي اجريت على مرحلة الشباب مثلا .

ثم هناك نقطة اخيرة يوجه النظر اليها كثير من العلماء وهي ان الباحثين حين يتكلمون عن الشيخوخة يركزون كلامهم فى الأغلب على « المشكلات » ويكادون لا يتكلمون عن انجازات الشيخوخة او امكاناتها او عن الفرص المتاحة للشيوخ فى حياتهم الجديدة او التى يجب العمل على استغلالها والافادة منها . فهم يصورون الشيخوخة كما لو كانت « لعنة » ـ كما يقول سيمونز ـ بدلا من ان يعتبرونها مرحلة عادية وطبيعية من مراحل العمر التى

(١٧) Simmons, Leow. ; "Social Participation of the Aged in Different cultures", The Annals of the American Academy of Political Science, Vol. 279, p. 50.

سوف نصل اليها جميعا ، ان لم يكن هناك من الاسباب ما يمنع دون ذلك ، وان لم تحدث الوفاة في سن اصغر لسبب من الاسباب ، والتي يجب لذلك ان تهيىء انفسنا لها باعتبارها تجربة تستحق أن يخوضها الانسان بكل قوة وعمق . ومن الملاحظ ايضا ان معظم الدراسات التي اجريت على الشيخوخة تميل الى توكيد وابراز ما يقدمه ــ أو ما يجب ان يقدمه المجتمع للشيوخ والمسنين والعجائز بدلا من أن تحاول البحث عما يمكن لهؤلاء الشيوخ والمسنين والعجائز ان يكتشفوه في انفسهم من قدرات وكفاءات ومهارات وخبرات يستطيعون ان يقدموها للمجتمع وان يفيدوا بها غيرهم . ان علينا ان نكتشف عن القدرات والامكانات الكامنة عند الشيوخ ، وان نعمل على تنمية هذه القدرات والامكانات وتطويعها الظروف الاجتماعية القائمة . وهذا كله سوف يتطلب في آخر الامر ان نراجع موقفنا ونظرتنا الى الشيخوخة ، وان نعيد تقييمنا لاساليب البحث والدراسة والموضوعات والجوانب التي يمكن ان نهتم بها في دراستنا للشيخوخة وحياة الشيوخ .

* * *

اهم المراجع

— Birren, J. E. ; (ed.) Handbook of aging and the Individual, Chicago 1959.

— Bromley, D. B. ; The Psychology of Human Ageing, Penguin, London, 1966.

— Burgess, E. W. ; (ed.) Ageing in Western Societies, Chicago 1969.

— Clark, F. Le Gros ; Growing Old in a Mechanized World, Nuffield Foundation London 1960.

— Comfort, A., ; The Process of Ageing, Signet, N.Y. 1964.

— Eisenstdt, S. N. ; Comparative Social Problems, Free Press, N.Y., 1964.

— Felstein, I. ; Later Life : Geriatrics Today and Tomorrow, Penguin, London 1969.

— Gilbert, Jenne G. ; Understanding Old Age, Ronald Press, N.Y. 1952.

— Havighurst, R. J. and Albrecht Ruth ; Older People, Longmans, N.Y. 1953.

— Lehman, H. C. ; Age and Achievement, Princeton U.P. 1953.

— Munn, N.L.; Evolution and Growth of Human Behaviour ; Houghton Muffin, Boston 1955.

— Rosset, E. ; Ageing Process of Population, Pergamon Press, Oxford 1964.

— Sheldon, J. H. ; The Social Medicine of Old Age, O.U.P. 1948.

— Towns end, P., The Family Life of Old People, Penguin, London 1963.

— and Wedderburn, Dorothy ; The Aged in the Welfare State, Bell London 1965.

— Zubek, J. P. and Solberg, P. A.; Human Development, McGraw-Hill, London, 1954.

* * *

ميكلانجلو

(بمناسبة ذكرى مرور خمسمائة عام على مولده)

د . ثروت عكاشة

منذ خمسمائة عام على وجه التحديد وشمس النهضة الايطالية تتوهج ، ولد طفل انفصل من ايامه الأولى عن ابيه القاضى المتقاعد وعن امه ليعيش فى كنف زوجة عامل فى محاجر الرخام ، فاذا الطفل يرضع مع لبن حاضنته حب الرخام ونحته وتشكيله ، واذا بامه تموت بعد ستة اعوام وهو بعيد عنها فحرم من حنانها الى الأبد .

وما يكاد يبلغ الثالثة عشرة من عمره حتى ينضم الى مرسم الاخوة **« جيرلا ندايو »** ليتدرب على انجاز رسوم الفريسك الجدارية، لكن هواية النحت تجتذبه الى ترك المرسم بعد عام واحد للالتحاق بمدرسة النحت فى حدائق **آل مديتشى** حيث عاش بين تماثيل العصر الكلاسيكى التى تضمها مجموعة **لورنزو** العظيم . وهناك ينحت راس تمثال لجنى صغير (فون) يراها الأمير لورنزو حاكم دوقية فلورنسا فتبهره مواهب الصبى **ميكلانجلو** ، ويدعوه للاقامة فى قصره وسط مجموعة الفلاسفة والادباء والشعراء الذين صاغوا فلسفة المذهب الانسانى خلال مناقشات طويلة ، كان ميكلانجلو يتشربها وتتسلل الى اعماق نفسه ، فاذا بها تشكل خلفيته الفكرية التى تظل متوثبة فى وجدانه طوال عمره .

كان دعاة المذهب الانسانى قد اكتشفوا فى الحضارة اليونانية القديمة انماطا فكرية وفنية اكثر ثراء وخصوبة ، فتاقوا الى التوفيق بين الافكار والاشكال الوثنية وبين الاعراف المسيحية ، ورأوا فى الأفلاطونية مثلهم الأعلى، فهاموا بتطبيقها في سلوكهم ومنجزاتهم .

على أن تأثر ميكلانجلو بأفلاطون كان مرتكزا على عدة نقاط في فكره ستكون نبراسا تستهدى به فى اعمال ميكلانجلو الفنية . كانت محاورة افلاطون « **تيماوس » عن الخلق والتكوين ، وكذلك محاورة « المادبة » (سمبوزيوم) عن الحب والجمال** اكثر ما شد ميكلانجلو الى افلاطون ، ولم يلبثا ان صارا السلف الفلسفى لجميع اعمال ميكلانجلو الفنية .

شده **الى افلاطون** نظرته **الفلسفية الى المثلث والدائرة والمربع بوصفها** الاشكال الخالدة التى تهيء مفتاحا لطبيعة الكون الحقة حتى قال فى **محاورة** فيليوس :« السر ما اعنيه **بجمال الاشكال ما** يراه الناس عادة جميلا **او يحسبونه كذلك وراء ما يرونه من كائنات او صور لهذه الكائنات ، وانما الجميل عندى قد يكون حزمة من الخطوط المستقيمة وما ينتج عنها من مسطحات وكتل شكلها الفرجار والمنقلة والمثلث ، لكنها فريدة في ذاتها ، ينطلق جمالها من نبع روحها ،يعيش لاصقا بها الى الأبد »** .

واغراه التثليث الافلاطونى الذى قسم الوجود الى مستويات ثلاثة هى عالم الوهم والخيالات ، وعالم الصيرورة المادى المتغير ، والعالم العقلى ، والتى على اساسها قسم المجتمع البشرى الى طبقات ثلاث ايضا : المنتجون من العمال والزراع ، والمحاربون ، والفلاسفة والحكام ، ورمز لهم على التوالى بالنحاس والفضة والذهب ، وحدد لكل طبقة هدفا : الكسب للعمال ، والطموح للمحاربين، والهيام بالحقيقة المطلقة للفلاسفة ، كما قسم التعليم الى مراحل ثلاث : الجهل والرأى والمعرفة . وجعل للنفس الانسانية ثلاث ملكات : الشهوانية والوجدانية والعقلانية ، وزعها على ثلاثة مواضع : المعدة والصدر والرأس . وجعل للملكة العقلية اسمى المهام وهى نشدان الخلود ، فالانسان بحكم ذكائه « كالشجرة لا تضرب بجذورها فى الارض بل تشب بغصونها الى السماء » . ومن ثم كان العنصر العقلانى فى النفس هو الذى يرتفع بنا من الارض « الى اشباهنا القابعة فى السماء » . وهو ما سوف نرى تطبيقه العملى المذهل فى تصوير ميكلانجلو بسقف مصلى سيستينا .

كما تصور افلاطون صعود الانسان من ادنى مراتبه حتى بلوغ اصله الالهى . وفى هذه العودة الى العالم الالهى ، تدرك النفس الاله ، وهى مازالت فى اسار سجنها البدنى تصارع من اجل ذلك ، وتبذل الجهد والمعاناة تنتقل من الحدود المتناهى الى اللامحدود اللانهائى ، حتى تنفلت من الاسر المادى الى الحرية الروحية والخلود .

ولذلك كان افلاطون يكن للحياة الدنيوية احتقارا عميقا ، فهو يعدها عبئا ثقيلا وعقوبة للانسان على نسيانه لأصله الالهى وانجذابه الى عالم الحس ، مخلفا وراءه عالم التأمل العقلى الذى سقط منه فى الاصل ، على ما سوف نرى في تماثيله للأسرى .

ويسمعنا افلاطون في « **المادبة** » صوت **اريستوفانس** شاعر الملهاة يتحدث عن الحب قائلا : « سمعت على لسان الكاهنة ديوتيما ان الكائنات كانت مركبة : اما من جنس مذكر خالص او جنس مؤنث خالص، او من الجنسين معا . وعندما تعالت هذه الكائنات على الآلهة

عاقبتها بان شطرتها الى انصاف . ومن هنا جاء نـزوع الانسان اما الى مثيله او الى الجنس الآخر وفق الكائن الذى انحدر عنه .

كذلك كانت تلح على ميكلانجلو نظرة افلاطون بان الانسان قد عب مرة من مياه نهر النسيان فانسي اصله الالهى ، حتى اذا رأى امرأة جميلة ذكرته باصله الالهى . ولكن لا يلبث الاغراء الجسدى والجمال الزاوى أن يشداه الى جمال الحقيقة الأبدى ... ثم في النهاية الى تامل حقيقة الحق والخير الخالدة .

واخيرا رأى ميكلانجلو في المثل الافلاطونية روحانية مطلقة ، وعشق الجمال بوصفه مثالا مطلقا ازليا ابديا ، تحتفظ الروح الانسانية بذكرى مبهمة لمعايشته في ماض بعيد سابق على الحياة فوق الارض ، فلا تنفك ـ الروح ـ تعشق ذلك الجمال وتصبو اليه وتبحث عنه

لقد آمن ميكلانجلو أن على العاشق ان يسمو من الحب الجسدى الى الحب الروحى، الى حب الجمال المثالى الذى هو جزء من القداسة والخير . وذلك هو المجال الذى يشتاقه العباقرة والفلاسفة ويطمحون اليه .

كان ميكلانجلو فنانا شكلته الفلسفة ، شانه شأن الفنان فيدياس الذى عاش خلال العصر الذهبى الكلاسيكى ، غير ان صوت **سافونا رولا** الراهب المسيحى الثائر كان يطارد ميكلانجلو ، بينما كان ذهنه مؤهلا لتمثل التجريدات الأفلاطونية . فكان قدره ان يظل عقله العاصف نهبا لهاتين الفلسفتين المتصارعتين خلال اعماقه حتى آخر حياته، مترجما رؤاه في اشكال درامية مرئية ، فابدع لنا روائع خالدة في عالم النحت والتصوير والعمارة والشعر . واذا كانت عظمة الانسان تكمن في استهانته بالعقبات المادية وشحذه لقدراته العقلية والروحية، فلا بد من أن نعد ظهور ميكلانجلو احد الأحداث العظمى في تاريخ الانسانية .

ولما كان العمل الفنى بالنسبة لميكلانجلو هو ان يشارك على الدوام في عالم الافكار ، جاءت كل انجازاته الفنية فلسفية كما هى جمالية ، وثنية كما هى متدينة ، والافلاطونية كما هى مسيحية .

ففى عالم النحت حمل تمثال **«باكخوس»** اله الخمر المبكر **(لوحة ١)** بصمات وثنيته الدفينة بحيث لا نكاد نفرق بينه وبين تماثيل العصر الكلاسيكى ، ومالبث تمثاله التالى « العذراء الأسية (بيتيا) » ان كشف عن إيمانه الدينى الصادق **(لوحة ٢)** .

وفى عالم التصوير جمعت رسوم سقف مصلى سيستينا العرافات الوثنيات **(لوحة٣)** جنبا الى جنب مع الانبياء العبريين **(لوحة٤)** كما افسحت المكان للنظرية الافلاطونية عن العودة الى العالم الالهى ، الى جانب نظرية الخلاص المسيحية .

وتجيء **لوحة يوم الحساب** في عنفها وضراوتها الشبيهة بسفر الرؤيا في الروعة والترهيب لتتجاوز الشخصيات الاسطورية مثل شخصية خارون حارس العالم السفلى لدى الاغريق مع شخصيات العهدين القديم والجديد .

وتمثل سنوات حياته الأخيرة مرحلة من التبتل والورع المسيحى لم تنطفيء معها شعلة الافلاطونية في اعماقه . ففى الوقت الذى كان يمنح جهده كله لخدمة العقيدة المسيحية كان

ينظم شعرا يفيض بالوهج الافلاطوني الذي تجلى من قبل :

ـ في تماثيل العذراء حين عبر عن اتحاد الجمال الجسدي بالجمال الأبدي .

ـ وفي تمثال موسى حين ربط بين قوى الانسان المادية والمعنوية وبين الخير الأبدي .

ـ وفي وقوعه تحت سيطرة الاشكال الافلاطونية الخالدة التي تهيء مفتاحا لطبيعة الكون والتي نلمسها في سقف مصلى سيستينا (لوحة ٥) .

ـ وحتى في اشكاله المعمارية المجردة نجده يقيم الأعمدة وكأنها الأسرى ، تشدها القيود فلا تستطيع فكاكا من ثقل الحمل المادي الذي لا مفر من حمله (لوحة ٦ لم ٩ ب) ، على حين تحوم القبة الشامخة عاليا في الكمال الهندسي للشكل الدائري ، الرامز للسموات التي هبط منها الانسان والتي يجب ان يتلمس طريقه نحوها من جديد .

اننا نقف اليوم في خشوع وذهول ونحن نتامل هذه العبقرية الفذة التي بزغت في مجالات فنون اربعة هي النحت والتصوير والعمارة والشعر .

● ● ●

وقد ظن فنانو عصر النهضة أنهم توصلوا الى القواعد الجمالية النهائية المحددة للشكل ، وما ينبغي ان ينطوي عليه من توافق ، خلال فترة التطور التي اعقبت **جوتو ومازاتشيو** وبلغت ذروتها **برافائيل** ، واذا بميكلانجلو يضرب عرض الحائط بهذه القواعد في مستهل القرن السادس عشر . وكان واعيا بما يموج في وجدانه من قلق وما يعتمل في داخله من صراع . كان ايمانه التقليدي بالشكل قد وثق روابطه بالنحت اكثر من التصوير مع انه كان عبقريا في كليهما ، كما شده هذا الايمان التقليدي بالشكل الى الجسد الانساني في الوقت الذي استهان فيه بمشاهد الطبيعة . غير انه لم يكن راضيا عن التقديس الممنوح للشكل في عصره ، فأطلق في مقابل الشكل نقيضه ، وهو الطاقة الكامنة فيه ، التي تطمح الى التحرر من سجن الشكل ، لكنها لا تملك الا التمرد وتمزيق بعض القيود ، التي لا تتيح لها الا ان تطل براسها فحسب ، بينما يبقى الجسد كله سجينا .

وقد تجلى كفاحه ضد قواعد الشكل المألوفة في عصره في افتتانه بموضوع الارقاء والأسرى المغلوبين ، الذي يعد صياغة جديدة لموضوع هلينستي قديم ، هو صراع لاوكوون كاهن ابولو الطروادي ضد الافاعي الضارية التي ارسلتها الآلهة المناصرة للاغريق ففتكت به هو وبنيه ، فنشهد في تماثيله التوكيد على العضلات المتوترة ، بصفتها باعثة الحركة المهددة بتفجير اغلال الشكل ، والمعبرة عن تبرم الارقاء الساخطين باغلالهم التي تقيد اطرافهم ، بينما يتجلى الانفعال محتدما في اجسادهم وهي تصارع لتحرر نفسها من قالب الصخر الذي يحاصرها ويطوق حركتها والذي توقف ازميل المثال قبل انفلات الارقاء من ربقتهم .

لقد تجددت ازمة الشكل في أوج عصر النهضة في منحوتات ميكلانجلو حيث يبدو الشكل وكأنه يصارع ضد ضغط خانق في التماثيل التي تتجلى قوتها المعبرة في كونها لم تكتمل .

ومن بين تماثيل الأرقاء الثمان بمتحف اللوفر ، يعد تمثال العبد المغلول اقربها الى الاكتمال (لوحة ٧) .

ويبدو كأنه يمثل فتى نائما يقض مضجعه حلم مرعب ، أكثر مما يمثل أسيرا يحتضر كما يحلو لبعض مؤرخي الفن تسميته . فبينما نجد القيود مجرد شرائط رقيقة تعجز عن أن تكون وثاقا ، تتجلى الروح الحبيسة التي تعذبها ذكرى أصولها الالهية ، وكأنما وجدت راحتها في النوم بعد عذاب نفسي ممزق .

ويصور التمثال الآخر المعروف باسم **العبد المتمرد (لوحة ٨)** منف صراع كائن مفتول العضلات كتب عليه أن يضيع كفاحه هباء .

وفي كلا التمثالين نشهد نفس الصراع اليائس مع القدر . انها مأساة الانسان الذي يحد الزمن من امكاناته ، ويعييه ادراك سر الوجود ، ويتطلع رغم فنائه الى الخلود ، ولا تعوقه قيود الجسد عن أن يحلم بحرية بلا حدود .

ولا شك في أن أشكال أرقاء ميكلانجلو ذات وشائج قربى مع نقوش أقواس النصر والأضرحة والتوابيت الرومانية ، فان نماذج الأرقاء المغلولين يمكن اقتفاء أثرها في المنحوتات الهيلنستية التي تصور مارسياس التعس وأبوللو يسلخه حيا لتجاسره وتحديه له في مباراة موسيقية . كما أن الشبه بين هذا العبد المغلول وذاك المتمرد ،وبين الابن الأصغر في مجموعة تمثال الكاهن لاوكوون في غير حاجة الى تعليق جديد .

ونلمس نفس الأثر في تمثالي الأسيرين المعروفين باسم أسيرى بوبولي (لوحة ٩ ، ١٠) . والمعروف أنهما قد صمما كتمثالي كارياتيد بطرفي قاعدة ضريح البابا يوليوس الثاني عام ١٥٣٢ ، غير أنهما استبعدا ، فأهداهما ميكلانجلو الى الدوق كوزيمو دي ميدتشي الذي احتفظ بهما في كهف بحدائق بوبولي بفلورنسا . ويكاد الصخر أن يمثل سجنا قاسيا في هذين التمثالين ، اذ يبدو الأسيران محتجزين بين ثنايا كتلة الصخر دون سبيل الى الخلاص منها ، رغم كل ما يبذلانه من جهود . ويشي شكلهما الذي لم يكتمل بأن أسلوب ميكلانجلو فيهما كان قريب الشبه بلوحات فن النقش الشديد البروز .

وما أجمل ما تحدث به ميكلانجلو الى صديقته وعادبته **فيتوريا كولونا** عن النحت حين قال في احدى قصائده :

« ليس فن النحت ياسيدتي هو تشكيل قطعة صخر صلبة ، ولكنه تحرير الشكل من سجن الصخر ، بازالة الزوائد عن الصورة المتخيلة في الذهن للشكل الكامن في الصخرة » .

هكذا كان التمثال لميكلانجلو شكلا كامنا في كتلة رخام لم ينتظر الا يد أستاذ النحت البارع كي يولد على يديه ، وكأنه يعبر من خلال تماثيله عن فكرة أفلاطون بأن نفس الانسان ما تزال سجينة في جسده حتى ترقى الى الكمال بواسطة قوة خلاقة تفوقها سموا ورفعة .

وفي تمثال العذراء الآسية « بييتا » لوحة ١١، ١٢) يكتشف جمال التنفيذ ودقة التفاصيل واثارة المشاعر عن أن ميكلانجلو كان ما يزال واقعا تحت تأثير طراز النهضة الفلورنسية . غير أنا نلمح أن ميكلانجلو قد بدأ بالفعل يدخل بعض التعديلات على النمط الهرمي الشائع وقتذاك ، اذ جعل ثنايا ثوب العذراء العديدة قاعدة للهرم ورأس العذراء قمة له ، وشكل جسد المسيح على غرار آلهة الاغريق ، بينما احتفظت العذراء رغم شجنها بالوضعة الكلاسيكية ، فبدت بحق ، الأم راعية الأحزان

الجليلة التى لا تهون من شانها دموع أو انات . فضلا عن أن ميكلانجلو قد استباح لنفسه تناول مقاييس اشكال بحرية تؤجج تاثيرها التعبيرى ، وتؤكد التوافق والانسجام فى تصميمه، كما أكثر من الاردية ليضمن فيضا من الأطواء والخطوط ، وصاغ جسد المسيح أصغر حجما من العذراء ليحقق التوازن فى تكوينه ، واقام تمثاله المثلث بلا كوة داخلها او خلفية معمارية تدعمه ، فكان تمثال العذراء الآسية بمثابة اعلان لاستقلال النحت ، كما ينفرد بانه العمل الوحيد الذى وقعه ميكلانجلو .

وعندما طرد اهل فلورنسا اسرة مديتشى واسسوا الجمهورية عام ١٤٩٤ بزعامة الراهب سافونارولا مضوا يجسدون انتصارهم فى اعمال فنية ذات صبغة وطنية بطولية كان احدها تمثال عملاق لداود **(لوحة ١٢ أ ، ب)** قاتل الطاغية جالوت . وهو تمثال هرقلى الطابع ، هائل الضخامة يبلغ ارتفاعه حوالى ستة أمتار ، يقف عاريا ممسكا بمقلاعه منتظرا وصول جالوت عدو شعبه .

ولو اننا وقفنا عند حد تامل **جسد داود** وحده ، لخيل الينا بتوتره وحيويته انه ينتمى الى العهد الكلاسيكى، والى الطابع الهلينستى على وجه التحديد أكثر مما يحمل طابع القرن السادس عشر . ولكننا ما نكاد نتطلع الى راسه حتى ندرك القوى الروحية التى لم يعرفها الاقدمون ، وهى تنطق بازدراء المتع الحسية .

وقد انجز ميكلانجلو تمثال موسى ليقام فى ضريح البابا يوليوس الثانى المعروف باسم البابا الرهيب ، وكان قوى الفكر عامر النفس بخشية الله . واذا كان ميكلانجلو قد **تخيل موسى** على انه تجسيد للارادة القوية فقد اراد لـه فى نفس الوقت ان يكون صورة شخصية مثالية **للبابا يوليوس** الذى كان مشرعا للقوانين شان موسى العبرى **(لوحة ١٣ أ ، ب)** . ويبدو موسى وكانه تجسيد لقوى الطبيعة ، أو بركان بشرى موشك على ثورة غاضبة على عصيان البشر . ففى سكونه نذير عاصفة ساخطة ، وتكاد قسماته تنطق بالوصايا العشر ، وتحكى لنا قصة صعوده جبل سيناء وحديثه مع ربه . ونكاد نحس انه قد اتخذ جلسته هذه ليحاسب البشرية من فوق منصة القضاء . ومنذ عهد قريب ابدى المثال الفرنسى اوجست رودان ملاحظة وجيهة بانه يمكن دحرجة التمثال من فوق جبل دون أن يتهشم منـه اى جـزء اساسى » . ويكشف **هذا التماسك عن قدرة ميكلانجلو على** تطويع الرخام **الى الحد الذى يحتشد فيه** بالقوى **التعبيرية والجيشان المستكن فى ثنايا الاطواء والمكاسر وعضلات الذراعين المتوترة ، والعقلانية المسيطرة على ملامح الوجه ، والمزاج النارى الملتهب .**

•••

وفى تماثيل ضريح مديتشى تتجلى من جديد روعة النحت التى تجلت فى تمثال موسى وتتكون كل مجموعة من مجموعتى النحت الشهيرتين من شخصية جالسة فى ثياب الحرب المدرعة داخل كوة ، مع شخصية رمزية راقدة على كل جانب من جانبى التابوت . فيعتمر لورنزودى مديتشى (لوحة ١٤) بخوذة مجسدا الرجل المفكر ، على حين يحمل جوليا نودى مديتشى عصا القيادة مجسدا رجل المآثر البطولية (لوحة ١٥) . وهكذا يمثل احدهما حياة التامل والآخر حياة الحركة المفعمة بالنشاط . ولم يضف ميكلانجلو على شخصيات آل مديتشى الجالسة اية ملامح ذاتية ، وهو ما اصاب اهل فلورنسا بالذهول امام هذا المفهوم المثالى . وقد طمأنهم

فى سخرية وثقة بالنفس ثبت صدقها قائلا بأن أحدا لن يذكر بعد الف عام ما كان عليه شكل الدوقين .

وعند قدمى جوليانو يرقد تمثالا الليل والنهار . وتمثل الليل (لوحة ١٦) أنثى تغفو فى نعاس ثقيل . ونحن اذا أطلنا النظر فى تكوين هذه الأنثى التى تتفجر اثارة ، والتى قد تغرينا فيها الاثداء الشبقة الريانة الممتلئة ، والتى قد تخدعنا سيقانها البضة الفارهة ، فان قدرا أكبر من التأمل سيكشف لنا عن اختباء ملامح غلمانية وراء كل هذا .

فان أفسحنا لصورة هذه الأنثى مكانا فى ذاكرتنا دقائق قليلة ، ريثما تلتقى بصور غلمان ميكلانجلو المصورين على سقف سيستينا حيث أخفى وراء فتوة غلمانيتهم سحرا أنثويا دفينا ، سوف نصل فى النهاية الى اكتشاف عالم غريب من غلمان ميكلانجلو وفتيانه لم يعرفه بعد عالمنا الواقعى .

ويمثل **النهار** (لوحة ١٧) عملاق هرقلى الطابع مفتول العضلات يلتفت برأسه من فوق كتفه ، غير أن وجهه نائم القسمات .

فاذا انتقلنا الى تابوت لورنزو نرى الجلال مشرفا على جسدى الراقدين بين النوم واليقظة . ويمثل الرجل الغروب (لوحة ١٨) على حين تمثل المرأة الفجر (لوحة ١٩) وهى صنو الأنثى الغافية التى تجسد الليل فى ضريح جوليانو .

• • •

دلف ميكلانجلو من عالم النحت الى عالم التصوير مزودا بملكة اعطاء صوره القدرة على اثارة احساس المشاهد ، فيوهمه بأنه يلمس بأعصاب كفه وأصابعه الجسد المصور حتى لتدور أنامله مع انثناءاته واستداراته المختلفة ، وهو ما ينفرد برنارد برنسون بتسميته « القيمة اللمسية » . كما أنه اختار موضوعا لرسومه الجسد البشرى الذى كان موضوع تماثيله ، مؤمنا بأنه ليس مثل الجسد البشرى العارى شيء قادر على التعبير عن نفسه ، وعن تنبيه وعينا بكل ما يطرأ من تغيرات ، وليس مثله شيء يمكن أن ندركه نحن ، بمجرد تمثله لنا فى الصورة التى يتبدى فيها فى الحياة اليومية الواقعية ، وليس مثله شيء يمكن أن يثير احساسنا بأننا جميعا نشاركه فى تجربة الحياة ، وهو ما جعل ميكلانجلو لا يرى فى عالمنا كله شيئا يستحق النحت والتصوير غير الجسد الانسانى ، ليس الانسان العادى الذى يدب فوق الأرض كما تدب الآلاف ، بل جنس انسانى خاص يتميز بالجلال ، والطاقة ، والقدرة على التعبير والاثارة ، وقد كان ميكلانجلو نفسه انسانا متميزا ، يحيا وحيدا ، زاهدا فى متع الحياة المادية . بل ان المرأة الأنثى الناعمة الجمال والدافقة الفتنة لم تجتذبه فى حياته الخاصة ، ولم تشده فى حياته الفنية الا فى عمل فنى واحد لم يلبث ان أهمله وراء ظهره ، ليقدم لنا جنسا من عالم خياله ومثله .

كان حرص ميكلانجلو على العرى فى الأجساد البشرية التى يصورها قائما على ايمانه بأن الأردية تمثل عائقا فى ترجمة حركة الجسد البشرى ، وفى اثارة احساس المشاهد بالضغوط التى يقاومها الجسد ، والمقاومة التى يبذلها ، والنبض الخفى السجين بأعماقه . وما دامت الأردية تحول بيننا وبين التأثر المباشر بالطاقة التى يعيشها الجسد المصور ، كان من الضرورى تصوير الجسد عاريا ، حتى يمتلك ناصية القدرة على اثارة حسنا بالحركة المتمثلة فى توتر عضلاته ، وارتعاش بشرته واسترخاء وضعته ، وتميز أعضائه من ربعة الكتف الى النتوءات التى تطفو فوق جسده كله وكأنها

انبثاقات طاقة دفينة من جسد عملاق ... فهذه العلامات كلها توقظ في الذهن على الفور اسم ميكلانجلو .

وقد أصبحنا الآن قادرين على ان نفهم لماذا ينبغي ان يهتم بالعرى كل فن يدور حول الجسم البشرى ، ولماذا استحوذ العرى على الفن الكلاسيكى في مختلف اطواره ، ليس فقط بوصفه افضل وسيلة تبعث الحياة في الفن ، بل لكونه كذلك اكثر الموضوعات اهمية في العالم الانسانى . وكان ميكلانجلو أول فنان بعد عصر النحت الاغريقى يدرك تماما هوية العرى في فن تصوير الشخوص ، فمن قبله كان العرى يدرس كوسيلة علمية تعين على تصوير الانسان المكسو بالثياب ، ولكنه اكتشف اهمية العرى كغاية في نفسه ، وكهدف نهائى لفنه ، فالفن والعرى بالنسبة اليه مترادفان .

ولن نجد في غير اعمال ميكلانجلو ــ اذا ما طرحنا جانبا روائع الفن الاغريقى ــ اشكالا تعزز احساسنا بقوة اثر الصورة علينا ، وتصل حركاتها الى وجداننا مباشرة ، فتلهمه بنفس القدر من العمق .

واننا لنرى عمق ايمان ميكلانجلو بالجسد البشرى العارى كموضوع اساسي للفن التشكيلى ، في انه حين كلف في غمرة الحماس الذى صاحب قيام الجمهورية بفلورنسا برسم لوحة بطولية تزين القاعة الكبرى المتخذة لانعقاد مجلس المدينة الجديد ، لم يختر ميكلانجلو من معركة كاسكينا التى نشبت خلال الحرب بين بيزا وفلورنسا عام ١٣٦٤ الا لحظة غريبة هى تلك التى كان الجنود الفلورنسيون يستحمون اثناءها في نهر الارنو ، بينما كان التحذير ينطلق معلنا هجوم العدو .

لقد جاء اختياره لهذه الزاوية من الموضوع نتيجة ايمانه بقدرة الجسد البشرى العارى على حمل جميع الافكار والعواطف والتعبير عن مختلف الانفعالات . ولا شك انه كان اقدر على ان يجسد افكاره وانفعالاته في عراة النهر اكثر مما يجسدها في حركة الجنود الممتطين صهوات الجياد . ومن المؤسف ان المخطط المبدئى الكامل لهذه اللوحة بحجمها الاصلى ، وهو التصميم الذى نسميه « بالكرتون » لم يترفق به الزمن اذ فقد بعد أن تحدث عنه بنفينوتو شلليني بانه كان اعظم عمل قدمه ميكلانجلو ، وانه يمثل بحق « اكاديمية الرسم العالمية » بل انه يفوق في عظمته سقف سيستينا الذى سنعرض له الآن . (لوحة ٢٠) .

●●●

ولقد اضاف ميكلانجلو مثلا اعلى للجمال مقرونا بالقوة ، ورؤيا لانسانية عظيمة كان يتوق الى رؤيتها تدب على ارضنا يوما من الايام . فنحن لن نلتقى كثيرا بمثل هذه الفحولة والعنف وقوة التاثير ، وتجسيد حلمنا بروح عظيمة تسكن جسدا جميلا ، مثلما نلتقي بالاشكال المرسومة على سقف مصلى سيستينا . لقد الم ميكلانجلو ما بداه مازاتشيو وهو ابداع نمط انسانى مؤهل اى تاهيل ، بى يخضع الارض ويسوسها نحو التألق والحق والخير والجمال .

كان ميكلانجلو منكبا على تشييد الضريح الذى اراد **يوليوس الثانى** تشييده لنفسه ، غير ان البابا مالبث ان نحاه عن هذا العمل الذى كان قد منحه فكره وقلبه ، وكان على وشك ان يمنحه بقية عمره ، فقد كان يتضمن نحت اربعين تمثالا يفوق كل منها الحجم الطبيعى للانسان ، اكمل منها تمثال موسى الذى هرشناه منذ لحظات ، ولو انه ظل

يتابع هذا العمل الخارق رغم كل ما تعلمه عن قدرته المذهلة فى نحت الرخام الذى كان سريع الاستجابة لضربات ازميله الحاسمة ، لأمضى عشرين عاما في اتمامها .

وقد حنق الكثيرون على البابا الذى ازاح مثالا عبقريا عن النحت ، ليغرقه فى تصوير سقف مصلى سيستينا بمبنى الفاتيكان ، الا ان احدا لا يملك الا ان يعترف الآن ان هـذا القرار الذى اتخذه البابا كان اقرب ما يكون الى الالهام الاسطورى . ذلك ان هذا العمل قد فجر طاقات ميكلانجلو الخبيئة ، واتاح له التعبير عن رؤيته الباطنية للعلاقات الانسانية والمصير البشرى . وقد ترك البابا لميكلانجلو الحرية فى اختيار الموضوع الذى يصوره ،وهو استثناء لم يتمتع به احد فى هذا العصر الذى كان الفنانون يلتزمون فيه بنصـوص القصص الدينى وتعليمات القساوسة . وقد استطاع ميكلانجلو ان يعمل خياله في القصص الدينى وأن يصور عملا يبهر مشـاهديه . والذين شـاهدوا تصاوير هذا السقف من نقاد الفن على مر التاريخ وقفوا مـذهولين امام هـذا الموضـوع الذى لعب فيـه خيال ميكلانجلو دورا كبيرا بعـد ان استمده من نصوص سفر التكوين ، فلم يتفقوا على تفسير واحد . غير انهم احسوا جميعا هذه الوحـدة المتوهجة المشبوبة التى ربط بهـا ميكلانجلو جسـد الانسان بعقله وروحه . فاعجبوا بكل ماينبض به الجسد من القوة العضلية التى كانت طابع تماثيل الكوروس الاغريقية ، كما انبهروا بما يشع حوله من القوة المعنوية الدفاقة فى صور العرافات والانبياء ، وان كان من الواضح ان ميكلانجلو قد منح الروح اهتماما يفوق مامنحه للجسد .

وليس من شك فى ان متابعة رسوم السقف تسبب عذابا كبيرا للمشاهد حين يضطر الى لنى عنقه الى الخلف طويلا ليستكمل جوانب هذه الملحمة الهائلة ، غير انه سرعان ما ينسى هذا العذاب ليجد وجدانه وقد غاب فى هذا العالم السحرى . فما بالنا حين نذكر ان ميكلانجلو قد اضطر ، لانجاز هذه الرسـوم ، أن يضطجع على ظهره طوال اربعة اعوام . وقد عبر عن هذا العقاب الذى ينوء بحمله البشر في كلمات بالغة البساطة والرقة باحدى قصائده جاء فيها ما ترجمته :

« الى السماء تشمخ لحيتى .

والى الوراء ينثنى قفاى .

مثبتا فوق عمودى الفقرى .

وترقوتى تنتصب عالية كانها قيثارة .

وعلى وجهى ترتسم لوحة ثرية ملونة .

من قطرات الفرشاة الثخينة والدقيقة » .

•••

هجر ميكلانجلو من ناحية المبـدا فكـرة زخرفة الاسطح المستوية بتصميمات زخرفية مقتبسة من عالم الاشكال النباتية ، فحيث يتوقع المرء أن يشـهد نبتة متحوية يجـد مكانها اجسادا بشرية ، ولا شىء غير الاجساد البشرية . ثم ما يلبث ان يدرك الايقاع المتناغم الذى يربط بين هذه الكتل ويفصـل بينها .

لقد اختار ميكلانجلو ان يروى قصصه عن طريق الاجساد العارية ــ كما مر بنا ــ ونحن ندرك من القاء اول نظرة على هذه الرسوم الفسيحة غياب الابنية ومشـاهد الطبيعة الا رموزا موجزة كالشجرة الوحيدة التى تمثل الجنة ، وعشـبة هنا واخرى هناك تشير الى خصوبة الارض ، وهكذا استخدم ميكلانجلو وسـائل التعبير فى ايجاز بليغ فى هـذه التصاوير . وكان المزج بين ايقاع الخطوط

والايحاء بالعمق وسيلة اعانته على رواية القصص بهذا الايجاز الفريد .

ولو أنا تأملنا تصميم ميكلانجلو لسقف سيستينا لوجدناه تكوينا عضويا متماسكا تسيطر عليه فكرة فلسفة وفنية موحدة ، يمزج في ايقونوغرافيته بين اللاهوت التقليدي العبري المسيحي والفلسفة الافلاطونية التي تشر بها ـ كما مر بنا ـ في صباه أثناء اقامته بقصر لورنزودي مديتشي ، وهي التي شكلت وجدانه فبقي الى آخر حياته مسيحيا مؤمنا بالافلاطونية ، أي مؤمنا بوجود قوة خارقة تعلو قوة الانسان وتوجه حركته ، هي قوة الالهام .

قسم ميكلانجلو فراغ السقف الى الاشكال الهندسية الافلاطونية التي ذكرناها من قبل وهي المثلث والدائرة والمربع . (لوحة ١٥) .

ثم عاد ميكلانجلو فقسم التكوين ثانية الى ثلاث مناطق تلعب فيه كثافة الفحولة دورها : تغطي أدناها وأشدها قتامة البنيقات الثماني المثلثة وبنيقات الاركان الاربعة على شكل المقرنصات . وتشمل الثانية الفراغ المحصور بين البنيقات المثلثة والمنطقة الثالثة العليا المخصصة للوحات التسع الرئيسية .

وتواكب هذه التقسيمات من الناحية الرمزية مستويات الوجود الافلاطونية الثلاثة التي سبق ذكرها .

ـ **عالم الوهم والخيالات** : وقد عبر عنه ميكلانجلو بالانسان غير الملهم الذي لم يتلق الوحي بعد ، وصوره في أدنى المستويات على البنيقات المثلثة الثماني .

ـ **وعالم الصيرورة المادي المتغير**، وعبر عنه ميكلانجلو بأنبياء العهد القديم والعرافات الوثنيات الذين يتوسطون بين الانسان والله بحكم ملكاتهم العقلية السامية . وصوره في المنطقة المتوسطة بين المثلثات واللوحات التسع .

ـ على حين صور في المساحة العليا **قصة الخلق والانسان وعلاقته المباشرة بالله،** والتي تبدو لنا من خلال التقسيم المعماري مشرفة علينا من أعلى مستوى كوني .

وبلغت مساحة السقف التي صورها ميكلانجلو حوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة متر مربع ، ويضم التكوين ثلاثمائة شخصية . وقد رسم ميكلانجلو المخطط المبدئي (الكرتون) على الورق أولا ثم قسمه الى أجزاء يتسع اليوم لتنفيذ أحدها وراء الآخر .

ويدل خروج ميكلانجلو عن رسوم المخطط المبدئي على أن عنصر الارتجال قد صاحبه أثناء العمل . وكانت ألوانه محددة بألوان سطح الفريسك ، وكلما تقدم العمل كان يؤثر تدرجات اللون الرمادي الذي كان يسبغ على أشكاله المصورة طابع التماثيل المنحوتة . وقد كان الشائع أيامها أن يتولى القيام بهذه الاعمال الكبرى الاستاذ بمساعدة تلامذته ، ولكن الثابت أن ميكلانجلو قد قام بتصوير السقف كله وحده ، واقتصر عمل المساعدين على التجهيزات الاولية فحسب .

واذا كان ميكلانجلو قد وقع اختياره من سفر التكوين على قصة الخلق من بدايتها حتى انتشاء نوح بالخمر . فقد شاء لنا أن نطالع هذه القصص مصورة على سقف المصلى بادئين من النهاية ، لأنه رسمها بطريقة عكسية ، فبدأ بنوح وانتهى بلوحة فصل النور عن الظلمة .

فما نكاد ندلف الى القاعة حتى يعلونا نوح بجسده المستلقي ثملا (لوحة ١٢١ ، ب) .

وكما يصور ميكلانجلو نوحا الانسان فريسة لشهواته الجسمانية يصوره كادحا من أجل لقمة العيش ،فجعله على يسار اللوحة يحرث التربة القاحلة قوى البدن واهن الروح . كما أوقف أبناءه حوله ، دون أن يبدو عليهم الأسى لشهود عورة ابيهم ، ودون أن يتعجلوا باخفائها بالرداء كما جاء في سفر التكوين ، بل جعلهم شهود المصير المأساوى للانسان نفسه الذى ينبغى له أن يلهب ويكد ويخطو الى الشيخوخة ، وينتهى الى الموت . وتذكرنا وضعة نوع المستلقية بآلهة الانهار الرومان ، وقد مالت رأسه فى هذه اللوحة على صدره فى ارهاصة بليغة بالنهاية المرتقبة وهى الموت .

ثم تأتى لوحة الطوفان (لوحة ٢٢) ، التى تذكرنا أشكالها بالجنود العراة المستحمين فى نهر الارنو خلال معركة كاسكينا . وتكشف لنا عن فكرة ميكلانجلو في تمثل الفراغ للايحاء بأن الشخوص وافدة صوب المشاهد من وراء الجبل متعاقبة عصية على الاحصاء ، فلا يسع المرء الا التسليم بضخامة الحشد المتدفق . وترمز هذه اللوحة للمأزق الذى يسقط فيه الانسان عندما تحاصره عوامل الطبيعة القاسية التى لا يملك معها الا الاستسلام .

وتصور اللوحة الثالثة (لوحة ٢٣) نوحا وأبناءه حول المذبح وهم يقدمون القرابين ويجمعون الوقود ويشعلون النار ليتنسم الله رائحة الرضا من ذبائحهم التى يضحون بها شكرا لله على نجاتهم من الطوفان .

وما تكاد المساحة المتاحة لميكلانجلو تتسع حتى تتضاعف قدراته فنراه فى لوحة خطيئة آدم وحواء وطردهما من الجنة يبسط جناحيه محلقا الى ذرى لم يبلغها احد من قبل او من بعد (لوحة ٢٤) . كان من قبله يصورون خطيئة الانسان بواسطة شخصين واقفين متواجهين يربط بينهما مشهد تناول التفاحة من شجرة معرفة الخير والشر التى تنتصب بينهما . لكن ميكلانجلو لا يقتنع بتقليد الاسلاف بل يبتكر تكوينا جديدا ، كما أنه لا يصور الغواية كما كانت تصور قبله عملية سلبية بل يحيلها الى فعل ايجابى يختاره الانسان بارادته . فيصور حواء فى وضعة الاسترخاء المعهودة فى التصوير الرومانى مولية ظهرها للشجرة ملتفتة لفتة عابرة نحو الحية التى لها جذع امرأة ، وتتناول التفاحة متثاقلة ، وصور آدم في الشطر الايسر من الصورة ضخم الجسم أدنى مرتبة من الانسان ، وهو يمد يده الى غصن الشجرة الممتد فوق حواء ، التى يبدو جسدها ناعما شهوانيا ، ويواكب حركة ذراعها الممدودة غصن مواز ينبثق من جذع شجرة فى الخلفية .

وكما خلق ميكلانجلو تكوينا جديدا لقصة الغواية ، فقد أعرب من خلال جسد حواء عن فكرة جديدة أيضا هى ان الكسل الانثوى المترف يوقظ الرذيلة فى أعماق الانسان .

ولا تضم جنة عدن سوى أوراق شجر قليلة ، فلم يشأ ميكلانجلو ان يجسد المكان بأسلوب مادى . ومع ذلك فهو يحتال كى يوحى بالترف والحركة بواسطة خطوط الارض والايحاء بعمق الفراغ . وكلاهما يتباين مع الارض المستوية الجرداء فى النصف الايمن من الصورة ، مجسدا شقاء آدم وحواء بعد طردهما من الجنة حين ازاحهما الى طرف الصورة الايمن ، محتفرا فجوة عميقة بينهما وبين الشجرة .

ويفسر بعض المؤرخين الثنائية التى تجمع بين الحية والملاك المنتقم فى مشهد الطرد من الجنة باللوحة بأنها تنطوى على فكرة ان الجريمة والعقاب مثل العلة والاثر ، هما مظهران توأمان للشر .

ونلاحظ اختلاف تعبير آدم في مشهد الطرد عنه في مشهد الغواية ، اذ يبدو مدركا خطيئته وان مضى في طمأنينة وكبرياء ، محاولا ان يدفع بحركة ذراعيه حد السيف الذي يهدده به الملاك المنتقم . على حين بدت حواء منكمشة محاولة ان تحتمي بظله وهي تسرع الخطى وقد انحنى ظهرها والتفتت بوجهها نحو الجنة آسية وكأنها تسترق نظرة اخيرة .

وهكذا نرى في الشطر الايسر من الصورة مشهد الغواية والخطيئة حيث تتجلى الرغبة العمياء ، بينما نرى في الشطر الايمن مشهد الطرد حيث تتجلى المعرفة والندم .

وتشمل اللوحات الخمس التالية مراحل خلق الله للكون والطبيعة .

ففي لوحة خلق حواء (لوحة ٢٥) يبدو الاله يهوه لاول مرة وهو يخلق الانثى باشارة آمرة من يده التي لا تلمس جسد حواء أو ضلع آدم كما اعتاد المصورون من قبل ، وانما يتجلى داخل اطواء عباءته وقد أمال التفكير العميق رأسه ، وحواء تنهض بطريقة تعرب بوضوح عن انها طوع أمر الله ، وتتسم ايماءة الدهشة والعجب المرتسمة عليها ـ وكأنها في صلاة ورعة ضارعة ـ بجمال لانهائي أودع ميكلانجلو فيه مفهومه عن الجمال الجسدي ،بينما يرقد آدم مستندا الى صخرة ، متكوما كأنه جثة هامدة ، وقد اندفع كتفه الايسر الى الامام، وقبضت يده برخاوة على جذع خشبي . ويساير الخط المحيط للتل شكل جسم آدم ويحتويه ، على حين يتوازى مع شكل حواء واتجاهها جذع شجرة مشذب الاغصان. لقد احتشد كل شيء في المساحة المتاحة وشارف الحواف حتى لم يعد مكان للاله الخالق لكي ينتصب فيه . ونكتشف هنا مفهوم ميكلانجلو الافلاطوني عن الخلق ، بأنه عملية عقلانية خالصة . ثم نشهد بعد ذلك الموضوع الرئيسي في عملية الخلق وهو خلق آدم (لوحة ٢٦) وهو أحد الاعمال النادرة التي تجمع بين العظمة الفائقة والبساطة المعجزة ،حتى بالنسبة لأولئك الذين لاينفعلون في يسر بالاعمال الفنية . فمعناها واضح ومؤثر من الوهلة الأولى ، ويزيد شغف المرء بها كلما طال تأمله لها ، اذ نرى الجسد الانساني في روعة ليس لها مثيل سابق ، مستلقيا على الارض في الوضعة التي اعتدنا ان نرى عليها التماثيل اليونانية لآلهة الانهار والخمر،الذين ينتمون الى الارض ولايتطلعون الى الفكاك منها .

ويتجه الاله الخالق في سحابة سماوية تضم زمرة من الملائكة صوب جسد آدم الخامد الملتصق بمضجعه الصخري . ويتأمل الانسان يمد يده حتى تكاد تلمس يد الله ، وكأن شحنة كهربائية تسري بين اصابعهما . ومن هذه الشحنة الدافقة في هذا النموذج الطبيعي الفذ ، خلق الله النفس الانسانية . فما يكاد الاله يلمس طرف اصبع آدم الممتدة حتى تدب فيه الحياة ، فتنطلق القوى الكامنة في جسده ، التي تتجلى ـ رغم عجزه عن الحركة ـ في انثناءة ساقه اليسرى ، وبروز جذعه المصور بالمواجهة وتوتر عضلات ساقه اليمنى المصورة بالمجانبة . ولكن آدم يتقبل الحياة على مضض وهو ما يعبر عن ذلك التشاؤم الذي يشيعه احتقار أفلاطون للحياة الدنيوية واعتباره لها عبئا ثقيلا وعقوبة للانسان على نسيانه لأصله الالهي ، وانجذابه الى عالم الحس ، مخلفا وراءه عالم التأمل العقلي . ومن خلف الله وفي ظل عباءته تتراءى حواء غامضة مستخفية وكأنها ما تزال كامنة في اعماقه ترهص بما سوف يكابده آدم على يديها من شقاء .

• • •

وتتوالى مشاهد مراحل الخلق المبكرة في تصاعد دافق بالحركة والحيوية .

ففى لوحة فصل اليابسة عن الماء (لوحة ٢٧) تتفجر قدرة الاله مانح البركة ، وهو يندفع من خلفية الصورة باسطا يديه فوق سطح الماء ، فنفطن الى أن ميكلانجلو قد نقل الشعور بالسلام الذى ينطلق من هذا المشهد بإيماءة من الله وكأنه يبارك الكون . كما تعمد التعبير عن التضاؤل النسبى للذراع اليمنى ، وغمر التكوين المساحة التى حددها اطار الصورة تماما .

• • •

ثم نشهد الله بعد ذلك يخلق الشمس والقمر والنجوم (لوحة ٢٨) بإشارات آمرة للايحاء بضرورة اخضاع هذه العناصر الشاردة الملتهبة بالحزم والقوة لا باللين والمباركة .

وهنا يغدو الله تجسيدا « لفكرة الخلق » نفسها شأنه شأن الأجرام السماوية ، فينطلق فى فلكه ينثر النجوم والكواكب التى تنطلق بدورها في المدار الذى يرسمه لها .

ونلمس فى هذه اللوحة بوضوح ازدياد الدينامية فى اندفاعة الاله الى الامام باسطا ذراعيه الى ان يوقف مسيرته بحيث ينحنى جذعه الى الوراء ، كى يتسنى له أن يخلق الشمس والقمر اثناء هذه الوقفة العابرة . ومع ان كلا الذراعين يومئان بحركة الخلق الا ان الذراع اليمنى تبدو اقوى تأثيرا ، ليس فقط لان الله ينظر فى اتجاهها بل لانه قد لحقها نصيب كبير من التضاؤل النسبى .

كذلك فان المساحة التى تمثلها صورة الله اكبر من سابقتها ، حتى لا تترك موضع قدم لفراغ زائد لا ضرورة له .

والغريب في هذه اللوحة تكرار صورة الله، حيث يستدير فنراه من الخلف مندفعا وكأنه اعصار صوب عمق الصورة ، غير ان هذا التكرار تقليد فنى قديم ، فلو انا غطينا نصف الصورة لتبجلى لنا كيف أن تكرار الشكل منقلبا ، هو جزء جوهرى من الاثر الشامل للحركة المدومة .

ويبين الايجاز المتتابع فى تصوير المخلوقات، ان فكرة ميكلانجلو هى تصوير طبيعة الله الخلاقة اكثر مما هى تصوير الاشياء والكائنات التى يخلقها .

وفى النهاية نصل الى الذروة مع لوحة فصل النور عن الظلمة (لوحة ٢٩) حيث ينبثق الوضوح من العماء ، وتتعانق الحكمة المسيحية الداعية الى معرفة الحقيقة كطريق لتحرر النفس ، مع النصيحة الهاتفة الالهية لسقراط : « اعرف نفسك » . ان مفهوم الله قد تطور : من اتخاذ شكل الانسان فى لوحة خلق حواء ، الى التجلى في الروح الكونية فى اللوحات التالية ، ثم يستحيل فى هذه اللوحة تجريدا شاملا نابضا فى ملكوت الوجود الخالص ، بعد ان أصبح الجسد رمزا للروح واتشحت قسمات الوجه بالضبابية .

لقد تحقق الهدف الافلاطونى الجديد لاتحاد الروح مع الله عن طريق التدرج من قيد البنيقات ، الى البصيرة التنبؤية للعرافات ، واخيرا صعود سلم القصص الدينى نحو ضوء المعرفة النقى ، للوصول الى نقطة الذوبان والتلاشى في حرية اللانهائية .

ومن بين كافة المحاولات التى قام بها الانسان الفانى المحدود كى يقدم صورة للطاقة المطلقة بلا حدود ، نجد هذه اللوحة اكثرها اقناعا ، وان لم تكن اشدها واقعية . ولا غرو فان الصور الفوتوغرافية الحديثة لتكوين رؤوس المذنبات النجمية تعرض نفس هذه الحركة الشبيهة بالدوامة .

لقد استطاعت تصاوير سقف مصلى سيستنيا هى والتصاوير الجدرانية لرفائيل فى غرفة التوقيع بمبنى الفاتيكان أن تنقل من فكر ايطاليا فى عصر النهضة أكثر مما نقلته آدابها المكتوبة . كما أنها كشفت من عمق بصيرة ميكلانجلو وقدرته على التنبؤ بما يوحى للمشاهدين بأنه فنان كل العصور ، وربما بصفة خاصة عصر الرومانسيين ، وهذه هى الصفة التى تميزه من منافسه العبقرى رافاييل .

ونستطيع قبل مغادرة سقف المصلى أن نتمهل لحظة أمام **تصاوير الغلمان العراة** (لوحة ٣٠) لنقارنها بتمثال **الانثى القافية** التى ترمز لليل (لوحة ١٦) وتلك التى ترمز للفجر (لوحة ١٩)والتى رجوت استضافتهما فى الذاكرة عدة دقائق ، ولنتأمل جيدا هؤلاء الغلمان الذين يمتلكون من السحر والفتنة والاثارة ما يستطيعون به منافسة جميلات الفتيات ، ليس فى بشرتهم المصقولة ، ولا فى رقة الملامح ، ولا استدارات المناكب ورشاقة السيقان ، ولا فى انبثاق الأثداء وانسدال الشعور ، بل كذلك فى التثنى والتأود فى الوضعة المثيرة واللفتة الداعية ، المترددة الحائرة بين الجسارة والحياء .

فى أى عالم رأى ميكلانجلو ذلك الجنس البشرى الغريب ؟ لا شك انه جنس ابتدعه هو بخياله . ولعل لوحة يوم الحساب (لوحة ٣١)هى أشهر تصاوير روماالجدارية، وهى بلا شك أكبرها حجما ، اذ تغطى مساحة قدرها ستة عشر مترا فى اثنى عشر مترا . وقد توزعت رسومها على ثلاثة أقسام وفق التثليث الافلاطونى : تسود فى اعلاها مملكة السماء يتوسطها المسيح فى جلاله على عرش السحب بوصفه قاضيا والعذراء الى جواره. ومن حوله حلقة من الرسل وآباء الجنس البشرى المذكورين فى التوراة تحيط بهم حلقة أخرى من الانبياء والشهداء والنساء العبريات والقديسات العذارى والعرافات الوثنيات .

ويشرف من احدى الكوتين العاليتين جماعة من الملائكة يحملون صليب المسيح ، ومن الكوة الثانية جماعة أخرى يحملون العمود الذى عذب عليه . وتبدو الملائكة بلا أجنحة ، والقديسون بلا هالات فى أجساد عملاقة ، تتحرك محتدمة كأوراق الشجر الصخابة فى أتون العاصفة .

ويعج القسم الاوسط بحشود البشر ، بعد الفراغ من الحساب ،حيث يرقى الطالعون الى الجنة ، بينما يتهاوى العصاة فى الجحيم (لوحة ٣٢) ، ورسل الرب تنفخ فى الصور ، بينما يحمل ملاك صغير كتاب الحسنات الدقيق ، وينوء ملاكان قويان بحمل كتاب السيئات البالغ الثقل والضخامة .

ويحتجز ميكلانجلو القسم الاسفل لصورة الجحيم اليونانى (لوحة ٣٣) كاشفا بذلك المنبع الثانى لفكر ميكلانجلو الذى شكلته المسيحية الافلاطونية ، حيث يبسط خارون مملكته فى العالم السفلى حول نهر ستيكس الى اليمين ، وحيث تحتشد زبانيته وزبالته. على حين يتدافع الى اليسار الموتى مبعوثين من قبورهم يوم القيامة والذين يتطلع اليهم المسيح فى جلاله لحظة وصولهم الى الجحيم ، شاهرا يده اليمنى فى حركة تلقى الرعب وهو يصدر حكمه عليهم بالهلاك ، مشيرا بيمناه الى الطالعين ليشهدوا جرح جنبه الدامى (لوحة ٣٤) .

لقد بعثت هذه اللوحة انتفاضة هائلة فى فن التصوير ، وخلقت أسلوبا جديدا مثله الاعلى :

ــ كونية الفضاء اللانهائى .

- والانفلات عن أسار الزمان والمكان .

- وتحريك الوجدان البشرى باثارة الشفقة والرثاء .

على ان هذه اللوحة التى احدثت هذا التأثير الهائل على المصورين المعاصرين قد اثارت عداء محموما من جانب رجال الدين والفكر الذين كانوا يقاومون حركة الاصلاح الدينى . وهكذا امتدت ايدى التزمت لتغطى معظم الاشكال العارية فى لوحة يوم الحساب .

•••

فاذا تركنا عالم النحت والتصوير والعمارة ودلفنا الى عالم الشعر وجدنا الباب مفتوحا الى اعماق ميكلانجلو ، فليس غير الشعر ساحرا يزيح بعصاه الستر .

وكان ميكلانجلو واحدا من اعظم اربعة او خمسة شعراء ايطاليين فى عصره ، واذا كان أشدهم صدقا فقد كان اقلهم شأنا من ناحية الصنعة الشعرية ، فكان تعبيره الشعرى من أكثر الاشعار الغنائية الايطالية تركيزا وغموضا ، حتى كان بعض ناشرى شعره يتبعون كل قصيدة بشرح هو فى حقيقته ترجمة نثرية بالايطالية الحديثة .

وليس يعنى هذا ان لغته نفسها كانت عسيرة بالنسبة للقارىء العصرى ، ولكنه الفكر وراءها الذى يبدو ساطعا وخفيا فى آن معا . والواقع ان شعر ميكلانجلو هو شعر ذاتى بحت . والغلب الظن انه لم ينظم قط قصيدة دون أن يكون واقعا تحت تأثير انفعال ما ، فلم يكن ينظم الا مدفوعا بحاجة قوية ، أو ممزقا بعذاب،او محاصرا بعاطفة وتكشف مخطوطاته التى خلفها عن تلقائية الهاماته . فقد كانت كثرتها مسجلة على طرف رسم أو عجالة تخطيطية ، أو على خطاب أو ظهر فاتورة حساب ، مما يجعلنا نرى بوضوح انه كان يسجل خواطره ـ أو على الاقل مسودتها ـ على أول ورقة تقع بين يديه .

وتحمل اشعار ميكلانجلو التى تبلغ حوالى المائتين وخمسين قصيدة طابع التكثيف لانفعالاته ، بلا تكلف أو اسهاب مصطنع او بلاغية لفظية ، فالشعر هو مملكة ميكلانجلو الخاصة . ولم يكن يكتب اشعاره للعامة بل لنفسه هو ، او لانسان بذاته . ومن ثم كان ديوانه الشعرى اشبه بيوميات لعواطفه، ومرآة لقلبه ، وسيرة ذاتية عاطفية وروحية .

وفى عصر كان كل عمل فنى خاضعا للتقاليد اكثر مما هو الحال الآن ، كان على ميكلانجلو رغم تفوقه على غيره فى التعبير عن نفسه الحقيقية ، ورغم أن ممارسته للشعر قد بقيت فى اطار الهواية بعيدا عن الاحتراف ، ان يلتزم بالتقاليد الفنية التى لا يستقيم الشكل الشعرى من غيرها ، ودون أن يكون مع ذلك مؤمنا بها ، وذلك ماهوى بصنعته الشعرية عن مستوى رفاق فنه .

كان عالم الشعر ملاذ ميكلانجلو ، يفزع الى خلوته كلما اججت انفعالاته عذاب القلق فى اعماقه . وما أكثر ماكان يهرب الى الشعر . فما كانت حياته الا قطعة متصلة من العذاب الداخلى العاصف الذى يتضاءل امامه كل حزن عابر . وكان احتدام مشاعره يشده الى عزلة موحشة ، يرفض داخل اسوارها رؤية الاصدقاء ، ويعسر عليه ان يعيش فى سلام حتى مع نفسه ، لكنها كانت تتيح له اشباع حاجته الى التأمل والتركيز الهائل لانجاز اعماله الابداعية . ومع ذلك فكم كان رقيق المشاعر مع بسطاء الناس ، عطوفا حانيا على الفنانين الناشئين ، كلما عرف الانفلات لحظات خارج أسوار العزلة .

حتى الانثى لم تعرف طريقها الى خلوته ، فعاش دون ان يتخذ زوجة او خليلة مع ان صداقته بمساعديه ونماذجه كانت تفوق في عنفها وصدقها اعمق العلاقات البشرية .

وليست نظرته للحب بعيدة عن النظرة الافلاطونية : فالجمال البشرى يوقظ فى النفس اصالتها الالهية ، ويرتقى بها الى عالم الآلهة ان هى انسلخت من الانجذاب الجسدى وهامت بالروح . وهكذا احب ميكلانجلو صديق عمره توماززو كافاليرى النموذج الذى التقى فيه جمال الروح بجمال الجسد ، فخلد صداقتهما فى قصائد من شعر اخاذ ، ترجمته هو وغيره عن الفرنسية لا الايطالية :

« بلا روية انطلقت اليك .

ظننتنى على شاطىء جدول نحيل .

اعبره دون أن يبلل ماؤه اما طوف قدمى .

لكن .. ها اندا مد خلفت الشاطىء .

محاصرا وسط خضم محيط هائل .

تشمخ امواجه من كل جانب .

آه لو كنت مستطيعا العودة للشط .

لهرولت سريعا .

لكنى مادمت بلغت مكانى .

فلا صنع من قلبي صخرة .

واخوض بها اليم .

واسمك فى روحى وكيانى .

يملؤنى ريا وعذوبة .

تجعلنى لا اعبا بالضجر .

ولا اخشى الموت .

حتى اذا ما اطلت المراة على افق حياته اقبلت فى ثياب سيدة مترهبة تعيش في دير القديس سلفستر بروما تحمل اربعين عاما من الثقافة الرفيعة والورع والفضيلة ، وتمنحه اهم ما كان فى حاجة اليه : حنان الامومة الذى لم ينعم به لوفاة والدته فى طفولته ، وطمانينة النفس التى كان يطاردها شعوره بالاثم وخوفه من عذاب النار . بينما كانت **فيتوريا كولونا** تبشر بعقيدة جديدة تجعل من الايمان وحده مخلصا من كل الاثام .

وهكذا وجد ميكلانجلو اخيرا المراة الصديق والمراة العزاء ، والمراة الطمانينة ، والمراة الخلاص .

وايقظت فيتوريا المسيحية ، فى اعماق ميكلانجلو ، فاشتعل بحماس خلاق ، وعكف على انجاز اعمال فنية دينية تمثل فكرة الخلاص بواسطة السيد المسيح ، كانت قمتها لوحة يوم الحساب التى واكب تنفيذها هذه العلاقة المتسامية .

وحين ماتت فيتوريا بعد أن أضاءت حياة ميكلانجلو عشرة اعوام بكى العملاق كطفل رضيع فقد الى الابد امه ، والتفت التشاؤم لاثية حول وجدانه ، وصبغ شعره بالأسى وتوقع الموت وراح يقول : ـ

« انى ان الفناء مقبل

لكنى لا اعلم موعد اقدامه

العمر قصير

لم يبق لى منه سوى القليل

الحياة الدنيا تستهوى حواسى

بينما تستحثني روحى للقاء الموت .

العالم ضرير شرير

يعصف بالاشياء بضربات علوية

النور انطفأ

فوثق معه كل امان .

ينتصر الزيف

ويستخفى الحق

وا اسفاه .. رباه ، متى يتحقق امل المؤمن بك ؟

وطول الانتظار يفتك بالآمال

ويترك الروح فريسة للموت .

ما قيمة النور الغامر .. الذى تعد به

مادام الموت سيقبل بغتة .

ويقبع المرء امامه بلا حول ولا قوة

ثم يخلقنا دون حراك

فى نفس الوضع الذى يلقانا فيه » .

• • •

ومع احساس ميكلانجلو باقتراب الموت دب فيه التخاذل فلم يعد يكمل رسومه او تماثيله،واخذ يشوه نسب الجسم التشريحية عامدا ، ففتح الابواب على سعتها امام المدرسة المتكلفة « مانريزم » ثم لطراز الباروك .

كتب الى فاسارى مؤرخ فنانى عصر النهضة عام ١٥٥٩ قبل وفاته بخمسةاعوام: **« ليس ثمة فكرة فى اعماقى لم يتسرب اليها الموت »** ، واصر على قضاء بقية ايامه فى خدمة بلاط البابا بروما لعله يظفر بالخلاص .

وانتقل العبقرى العملاق الى عالم الخلود، وبقيت التماثيل باكخوس وداود وموسى والعذراء الاسية ، وتصاوير سقف مصلى سيستينا ولوحة يوم الحساب لتذكر الاحياء بأن رجلا فذا قد شارك بازميله وفرشاته فى صنع عصر كامل هو عصر النهضة الايطالية ، وفى دفع البشرية خطوة حاسمة على طريق التقدم. **كان اسمه وسيبقى ميكلانجلو ... او الملاك ميكائيل .**

* * *

المراجـع

— Bottari, Steffano — Michelangel. La Cappella Sistina. Eratelli Fabri — Albert Skire 1968.

— Berenson, Bernard — Italian Painters of the Renaissance vol. 2. Florentino and Central Italian Schools. Phaidon, London. New York, 1968.

— Clar , Keneth — Civilisation, a personal view. British Broadcasting Corporation and John Murray 1969.

— Forlani, Anna — Michelangelo. Fratelli Fabri Editori 1963.

— Fleming, William — Arts and Ideas, Holt, Rinehart and Winston New York 1961.

— Goldscheider, Ludwig — Michelangelo. Complete edition. Phaidon 1959.

— Huygho, René — l'Art et l'Ame. Flammarion 1960.

— Pope Hennesy, J. — Italian High Renaissance and Baroque Sculpture, 1963.

— Revel, Jean - Francois — Michel-Ange: Le Secret d'un coeur révélé par les Sonnets. Collection Génies et Realités. Paris Hachette 1961.

— Redig de Campos D. — Michelangelo . . . Cappela Paoline in Vatican. Collezione Silvana Milano 1956.

— Vasari, Giorgio — Life of Michelangelo Buonarroti, The Folio Society. London 1970.

— Wolfflin, Heinrich — Classic Art. An Introduction to the Italian Renaissance, Phaidon. London, New York 1968.

— العهد القديم من الكتاب المقدس .

* * *



(لوحة ١) باكخوس



(لوح ٢) العذراء الأسية (بيتا) الفاتيكان



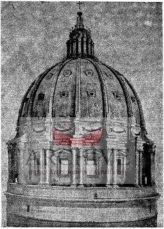
(لوحة ٢) سقف مصلى سيستينا عرافة كوماى



(لوحة ٤) سقف مصلى سيستينا النبي يونس والحوت



(لوحة ٥) سقف مصلى سيستينا



(لوحة ٢٦) نموذج خشبي لقبة كنيسة القديس بطرس بروما



(لوحة ٦ب) قبة كنيسة القديس بطرس بعد الانتهاء منها



(لوحة ٧) العبد المقلول ـ متحف اللوفر



(لوحة ٨) العبد المتمرد ـ متحف اللوفر



(لوحة ٩) اسير بوبولى



(لوحة ١٠) اسير بوبولي الملتحي



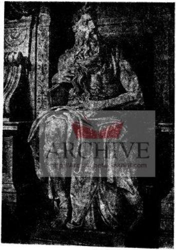
(لوحة ١١) العذراء الآسية «التفصيل» وجه المسيح



لوحة (١٢ أ) داود



(لوحة ١٢ ب) داود



(لوحة ١٢ أ) موسى



(لوحة ١٢ ب) موسى ـ تفصيل اليد اليمنى واللحية





(لوحة ١٤) ضريح لورنزو

(لوحة ١٥) ضريح جوليانو



(لوحة ١٦) جوليانو ـ الليل



(لوحة ١٧) ضريح جوليانو ـ النهار



(لوحة ١٨) ضريح لورنزو ـ الغروب



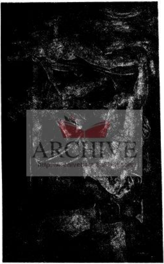
(لوحة ١٩) ضريح لورنزو ـ الفجر



(لوحة ٢٠) دراسة لمعركة كاسكينا



(لوحة ٢١ أ) سقف مصلى سيستينا ـ نوح ثملا



(لوحة ٦١ ب) سقف سيستينا – نوح ثملا



لوحة (٢٢) سقف مصلى سيستينا – الطوفان



(لوحة ٢٢) سقف مصلى سيستينا – نوح وابناؤه يقدمون القرابين



(لوحة ٢٤) سقف معبد سيستينا - خطيئة آدم وحواء وطردهما من الجنة



لوحهٔ ۲۵) سقف نمازخانهٔ سیستینا – خلق حوا



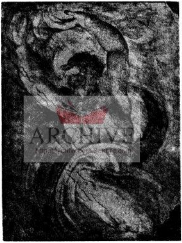
(لوحة ٢٦) سقف معبد سيسينا – علق ٤م



(لوحة ٢٧) سقف مصلى سيستينا فصل اليابسة عن الماء



(لوحة ٢٨) سقف معبد سيستينا – خلق الشمس والقمر والنجوم



(لوحة ٣٩) سقف مصلى سيستينا ـ مشهد فصل النور عن الظلمة



(لوحة ٢٠) سقف مصلى سيستينا غلام عار (اليودي)



(لوحة ٢١) مصلى سيستينا ـ لوحة يوم الحساب



(لوحة ٢٢) مصلى سيستينا - تفصيل من لوحة يوم الحساب - العصاة يتهاوون الى الجحيم



(لوحة ٢٢) مصلى سيستينا – تفصيل من لوحة يوم الحساب
« الجحيم »



(لوحة ٢٤) مصلى سيستينا ـ تفصيل من يوم الحساب. المسيح في جلاله بوصفه قاضياً

عرض الكتب



المخدرات وطلبة المدارس

تأليف : ر. س. ب. وايز

عرض وتحليل الدكتور: عدنان الدوري

ان موضوع العقاقير المخدرة يشكل موضوع الساعة في أولويته بين البحوث والدراسات الاجتماعية والنفسية والطبية، والطبية العقلية والقانونية المعاصرة . لقد ظهرت كتب عديدة ودراسات علمية لا حصر لها تناولت هذا الموضوع ، الا ان الجديد في هذا الكتاب انه يعالج جانبا حيويا من هذه المشكلة ، وهي ظاهرة تفشي هذه السموم المخدرة بين فئة طلبة المدارس من المراهقين الذين لا تتجاوز اعمارهم التاسعة عشرة .

مؤلف هذا الكتاب الدكتور براينر من الباحثين العلميين المتخصصين في معالجة المشكلات الاجتماعية الذين يعملون في مدرسة لندن للدراسات الاقتصادية ، كما قد درس علم النفس في جامعة سدني باستراليا ، وعمل فترة ما في المعهد القومي لعلم النفس الصناعي في الجامعة المذكورة . اما كتابه هذا فهو حصيلة البحث العلمي الذي تقدم به لنيل درجة الدكتوراه في جامعة لندن .

ينقسم الكتاب الى اقسام ثلاثة خصص القسم الاول كمدخل نظري لعرض ابعاد مشكلة المخدرات بوجه عام وبيان اهداف الدراسة وايجاز بعض الدراسات العلمية التي تناولت هذه المشكلة . وقد خصص القسم الثاني لعرض ماهية الدراسة الميدانية حيث تناول طريقة البحث وكيفية اختيار عينات البحث وعمليات الاستبيان وجمع المعلومات المطلوبة . اما القسم الثالث فقد تضمن خلاصة النتائج وبعض التوصيات المتصلة بموضوع المشكلة . كما ذيل الكتاب بملاحق خاصة باستمارات البحث والاستبيان وبعض الرسائل المتداولة لغرض جمع المعلومات المطلوبة .

وعلى الرغم من أن الباحث في كتابه هذا لم يهدف الى معالجة مشكلة المخدرات بوجه عام ، الا انه افرد ما يزيد على السبعين صفحة من كتابه لعرض ارضية اكاديمية نظرية لموضوع المخدرات ، وهذا لا شك يعكس اهتمام الباحث بالاطار النظرى العام الذى يشكل المدخل الاكاديمى للدراسة موضوع الكتاب .

واذا كان الانسان قد استخدم العقار المخدر منذ آلاف السنين الا ان هذه العقاقير المخدرة لم تصبح مشكلة ذات ابعاد اجتماعية ونفسية وطبية وقانونية الا خلال القرنين الماضيين . اما اليوم فقد بلغت مشكلة العقاقير المخدرة ابعادا خطيرة لدى الكثير من المجتمعات المعاصرة ؛ وليس ادل على ذلك من بعض الاحصاليات العالمية التي تشير الى ان عدد الاشخاص الذين يتناولون نبات الماريوانا يزيد على المائتي مليون شخص في جميع انحاء العالم . وهناك احصائيات عالمية لعام ١٩٦٢ تشير الى ان عدد الذين يتناولون بعض العقاقير المهدئة والمنشطة بصورة غير مشروعة يزيد على العشرة ملايين شخص في العالم . اما في الولايات المتحدة الامريكية فان مشكلة المخدرات تجاوزت ابعادها التقليدية المألوفة، حيث يشير المكتب الفدرالي للمخدرات في احصائية صدرت في عام ١٩٦٥ أن عدد المدمنين على عقار الهيروين وحده بلغ (٥٥٫٨٩٩) شخصا ، هذا على الرغم من تلك العقوبات الشديدة التي تضعها القوانين الجزائية الامريكية لمنع تداول هذا العقار منذ عام ١٩١٤ .

ما هو المقصود بالعقاقير المخدرة ؟

هناك تعريف عام ورد بقاموس اكسفورد الانجليزى يعرّف العقار بأنه كل مادة طبية جوهرية عضوية او غير عضوية تستخدم بصورة نقية او في تركيب كيماوى خاص . وهذا التعريف لا شك لا ينصرف الى العقار المخدر الذى يتناوله الشخص بصورة غير مشروعة ، فالعقار لا يصبح مشكلة اذا استخدمه صاحبه لأغراض طبية علاجية مشروعة او تحت اشراف طبى . اما العقار المخدر الذى يمنع القانون تداوله فهو كل مادة كيماوية تؤدى الى تغير محسوس في مزاج الشخص الذى يتناوله ، والى تبدل واضح في شعوره وفي ادراكه؛ وذلك حين يستخدم هذا العقار بصورة غير مشروعة وبأسلوب يخالف معايير المجتمع ونظمه . ولكن ما هي تلك المواد المخدرة التي يمنع القانون تداولها خلافا للأغراض الطبية المشروعة ؟

ان العقاقير المخدرة التى يشيع استعمالها اليوم بين غالبية الشباب والمراهقين هى الانواع التالية :

(١) مركبات الأفيون opiates وبوجه خاص مركب الهيروين heroin .

(٢) مركبات نبات القنب cannabis .

(٣) العقاقير الهلوسة وبوجه خاص المركب المعروف LSD .

(٤) مركبات الامفتامين amphetamines .

(٥) مركبات حامض البربتيوريك barbiturates .

(٦) المركبات التى تشتمل على الامفتامين وحامض البربتيوريك معا .

ولعل من الضرورى ان نتناول هذه العقاقير بتعريف موجز لبيان بعض صفاتها المميزة وتأثيراتها المختلفة .

اولا ـ مركبات الافيون : وقد عرف الانسان الافيون opium منذ اربعة آلاف سنة قبل الميلاد ؛ اما عقار الهيروين heroin وهو من مركبات الافيون فقد ظهر في المانيا منذ عام ١٨٩٨ وهو عقار يجرى تصنيعه من

عقار المورفين ويطلق عليه علميا مصطلح diacetylmorpline . ولا شك ان مركبات الافيون ومنها عقار الهيروين تعتبر من أخطر العقاقير المخدرة ، حيث تقول منظمة الصحة العالمية ان هذا العقار يؤدى الى حالة الادمان addiction حيث تتبلور الرغبة الشديدة لاستمرار تناول العقار بأية وسيلة كانت والرغبة المستمرة لزيادة كميته ، وبالتالى الإعتماد المباشر على العقار يوما بعد يوم . ويرى الكثير من العلماء ان هذا العقار يؤثر على الجهاز العصبى المركزى ، والى هبوط الفعاليات الجثمانية والعقلية واحتقان حدقة العين والامساك المعوى وانقطاع طمث النساء وفتور فى الرغبة الجنسية وغير ذلك من الاعراض الاخرى . ولاشك ان ادمان عقار الهيروين يفقد المدمن قدرته على مواصلة حياة اجتماعية سوية وتكوين علاقات سليمة بالاخرين ، كما وان المدمن لايسعى فى الواقع الى عقد صداقات جديدة خارج اطار علاقته بالمدمنين من أمثاله ، ولذلك فهو غالبا ما يفضل العزلة على تكوين صداقات جديدة .

ثانيا — مركبات نبات القنب cannabis

وهذه عقاقير عرفها الانسان منذ عام ٢٧٣٧ قبل الميلاد ، وهى تستخرج من أوراق او بذور أو قشور نبات يعرف بالقنب cannabis saliva ومن اشهر انواعه الماريوانا marijuana وتستخرج من الازهار المجففة لانثى هذا النبات ، والنوع الثاني هو الحشيش hashish وهو يستخرج من مسحوق النبات المجفف بعد مزجه بالمادة الصمغية التى تكسو قشرة هذا النبات . وهناك اكثر من ثلاثة وتسعين اسما يطلق على مستحضرات نبات القنب ، الا ان الشائع منها الماريوانا والحشيش والكيف والداجا والجانجا .

اما التاثيرات الشائعة لهذه المركبات فهى طلاقه اللسان واحلام اليقظة وزوال القلق والمعوقات الباطنية لحرية النشاط والشعور بالمرح والتغير والارتخاء . كما وهناك خطا شائع يدعو الكثير للاعتقاد بان لهذه المركبات تاثير معين فى زيادة الطاقة الجنسية ، ولكن الثابت علميا انه لاتوجد علاقة بين مثل هذه المركبات وبين زيادة الحيوية الجنسية ، ولكن ربما لبعضها تاثير فى اطالة العملية الجنسية . اما بعض التاثيرات الضارة لمثل هذه المركبات فهى لازالت موضوع خلاف كبير . فقد يجد البعض ان الاعتياد على هذه المركبات لمدة طويلة يؤدى الى تدهور القدرات الذهنية وبضعف القدرة على مواصلة العمل المنتظم ، كما يؤدى الى اضطراب العلاقات الاجتماعية بالاخرين ، وهو فى الغالب يقود الى حالة الادمان على المخدرات . الا ان منظمة الصحة العالمية لاتؤيد ظهور حالة الاعتماد البيولوجى نتيجة تناول هذه المركبات ، ولكن مثل هذه المركبات تؤدى الى حالة الاعتماد النفسي . كما يرى البعض الآخر ان هذه المركبات هى اقرب فى تاثيرها الى تاثير الكحول ، وهذا يجعلها بعيدة عن مركبات الافيون ، اذ ان استعمال مركبات نبات القنب بصورة معتدلة، كما يراها البعض ، لاتزيد فى خطورتها عما يتعرض له الانسان نتيجة اسرافه فى تناول الكحول . الا ان هناك من يعتقد بان تناول هذه المركبات يشكل جواز سفر للعبور الى ادمان عقاقير مخدرة اخرى اشد خطورة كالهيروين حيث تؤيد غالبية الاحصائيات وجود مثل هذه العلاقة .

ثالثا — عقاقير الهلوسه hallucinogenics

ومن ابرز انواعها العقار الشائع باسم LSD والعقار DET والعقار DMT والعقار DPT . وربما يكون عقار LSD اكثرها شيوعا لسهولة الحصول عليه . وهذه عقاقير فى الغالب تؤدى الى تغيرات محسوسة فى التفكير وفى الادراك

وفى المزاج ، ولكنها لاتؤدى الى اضطرابات دائمية فى الشخصية . وقد اكتشف عقار LSD علميا منذ عام ١٩٣٨ ، الا ان الاهتمام بدراسة آثاره تبلور خلال عام ١٩٤٣ . ويمكن ايجاز ابرز الآثار الجثمانية التى تنشأ عن تناول هذا العقار بانها تشتمل على اتساع حدقة العين وثبات نسبة ضغط الدم ورعشة سريعة وحادة فى الركبة وزيادة فى النبض وضعف واضح فى النطق . اما الآثار النفسية فيمكن تلخيصها بظهور حالة امتزاج بين الذات والعالم الخارجى وظهور الشعور بالاتحاد مع كل الاشياء أو حالة انفصام عن الذات ، او حالة انفصام عن العالم الخارجى . ويقول احد العلماء بان هناك حالة انتحار واحدة تحدث بين كل (٢٥٠٠) حالة ممن يتناولون هذا العقار . كما ويتفق غالبية العلماء على ان غالبية الذين يتناولون هــذا العقــار يعانون من بعض الاضطرابات العاطفية او انهم يعانون من اضطراب واضح فى شخصياتهم .

رابعا ـ مركبات الامفتامين وهذه تشتمل على مجموعة كبيرة من العقاقير يزيد عددها على العشرين ، ويشيع تسميتها بالحبوب المنشطة للحيوية او تلك التى تعرف بـ PEP-PILLS وهى اما ان تكون من مستحضرات الامفتامين بصورة نقية او مختلطة بمركبات حامض البربتيوريك . اما المراهقون فهم يطلقون على هــذه المركبات تسمياتهم الخاصة مثل مصطلح METH او DEXIES او BENNIES او PURPLE HEARTS . والأصل فى هذه المركبات انها تستعمل لاغراض طبية خاصة عرفها الطب الاميركى منذ عام ١٩٢٧ تحت أسم البنزيرين BENZEDRINE لمعالجة حالات الصرع والتسمم والحالات الكحولية وبعض الاضطرابات النفسية والعصبية الاخرى . الا ان استخدامها لاغراض غير مشروعة جاوز اهدافها المشروعة ، حيث تشير بعض الاحصائيات الاميركية الصادرة فى عام ١٩٦٥ الى ان عدد الوصفات الطبية التى صرفت من قبل الجهات الصحية بصورة مخالفة للقانون تجاوزت ٣د٨٠٠ر٠٠٠ وصفة طبية . اما تاثير هذه المركبات فيقول الاطباء المتخصصون انها تزيد من ارتفاع ضغط الدم وارتخاء العضلات واتساع حدقة العين ، وهى فى الغالب تساعد على زوال الارهاق الجسدى والعقلى وتضاعف الحيوية وتزيد الثقة بالنفس . ويؤكد بعض الاطباء ان تناول هذه المركبات بصورة معتدلة وبكميات صغيرة وفى اوقات متفاوتة لا يثير مشكلة ادمان بالمعنى الطبى ، الا ان تناولها بكميات كبيرة وباوقات متكررة يؤدى الى حدوث تاثيرات سلبية كحدوث زيادة مفرطة فى الحيوية ربما تقود الى بعض النتائج غير المرغوب فيها اجتماعيا ، كما قد تؤدى الى حالة الانهيار او الى ادمان عقاقير مخدرة اخرى .

خامسا ـ مركبات حامض البربتيوريك Barbiturates وهذه تدخل فى الغالب تحت مركبات الامفتامين الا انها تختلف فى تاثيراتها الكيماوية والنفسية ، فالامفتامين عقار منشط يضاعف حيوية الجهاز العصبى ، بينما تعتبر مركبات حامض البربتيوريك عقاقير مسكنة مهدئة خافضة للحيوية . ولعل مركبات حامض البربتيوريك اقل خطورة من مركبات الامفتامين ، وذلك لعدم شيوعها بين الشباب والمراهقين على نطاق واسع .

والدراسة الميدانية او البحث العلمى موضوع هذا الكتاب جاء عرضه فى القسمين الثانى والثالث من الكتاب . ففى القسم الثانى طرح الباحث خطته فى البحث والطرق التى استخدمها فى جمع البيانات المطلوبة ، وكيفية اختيار عينات البحث وتنفيذ خطوات البحث . اما القسم الثالث فقد خصصه الباحث لنتائج البحث وتحليل المعلومات المتحصلة وطرح بعض التوصيات .

ويقوم البحث على خطة اختيار مجموعتين من الاطفال احدهما مجموعة بحث ضمت (١٠٣٩) طالبا من طلبة المدارس ممن تتراوح اعمارهم بين الرابعة عشرة والتاسعة عشرة ، وقد اختارهم الباحث كعينة للطلاب الاطفال الذين يعتقد انهم تناولوا بعض العقاقير المخدرة في فترة من فترات حياتهم ، وهم يمثلون اربع مناطق جغرافية مختلفة من منطقة مدينة لندن . اما المجموعة الثانية فهي مجموعة ضابطة تمثل عددا مماثلا من الاطفال الذين انكروا استعمالهم للعقاقير المخدرة بشكل من الاشكال طيلة حياتهم .

وعلى الرغم من أن الباحث شعر بصعوبة التأكد من صحة استعمال الاطفال للعقاقير المخدرة ، وذلك بمجرد الاعتماد على ادعائهم المجرد ، فقد قام بتجربة تحضيرية اولية تناولت مجموعة صغيرة من الاطفال لمعرفة مدى امكانية الاعتماد على مجرد الادعاء باستخدام العقار المخدر ، وقد دلت نتائج هذه التجربة الاولية على امكانية الحصول على مثل هذه الاعترافات الى حد ما .

ويظهر ان البحث كان يقوم على فرضية أولية وهي امكانية لتشخيص بعض الاختلافات بين طائفة الذين يستعملون العقاقير المخدرة وبين اولئك الذين لم يستعملوها ، وقد امكن اختبار هذه الفرضية بطرح استبيان مفصل على الطائفتين لتحقيق هذا الفرض . ويمكن تلخيص ابرز النتائج التي توصل اليها الباحث بما يلي :

١ ــ ظهر ان نصف افراد مجموعة البحث قد اعتادوا على استعمال عقاقير مخدرة بصورة فعلية وان ٧٥٪ منهم قد تناولوها بصورة غير منتظمة ، كما تأيد ان بعضهم تناولها عن جهل لتأثيرها بينما تناول البعض نوعا واحدا او نوعين او ثلاثة انواع من هذه المخدرات .

٢ ــ لم يجد الباحث اختلافات تتصل بالجنس ، اى بين الذكور والاناث ، ولكن ظهر ان غالبية افراد الجنسين يمثلون سنا متقدمة نسبيا ، وان غالبيتهم قد اعتادوا على الانقطاع من الدراسة بصورة متكررة ، كما ان غالبيتهم أيضا لا يلجاون الى آبائهم لحل ما يعترضهم من مشكلات ، وان هؤلاء الاباء فى الغالب يتميزون بلين واضح وعدم اكتراث بضبط سلوك ابنائهم او الاشراف على تربيتهم .

٣ ــ لقد ظهر أن نوعية النشاطات التي يمارسها افراد الجماعة التي تستخدم العقاقير المخدرة فى اوقات فراغهم هي اقرب الى تلك التي يزاولها البالغون بوجه عام ، كالتردد على المقاصف ودور الرقص ودور التسلية ، وان هذه الطائفة تنفق الكثير من المال على التدخين وعلى المشروبات الكحولية وعلى العناية بالملبس وتيسير العقاقير المخدرة ، ويميل افراد هذه الطائفة الى الاختلاط بمن يكبرهم سنا ولا يجدون حرجا فى تقليد الانماط السلوكية الخاصة بالبالغين ، ولذلك فان افراد هذه المجموعة يسلكون سلوكا يفوق سلوك الاطفال الذين هم فى سنهم .

٤ ــ ويتميز افراد عينة البحث بانهم اقل احتراما واكثر اندفاعا فى سلوكهم ، وهم يعلمون الكثير عن المخدرات واستعمالها ومزاياها .

٥ ــ وقد ظهر ان افراد عينة البحث يعتقدون بأن تناول العقاقير المخدرة يزيد من جاذبيتهم الجنسية لدى الجنس الآخر .

اما القسم الثالث فقد تضمن توصيات الباحث يهدف تقرير سياسة تربوية تعليمية تتعلق بموضوع مشكلة المخدرات بين طلبة المدارس . ويعتقد الباحث باديء ذي بدء بأن مشكلة تعاطي المخدرات بين طلبة المدارس

لم تبلغ بعد مرحلة خطيرة من حيث انتشارها او شيوعها . ففي تقدير الباحث ان اقل من ١٠٪ من طلبة المدارس ربما تناولوا بعض العقاقير المخدرة في فترة من فترات حياتهم تحت دوافع التقليد او لغرض الظهور على الاقران .

ويرى الباحث ان القيام بحملة اعلامية اصلاحية بهدف تبصير الاطفال بخطر المخدرات وآثارها السيئة قد تكون في جدواها اقرب الى تلك الحملات الاعلامية العقيمة التي تقوم بها بعض الجهات الصحية من وقت لآخر لتبصير اطفال المدارس بأضرار التدخين ومساوئه . ويفسر الباحث عدم جدوى هذه الحملات الاعلامية الواسعة بانها قد تزيد من وعي الاطفال بوجود مثل هذه المخدرات التي يجهلون موضوعها جهلا تاما ، ولذلك فان مثل هذه الحملات تعرف الاطفال بوجود مشكلة المخدرات ، الامر الذي يدفعهم الى تجربتها بدافع الفضول وبوصفها عادة شائعة غير ضارة بدليل انها شائعة بين عدد كبير من الاطفال في كل مكان .

وربما يكون لبعض الافلام الخاصة بموضوع المخدرات فائدة ارشادية في هذا الباب ، الا ان الدراسات العلمية المتيسرة في هذا المجال لم تؤيد بالرأي القاطع ايجابية مثل هذه الافلام التعليمية ، ولذلك فان الباحث يعتقد بامكانية القيام بحملات اعلامية بين الاطفال ، ولكن على اسس محددة واهداف مدروسة ، وبناء على دراسات ميدانية لتحديد نطاق هذه الحملات ونوعية المعلومات التي تقدم للاطفال وكيفية تقديمها والاشخاص الذين يقومون بعمليات التوعية المطلوبة ، الى غير ذلك من المتطلبات الاخرى .

وعلى العموم فان مثل هذه الدراسة الرائدة ان لم تأت بالشيء الكثير الجديد في ميدان واسع كبير فهي بلا شك قد القت الضوء على زاوية حيوية من هذا الموضوع حيث اظهرت نوعية الاطفال الذين يستخدمون العقاقير المخدرة ، ولكن ينبغي أن لا يقف البحث عند تشخيص الافراد الذين يستعملون هذه العقاقير المخدرة ، بل بمتابعة وملاحقة حياتهم لمعرفة من يعتاد منهم على هذه العقاقير في مستقبل حياته ومن ينقطع عن استخدامها لاكثر من سبب ، وبالتالي معالجة اولئك الذين تصبح العقاقير المخدرة مشكلة كبيرة في حياتهم ومشكلة اكبر بالنسبة لمجتمعاتهم .

★ ★ ★



ستانلي المستكشف المغامر

عرض وتحليل : الدكتور عبدالرحمن الشرنوبي

صدر هذا الكتاب فى عام ١٩٧٤ ، اى بعد مائة عام تماما على بدء ستانلي رحلته الشهيرة الى افريقيا ، حيث كشف مصب نهر الكنغو الحقيقي . الف هذا الكتاب الصحفى «ريتشارد هول» واصدرته دار جوليتز للنشر فى لندن ويبدو ان موضوع هذا الكتاب لم يكن ليشغل بال مؤلفه لولا ان اتيحت له الفرصة - كصحفى - لكي يعيش فى قلب القارة الافريقية لعدة سنوات ، استطاع فيها ان يغطي بقلمه احداث الثورة الكونغولية فى بداية الستينات ، بنفس القدر الذى استطاع فيه ان يغطي بقدمه كل المناطق التي بلغها ستانلي فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ان لم يكن قد زاد عليها .

من هنا نستطيع القول بان بريق تلك القارة وسحرها ، الذى طالما سلب الاوروبيين عقولهم ، لاتزال جذوته متقدة حتى الان . فرحلات ستانلي التاريخية ظلت وستظل من اعظم ما سجلته قصص الرحلات اثارة فى تاريخ كشف افريقيا .

لقد قام ستانلي باربع رحلات ناجحة الى اواسط هذه القارة . كانت رحلته الاولى خلال عامي ١٨٧١ و ١٨٧٢ ، وكانت الغاية منها البحث عن الدكتور لفنجستون الذى سافر الى القارة فى مهمة كشف بتكليف من الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية ، ولكن بعد ان اعتلت صحته وانقطعت اخباره ، كان لابد من البحث عنه ، وتقصي اخباره ، فكان ان سافر ستانلي موفدا من قبل الجريدة الامريكية التي كان يعمل بها انذاك وهي جريدة النيويورك هيرالد .

اما الرحلة الثانية ، فكانت في الفترة من ١٨٧٤ الى ١٨٧٧ . وكانت غايتها كشف المنطقة من زنزبار شرقا حتى مصب نهر الكونغو على المحيط الاطلسي غربا ، وكان بعد نجاحه فيها اول رجل ابيض يكتشف مجرى هذا النهر العظيم .

ولم تخرج **رحلته الثالثة** (١٨٧٩ ــ ١٨٨٤) عن كونها رحلة تقليدية كما يحلو للبعض ان يطلق عليها ، الا انها كانت الرحلة التي مهدت لحكم الملك ليوبولد وسيطرته على الكونغو بواسطة ستانلي وأعوان آخرين .

امارحلته **الرابعةوالاخيرة** (١٨٨٦ ــ ١٨٨٩) فقد جاءت تلبية لدعوة من بريطانيا لانقاذ **امين باشا** الذى تحرج موقفه وانقطعت اخباره بعد الثورة المهدية ، وحقق فيهادورا شبيها بعبوره فى رحلته الثانية .

هذه كانترحلات « هنرى موردون ستانلي» التي سجلها فى مؤلفية الخاصين :

The Dark Continent ، How I found Livingstone

وفيها كل الاثارة ، وكل الغموض ، وكل المبالغة . الامر الذى جعل العالم ينظر الىهذا الرجل ــ ستانلي ــ كمعجزةعصره وبطل زمانه.

وحينما يغوص المرء فى قراءته لهذا الكتاب، سوف تعود به الذكرة الى رائحة التاريخالذى ميز القرن التاسع عشر وتاريخ الكشوف الجغرافية فيه كشف منابع النيل ، كشف بحيرات وسط افريقيا ، وكشف مصب ومجرى نهر الكونغو .. لاشك ان هذا الاطار التاريخي فى حد ذاته ينبغي الا يجعل من ريتشارد هول بطلا حينما يغطي نفس الاجزاء التي جابهاستانلي واكثر ،فالمؤلف حينمايعلن من ذلك صراحة ، انما يعترف ضمنا بمقدار الجهد الذى بذله ستانلي بين مستنقعات افريقياوغاباتها ورطوبتها وامراضهاومواطنيها وسوف يدرك القارىء مباشرة ان الجهدالذى بذله المؤلف في رحلاته لكي يستفيد منها فى كتابة مؤلفه الذى بين ايدينا من ستانلي ،لم تحقق شيئا ولم تات بجديد . الامر الذى يدفعنا للتصور بأن المؤلف نمت لديه فكرة الكتابة عن ستانلي ، بعد عودته كمراسل صحفي من القارة الافريقية .

لقد اصطحب« هول » معهالىافريقيا كتاب ستانلي : « كيفوجدت دكتور لفنجستون »، ومن ثماصطبغ فى رحلة « هول » خيالستانلي مع مواقعاقدامه ووقعها ؛ فبدترحلةستانلي كما لو كانت قد تراءتتماما امام اعينريتشارد هول ، الذى تحركت مشاعره نحو ستانلي ، تتحول من ناقم عليه ــ كشأن الكثيرين ممن يعرفون حقيقته ــ الى متعاطف معه .

ها هو ذا كتاب « **ستانلي** » يقسمهالمؤلف الى ثلاثة اقسام لتضم سبعة وعشرين فصلا قصيرا . القسم الاول يتناول فيه رحلةستانلى الرئيسية (١٨٧٤ ــ ١٨٧٧) ، والقسمالثانى ينقلنا الى شخصية ستانلي وطفولته ونشأته وحبه ، بالاضافة الى عودته من جديد الى الاستطراد فى سرد ظروف كشوفه ورحلاته وعلاقاته فى افريقيا . لم ينتهي بالقسم الاخير ليحكي قصة المعاناة التي تميزت بها حياة ستانلي ، حتىبعد ان نجح فى تحقيق الكثيرمن آماله وتطلعاته ، حتى مات فى العاشر من مايو عام ١٩٠٤ .

زودنا ريتشارد هول فى كتابه باثنين واربعين رسما وصورة ولاشك كان خلفهاجهد كبير بذله المؤلف لكى يحصل عليها من مصادرها المتباعدة ،وربما ساعده على ذلك

مهنتـه كصحفي ، وعلاقتـه بالـوكالات والشخصيات الصحفية .

لقد ضمن ريتشارد هول كتابه بالاضافة الى المقدمة التقليدية في بدايته ملحقاتضمن كلمة شكرلمن قدمله يد المساعدة فيانجازه هذا وفهرسا للاماكن ، وآخر للاشخاص بالكتاب وقائمـة جيدة ومطولـة بالمراجـع والمصادر قسمها وفقا لترتيب فصول الكتاب ، وعلـق على كل منها .

هكذا .. وعلى امتداد اربعمائـة صفحـة تضمنت كافة محتويات الكتاب ، استطـاع المؤلف الصحفي أن يمـزج بـين روح البحث والرواية ، ليخرج حقيقة ملامـح وقسمات ستانلي . لقد اجهد المؤلف نفسه كثيرا لكي يميط اللثام عن الشخصيـة الحقيقية لهـذا الرجل الذى طالما اخفاها عن الناس ، ولقد حقق المؤلف غايته ، اذ يدرك القارئ ، عقب سرد المؤلف لطفولة ستانلي وظروف نشأته ، التفسير الحقيقي للغموض المتعمد الذى ميز ستانلي وتصرفاته ، فكان حرينا ابدا مفتقـرا الى الثقة بالنفس .

ان المؤلف يعرض حقائق هـذه النشأة ، ويتركالقارىء يتساءل : ترىبعدان قرأتهذا الجزء من ستانلي .. هل كان لاصل نشأتـه تأثير على شخصيته إذ انـه حقـا « ابن زنا » لسيدة تدعى (Elizebith Parry) من ويلز أم لدخوله أصلاحية الاحداث فترة من الزمن ؟ فقد دخلها وهو في السادسة مـن عمره وهرب منها بعد تسـع سنوات ليعيش بعدها حياة التشرد والسعى المضني للرزق ، معتمدا على نفسه ، خلال سنوات العـذاب والمهانة في انجلترا والولايات المتحدة . امكان لحبه من تلك الفتاة ذات السبعة عشر ربيعـا « اليك ييك » وفشلهفي ذلك الحب اثر ؟ ترى .. هل كان لبحثهعن رجل يتبناه فينيو اورلينز مهماكانت شخصيته، وبأى اسلوبممكن (حتى تحقق له ما اراد على كبر) اثـر في غموضـه وحزنه ؟ أم لانه كان يتصف بالشـذوذ الجنسي كما قالبعض علماء النفس عنهوبعضاصدقاءه المقربين ؟ يالها من تساؤلات مزعجة تحيـط به حقا ويكفي ان تثار .. مجرد اثاره ، لكي ندركخلفيات هذه الشخصية والغموض الذى يكتنفها .

لقد كان « ريتشارد هول » مستعدا لتبني وجهـة النظر التقليديـة عن ستانلـى البارد المعقد ، الذى ترتبط باسمه مظاهـر الرعب والقسوة . ولقد كتب يقول : ان الخوض في دراسة شخصيـة ستانلى ، كتسلـق جدار عمودى صلد من الجرانيت . الامر الذى يفسر احجام الكثيرين من الكتاب والمحللين من الكتابة عن الجوانب الخاصة جدا من حياة ستانلى ، رغم انه كان من اجرا مغامرى القرن التاسع عشر ، واكثرهم اصرارا ونجاحا على الاطلاق .

لكن .. لماذا كان انطباع العالم عن ستانلى الى هذا الحد من السـوء طالما لم يغص الكتاب والمحللـون بين جوانـب شخصيته وحياتـه الشخصية ؟ لقد نقلت رواية جوزيف كونراد : « قلب الظـلام » ، صـورة ملطخة بالرعـب والفزع والدماء واهدار الحقوق الانسانية على ارض هـذا الجزء مـن افريقيا الذى طرقـه ستانلـى . وكان دور هـذا الاخير في تلك الروايـة ، دور الخادم الانتهازى الذى بنى للملك ليوبولد امبراطوريته في افريقيا . فكان لا بد ان يكـون قاسيا دمويا ، لمـا ارتبط به تاريخ السيطرة والاستعمار من امور لاانسانية في تلك البقعة من العالم .

الا ان افكار المؤلف قد تغيرت تماما عن ستانلي ــ على حد قوله ــ عندما سلك نفس الطريق الذى سلكه صاحبنا من قبل فى رحلة بحثه عن الدكتور لفنجستون .

يقول ريتشارد هول : لقد احسست بمقدار الجهد الجهيد الذى بذله ستانلى وهو يخترق تلك المسافات منذ قرن مضى . لقد ادرك المؤلف ان ستانلى حجب شخصيته الحقيقية خلف مظاهر كاذبة ، او على الاقل ، لا يعرفها العالم عنه . لقد وقف « هول » امام النصب التذكارى الحقيقى لستانلي وقال : ينبغي ان يكون الكونغو بأسره صاحب هذه الحدود المترامية فى افريقيا (١) ، هو النصب التذكارى الحقيقى لهذا الرجل .

لقد كان ستانلى عدوا حقيقيا لذاته ، ولقد كان تعاميه عن اظهار بعض الحقائق ، سببا كافيا للانتقاص من روعة انجازاته ، ان المؤلف يحاول السمو والتحليق بستانلى كواحد من اكبر اصحاب الانتصارات فى العالم، ليمحو السمعة السيئة التى التصقت بهذا الرجل . الا ان الانسانية لن تغفر له ما ارتكب فى حق ابنائها من جرائم فى سبيل تحقيق غاياته .

نجح ستانلى فى رحلته الاولى وعاد بأخبار مطمئنة من الدكتور لفنجستون (٢) الذى رفض العودة معه ، مفضلا استمرار عمله ليتم كشوفة ، فتركه ستانلي على امل ان يرسل اليه معونة عاجلة . وبر ستانلى بوعده فصلا ووصله ما يريد فى اغسطس عام ١٧٨٢ .

لقد ذهل ستانلى ــ الذى طافت مقالته عن هذه المهمة الناجحة كل ارجاء العالم ــ عندما سمع اسمه يتردد كبطل من الابطال ، واصبح العالم المفتون ينظراليه كبطل الساعة ، لقد استطاع ان ينقذ الدكتور لفنجستون ، ويعيد العالم صلته به ، بل ويحقق مع كل هذا جانبا من الكشوف الجغرافية التى ذهب من اجلها لفنجستون (٣) ويعود بالاخبار والحقائق والغرائب معا .

لكن ستانلى الذى استطاع ان ينقذ لفنجستون وفريقه لم يكن ليقتنع بهذه المهمة التى انجزها فى افريقيا ، انه مجرد صحفى يتابع الاخبار ويحقق الحوادث ويراسل صحيفته . لا ... هذه المرة لا بد من سبر اغوار افريقيا . نعم ، ساكون مكتشفا .. هكذا اراد وصمم وخطط لمهمته القادمة .. لقد جربت بنفسى الامر ، ونجحت فيما عجز عنه آخرون ، بل واشتركت مع لفنجستون نفسه في جزء من المحاولة .. لماذا اذن لا اكون فى سجل الخالدين من امثال بورتون وسبيك ولفنجستون نفسه ؟ . انني ستانلى المنقذ .

لقد تردد وارتاب فى امكانيات نجاحه فى بادىء الامر ، بل داخله شعور بأن الصدفة وحدها كانت وراء خروجه سالما من رحلته الاولى . وان الحظ لاشك سوف يخذله هذه

---

(١) يشترك الكونغو بحدوده مع عشر دول مجاورةتحيط به من جميع الاتجاهات تقريبا .

(٢) اوفد لفنجستون من قبل الجمعية الجغرافيةالملكية البريطانية عام ١٨٦٦ لحل لغز شبكة التصريف النهرى فى وسط افريقيا ، وبحيرات هذه المنطقة ، وبذل الجهدلتحقيق منع تجارة الرقيق فى اكبر اسواقه .

(٣) انتهز الفرصة ليصحب دكتور لفنجستون فىارمعه وحققا معا كشف الاجزاء الشمالية من بحيرة تنجانيقا ، وتاكدا انها ليست ضمن منابع النيل ، كما اعتقد « بورتون »من قبل .

المرة . لقد كان ستانلى قليل الثقة بنفسه دائما لقد كان يتصور ان الرحالة والمستكشفين يكونون من علية القوم وكبراءه ، ابناء الاسر العريقة من الضباط والرياضيين .... الاانه ـ ولاول مرة ـ يصمم على كسر هذا الحاجز النفسي الذى اثمله بنفسه . لقد قرر ان يفرض اسمه فرضا على العالم بأسره .... لابد ان يحدث هذا .. نعم لابد .

ان المؤلف ريتشارد هول يتحدث باسهاب فى القسم الاول من الكتاب عن ادق التفاصيل المتعلقة بفتاة حبه (اليك بيك) ، شكلها ، عمرها ، ودارها ، ثم عن تفاصيل اتفاقه معها على الزواج قبيل رحلته .. ذلك الزواج الذى لم يتم قط . لم يقدم سردا لتحركاته بين نيويورك ولندن ،ومناطق اخرى من العالم وكيف سبق له ان وطد علاقته بالعديد من الشخصيات الانجليزية حينما كان ضمن فريق المراسلين لجريدة النيويورك هيرالد ،وكيف كان « وقحا » فى شجاره بالجمعية الجغرافية الانجليزية ، حينما ساورتها الشكوك حول رحلته لانقاذ لفنجستون ، ولماذا وصفته الملكة فكتوريا بعد ان دعى لمقابلتها بقصرها بانه رجل عنيد وقبيح .

ان ستانلى مرة اخرى فى لندن يحاول ان يعد لرحلته انسب الظروف ، كما سعى للاتصال بمصادر جديدة لتمويل رحلته الثانية ، ونجح في اجتذاب جريدة الديلى تلجراف التي وافقت على الاشتراك مع النيويورك هيرالد لتمويل المشروع . هكذا اصبحت رحلته بعثة انجلو امريكية ، وفر لها قسيسا من لندن ، والاخوين Pocock ادوارد وفردريك ، والافريقى المخلص الذى رافقه من زنزبار Kalulu ، مع بعض كلابه .

ان التفاصيل الدقيقة التى يذكرها المؤلف ليست جديدة على الجغرافيين ، الا ان المتتبع للسرد السلس الجذاب الذى تميز به اسلوب ريتشارد هول يكتشف مقدار مغامرة ستانلى بحياته وسمعته ورجاله ومستقبله . كان انتهازيا يحارب مع الاقوى من الجماعات الافريقية المتصارعة ، وحدث هذا عندما انضم الى رجال مملكة متيسا Mtesa ضد الفوما Voma عند الطرف الشمالى لبحيرة فكتوريا ، وبنفس القدر كان قاسيا لا يعرف الرحمة .. فقد قتل امامه العشرات ، وهو واقف يتسلى بمنظرهم ، حدث هذا وسجله بالصورة ريتشارد هول مع وصف دقيق لطريقة الاعدام المحلية هناك ، وقد وقف ستانلى يشاهد ويتمعن .

اخيرا وصلت جماعة الى بوما عند مصب الكنغو . يالها من مغامرة حقيقية راى فيها ستانلى لم يره انسان ن نقائض الطبيعة .. كم مرة اجتمعت فيها المشاكل مع المظهر الطبيعى الرائع لقلب افريقيا . كم مرة سقط امامه المرضى على بسط خضراء بين افناء يعجز امهر الفنانين عن رسمها ، او حتى تخيلها . وكم كان مضحكا فعلا منظره بلباسه الافرنجى بين جماعات ضحكت عليه قبل ان يحاول حتى ان يقترب ليكتشف ما يريدون . كل هذا غير ذى موضوع امام ستانلى الآن . لقد حقق انجازا هائلا فقفل بعده عائدا مرة اخرى الى زنزبار عن طريق راس الرجاء الصالح .

الا ان ريتشارد هول يعود مرة اخرى الى شخصية ستانلى فى قسمه الثانى ولا يستطرد فى نتائج رحلة ستانلى . فمن هو ستانلى هذا ؟ وما هو الاسم الحقيقى له ؟ ماهى ظروف نشأته المشينة البائسة ؟ .. انها ولا شك

استفسارات بعيدة تماما من خواطر المهتمين بدراسة تاريخ الكشوف الجغرافية التي ارتبطت في جزء منها ـ بشخصية ستانلي . ولكنه كصحفي ، تحركه كوامن المهنة و « غريزتها » ، فيسعى بصبر لتحقيق سبق لا جدال ، حول هذه الشخصية ، والجوانب النفسية التي تتحكم في تصرفاتها .

ولد جون رولاندز (John Rolands) وهو الاسم الحقيقي لستانلي ، من ابنة جزار كانت تعمل في مخبز عند اطراف مدينة (Denbigh) الصغيرة ، الواقعة في شمال شرق ويلز في ٢٨ من يناير عام ١٨٤١ (٤) . ويقال ان المخبز الذي كانت تعمل فيه هذه السيدة واسمها اليزابيث باري (Elizebeth Parry) كان يقع خلف مكتب للشئون القانونية والمحاماة ، يعمل به شخص يدعى فوغان هورن (Vaughan Horne) الذي ولع بها حبا ، وتورطت معه في علاقة غرامية حملت خلالها منه سفاحا هو جون رولاندز (ستانلي فيما بعد) . الا ان ابوة هذا الرجل لجون ، او حتى ابوة غيره لهذا الطفل ، لا تزال لغزا غامضا ، خصوصا وان امه قد انجبت بعده ، وخلال الخمس عشرة سنة التي اعقبت ميلاده ، انجبت للاثةابناء آخرين غير شرعيين . يالها من امراة سيئة السمعة اذن ، ويالها من نشاة قاتمة لجون !

لقد وجد نفسه وهو في سن السادسة ـ اي جون رولاندز ـ بين اسوار اصلاحية للاحداث (منذ فبراير عام ١٨٤٧) . ولا يزال اسمه مدونا في سجلات الاصلاحية وقد كتب امامه اصطلاح (لقيط) . وفي هذه الاصلاحية حيث بقي تسع سنوات ، تلقى كل تعليمه . وكان مجيدا للرياضيات والجغرافيا والرسم ؛ الا انه كان سيء السلوك ، مشاغبا . فقد حاول الهرب من الاصلاحية مرتين وفشل ، ولكنه حينما تسلق سور هذه الاصلاحية للمرة الثالثة واستطاع ان يتخطاه ، اطلق ساقيه للريح هاربا والى الابد من هذا المكان البغيض .

اتجه بعد هربه الى مسقط راسه ، ولكنه لم يجد ارضا صلبة يقف عليها ليحصل حتى على قوت يومه .. انه ابن تلك السيدة سيئة السمعة . ولكنه نجح بعد اسابيع قليلة في الحصول على وظيفة مساعد مدرس بمدرسة (St. Asaph) .

ويتحدث « ريتشارد هول » عن كيفية التوصل الى الحقيقة اسم ستانلي الحقيقي وذلك عن طريق خطاب ارسله الى خاله في ليفربول ، عقب هربه من الاصلاحية ، لكي يساعده في الحصول على عمل . ثم يتتبع تنقلاته وظروف عمله وكيف كان ضعيف السيطرة على الطلاب ، وكيف كان فاشلا في الحصول على وظيفة بمحطة سكة حديد (مؤلد) . وحينما وفر له خاله وظيفة كاتب في مكتب للتامينات في ليفربول تركها ليعمل ساعيا خصوصيا .

وفي خضم ياسه واصراره على عمل ، تساءل : الا يمكن ان تكون ليفربول بداية النهاية لشقاء السنين الماضية ؟ الهجرة في

---

(٤) لم يحدد ستانلي مطلقا تاريخ ميلاده ربما عن عمد . وكان يفضل ان يقول انه من مواليد عام ١٨٤٢ . كتب على قبره انه ولد في العاشر من يونيو عام ١٨٤٠ . ويذكر سجل وفيات التايمز انه ولد « حوالي » عام ١٨٤٠ . اما دائرة المعارف البريطانية فتذكر في طبعتها الحادية عشرةانه ولد عام ١٨٤٢ ، كما يذكر قاموس ناشيونال بيوجراف ، ان ستانلي من مواليد عام ١٨٤١ .

ذروتها ، والميناء يستقبل الف اسرة مهاجرة الى العالم الجديد اسبوعيا . والميناء غاص بالسفن ، والبحارة بالعشرات والمئات .

نجح ستانلي في العمل على ظهر السفينة وندرمير (Windermere) المتجهة الى نيو اورليانز كمنظف للكبائن ، لقد راى الاهوال في اول رحلة له استغرقت سبعة اسابيع . لقد وجد نفسه مرة اخرى فريسة للوحدة والانعزال والمهانة ، كما قاسى كثيرا من نومه تحت المقاعد ، ومن اضطراب صحته بتاثير دوار البحر ... وغير ذلك كثير .

وحينما دخلت السفينة الى المسيسبي ، وقعت عينه على عظمة هذا النهر ، وشاهد ما عوضه من شقاء الاسابيع الست ، وفي وصف ادبي رائع يتحدث المؤلف عن هذا المشهد مستطردا : انه الجنوب ، ارض القطن والزنوج وملاك الاقطاعيات الزراعية الهائلة من المهاجرين الاوروبيين .

وحينما كان العجوز « ستانلي » الذي يعمل سمسارا للقطن بين الزراع على امتداد المسيسبي ، وتجار نيو اورليانز ، وقعت عيناه على جون رولاندز الذي بادره بالسؤال في رنة حزينة شيقة : سيدي ... هل تريد غلاما يكون في خدمتك ؟

بعد أن رحب العجوز ستانلي الذي لم يرزق بنجب ولم يتخذ من قبل ولدا ، وكذلك زوجته ، بمقدم هذا الغلام ، لم يلبث ان طرده لقلة حيائه ولسوء ادبه ، ولكنه بعد أن استقام ومارس العمل الشريف ، وحقق ارباحا سال لها لعابه ، أستقل في اعماله وكان محبا مخلصا لعمله لدرجة كبيرة . وكان قد عرف آنذاك باسم هنري ، انه الآن هنري ستانلي .

لم يدم عمله خلال الحرب الاهلية ، فقد كان جنديا فيدراليا ، ولكنه مرة اخرى كان مشبوه التصرف كالمرتزقة ، يحارب مع الجانبين . واصبح يحس في قرارة نفسه بانه نملا كالمتشرد الذي يحيا حياة مشبوهة يعوزها الاستقرار .

وفي اجازة له كان يقضيها في اوروبا زار مدينته (Benbigh) وكتب في سجلها اسمه الحقيقي : انا جون رولاندز الملازم في البحرية الامريكية ، ملتحق بالفرقاطة Teconderoga ، واعمل حاليا في تركيا . وكتب تاريخ الزيارة : ١٤ ديسمبر ١٨٦٦ .

وحينما قام برحلة الى لندن ، أستطاع ان يقابل مندوب جريدة النيويورك هيرالد ، وهو الكولونيل اندرسون (Finaly Anderson) عام ١٨٦٧ ، ووطد علاقته به ، الامر الذي مهد لستانلي ليصبح مراسلا لنفس الجريدة فيما بعد ، بل بعد قليل جدا من تركه عمله بالبحرية الامريكية في نفس السنة (١٨٦٧) .

بدا عمله مراسلا بمخالفة اوامر المسئولين في هذه الجريدة الذين طلبوا اليه ان يتجه غربا من لندن ، ولكنه رفض واتجه شرقا .. هكذا . كما اخفى اسمه الحقيقي ــ والى الابد هذه المرة ــ ولم يكن قد استقر على اسمه الاوسط حتى اصبح بورتون . هنري بورتون ستانلي ، ذلك المراسل الصحفي لجريدة نيويورك هيرالد الامريكية ، الذي تنقل بين الحبشة والهند والاسكندرية والقاهرة وغيرها من مدن شرق افريقيا والشرق الادنى .

ومن خلال العودة الى الحديث عن مغامراته في افريقيا بعد هذا السرد المطول والدقيق عن

حياته الشخصية ، يعود « ريتشارد هول » مرة اخرى ليحكي ادق ملاقاته مع جماعات الكشف التي صاحبته من الاهالي او المرافقين البيض ، ومقدار حرصه على الحصول على اية مكاسب ترفعه الى حد الشهرة او الغنى ، وفى سبيل ذلك استخدم اسلوب المرتزقة تارة والمهادنة تارة اخرى والقمع والمكر والخداع تارة ثالثة ، حتى انه عالج تمرد جماعة الوطنيين التي كانت تصاحبه في احدى رحلاته ، بالقتل رميا بالرصاص . ولقد سجل ريتشارد هول هذه الحادثة بين حوادث اخرى تنم عن نفس شرسة بعيدة عن الرحمة ، كما صور لنا كيف كان ينتقل من ورطة الى اخرى خلال تجواله فى وسط افريقيا بين وحوش مفترسة ، وغابات هائلة كثيفة ، وامراض قاتلة ، وشلالات رهيبة ، بالاضافة الى ما ذكره من مشاكل « ستانلي » مع بعض الشخصيات والجمعيات العلمية ، ووصف مفصل للقاءه بالدكتور « لفنجستون » .

حينما توجه ستانلي الى زنزبار عام ١٨٧٤ ــ كما يقول « ريتشارد هول » حقق بعد انطلاقه منها اهم هدف له ، حينما اطمان الى انه اتى بجديد حينما اكد أن بحيرة فيكتوريا بحيرة واحدة ، واكتشف لاول مرة وادى نهر كاجيرا كمخرج وحيد لهذه البحيرة. ثم اتجه الى تنجانيقا ، ووصل الى اوجيجي ، ودار محاذيا سواحلها بقاربه واثبت انها بحيرة مغلقة لا علاقة لها بنهر النيل كما قال « بوتون » من قبل ، والتقى ــ بعد أن عبرها الى الجانب الغربي ــ بالشيخ حميد بن محمد الزعيم العربي (Tippu Tib) الذى ساعده فى الهبوط الى نهر الكونغو .

ويكتب المؤلف عن رحلته فى مجرى هذا النهر الكبير باسهاب ، ويكتب عن تفاصيل توزيع قواته او افراد حملته فى النهر والبر ، وكيف تعرضت جماعة النهر الى متاعب جمة ارتبطت في معظمها بالاندفاع الشديد للمياه والشلالات ، بنفس القدر الذى تعرضت فيه جماعات البر لمتاعب المستنقعات والغابات والامراض والحيوانات المفترسة . ولكنه بعد كل هذا ،استطاع ان يبلغ مدينة بوما Boma على مصب هذا النهر ، ولقد اكد المؤلف ــ وهو موفق فى هذا كل التوفيق ــ على وقفة الركب عند الشلالات التي سميت فيما بعد بشلالات ستانلي (يناير ١٨٧٧) ، والمدينة الصغيرة التي عرفت كذلك فيما بعد بمدينة ستانلي (ستانلي فيل) . واخيرا . . . عاد « ستانلي » الى زنزبار بطريق البحر عن طريق راس الرجاء الصالح . وهكذا وفق المؤلف فى عرض هذا الجانب ، ولكنه عرض اساسه المعلومات التاريخية التى اتى بها غيره من قبل. ولقد سجل خط سير الرحلة على الخريطة الوحيدة بالكتاب ، التي وضعها « ديكورا » للغلاف الداخلي للكتاب .

حكى « ستانلي » وكتب ونشر العديد من المقالات عن رحلته الرئيسية هذه . وكان من بين ما ذكره طواف العالم وفتن رجال اعمال اوروبا واقتصادييها ، حديثا مسهبا عن الاقتصاد الغني الممكن قيامه فى افريقيا ، نخيل الزيت، الاخشاب بانواعها، والمطاط . . . وغيرها كثير كثير . فسال لعاب القوم ،

(٥) International Association of Congo

وتشكلت الرابطة الدولية للكونغو (٥) برأس مال بلجيكي الماني ايطالي ، لكن حماس مساهمة ملك بلجيكا « ليوبولد » كان ينبيء بأن امرا ما ينتظر تلك المنطقة .

وبالتدريج ، تحول ستانلي الى خادم مخلص للملك « ليوبولد » حينما سافر للمرة الثالثة عام (١٨٧٩) وظل حتى عام (١٨٨٤) جعل الكونغو خلالها مزرعة هائلة لهذا الملك . فكانت الشرارة الاولى التي أحرقت هذه القارة فيما بعد .

وفي عام ١٨٨٦ ـ علمت اوروبا بحصار وعزل الحاكم المصرى للمنطقة الاستوائية ـ الذى لم يكن مصريا ابدا ـ بعد قيام الثورة المهدية ، ولا بد من العمل على انقاذه . وعندما تشكلت لجنة الانقاذ هذه ، كان على رأسها « ستانلي » ، وكيف لا .. الم ينقذ دكتور « لفنجستون » من قبل ! ..

وصل « ستانلي » فعلا الى حيث التقى بأمين باشا على شاطيء بحيرة البرت ، وبدلا من انقاذه ، عرض عليه العمل كمدير في خدمة الملك « ليوبولد » بشروط مالية لم يوافق عليها « امين باشا » . وفي طريقه الى الساحل الافريقي ، استطاع ستانلي عقد عدة اتفاقيات مع الزعماء الوطنيين من النوع الذى احكم قبضة الاستعمار على مناطقهم فيما بعد ، حتى كانت معاهدة (ماكينون) المعروفة التي ابرمت بين الشركة البريطانية لشرق افريقيا وحكومة الكونغو .

وهكذا تدخل افريقيا دورا لا يستغرق « ريتشارد هول » كثيرا في الحديث حوله ، ولكن التاريخ الافريقي يعرفه ويسجله بدقة بين صفحاته ، قصة الصراع العالمي الدموى على ارض افريقيا ، قصة الصراع على الارض والرجال والثروات ، اجرت فيها اراض افريقية ، وبيعت اخرى ، ودار قتال على انتزاع ثالثة من ابنائها .. وهكذا سار الشوط بافريقيا الصابرة .

ان المؤلف يختم كتابه بعرض لشخصيات مجهولة وقفت وراء ستانلي تدفعه وتؤآزره ، مالاً وعطفا وحبا . ولكنه ابدا لم يتغير حتى آخر ايام حياته حينما وافته المنية صباح العاشر من مايو عام ١٩٠٤ . فرغم انه منح الجوائز والتقديرات من الملوك والعظماء ودور الصحف الكبرى في اوروبا وامريكا ، الا انه لم يدفن بجوار العظماء في كنيسة « وستمنستر » بجوار لفنجستون كما اراد لنفسه في بداية الشوط . لقد رفض رئيس الكنيسة دفنه بها بدون ابداء الاسباب . ويبدو ان شعورا خفيا لدى ستانلي كان يحركه نحو عدم الثقة بما يود ان يبلغه ، فكتب في مذكراته بالحرف الواحد : « انني لم آت الى الدنيا من اجل الحصول على السعادة ، او السعي اليها ، فقط اتيت من اجل عمل خاص اؤديه ... » .

ان الكتاب يزخر بالتحقيقات الدقيقة التي تتتبع حياة الرجل ، ساقها « ريتشارد هول » باسلوب ذكي ، ولكنه بسيط وسلس وجذاب ، شأن الكتابة الصحفية المتمرسة التي تخاطب العامة والمثقفين على حد سواء . والكتاب بهذا الاسلوب حين يجمع بين البحث الدقيق لبعض القضايا التاريخية والجغرافية مما لا يتسع المجال لعرضه في هذا السياق ، وبين الرواية الجذابة المثيرة المصورة ، هذا بالاضافة الى قرب المؤلف الشديد من دقائق اسرة

« ستانلي » وارشيفها ، سواء في انجلترا او الولايات المتحدة ، مع التجربة الخاصة والمباشرة للمؤلف في افريقيا ، يجعل كل هذا من كتاب « ستانلي » المستكشف الغامر ، كتابا مفيدا بحق لما يضيفه من جديد ، ويعدل مسار بعض الافكار عن هذه الشخصية ، ولكنه لم يات بجديد في مجال الكشف او التحقيق التاريخي الذى كان بعيدا عنه كل البعد .

لم يخل الكتاب من بعض الاخطاء المطبعية ـ شان بعض الكتب التي تخرجها دور النشر الانجليزية في الآونة الاخيرة للاسف على غير ما عودتنا . والكتاب يفتقر الى ترتيب افكاره ترتيبا علميا،بالاضافة الى ان المؤلف استخدم عناوين فصوله باسلوب مثير فيه تورية . ومع كل هذا ، فان الكتاب بحجمه واسلوبه وصوره ومستنداته ، يرقى الى مصاف الكتب التي يسعى المرء لاقتنائها .

* * *

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ،وسوف نعرض لها بالتحليل فى الاعداد القادمة

1. Clark, W., Ronald, **The Life of Bertrand Russel**, Jonathan Cape and Weidenfeld & Nicolson, London 1975.
2. Frye, Richard N. , **The Golden Age of Persia, The Arabs in the East**, Weidenfeld Nicolson, London, 1975.
3. Haswell, Margaret, **The Nature of Poverty, A Case-History of the First Quarter Century After World War II**, Macmillan Press Ltd., 1975.
4. Howe, Michael, **Learning in Infants and Young Children**, Macmillan Press Ltd., 1975.
5. Swingewood, Alan, **The Novel and Revolution**, Macmillan Press, 1975.

* * *